

الهلال

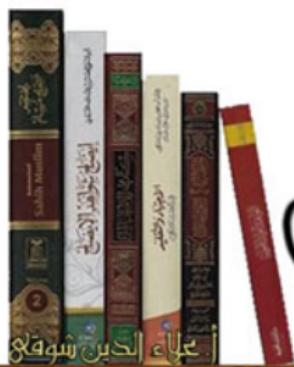
رسائل الهلال

السائل الأديبية



دار و مكتبة الهلال

مَكْتَبَةُ
لِسَانِ الْعَرَبِ



www.lisanarb.com

لِسَانُ الْجَاهِزِ

الرسائل الأربعة

رسائل الجاحظ

تأليف

أبي عثمان عمر وبن بحر بن محبوب الملقب بالجاحظ

ابي عثمان عمر وبن بحر بن محبوب المتفق

سنة ٢٥٥ هـ ٨٦٨ م

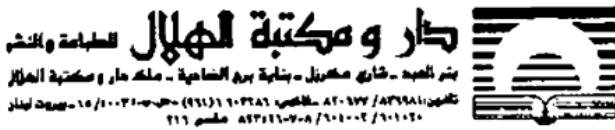


دار ومكتبة الهلال

بيروت - صربت ٢٠١٥

**جميع الحقوق محفوظة للناشر
الطبعة الأخيرة**

م 2002



مقدمات عامة

هذه احدى وعشرون رسالة من مؤلفات الجاحظ الكثيرة التي ضاع معظمها ولم يصلنا منها سوى ربع عددها تقريباً . وما وصلنا منها ليس كاملاً الا في أقله .

وقد اطلقنا على هذه المجموعة اسم الرسائل الأدبية لا بالمعنى الذي فهمه اليوم من الأدب ، أي ذلك الفن الجميل الذي يغلب عليه الخيال والعاطفة ، ولكن بالمعنى الذي فهمه الجاحظ نفسه في قوله : « والأدب اما خلق واما رواية ، وقد اطلقوا له اسم المؤدب على العموم » (المعلمين) . فالادب يعني الاخلاق كما يعني رواية العلم او نقله بين الاجيال بوساطة المؤدب او المعلم ، والكتاب .

ان الجاحظ لم يكتب اديباً خالصاً او صافياً الا فيما ندر . لقد كان رجل فكر في المرتبة الأولى ورجل ادب في المرتبة الثانية . ولقد عبر عن فكره باسلوب أدبي ، فجمع بذلك بين الفكر والأدب . ولكن دارسيه المعاصرین اقصروا على الناحية الأدبية عنده ولم يفطنوا او لم يهتموا بالناحية الفكرية وهي الناحية الأهم والغالبة عليه . وهذا ما قمنا به في كتابنا « المنافي الفلسفية عند الجاحظ » .

وتدور هذه الرسائل حول خمسة موضوعات أساسية : فموضوع الأخلاق المحسن يغلب على ثلث رسائل هي « كتمان السر وحفظ اللسان » ، و « الحاسد والمحسود » ، و « النيل والتليل وذم الكبر ». وتلفي الجاحظ فيها بحل هذه الخصال الخلقية تحليلًا نفسياً يمتاز بالدقة والعمق ، وينطلق من مبدأ خلقي واحد يقول أن الأخلاق طباع في الناس . فهي تولد معهم ويحملونها بالفطرة ولا تكتسب اكتساباً بالتربيبة والتعليم . وفي هذا يخالف أسطرو والفلسفه المشائين .

والموضوع الثاني الذي يحتل حيزاً كبيراً في هذه المجموعة هو الاجتماع وهو يغلب على رسائل ست هي « مفاجرة الجواري والفلمان » ، و « تفضيل البطن على الظهر » ، و « المعلمين » ، و « طبقات المغنين » ، و « الوكلاء » ، و « مدح التجار وذم عمل السلطان » . في الرسائلتين الاوليين يطرق الجاحظ موضوعاً يمتزج فيه الاجتماع بالفقه والأخلاق . وهو ظاهرة اللواط التي استشرت في عصره نتيجة الانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي والانحراف الجنسي . وفي كل من الرسائل الاربع الباقية يتحدث عن طبقة من طبقات المجتمع في عصره أيضاً : عن المعلمين وأوضاعهم ونظرية الناس إليهم والدور الخطير الذي يضطلعون به في التربية ونقل الثقافة عبر الأجيال . وعلى المغنين واهمية فن الموسيقى ونشاته ومثليه الكبار . ثم الوكلاء ومدى الثقة التي يبني في أن نتحمها ايامهم . وأخيراً التجار وشرف عملهم واشتهار قريش ومنها النبي في التجارة .

والموضوع الثالث الذي يحظى باهتمام الجاحظ هو الفقه . ويعتبر الجاحظ نفسه رجل علم وفقه . وقد طرق هذا الموضوع في ثلاثة رسائل هي « الفتيا » و « مدح النبيذ وصفة أهله » ، و « الشارب والمشروب » ، ويمذكر الجاحظ في رسالة الفتيا انه الف كتاباً يجمع أصول الفقه عند مختلف

المذاهب الفقهية ولكن هذا الكتاب ضائع مع الاسف ولم يصل اليها . ويعتبر علم الفقه مختلفاً عن علم الكلام . وفي الرسائلتين الاخريين يعالج موضوعاً واحداً هو النبيذ ، صفاتة ، وتحليله . وهو يذهب الى انه غير محرم في الشرع لأنّه يختلف عن الخمر .

والموضوع الرابع يستقطب ثلاث رسائل هي «البلاغة والايجاز» ، و«تفضيل النطق على الصمت» ، و«صناعة القواد» وموضوعها الغالب هو فضل الأدب ، واهميته في حياة المرء ومفهوم البلاغة وعلاقتها بالايجاز . وهو يرى في رسالة البلاغة والابجاز التي لم يصلنا منها سوى النذر اليسير (صفحتين) ان البلاغة لا تعني الايجاز كما يدعى البانيون . وقد طرق هنا الموضوع بتوسيع في البيان والتبيين والحيوان . ويرى في الرسالة الثانية ان النطق افضل من الصمت على الرغم من حسنان الصمت ، وقد عاد الى بحث هذه المسألة في رسائل اخرى مثل التربیع والتدویر ، وكتمان السر وحفظ اللسان ، كما رجع اليها في صدر كتاب البيان والتبيين .اما «صناعة القواد» فتحت على تعلم جميع الأداب ، واغناء الشروة اللغوية ، والاطلاع على مختلف فنون الأدب والقول ، ليتمكن المرء من التعبير عن جميع ما يحول بخاطره أو يعرض له من الموضوعات . وتتضمن الرسالة نماذج من شعر الجاحظ والفاظ تقنية تخصُّ مختلف المهن .

اما الموضوع الخامس والأخير فهو الشؤون الشخصية التي تغلب على ست رسائل هي : «الجد والهرزل» و«فصل ما بين المداورة والحسد» ، و«رسالة الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب» ، و«المسودة والخلطة» ، و«استبعاز الموعده» و«التربیع والتدویر» . في الرسالة الاولى يبيط الجاحظ اللثام عن سوء علاقته بالوزير محمد بن عبد الملك الزيارات في المرحلة الأخيرة من حياته ، ويذمر من كره الوزير ايه لانه لم يدفع الاتواة ، كما يشكرون عيب

ابن الزيات اياه بعدم تجليد كتبه وتنظيمها ، وتنبيه موته ليرتاح من اعباء الحياة بعد ان طعن في السن . وفي الرسالة الثانية و « فصل ما بين العداوة والحد » يشكوا ابو عثمان من كثرة حساده الذين يطعنون على كتبه او يسرقونها او يتحللونها ، او يتناقضونه جزءاً من ريفتها . ويطرق الى الكلام على الحسد الذي عالجه في رسالة الحاسد والمحسود ، وبهتم هنا بتغريمه عن العداوة . وفي الرسائل الثلاث التالية التي يوجهها الى ابا الفرج بن نجاح الكاتب يسأل الجاحظ ابا الفرج ان يساعدته على فاقته فيجري عليه ارزاقا قد انقطعت ، ويبدو أنه وعده خيراً ثم لم ينجز وعده ، فعاد الى تذكرة بالوعد . ونجد في احداها قصيدة نظمها الجاحظ ولم يعلن عن نسبتها اليه ، يمدح فيها ابا الفرج ويستعطفه .

والرسالة الاخيرة التي نلقيها في هذه المجموعة هي « التربيع والتذوير » . والباعث على كتابتها دافع شخصي هو اعتقاد احد الكتاب المدعو احمد بن عبد الوهاب بنفسه وعلمه حتى طاول الجاحظ ذاته . ولما نفذ صبره ولم يجد باستطاعته احتماله وضع هذه الرسالة يسخر من قبح جسنه ، ويصوره تصوراً كاريكاتورياً مضحكاً ، كما يمتحنه بعنة مسألة يطرحها عليه ويطلب منه الاجابة عليها . وهذه المسائل تحيط بجوانب الثقافة العامة التي عرفها مجتمع الجاحظ وانعكست بجلاء في كتبه العديدة . ولهذا نلقى الجاحظ ينصح ابن عبد الوهاب في آخر الرسالة ان يعمد الى قرامة كتب الجاحظ التي تنطوي على اجوية على تلك المسائل الطبيعية والكمياءية والحيوية والتاريخية والجغرافية ، والدينية والفقية الخ . . .

يقي ان نقول انتا لم نحقق هذه الرسائل لأنها حفقت ونشرت مرات عددة (انظر كتابنا « كشاف آثار الجاحظ » ، الذي يوضح الطبعات المختلفة . واصولها ، ويخصي كتب الجاحظ) . ولكننا انجزنا ثلات مهام اساسية كانت

الرسائل بحاجة اليها : المهمة الاولى هي كتابة مقدمة تحليلية لها تبين
محترياتها وقيمتها ، والثانية تبرير الرسائل وتصنيفها على اساس موضوعاتها ،
ووضع عنوانين فرعية لفقرتها تسهل تناولها وتوضح مطالبيها . والثالثة شرح
الرسائل وايضاح الآراء والافكار المنظورة عليها .

وقد اعتمدنا على طبعة عبد السلام هارون الصادرة عن مكتبة الخانجي
بمصر سنة ١٩٦٤ م وسنة ١٩٧٩ م ، في اربعة اجزاء ، بعنوان « رسائل
الجاحظ » . واعتمدنا على طبعة حسن السندي ، الصادرة بمصر عن المطبعة
الرحمانية سنة ١٩٣٣ م ، في رسالة واحدة هي : التربع والتدوير ، لأنها أكملت
من طبعة هارون . وقد اوضح عبد السلام هارون انه رجع في طبعته الى ثلات
مخطوطات هي مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم بتركيا رقم ٩٤٩ . ومخطوطة
المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ . ومخطوطة المكتبة التيمورية المسودعة بدار
الكتب المصرية ، رقم ١٩ .



اللهم صل على سيدنا

١ - مقدمة كتمان السر وحفظ اللسان .

يرجع الجاحظ كلامه الى شخص لم يسمه ينعته بطيب الاخلاق والاقتراب من الكمال وال تمام والفضل ، لولا عييان يعتبرهما القطب الذي تدور عليهما الفضائل ويستحقان العدل والتأنيب وهما افشاء السر ووضع القول في غير موضعه . وبيدو أن هذا الشخص من اصحاب الشأن والمراتب العالية ، ومن اصدقاء الجاحظ الذين يهمه أمرهم ويحرص على ارشادهم وتوجيههم ، أمثال محمد بن احمد بن ابي دؤاد .

ويرى الجاحظ ان الانسان مطبوع على « اذا حس السر واطلاق اللسان بفضل القول » والذي يحمله على ذلك الهوى وضعف العقل . ولذلك كان من العسير عليه مغایلة هواه وحفظ لسانه وصيانته اسراره ، ولن يستطيع ذلك الا بقدرة العقل . فمعنى قوى عقله لجم هواه وضبطه ومنعه من ارسال الكلام على عواهنه واذاعته ما ينطوي عليه صدره ومن ثم جاءت تسمية العقل بهذا الاسم ، فهو بالنسبة للهوى بمثابة الحبل بالنسبة للبعير يقيده وينفعه من الشرود والضلال . اما اللسان فلا لوم عليه لانه ليس سوى « اداة مستعملة لا حمد له ولا ذم عليه » والحمد والذم للعقل والحلم .

ان اللسان ترجمان القلب ، والقلب خزانة تحفظ الاسرار والخواطر والعلم . والقلب يضيق بما فيه ويستقله ويستريح الى نبذه واداعته بمساعدة اللسان . وهذا هو السبب في طبع الناس على حب الاخبار والاستخبار ، واهتمامهم بالتاريخ واحداثه وتدوينه . وقد سيطرت هذه الغريزة عليهم حتى عسر عليهم الكتمان وغدا من يكتم سره عرضة للسم والكمد والكرب . ويروي الجاحظ اخباراً مدهشة في ذلك . فان احد الفقهاء اطلع على اسرار لا يحتملها العامة ضاق صدره بها فذهب الى المرأة وحفر حفرة اودعها دننا وراح يختلف على هذا الدين يحدثه بما سمع فيروج عن قلبه . وكان الاعمش ، سليمان بن مهران (١٨٨ هـ) عندما يضيق صدره بما فيه مما لا يريد ان يذيعه بين الناس ، يقبل على شاته فيحدثها بالاخبار والفقه .

وتتحدث الجاحظ على مساميه افشاء الاسرار ، فيقول ان صاحب السر يبقى مالكاً له حتى يذيعه او يقتل منه الى اذن واحدة ، فسرعان ما يشيع ويدفع الى اذن ثانية ثالثة . وعندئذ يصبح صاحب السر عبداً لمن اتمنه على سره ورهبة بين يديه .

وإذا اساء من اوتمن على السر حفظ الامانة ، ونشره او حرشه ارت الشحنة بين الاقرباء والاصدقاء ، والصراع بين الاعداء ، وقد يؤدي الى سفك الدماء وازالة النعم والتفرقه .

ويذهب الجاحظ الى سوء الظن بجميع الناس حتى الاهل والعبيد والحاشية والولاد والعمال . فهو لاء اكثرا الناس اذاعة لاسرار . وعمال الخليفة خاصة يفشون اسراره المشينة . والنماصون مولعون باذاعة الاسرار التي تنشر على المستهم انتشار النور في الظلمة .

ومما يدفع الى افشاء السر التحذير من نشره . فإذا اودعنا احدهم سراً

وليس بهذههذاه بعدم اظهاره اغريناه باذاعته لأن كل من نوع مرغوب . ويفسر الجاحظ رغبة الناس فيما منعوا منه بالطبع الذي يفسر به كل شيء لأنه مبدأ الفلسفي الاساسي . انهم مطبوعون على شهوات عديدة ترغب في الارتواء والاشباح . فإذا منعت من الحصول على ما يشبعها او يرويها تعلقت به وفتشت عنه ورغبت فيه . فإذا حصلت على مطلوبها واشبعت حاجتها قل قدره عندها وهان عليها وصافت عنه . هذا هو حال الجائع والشبعان والمحموم من الجماع والمغموم فيه . ولا يشذ عن هذه القاعدة سوى المال والعلم ، لأن المال يتخذه البعض لا لقضاء الحاجة بل لقمع الحرمن والحرمن لا حد له . ولأن العلم لا حد له ولا نهاية وكلما ازداد المره طلباً ازداد فيه رغبة . ويرى الجاحظ في موقف الناس من المال والعلم خروجاً على العقل لأن النهم هو تجاوز القدر .

ان اكثرا الامور عرضة لافشاء السر الغير الرائع والخطب الجليل مثل اسرار الاديان وعقاتها واخبار الملوك والعظماء .

وافشاء السر يمت بصلة الى الغيبة ، والغيبة رذيلة خلقة كريهة لأنها « خطأ جور في الحكم ، وسقوط في الهمة ، وسخافة في الرأي ، ودنامة في القيمة ، وكلفة عريضة ، وحسد وتعاسة قد استحوذت على هذا العالم وغلبت على طائمه وتوكدت لسوء العادة عندهم ولعلو الشر على الغير وكثرة الدليل والتغل والحمد في القلوب » .

ويحضر الجاحظ على العدل في الاحكام لانه لا شيء « احلى مذاقاً من العدل ، ولا اروع على القلوب من الانصاف ، ولا امر من الظلم ولا ابغض من الجور » .

واسباب الظلم هي الشره والحرمن المركب في اخلاق الناس ومن ثم

مست الحاجة الى الحكماء الذين يردعون الظالم عن ظلمه ويأخذون للضعف حقه .

كما ينهى الجاحظ عن الفضول ، ويعني به ان « يسأل المرء مما لا يعنيه ، ويكتفى بما لا يكرره ، ويعنى بما لا يتضمن ولا يضره ، واكثر المجيئين بجواب ولم يسأل ، ويكلف ما لا يعلم » . فهو ينظر اليه من الوجهة الأخلاقية لا القانونية .

ويختتم ابو عثمان الرسالة بالدعوة الى حفظ اللسان ويستشهد باقوال كثيرة تتصح بالصمت ينسبها الى النبي وعلي بن ابي طالب والحكماء .

٢ - مقدمة الحاسد والمحسود

تبدو المقدمة متصنة الاسلوب ، يتفيد بها صاحبها بالسجع والطباقي ويقصد اليها قصداً على غير عادة الجاحظ . ونحدد المقدمة موضوع الكتاب وهو الحسد : اصله ، ومظاهره ، وخفاءه ، وتفشيء في العلماء اكثر من الجهلاء ، وفي الاقارب والصالحين وال مجرمان واسباب ذلك .

ويعتبر الجاحظ الحسد داء عضالاً يصعب علاجه بنهك الجسد ويورث الصجر والعسرة ويدفع صاحبه الى مراقبة الغير حتى لا يغفل عن شيء من امورهم . والحسد يحب ان يتزع النعم التي اعطتها سواه الله لتصير اليه .

اما سبب الحسد فهو حصول الناس على النعم والمراتب دون الحاسد ، فاذا وجد الحاسد ذلك تنغض وحزن وحقد على الذين انعم الله عليهم وتمتنى ان يحرموا من تلك النعم . فاذا كانت النعمة مالاً قال ان صاحبها جمعه حراماً ، وتألب اقاربه واصدقائه عليه ، وحرضه عليهم ليقطع عنهم معروفة ، وندمه وخذله . واذا كان المحسود عالماً انهمه بالابتداع والاتباع والجهل والتزلف لليل الهبات . واذا كان المحسود ورعاً رماه بالتصنيع والتظاهر بالنسك لينق الناس به فيودعون لذيه اموالهم ويقبلون شهادته ويشنون عليه .

وهذا الداء يصيب جميع الطبقات ويتفشى خاصة بين الجيران لأنهم يطمعون على بعضهم البعض بسبب ملاصقة المنازل ، كما يتفشى بين الأقارب للصلة ذاتها ولأنهم يعرفون شؤونهم الخاصة . ويضرب في الاصدقاء نظراً للافة والمداخلة بينهم ، ولذا ينصح الجاحظ المرء بالقلال من مخالطة صديقه الحسود ، وعدم الاقضاء اليه بسره ، وعدم مشاورته في اموره .

ويؤكد الجاحظ على الفكرة القائلة انه لا خير يرجى من الحسود فهو لا يصوب رأياً ولا يدل على خطأ ، اذا ملك فتك ، واذا ملك عصى وبغي ، جبانك موته وموتك عرسه وسروره . يصدق عليك كل شاهد زور ، ويكتب فيك كل عدل مرضي ، لا يحب من الناس الا من يغضبه ، ولا ينفع الا من يحبك ، عدوك بطانة وصديقك علانية » .

بهذا الوصف البليغ صور الجاحظ الحسود واماط اللثام عن نفسه المريضة الحاقدة التي تضمر الشر وتتظاهر بالخير ، وتنطوي على الغل ، ويرى الجاحظ ان الحياة الاجتماعية ، اذا كثر فيها الحسد غدت جحيمًا لا ب طاق ، لذا نزع الله من اهل الجنة الغل والحسد ليوفر لهم الحياة الهامة السعيدة .

ومن صفات الحسود نزوعه الى اظهار حسده او عدم القدرة على كتمانه . ويضرب مثل ابن الزبير الذي لم يستطع اضمار حقده وحسده على اهل البيت في حضرة ابن عباس . ومثل اخوة يوسف الذين حسدوه على جماله وفطنته ومحبة والده اياه فالحوا عليه بالسماح له بعراقتهم واعطوه المواتير المؤكدة بالمحافظة عليه .

اما عاقب الحسد فهي العداوة والقطيعة والتفرقة بين الاصدقاء والاقرباء والجيران ، وادخال الغم على نفس الحاسد وتنعيس حياته ، واستحکام الوساوس على ضميره .

٣ - مقدمة النبل والتنبيل وذم الكبر

موضوعان يدور عليهما الكلام في هذا الكتاب هما النبل والتنبيل ، والكبر .

ويرزعم الجاحظ انه تلقى كتاباً من شخص لم يذكر اسمه يشكون فيه من تكبر بعض الناس عليه . واعتقد انه محمد بن احمد بن ابي دزاد . والدليل هو قوله : « وقد اصبح شيخك ، وليس يملك من عقابهم الا التوفيق ، ولا من ناديهما الا التعریف ، ولو ملكتناهم ملك السلطان ، وقهرناهما قهر الولاة ، «لنهايتم عقوبة بالضرر ، ولنمعنتم بالحصر ». فهذا الشخص من العلية وذوي السلطان ، وشيخه او أبوه مثله في المرتبة والسؤدد ولا ينطبق ذلك الا على محمد بن أحد بن أبي دزاد ووالده اللذين توليا على التوالي منصب القضاة في عصر الجاحظ وكان الجاحظ مقرباً منها وتجمعه بهما نحلة الاعتزال . وقد وجه اليه اكثر من رسالة واستعمل العبارة ذاتها : شيخك . الخ . . وحاول ان يرشده الى بعض الامور السياسية والمذهبية وعرضه على اعدائه المتهاونين به (انظر رسالة الماش ، والمعاد ، ورسالة في نفي الشبه) ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ، ورسائل الجاحظ الباسية)

ان النبل هو الفضل وكرم النفس « وهو خصلة يفطر عليها بعض الناس ولا يمكن اكتسابها او تكلفها : « ومني كنت من اهل النبل لم يضرك التبذل ، وعنى لم تكن من اهله لم يتفسك التبذل » . ان النبل لا يكون بالتبذل ولا العظم بالتعظيم ، هذا ما يقرره الجاحظ عملاً بعبداله الفلسفي القائل إن الانفاق طباع وليس نتيجة الاكتساب والتربيـة .

وصفات النبل هي المروءة ، وبعد الهمة ، وبهاء المنظر ، وجزالة اللفظ ، والمعامات الكريمة . ولا يكون المرء نيلاً « حتى يكون نيل الرأي ، نبيل اللفظ ، نبيل العقل ، نبيل الخلق ، نبيل المنظر ، بعيد المنصب في النزهة ، ظاهر التوب من الفحش ، ان وافق ذلك عرقاً صالحًا ومجداً تالياً » . أخف الى ذلك التواضع والانصاف والصبر والحلم . وهكذا غدا النبل مجمعاً لجميع الفضائل الخلقيـة والجسمـية والاجتماعـية .

اما التكبر فقد عالجه الجاحظ في القسم الثاني من الكتاب ، واعتبره صفة قبيحة في الانسان ولا يستحسن الا في ثلاثة مواضع : اذا كان المتكبر بدورياً غير متحضر ، فيكون كبره من بقايا الجاهلية والمنجوية الاعرابية . واذا كان انتقاماً من عدو متجر . واذا كان معارضة للملوك الجبارـة .

ومن صفات المتكبر التعظيم على الصديق ، والتفاـقل عن الضيف والعن على الضـيف ، واحتقارـ من هو دونه والخـصـرـ لـمـنـ فـوـقـهـ . انه لـئـيمـ يـظـلـمـ الضـيـفـ وـيـطـلـبـ الـهـارـبـ ، وـيـهـربـ منـ الطـالـبـ وـيـسـتـحـفـ بـالـأـدـيـبـ ، وـيـكـنـبـ وـيـنـمـ وـيـخـونـ ، وـيـلـدـخـ ، وـيـنـفـجـ ، وـيـصـلـفـ .

اما عـاقـبـهـ فـوـخـيـمـةـ : انه يـسـبـ لـصـاحـبـهـ مـقـتـ النـاسـ وـسـخـطـ اللهـ ، وـيـبعـدهـ عنـ الـعـلـمـ وـالـفـلـاحـ وـالـحـقـيـقـةـ ، وـيـزـينـ لهـ الشـرـ وـالـمـعـصـيـةـ وقدـ عـبـرـ الجـاحـظـ عنـ ذـلـكـ بـقـوـلـهـ الجـامـعـ المـانـعـ الـبـلـيـغـ «ـ ماـ رـأـيـتـ أـوـبـاـ مـفـبـةـ وـانـكـ عـاقـبـ وـاوـخـ مـرـعـىـ

وأبعد هوى واضر على دين ، وافسد لعرض واجب لخط الله ، وادهى الى مقت الناس ، وابعد عن الفلاح واظهر نفورةً من التوبة ، واتل دركاً عند الحقيقة ، وانقض للطبيعة واضيع من العلم ، وانشد خلافاً على الحلم ، من التكبر في ضير موضعه ، والتبلي في غير كنهه .

والكبر يغتري مختلف طبقات الناس من سفلة وعلية واجداد ونجلاء ، وشجعان وجبناء ، وكذابين وصدوقين واحرار وعييد وجاهلين ومسلمين ، وعرب وفرس وسند .

والكبر من اعظم مساوىه السلطان ولم يعرف به سوى الملوك الجبارية امثال فرعون وآل سasan ، والولاة القساة امثال يوسف بن عمر ووكيع بن ابي سود .



الله يحيي العرش بفتحه

٤ - مقدمة مفاخرة الجواري والفلمان

الموضوع الاجتماعي ونقسي وخلقي وشخصي . فهو يعالج ظاهرة شاذة من الوجهتين الخلقية والنفيسة هي اللواط ، ولكنها أصبحت في عصر الجاحظ مسألة إجتماعية انتشرت بين طبقات المجتمع انتشاراً واسعاً حتى غدت شأنأ عادياً لا يثير الاستكثار والشجب ، يتحدث عليه الناس ويدور على السنة الشعراء والكتاب . وهذا ما اراد الجاحظ الاشارة اليه في صدر الرسالة بقوله : « بعض من يظهر النسك والتلشف اذا ذكر العسر والأبر والنبيك تقرز وانتبض . واكثر من تجده كذلك فائما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم ، والنبل والوقار ، إلا يقدر هذا التصنع » .

ويورد امثلة عديدة تبين أن استعمال الكلمات الجنسية كان شائعاً منذ عصر النبي على السنة الصحابة والتابعين والفقهاء امثال علي بن أبي طالب وأبي بكر الصديق ، وعبد الله بن عباس وحمزة بن عبد المطلب . وقد رويت احاديث شريفة وردت فيها بعض المفردات الجنسية .

ويرى الجاحظ جواز استعمال هذه الالفاظ بمبررات لغوية وفنية وطبيعية . والمبرر اللغوي يقوم على القول ان هذه الالفاظ انما وضعت ليستعملها اهل

اللغة ، ولو لم يكن للناس بها حاجة لما وضعت . « ولو كان الرأي الا يلفظ بها ما كان لاول كونها معنى ، ولكن في التحرير والصون للغة العرب ان ترفع هذه الاسماء والألقاظ منها » .

والثبرير الفني غير عنده الجاحظ بقوله : « لكل مقام مقال » . وشرحه بأن اصناف العلم عديدة ولكل نوع اهل يقصدونه . من هذه الانواع الجزل والسخيف . وينبغي ان يعبر عن كل علم باللغة التي تلائمها ، فالجزل للجزل والسخيف للسخيف . وحتى اذا كان الموضوع رصيناً وجاداً لم يضره ان يمزح بشيء من الهرزل لطرد الملل عن النفس ولتشطط الذهن . وقد التزم الجاحظ هذه القاعدة الفنية في معظم كتابه فمزج الجد بالهرزل في الحيوان والبغاء والتذوير والتبييع الخ ..

والثبرير الطبيعي يستخرج من مذهبه الفلسفى العام القائل ان الجنس أمر طبيعى موجود في جميع اصناف الحيوانات بما فيها البشر ، وهو تعبر عن غرائزه فطرية لا يمكن إنكارها او الاشمتزاز منها او كبتها او الغاؤها وينبغي ان تمارس دون عقد نفسية او حرج خلقي .

ولتكننا نستطيع ان نضيف الى تبريرات الجاحظ ثلاثة تبريرات رابعاً يتعلق بشخصية الجاحظ ذاتها . وهو الافتراض بأنه كان يعاني عقدة جنسية تمثل بالنقص او الضعف الجنسي . هذا الضعف هو الذي جعله بحجم عن الزواج وبناء المائدة وانجاب البنين ، وقد ألمح الى الحسرة التي يشعر بها في كتاب الجد والهرزل عندما عابه ابن الزيات على عدم انجاب الاولاد . وهذا النقص هو الذي دفعه الى الاكتار من حديث الجنس للتعميض عملاً بمبدأ يونغ .

اما مسألة اللواط فقد بحثها في رسالة تفضيل البطن على الظهر واعتبرها امراً غير طبيعي ومحرماً في الشرع . وفي رسالة الجوواري والغلسان التي نحن

بصدقها يذكر من جديد بتحريم الزنى واللواط : « ولا تقربوا الزنى انه كان فاحشة ومتناوساً سبيلاً » (الاسراء، ٣٢). كما يذكر بالعقاب الصارم عليهم عملاً بالأية الكريمة « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة » (النور، ٢). وحد اللواط كحد الزنى ، وربما كان أشد من الرجم ليصل الى الاحراق والقتل .

ويورد الجاحظ احاديث عديدة تحت على الزواج مثل الحديث « تزوجوا فاني مكاثر بكم الام » . والحديث « تزوجوا والتتصروا الولد ، فانهم ثمرات القلوب ، واياكم والعجز العقر » .

وعقد الجاحظ مقارنة سهبة بين الجواري والفلمان واحتتجاجات اصحابهما لينتهي الى تفضيل الجارية على الغلام . يقوله : « نحن نترك ما انكرت علينا ونقول : لو لم يكن حلال ولا حرام ، ولا ثواب ولا عقاب ، لكن الذي يحصله المعمول ويدركه الحسن والوجودان دالاً على ان الاستمتاع بالجارية أكثر واطول مدة ، لأنه أقل ما يكون التمنع بها اربعون عاماً ، وليس نجد في الغلام معنى الا وجدته في الجارية واضعافه

ويأتي ابو عثمان على اوصاف الجارية الجميلة فيكرر ما قاله في رسالة القیان ورسالة النساء من ان المجدولة هي مثال الجمال .

ويتطرق الى موضوع جانبي هو النساء . وقد طرقه باسهاب في كتاب الحيوان . واستنكره استنكاراً شديداً ونهى عنه لأنه يمثل بالانسان ويفقده انسانيته ويغير فسيته . « فالخصي ليس برجل ولا امرأة ، واخلاقه مقسمة بين اخلاق النساء واخلاق الصبيان » . والخصي اذا قطع منه ذلك المضروقوب شهوته ، وقويت معدته ، ولانت جلدته ، وانجردت شعرته ، وكثرت دمعته ، واتسعت ففتحته

ويسرد الجاحظ اشعاراً كثيرة في وصف الجواري والغلمان والتفرزل بهم اختارها من أبي نواس وأبي هشام الخراز ويوسف لفترة وامريء القيس وعلقمة الفحل .

وينهي الرسالة بمقطعات من احاديث البطالين والظرفاء ، تتضمن نواير من أخبار اللامطة والزناء والشبقين وينسبها الى شخص لا يذكر اسمه لأن كلامها يبدأ بكلمة قال ، ويسرد الخبر . وهي نكات تبعث على الشهوة وتنسى الى العفة ما كان اغنى ايا عثمان عن الاشتغال بها . ولكن المبررات التي سارع اليها في صدر الرسالة ، ربما اقنعته بجواز ما تضمنته وينبغي أن يكون قد قصد الى اقتاعنا ايضاً بجواز صنيمه .

٥ - مقدمة تفضيل البطن على الظهر

يبدو الموضوع غريباً او مستهجناً بالنسبة لنا ، ولكن ليس كذلك بالنسبة للجاحظ وعصره . لقد كان اللواط منتشرأً بين طبقات المجتمع حتى شاع في الشعر والثر والسواد والاخبار وبما ان الجاحظ آلى على نفسه أن يصور عصره من جميع نواحه فقد تصدى لهذا الموضوع وخصص بهذه الرسالة .

وهذا الشخص الذي كتب الى الجاحظ في تفضيل الظهور على البطن ، او الغلمان على النساء ، انتا هو شخص وهبي ، فزع الجاحظ الى توهمه ليبرر الخوض في هذا الموضوع الشاذ .

ويعلن الجاحظ منذ البدء انه يخالف صاحب الرسالة في الرأي ، ويفضل البطن على الظهور ويأتي بحجج عديدة تدعم موقفه .

في طلعة تلك الحجج نهي الشريعة عن اللواط عملاً بالأبيتين الكريمتين
﴿اتأتون الذكران من العالمين ، وتذرون ما خلق لكم ربكم من ازواحكم ،
بل انتم قوم عادون﴾ (الشعراء ، ١٦٥ - ١٦٦) .

ولم يكتف الشرع بتحريم اللواط ، بل حرم اتيان النساء من جهة الظهر

او من ادبائهم وفقاً للمحدث النبوى « لا تأتوا النساء في معاشرهن » .

ثم راح الجاحظ يحشد ادلة كثيرة على فضيلة البطن على الظهر بالمعنى الطبيعي والجمالي .

في الطبيعة نجد الخير في البطن لا في الظهر ، إذ أن الكنوز والذخائر والمعادن النافعة ودائعاً في بطن الأرض ، ومنها تستخرج ، وليس على ظهرها سوى الهوام الفاتحة والسباع المفترسة .

ومن الوجهة الجمالية نجد محسنة المرأة محصورة في جهة البطن ومن ثم قالوا : مدمجة الخضر ، لذينة العناق ، طيبة النكهة ، حلوة العينين ، ساحرة الطرف ، كان سرتها مدهن ، وكان فاما خاتم ، وكان ثديها جفان ، وكان عنقها ابريق فضة ، وليس للظهور في شيء من ذلك حظ

ومما يدل على أن الشرع نهى عن الظهر دون البطن هو الحد الذي فرضه على الزاني واللوطي . ان حد الزاني ثمانون جلدة ، وحد اللوطي الاحراق ، وكلاهما فجور ورجاسة وائم . « الا ان ايسر المكر وهين احق بان يميل اليه من ابتهلي ، وخير الشررين احسن في الوصف من شر الشررين » .

وإذا قبل رجل امرأة امام الملا لما حد ، اما اذا قبل غلاماً لفرض عليه الحد « لأن الحكم في هذا غير الحكم في ذلك » .

ويختتم الجاحظ رسالته هذه بقوله ان من يفضل الظهور على البطون يساين الحلال ويقبل على الحرام . وعلى هذا الاساس تكون رسالته ذات غرض فقهى وخلفي ، وليس كلاماً فارغاً من المحتوى ، او خطراً على الاخلاق .

وقد عالج الجاحظ هذا الموضوع في رسالة أخرى عنوانها الجواري والغلمان كما مر معنا ، وتعتبر الرسائلتان متممتين لبعضهما البعض .

٦ - مقدمة كتاب المعلمين

يبدأ الكتاب كالعادة بمدخل تقليدي يخبرنا فيه الجاحظ أن شخصاً يهزا من المعلمين ويرميهم بالحمق والجهل والسفه فيتصدى له الجاحظ ويضع هذا الكتاب للرد عليه .

ويشرع ببيان فضائل المعلم ، فيقول ان المعلم قيم على الكتاب مشتملاً بتدریسه للناشرة . والكتاب يحمل اخبار العاضين وبه يدرك الملك مصالح رعيته ويقوم سكان مملكته . وهو مستودع الحقيقة وحافظة العلم .

ولا ينبغي أن يقوم التعليم على التلقين والحفظ بل يجب أن ينبع القدرة على الاستبطاط والتفكير لدى الناشئة ، لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، أما الاستبطاط فيؤدي بصاحبها إلى الخلق والإبداع ويوصله إلى الحقيقة .

ان طبيعة الحفظ تختلف عن طبيعة الاستبطاط وإن كان الموضوع واحداً . وكلامها يعتمدان فراغ القلب والشهرة إلى المعرفة . ويفترض الحفظ بشيشين مما الموضوع والوقت . فالمكان الهدادء الحالي أفضل من المكان المكتظ والصاخب . ووقت الاسحاق أفضل من مائر اوقات النهار والميل .

ان اكثرا العظام والتابع كانوا معلمين ، وهذا ما نتحققه اذا استعرضنا اسماء الفحريين والعروضيين والفرضيين والحساب والخطاطين والرواة والقصاة والحكماء والرواة والقادة والرؤساء والكتاب والشعراء والوزراء والادباء . وبخاصة بالذكر عبد الله بن المفعع الذي كان من المعلمين والبلغاء المتلذذين والمترجمين ، ولكن له لم يفلح في الكلام كما يبدو من رسالة الهاشمية .

ثم إن جميع العلوم إنما تنتقل بين الأجيال بوساطة المعلمين ، من حساب وفراقيض وقرآن ونحو وعروض واعمار وآثار ، ثم الفروضية والتجموم واللحون والطبع والهندسة والزند والشطرنج والفلاحة والتجارة والبناء والصياغة والخياطة والصباغة والحياة ، وترويض الحيوانات المختلفة من فرود ودببة وكلاب وظباء وبيغان وصفور ودواب .

ان الانسان عالم صغير لانه ينطوي على جميع الطبائع الموجودة في الحيوانات من « ختل الذئب وروغان الثعلب ووثوب الاسد ، وحدق البعير ، وهداة القطاء ، وهذا كثير ، وهذا بابه ، ولأنه يحكي كل صوت ي فيه ويصور كل صورة بيده ، ثم فضل الله بالمنطق والرواية وامكان التصرف » .

والمعلم يقوم بعملين هما التأديب والتعليم ومن هنا دعي ايضا بالمؤدب لأن الأدب يعني الخلق ويعني رواية العلم . ولكن العلم هو الاهم لأنه الأصل . ويلجأ المعلم في عمله التأديبي الى القصاص على التهاون او الكسل ، والى الضرب على الفرار ، كما يحمل الصبية على الصلاة في الجماعة وتدارس القرآن وحفظ الاشعار والارجاز .

ومع ذلك فان مهنة التأديب لا تدر على اصحابها المال الوفير ، ولذا شكا الادباء والشعراء من الفاقة وطلبو المساعدة .

ولم يكتف الجاحظ بايضاح فضل المعلم واهميته وانما قدم مقترنات تربوية هامة لم يفطن لها سوى علماء التربية المحدثين . منها ضرورة مراعاة المعلم مستوى الصبي العقلي والنزول الى مستوى ليتمكن من افهمه مادة التعليم .

ومنها وجوب الاقتصاد في تدريس مادة النحو على القدر الذي يفضي به الى السلامة من فاحش اللحن ، ويمكنه من القراءة الصحيحة والانشاد المستقيم .

ومنها مراعاة الطبيعة والفصاحة في الكتابة والاختصار واستكراء العبارة المعقنة واللغاظ الوحشية الغريبة . والاهتمام بالمعاني اكثر من الانفاظ .

وما تبقى من الكتاب مقدم عليه اذ لا يمت الى موضوعه بصلة . وهناك بذلة عن اللواط ينبغي ان تلحق بكتاب الفه الجاحظ في هذا الموضوع ، وقد حققتها بكتاب البطن والظهر . وهناك بعض صفحات في المفاصلة بين التجار وعمل السلطان يرجح انها مسلوبة من كتاب « سعد التجار وذ عمل السلطان » ، وكان ينبغي ان تلحق به ايضاً ، لولا مزجها بعبارات من كتاب المعلمين بحيث يصعب فرزها .



الله يحيي العرش بفتحه

٧ - مقدمة طبقات المغنين

لم يصلنا من هذه الرسالة سوى المقدمة التي لا تتجاوز صفحات عدة . ولكنها على قصرها تلقي اضواء كافية على محتوى الرسالة . فهي تدور حول موضوع الغناء وترجمة للمغنين الذين عاشوا في عصر الجاحظ ، وفي بغداد فقط ، حتى عام ٢٢٥ هـ تاريخ تأليف الرسالة .

يجد ان الجاحظ يتناول في المقدمة ثلاثة مسائل هامة .

الاولى : هي تصنيف العلوم الذي ينسبة الى الفلاسفة التقديميين دون ان يذكر اسمائهم . لقد قسم هؤلاء الحكماء العلوم الى اربعة اقسام هي علم النجوم الذي يبحث في البروج والازمنة وال الاوقات وتاثيرها في طبائع الناس . وعلم الهندسة الذي يبحث في المساحة والوزن والتقدير وما اشبه ذلك . وعلم الكيمياء والطب الذي يبحث في صلاح الابسنان وعلاج الامراض . وعلم اللحون الذي يدرس اجزاء اللحون ومقاطعها ومخارجها واوزانها «حق يستوري على الایقاع ويدخل في الوتر» .

وعلى الرغم من نقص هذا التصنيف ، فإنه يعتبر رائداً في هذا المضمار ، لأنه فتح الطريق الذي سلكه من ائمه بعده امثال الفارابي وابن سينا والغزالى .

والمسألة الثانية : التي تكلم عليها الجاحظ في المقدمة هي أصل علم الموسيقى العربي . لقد اعتبر الجاحظ الخليل بن احمد الفراهيدي مؤسس هذا العلم . وقبل الخليل لم يعرف العرب علل هذا العلم وتصاريفه ، وكانت معرفتهم به مبنية على ما يسمونه من الفارسية والهندية ، فلما جاء الخليل درس الشعر وزنه ووضع كتاب العروض . ثم « اخذ في تفسير النغم واللحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ، واستème من عني به » .

ثم جاء بعد الخليل ابراهيم الموصلي فاقتفى أثره وطور علم الموسيقى ووضع له الآلات الجديدة . وكان حاذقاً بالضرب والايقاع والف في هذا العلم كتاباً كثيرة .

والمسألة الثالثة : هي شرح طريقة تأليف الكتاب او الرسالة . لقد قسم المغنين الى طبقات ، وترجم لهم ، وحمله على ذلك « الكلف والمودة لهم ، والسرور بتخليد فخرهم ، وتشيد ذكرهم ، والحرص على تقويم اود ذي الأود منهم ، حتى يلحق باهل الكمال في صناعته ، والعقل في معرفته ، على تمييز طبقة على طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة باوصافهم ، وألا يتم وادواتهم ، والمذاهب التي نسبوا اليها انفسهم واحتملها اخوانهم عليهما ، وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تقريراً بتعریض ... » .

ثم ان الجاحظ ترك فرجاً في كل طبقة لتسلا بترجمة من سها عنهم في المستقبل ، وهو يحذر من محاولات البعض القيام بهذا العمل أي ملء الفرج المتروكة ، دون علم . واحباطاً للتشويه والنحل اودع عدداً من النسخ خزائن بعض الثقات في الغناء ليحفظوها ويرجع اليها عند حدوث تغير او اضافات . في الكتاب .

ان هذا التدبير الذي قام به الجاحظ يشير الى نصيحة خطيرة هي استشارة النحل في الكتب التي كانت تظهر في عصر الجاحظ ولا سيما مؤلفاته بالذات . ولعل هذا الأمر هو الذي ادى الى نحل الجاحظ العديد من المؤلفات مثل كتاب الأمل والسامول ، وكتاب الحنين الى الاوطان ، وكتاب التبصر بالتجارة وسواها . ولا ادرى اذا كانت يد النحل امتدت الى هذا النزد اليسير الذي وصلنا من كتاب طبقات المغنين .



لهم إني أسألك من حسنة

٨ - مقدمة الوكلاه

في هذه الرسالة ينتقد الجاحظ كاتباً انتقد الوكلاه ، وفي سبيل نقد النقد هذا يأتي بحجج قيمة يمكن اعتبارها مبادئ عامة في الاخلاق والتفكير والتأليف .

هذا الكاتب الذي وضع مؤلفاً في ذم الوكلاه والذي كان معاصرأً للجاحظ لم يسمه ابو عثمان . ولكننه يعييه بعدم الشبه من الحقيقة ، ويعدم تصفح الكتاب قبل إخراجه . ويعزو السبب في ذلك الى التسرع في تأليف الكتاب تلبية لالحاج المطالبين ، والى قصر ايام تحصيل العلم ، والى سوء العادة . وللهذا يقتضي العلم القرىحة المحمودة ، ويقتضي النظر والاستقصاء والروبة . وهذه مبادئ علمية لوطفت في الابحاث والتأليف لتجنب اصحابها الزلل والاخطااء .

ويشير الجاحظ الى عيب آخر يعتري الباحثين والمؤلفين هو الغضب والسبيل مع الهوى . وهذا ما جرى لذاك الكاتب الذي حمله غضبه وكرهه للوكلاه على ارتکاب اخطاء لا تغفر . ان الغضب يحيي صاحبه لأن الغضبان اشد خطراً على نفسه من السكران والمجنون . وسيبه ضيق الصدر . ولذا

يجب ان يتاحلى المرء بسعة الصدر لأن سعة الصدر اصل الخبر ، وضيقه اصل الشر .

وثمة نصيحة أخرى ي Siddiha الجاحظ الى مؤلف الكتاب وهي عدم الثقة بما «يرسمه في الخلاء ويتوقه في الملا» وهذا يعني ان كل رأي يخطر له في خلوته او اثناء الكتابة ، لا ينبغي أن يتمسك به اذا كان يخشى ان يديه في جمع من الناس .

واذا لم يبرأ المؤلف هذه القواعد او المبادئ اسلم نفسه للاعداء والخصوم وعرضها للنقد والتذمّر .

وعدا التسرع في اصدار الاحكام او ابداء الآراء ثمة مبدأ آخر عرضه الجاحظ هو عدم تعميم الاحكام . فاذا وجد المفكر حالة خاصة او عدداً من الحالات الخاصة ، فلا ينبغي أن يستخرج منها حكماً عاماً يشمل جميع الحالات الأخرى . هذا المبدأ يطبق في العلم كما يطبق في الاخلاق والاجتماع وقد ساق الجاحظ عدة ادلة على صحة مبدئه هذا .

ان الوكلاء في المجتمع يشبهون الاجراء والاوصياء والاماناء . ولا يمكنك ان «تفضي على الجميع باسمة البعض ، ولو بهرجنا جميع الوكلاء وخوننا جميع الاماناء ، واتهمنا جميع الاوصياء واسقطناهم ومنعنا الناس الارتفاق بهم ، لظهرت الخلة وشاعت المعجزة ، وبطلت العقد ، وفسدت المستغلات ، واضطربت التجارات . . .» .

وعلى الصعيد الخلقي لا يوجد خير محض ولا شر محض . والأشياء جمیعاً تنطوي على بعض الخير وبعض الشر ، مع نسب متفاوتة منها . وهذا الرأي سيرده ابن سينا في كلامه على العناية الالهية ووجود الخير والشر في العالم .

وفي الطبيعة تجد المبدأ ذاته ، ان المطر مثلاً مصدر خير وشر ، فهو يفسد بعض الشمار ، ويفيد معظم المزروعات والحيوانات والناس . وخيره اكثـر من شره .

وفي السياسة يطالعنا المبدأ ذاته ، فالامام الجائز وان استثار بعض الفيء وعطل بعض الحكم فانه ينفع في ضبط الامن ودرء الاخطار الخارجية الخ . . .
ولا شك في ان مبدأ عدم التعميم هذا الذي نادى به الجاحظ يسيء الى مفهوم القياس الاسطـي ، ويزعزـع اسس العلم الطبيعي .

وأخيراً نجد في رسالة الوكـلـاء مبدأ ثالثاً يقول بـعدم الاكتـفاء بما وصلـ اليـه السـابـقـون منـ العـلـم طـبقـاً لـلـحـكمـ الخـاطـئـ الذيـ يقولـ «ـ ماـ تـرـكـ الـأـوـلـ لـلـآـخـرـ شـيـئـاًـ ». عـلـىـ التـقـيـضـ يـدعـوـ الجـاحـظـ إـلـىـ مـتـابـعـةـ التـحـصـيلـ وـالـبـحـثـ لـلـاهـتـداءـ إـلـىـ مـعـارـفـ جـديـدةـ . وـلـوـ طـبـقـنـاـ هـذـاـ الحـكـمـ لـتـوقـفـ النـاسـ عـنـ التـقدـمـ ، وـلـاـ حـصـرـتـ الـعـلـمـ فـيـ اـجـيـالـ مـعـيـنةـ وـامـمـ مـحـدـدةـ . وـيـؤـيدـ رـأـيـهـ بـالـاخـرـاعـاتـ الـجـديـلةـ الـتـيـ توـصـلـ إـلـيـهـ مجـتمـعـهـ العـبـاسـيـ وـلـمـ يـعـرـفـهـاـ مـلـوـكـ فـارـسـ مـنـ قـبـلـ مـثـلـ الـحـرـاقـةـ وـالـزلـالـةـ وـالـخـيـشـ ، وـالـجـمـازـ ، وـتـعـيـمـ الـاشـجـارـ ، وـالـكـرـدةـ .



لهم إني أسألك سلامك

٩ - مقدمة مدح التجار وذم عمل السلطان

لم يبق من هذا الكتاب سوى صفحات قليلة . وما تبقى منه يعطينا فكرة واضحة عن محتواه . انه مقارنة بين التجار وخدم السلطان .

والجاحظ كعادته يتخيل شخصاً يؤيد خدم السلطان ويمدحهم فيرد عليه ويعارضه وينتقل من التهمة التي وجهها اليه ذلك الشخص وهي التكلف والصنعة البيانية في كتابه ويقول : « استحي من الكتابة ، واستنكف بان انساب اليها في البلاغة وان أعرف بها في غير موضعها ، ومن السجع ان يظهر مني ، ومن الصنعة ان تعرف فيكتبي ، ومن العجب بكثير ما يكون مني » .

والجاحظ صادق فيما يقوله عن نفسه فهو لا يتصنع في كتابه ، واذا ورد فيها شيء من السجع او الصنعة البيانية ، فإنما يريد عفو الخاطر دون ان يقصد اليه تصدراً . وقد اعلن رايه في هذه المسألة مراراً وهو ان جمال الأدب يبرهن على الطبيعة اي عدم التكلف ، وعلى البلاغة اي المساواة بين اللفظ والمعنى ، واختيار اللفظ الذي يناسب المعنى ويواظبه فلا يفضل عنه ولا ينقص ، شرط ان تتوا葛 في الفصاحة اي الوضوح ويتجنّب الفراوة والوحشية . نجد هذا الرأي في كتاب البيان والتبيين وفي كتاب الحيوان ، وفي كتاب المعلمين وغيرها .

ان التجار أعز جانباً من اتباع السلطان واسلم ديناً واطيب طعاماً واهناً عيشاً وآمن نفأً وادرع بالآ . انهم احرار في تصرفاتهم ، لا يستجدون احداً ولا يحتاجون لغيرهم ، بل يحتاج اليهم الناس ، ولا يعانون الذلة في مكاسبهم وهم يحصلون الارباح الوفيرة ويسلكون الثروات العائلة .

اما اتباع السلطان فلباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وهم في خوف دائم من تغير الدول ، او سطوة الرئيس وتنكيله ؛ معرضون دائمًا للازمات والمحن . والدليل على شرف التجارة ان النبي كان تاجرًا ، وقبيلته اشتهرت بالتجارة حتى اشتق اسمها من القرش والتقريش .

ويرفض الجاحظ الداعي القائلة ان التجارة تصد عن العلم والأدب ، ويقول ان تجاراً كباراً نبغوا بالعلم والفقه ، يذكر منهم سعيد بن المسيب الذي يقول ان النبي وابا بكر و عمر وثمان وعليا لم يقضوا قضاء الا علمه . وكان الى ذلك نباباً وعالماً باخبار الجاهلية والاسلام .

كما يذكر منهم محمد بن سيرين الفقيه الورع ، ومسلم بن يسار العالم العابد (١٠٠ هـ) وأبيوب السختياني البصري المحدث (٦٦ - ١٢٥ هـ) ويونس ابن عبيد (١٣٩ هـ) .

١٠ - مقدمة رسالة الفتيا

موضوع هذه الرسالة اهداء القاضي احمد بن ابي دؤاد كتاب اصول الفتيا .

وهذا الاهداء يقتضي مقدمات ويهدف الى اغراض ويشرح قضايا .

اما المقدمات فمدح للقاضي الذي ينده السلطان وعليه الاعتماد في تدبير شؤون الرعية واصلاحها . انه «العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي اليه ، وحامل الناس عليه ، من موضع السلطان بارفع مكان ، لأن من جعل الله اليه مظالم العباد ، ومصالح البلاد ، وجعله متصفحًا على القضاة ، وعنداداً على الولاية ، ثم جعله الله متزع العلماء ، ومفرز الضعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضعه بارفع المنازل ، واسنى المراتب » .

في هذا الكلام اشارة واضحة الى المرتبة التي كان يتبوأها احمد بن ابي دؤاد المعترلي المذهب ، بل احد شيوخ الاعتزاز الكبار . فهو يشرف على القضاة والولاية ويدبر امور العباد . انه رجل علم وسياسة وداعية لصلاح ، وهو في اسمى مراتب السلطة .

اما الاغراض فهي ترجع الى اثنين : طلب مساعدة القاضي واحسانه

وئابه على الكتاب ، ثم ارشاد الناس وتوعيتهم . والغرض الاول اي طلب المساعدة والاثابة يفصح عنه في مقدمة الرسالة بقوله : « السلطان سوق ، وانما يجلب الى كل سوق ما ينفق فيها ». ويشبه الجاحظ نفسه بالساجر الذي لديه بضاعة يفتشر لها عن سوق بيعها فيها . تلك البضاعة هي الكتب التي يعني بتاليفها ويعبر عن ذلك بقوله : « وقد نظرت في التجارة التي اخترتها ، والسوق التي اقامتها ، فلم ار فيها شيئاً ينفق الا العلم والبيان عنه ... ». ويعرف بنفسه بأنه « رجل من اهل النظر ومن حمال الآخر » .

والغرض الثاني من الرسالة هو ارشاد الناس وتوعيتهم ، اشار اليه بقوله : « فما يتضرر العالم باظهار ما عنده ، والناسير للحق من القيام بما يلزمهم . فقد امكن القول وصلاح الدهر ، وخوى نجم التقى ، وهبت ريح العلماء ، وكسد الجهل والغي ، وقامت سرق العلم والبيان ». فالجاحظ يعتبر نفسه صاحب رسالة في الاصلاح الاجتماعي عليه ان يؤديها دون تقى او خوف عملاً بعيداً المعزلة الذاهي الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد عاد الجاحظ الى تأكيد غرضه الاول مرة ثانية في اواخر الرسالة عندما يقول للقاضي ان الذي دعاه الى وضع الكتاب علمه ان القاضي يقرب العالم ويقصي الجاهل ، ويقرأ الكتب فيما يقارب على السبيل منها او يصفح ويثبت الجيد ويكافئ عليه .

اما القضايا التي يشرحها الجاحظ في الرسالة فهي التعريف بكتاب الفتبا وفضل الكتب عامة وهذا الكتاب خاصة . وما عند الجاحظ من كتب كثيرة .

ان كتاب الفتبا يجمع اصول الفتبا عند مختلف الفرق . فهو جامع لاختلاف الناس ويجمع الدعاوى مع جميع العمل . يحكى آراء كل فريق ويسرد حججهم ثم يبين ما فيها من حق وما فيها من بطل . ويبدو من تعريف

الجاحظ لكتاب اصول الفتيا خطره ، واهميته . ولبيه بقى ولم تعبت به عوادي
الضياع .

ويشيد الجاحظ بفضل الكتب فيقول ان قراءة الكتاب اعم فائدة من لقاء
صاحبـه ، لأن تلقي الناس يستتبع الحمـة والمواجهـة وحبـ الغـلة وشهـوة
المـباـحة والـريـاسـة ، مع الاستـحـيـاء والـانـفـة من المـخـضـوع ، والـضـعـائـن والـجـدـل .

والكتاب يوجد في كل زمان ومكان ، اما صاحبه فلا يلبـث ان يموت .
ولولا الكتب لضـاعـ العلم ولم يـتـقلـ بين الـاجـيـالـ ويـخلـدـ على مـرـ الدـهـورـ .

وانفعـ الكـتبـ كـتابـ اللهـ الذـيـ يـنـطـويـ عـلـىـ الـهـدـىـ وـالـرـحـمـةـ وـالـعـبـرـ
وـالـتـعـرـيفـ بـالـخـيـرـ وـالـشـرـ . وـكـتابـ اـصـولـ الفتـيـاـ يـمـتـ الىـ كـتابـ اللهـ بـصـلـةـ ، لـانـهـ
يـدـورـ حـولـ القرآنـ وـالـسـنـةـ . وـيـنـفيـ الجـاحـظـ عـنـ كـتابـ هـفـةـ عـلـمـ الـكـلامـ . وـهـذـاـ
مـاـ دـعـانـيـ إـلـىـ عـدـمـ وـضـعـهـ فـيـ رـسـائـلـ الجـاحـظـ الـكـلامـيـةـ .

ويـخـبـرـ الجـاحـظـ القـاضـيـ بـاـنـ لـديـهـ كـتـبـ أـخـرىـ سـيـهـدـيـهـاـ إـلـيـهـ . تـبـاعـاـ ،
وـيـمـنـعـهـ مـنـ اـهـدـائـهـ دـفـعـةـ وـاحـدـةـ كـثـرـةـ شـغـلـ القـاضـيـ ، وـالـخـوفـ مـنـ مـلـلـهـ .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

١١ - مقدمة مدح النبيذ وصفة اصحابه

هذه الرسالة من روائع الادب الصرف حيث ي Ventures the jahiz about the philosophy
والكلام والسياسة والأخلاق . ويصف لنا النبيذ وصفاً دقيقاً يذكرنا بوصف أبي
نواس للخمر . ولكن مع ذلك يعترف انه سيقى مقصراً عن ايفاء النبيذ حقه
مهما اجاد في وصفه وذكر مزاياه .

إن النبيذ دواء يشفى من الامراض ويعني عن الاطباء وقد قال ابو نواس
قبله :

دع عنك لومي فان اللوم اغراء وداوني بالتي كانت هي الداء
والنبيذ صديق لا يمكن الاستغناء عنه ، ومن العجب انشغال الحسن بن
وحب عنه بديوانه واعماله . وجدير به أن يعظمه ويتغصب لجماله للمناسبة التي
بيهها والشكل الذي يجمعهما « فان كان بعضك لا يصون بعضاً وانت لا تعظم
شيقاً ، فانت والله من حفظ العشيرة أبعد ، ولمعرفة الصديق انكر » .

ويمضي الجاحظ في ذكر مزايا النبيذ فيقول انه « يطرد الهم ويمنح شاربه
صدق الحسن وفراغ النفس ورخاء البال ، والبعد عن شواغل الدنيا وخفوف
الحدثان » .

كما انه يعيذ الشباب الى الشيخ ، وينشط اجسامهم ويوقظ هممهم .

والنبيذ يبعث على الظرف والضحك ، ويغفر من الجد والتعب والحنمة ، ويتحدى الذهن . وهو يفعل ذلك في كل وقت ومكان ، في الليل والنهار ، وفي الشتاء والصيف ، وفي المنازل والبساتين .

ثُمَّ ان النبيذ يحمل النفس على السرور والطرب ، ويدخلها الى الجود ، ويوثرها الغنى ، ويعدها عن الفقر ، ويملاها عزةً وكراهة .

وهو جامع الخلان والظرفاء والادباء ، ومصدر متعتهم . وهو افضل من سائر الاشربة لأنها كلما زدت منه ازداد طيبة . واذا اسكنرك رفق بك ولم يكن اسكاره غلبا ، وانحذه بالرأس نعسفاً ، حتى يميت الحس بحدته ، ويصرع الشراب بسورته .. ولكنك على عكس ذلك « يغازل العقل ويعارضه ، ويدغدغه ويخداعه ، فيسره ثم يهزه . فاذا امتلا مسروراً وعاد ملكاً محجوراً ، خاتمه السكر وراوغه ، وداراه وماكره ، وهازله وغانجه » .

ولا اظن شاعراً من شعراء الخمر استطاع أن يبلغ شأو الجاحظ في وصف تأثير الخمر بالنفس ، وتصوير مراحل السكر .

الى جانب وصف النبيذ ومحاسنه يمدح الجاحظ الحسن بن وهب الذي وجه اليه هذه الرسالة . وقد كان الحسن معاصرًا للجاحظ وشاعرًا وكاتباً . ويقول في مدحه « وحسبي بصفاتك عوضاً من كل حسن ، وخلقنا من كل صالح .. فهو يجمع الجمال الجسمى الى جودة الرأي وسعة الخلق واللسان الفخم والبلاغة ونبيل المحتوى .

والجاحظ يطلب اخيراً من الحسن بن وهب أن يهديه مقداراً من النبيذ لا يكثر ولا يقل عن الحاجة . وهو لا يسأله ايه لشربه او يسقيه او يهديه ، ولكن ليختبر مودة الحسن وفاكرمه وتقديره .

ان الجاحظ الاديب لا يقل اهمية عن الجاحظ المتكلم ، وفنه يرتكز الى الوصف الجسمى والنقسي لا على الخيال المجنح ، كما يعتمد على التلوين اللغظى والترادف المعنوي والتقطيع المتوازن للجمل .



مَسْكُونَةُ الْمَدِينَةِ

١٢ - مقدمة الشارب والمشروب

موضوع هذه الرسالة هو انواع النبيذ ، وهل هو محلل او محروم . وهو يدعى في المقدمة كعادته ان شخصاً ساله عن انواع النبيذ والفوارات بينها ، وعما اذا احلها الشرع او حرمتها رغم الفوائد العديدة التي يجنيها الشارب منها ، ثم ان هذا السائل يسرد له تلك الفوائد التي ذكرها الجاحظ في رسالة أخرى عنوانها « مدح النبيذ وصفة اصحابه » مما يدل على أن هذا السائل هو الجاحظ نفسه الذي يتساءل وليس شخصاً آخر كما يدعى . وما يؤكد ما نذهب اليه هو اعتراف الجاحظ في آخر الرسالة بأنه هو الذي وضع اجناس الاشربة وبلدانها في صدرها تمهدأ لمعالجة الموضوع الاساسي وهو تحليل النبيذ وتحريمه كما يتضح في قوله التالي : « والذي دعاني الى وضع جميع هذه الاشربة والوقوف على اجناسها وبلدانها ، مخافة ان يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها ولم يسمع بذكرها فيتورهم اني في ذكر اجناسها المستشنة وانواعها المبتدةعة كالهاذبي برقة العقرب ، وان كان قصدي لذكرها في صدر الكتاب لاقف على حلالها وحرامها وكيف اختلفت الامة فيها ، وما سبب اعتراف الشك واستمكان الشبهة ، ولأن احتاج للمباحث واعطيه حقه ، واكتشف ايضاً عن المحظور فاقيم له قسطه ، فاكون قد سلكت بالحرام سبيله

وبالحال منهجه ، اقتداء مني بقول الله عز وجل ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَيَّاتِ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ .

ولن نطيل في وصف النبيذ وذكر فوائده فهي تكرار لما ورد في رسالة ملح النبيذ ووصف اهله ولكننا توقف عند مسائلتين لم تردا هنا هما انواع النبيذ ، وتحليله . وبذلك تكون الرسائلتان متممتين بعضهما البعض ، ويكون الجاحظ كما عهدهناه في جميع آثاره جاماً بين علم الكلام والأدب . ان الموضوع في الرسائلتين واحد وهو النبيذ ، وقد طرقه الجاحظ من الناحية الكلامية في رسالة الشارب والمثروب وطرقه من الناحية الأدبية في رسالة ملح النبيذ وصفة اهله .

.. ان انواع النبيذ كثيرة اهمها الترش شيرين ، والسكر ، والمسجور والبني ، وهي انواع رديئة لأن الاول يسبب الربح والحموضة ، والثاني مر ، والثالث والرابع كلران يسبيان الحكة .

اما الانواع الحسنة فهي تفتح المروق ، وتلذ القلب وتساعد المعدة على الهضم وتغسلها ، وتعين الكبد ، وتحمر الجلد وتولد الشجاعة والسخاء وتنمنع القر . اهمها نبيذ الزبيب الحمصي والعلل الماذن ، ونبيذ العنب المعصور ، والنبيذ المصري ، ونبيذ الاهواز ، والدوشاب البستانى ، والمعتق ، ونبيذ الجزر ، ونبيذ المشمش ، ونبيذ التين ، والنبيذ المروق والغربي والفضيخت .

قلنا ان موضوع الرسالة الاساسي هو مسألة تحليل النبيذ . والجاحظ يذهب الى ان الشرع لم يحرمه ويقدم على ذلك الحجج التالية :

اولاً : ان النبيذ غير الخمر . والشارع حرم الخمر فقط ولم يحرم النبيذ . والادعاء ان جميع الاشربة خمر يدل على الجهل والخلاعة . وقد يكون الشيء من جنس الحرام ، فبالاج بضرب من العلاج حتى يتغير بلون

يحدث له وراثة وطعم ونحو ذلك ، فيتغير لذلك اسمه ويصير حلالاً بعد ان
كان حراماً .

ثانياً : ان الصحابة والتابعين لم يختلفوا في الفرائض وحدودها ولكنهم
اختلفوا في الاشربة التي تسكر مما يدل على ان المسألة بحاجة الى نظر
وتأويل .

ثالثاً : ان الله حرم على الناس كثيراً من الاشياء واباح لهم اجناسها
الاخري بما يناظرها او يعمل عملها او ما يقرب منه لبعضهم بالحلال عن الحرام
« قد حرم من الدم المسفوح واباح غير المسفوح » كدم الطحال والكبد . وحرم
الميتة واباح ميتة البحر وغير البحر كالجراد وشبيهه ، وحرم الربا واباح البيع
الخ ..

رابعاً : ان اهل المدينة الذين حرسوا النبي ليسوا حجة على غيرهم .
لأنهم ليسوا ملائكة لا يخطئون ؛ وعظم حق بلدتهم لا يحل حراماً ولا يحرم
حلالاً ، وإنما المرجع الوحيد هو الكتاب والسنّة المجمع عليهما والمعقول
الصحيحة . واهل المدينة الذين احلوا الغناه لم يجعلوا مفتنيهم الذين كانوا
يتغرون وقد ثملوا .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

١٣ - مقدمة البلاغة والايجاز

لم يبق من هذه الرسالة سوى هذه الاسطراط القليلة . ولكنها تلخص لنا مفهوم الجاحظ للبلاغة وعلاقتها بـالايجاز . وإذا أردنا التوسيع يمكننا التماس ذلك مسهباً في كتاب البيان والتبيين ، وكتاب الحيوان .

لقد اطبق الناس من عرب وعجم على أن البلاغة هي الايجاز في القول .

ولكن الجاحظ لا يوافق على ذلك ويعرف البلاغة بأنها اصابة المعنى والقصد الى الحجة دون فضل او تقدير ، أي دون تطويل او ايجاز ، وهذا يعني المساواة . فالكلام البلبغ هو الذي نستخدم فيه من الالفاظ القدر الضروري لابلاغ المعنى الى السامع . وهذا معنى قوله « وربما كان الايجاز محموداً ، والاكتثار مذموماً ، وربما رأيت الاكتثار احمد من الايجاز ، ولكن مذهب ووجه عند العاقل » .

ان الاكتثار ينعد عيناً اذا بعث على « الملال وجمازو المقدار وخرج عن مجرى العادة » . ولكنه لا يعد عيناً اذا قصد به التعريف والتوكيد والتشديد ، لأن التفريق يحتاج الى تطويل ، والتوكيد يتضمن التكرار ، والتشديد يتطلب الاكتثار .

ويعمل الجاحظ كون البلاغة عدم مجازة المقدار بان كل ما جاوز المقدار انقلب الى ضد طباعه . فالبارد يتحول الى حار ، والنافع يغدو ضاراً ، والثلج يطفئ قليله الحرارة بينما يحركها كثيره . والى هذا ذهب من عد الاكثار عيناً والايحاز بلاغة .

ان الجاحظ يفسر كل شيء في العالم بما في ذلك الجمال والفن تفسيراً طبيعياً ، وفي هذا تكمن أصلته الفكرية .

١٤ - مقدمة تفضيل النطق على الصمت

يبدو ان الجاحظ تلقى كتاباً او قرأ رسالة في مدح الصمت وايشاره على النطق . وقد وصف صاحب الرسالة مزايا الصمت ، وفم الكلام وبين مساوئه وما يجره على صاحبه من البلوى والفحش والخطأ والتورط والندر . وقد استشهد باقوال كسرى انس شروان ملك الفرس ، والاشعار ، ورجال الادب ، والذين ذموا الكلام ومدحوا السكوت .

ولم تعجب الرسالة ابا عثمان بل وجدتها تنطوي على الخطأ والاعجاب بالنفس والسرع في الاحكام ، مما حمله على الرد عليها في كتاب تفضيل النطق على المحت .

لقد وجد الكلام افضل من الصمت لاسباب عديدة . منها ان الكلام ضروري للابانة عن النفس والتعبير عن الحاجات الكثيرة التي تكثر لدى الانسان . ومنها ان الكلام هو المزية التي ينماز بها الانسان عن الحيوان والجماد .

وإذا كان الصمت يحمد في حالة واحدة وهي توقي الاثم وتسوخي النجاة ، فانه يلزم صاحبه حفة الجهل والغباء .

ويعمد الجاحظ الى القرآن ليستدل من آياته التي ورد فيها النطق على فضيلة الكلام . فالكلام الذي نفوه به ابراهيم لدى تحطيمه الاوثان هو الذي نجاه . والكلام الذي نفوه به يوسف لدى عزيز مصر هو الذي لفت الى ذكائه ونقطته فقربه منه واقرمه .

ثم ان الكلام هو الذي يرهن على شرائع الانبياء وشرحها وقربها من افهم الناس ، وهو الصيفة التي يعبر بها المؤمن بشهادة الایمان . وعلى الكلام البلبلق قامت معجزة القرآن . وكان النبي محمد افعص العرب وابلغهم بياناً . رغم اتصف العرب بالبيان ولا سيما قريش قبلة الرسول .

ثم ان الكلام آلة الشكر على النعمة . وقد اوجب الله الشكر وقال ﴿لَئِن شكرتمْ لَأَزِيدُنَّكُمْ﴾ . والشكر لا يكون الا بالكلام .

واعظم حليل على فضيلة الكلام - وهنا يستعمل الجاحظ اللفظ بمعنى علم الكلام - هو الحاجة اليه لاثبات وجود الله وتصديق رسالة النبي ، ومعرفة حقائق الاديان ، والتمييز بين الحجة والشبهة ، ودعم مبادئ المعتزلة في التعديل والتوجيه والاختيار .

وقد الف الجاحظ رسالة في فضل صناعة الكلام نشرناها في رسائل الجاحظ الكلامية .

وقد يتادر الى الذهن ان الجاحظ ينافق نفسه ويقول الشيء وضله . فهو في هذه الرسالة يذم الصمت وي مدح الكلام ، بينما يدعوه في «رسالة كتمان السر وحفظ اللسان» الى تقييد اللسان ويبحث على السكت . والواقع ان الجاحظ لا يقع في التناقض وانما يسوق في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان اقوالاً لبعض الحكماء تدعوا الى الخضاع الكلام للعقل لكي لا يأتي لغوا

او يفشي سراً فيلحق الضرر بصاحبها .

وقد تحدث على الموضوع ذاته في قسم من رسالة التربيع والتدوير التي تتضمنها رسائل الجاحظ الأدبية هذه ولا نعتقد انه يناقض نفسه .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

١٥ - مقدمة رسالة في صناعة القواد

عنوان هذه الرسالة لا يتلاءم تماماً مع موضوعها . إن موضوع الحرب لا يطرق إلا بالاسم . سثل أحد القواد عن المعركة التي خاضها العرب ضد الروم فأجاب انهم حصرروا الاعداء في مكان ضيق ثم قتلواهم وكذسوا جثتهم .

ان الموضوع الحقيقي للرسالة هو الأدب واللغة والبيان . ويتناول ما ينبغي ان نتعلم من الأدب واللغة ، لنسططيع التعبير عن افكارنا في مختلف الموضوعات .

ولهذا يطلب الجاحظ في تعداد حسّنات اللسان ويرجعها الى عشر . فاللسان اداة البيان والتعبير عن النفس ، والمصدر للحكم ، والمجيب ، وطالب الحاجة ، وواصف الاشياء ، والواعظ ، والمعزzi ، والمثني والملمعي . ويردف هذه الحسنات باقوال تدل على اهمية اللسان في حياة الانسان . فالانسان بدون لسان يشبه البهيمة او الصورة وقيمة الانسان في لسانه وعقله .

وعلى هذا الاساس ينبغي أن يعني المرء باللغة لأنها اداة التعبير ومادة اللسان . وهذه العناية تقتضي التزود بالمفردات والتعابير المختلفة في كل علم وموضوع . هذا ما قصد اليه الجاحظ بقوله للمعتصم : « فخبا يا امير المؤمنين

أولادك يان يتعلموا من كل الأدب ، فانك ان افردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحبشوء .

ويقدم امثلة تشهد على صحة هذا الرأي . فالقائد العسكري يعبر عن معانيه بالفاظ وتعابير يستقها من صناعة الحرب والقتال . والطيب يستعمل الفاظاً وتعابير تمت الى صناعة الطب بصلة وثيقة مثل اليمارستان والمحنة والبغض والاكحل ودستج والاسهال والقرننج والسل والبرسيم وبقراط وجاليوس .

والخياط يستعين بكلمات من صميم صناعته مثل الدرز والجربان والاية والسروال والبايكية والطيلسان والشوكزة والازرار والعروة والكتبان والزينة والمعراض والذيل .

والزارع يعتمد اسماء تتعلق بمهمته مثل الجريبين والمسارة والانابير والسبيل والفدان والزراعة والسفاة والسرجين والنبت واليرقان .

والخباز يستعمل الفاظاً تدل على صناعته مثل الترغيف والتور والحمرة والجفنة والدقائق والنار والجرداق والثرید .

والمؤدب يلجأ الى الفاظ تدخل في صميم عمله مثل الصبي والامام والرقم والدواة واللروح والمداد والكرسف .

وصاحب الحمام ذو لغة نقاء تعابيرها ومفرداتها مع الاوادع التي يحتاجها في عمله مثل الغسيل والأتون واللبقة والمثير والنفع والزنبيل .

والكناس يستعين بمفردات تعبر عن ادواته وحركاته مثل الزبيل والجرح والمكنسة والكتيف والبالوعة والبريخ ، والسلح ، والختن .

ولغة الشرابي تمتليء بالفاظ مثل الدن والسكر والكأس والخمر والقدح

والدورق والقنية .

والطباطخ يعبر عن معانيه بمعفردات خاصة مثل الصحن والشواه والمروق
والمعرفة والقدر والفالوذج واللوزينج والجوزينج والخيصة والسكباج والجوذابة
والزبد والترسان والتقصعة والبرمورد والعصارات .

وأخيراً تمتاز لغة الفراش باسماء وتعابير مجانية للمعنى والأدوات التي
يستخدمها مثل المخددة والمنصنة والريش والوسادة والخيش والستور والمتكا .

بقي ان نتساءل عن اصحاب هذه الاشعار التي وردت في الرسالة . لقد
سكت الجاحظ عن ذكر أصحابها والارجح انه هو ناظمها وصاحبها . وفي ذلك
دليل على موهبته الشعرية . وقد الفينا له قصيدة في المديح ضمنها رسالته الى
ابي الفرج بن نجاج الكاتب .



گلستان شاعر پیغمبر مسیح

١٦ - مقدمة رسالة الجد والهزل

يقول الجاحظ ان سبب جفاء الوزير محمد بن عبد الملك الزيات هو كتاب الزرع والنخل الذي ألفه قبل عام ٢٤٣ هـ واهداء الى ابراهيم بن العباس الصوري فاجازه عليه بخمسة آلاف دينار . ولكن الجاحظ لا يصدق ان يكون تفضيل النخل على الزرع سببا في عداوة الاخوان ، وهو اكثرا سخافة من حرب البنوس او حرب داحس والغبراء .

وهو يذكر سببا آخر لذلک الجناء هو رفض الجاحظ دفع الآتاوة المتوجبة عليه . ويفترض ان يكون التهرب من الآتاوة هو الذي اثار حفيظة الوزير المسؤول عن اموال الدولة فانتقد الجاحظ وأنبه وحرمه من بعض العائدات التي يتغنى بها . فاعتبر ابو عثمان موقف ابن الزيات عدائياً وكتب هذه الرسالة يستعطفه ويعاتبه .

والجاحظ لا ينفي عن نفسه تهمة التهرب من دفع الآتاوة ولكنه لا يرى ان هذا الذنب يستحق مثل ذاك العقاب ويثير حقد الوزير وغضبه ونقده . ان ذنبه صغير والمقرنة كبيرة ، فلا توازن بينهما ، وعدم التوازن معناه عدم العدل وهذا ما اراده بقوله : « ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهافة

بعقوبة الاصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد . . . ومن خرج من باب الاوزان وخالف جميع التعديل كان بغاية العقاب احق ، وبه اولى » . وينصح الوزير بالنظر في سبب الذنب قبل انزال العقوبة .

ويحذر الجاحظ ابن الزيات من الانسياق وراء هواه والانقياد للغيط والغضب ، لأن الغيط نار تحرق اهلها ، وسلطان غشم . ولأن « الغضب يصور لصاحبه مثل ما يصور السكر لاهله . . . والغضبان يشغله الغضب ويغلي به الغيط ، وتستفرغه الحركة ، ويمتلئ بدنه رعدة ، وتتزايل اخلاطه ، وتنحل عقده ، ولا يعتريه من الخواطر الا ما يزيده في دائنه ، ولا يسمع من جليسه الا ما يكون مادة لفساده . . . » .

كما يطلب منه ان يميز بين الاخيار والاشرار والمحبين والبغضين في التعادي . فلا ينبغي ان يعادي عقلاه السروة ومن عرفوا بالصدق ، ولا يعاقب واحداً ولا يضجر من صاحب مهما بدا منه . واذا تحقق ان مبعث الذنب البغض او الميل الى الشر فيجب ان يستند في العقاب والتعذيب دون رحمة او تردد .

ولا يوجد سبب كاف يوجب التعادي بين الجاحظ وابن الزيات . فهما ابنا نحلة واحدة ، وتجمعهما مودة قديمة . ان اسباب التعادي بنظر الجاحظ هي « تنافس الجيران والقرابات ، وتحاسد الاشكال في الصناعات . . . والتشاحن على المواريث ، والتنازع في تخوم الارضين » . وهذه الاسباب جميعاً غير متوفقة في أبي عثمان الوزير . فابن الزيات من عائلة مختلفة عن عائلة الجاحظ ، وابن الزيات وزير والجاحظ سوقه ، ولا مشاكلة بينهما الا في إثارة الدقيق الخشن على الدقيق الایض والباقلاء على الحلوي .

واذا كان الجاحظ صديق ابن الزيات بالأمس فينبي ان يدرك أن ما يصيب الانسان ينحب على صديقه لانه « اذا اعتل خليلك فقد اعتل

نصفك . . . فموتي هو موت صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي » .

وعلاوة على ذلك يجدر بابن الزيارات أن يعتبر شيخوخة الجاحظ ويعترضها ، لأن للكبيرة شفاعة وللضعف حرمة . ثم ان الجاحظ منح الوزير جلد شبابه ، واعطاه عند الكهولة قوة رأيه وثمرة تجاريه .

وإذا كان الوزير حريصاً على مال الدولة فعليه بهؤلاء الذين اختلعوا تلك الأموال او احتجزوها ولهم فيهم حكم الكتاب والسنة .

عدا هذه الحجج التي يبغى منها ابو عثمان تبرئة ساحته واستعطاوه الوزير ، يتهم ابن الزيارات بالاساءة اليه جسماً وسمعة وكتباً . فابن الزيارات يعيّب الجاحظ على اعماله كتبه وتركها اوراقاً مبعثرة لا تجمعها المصاحف فتسهل قراءتها وتحفظ . ويعيّبه ايضاً على انه يكتبها على الورق الصيني بدل الجلود التي تقوى على عادات الزمان . ويعيّبه ثالثاً على عدم انجاب الاولاد . ويتنمّى له رابعاً الموت ، ربما للخلاص من تكاليف الحياة . ولكن الجاحظ لم يفهم غاية الوزير فظنّ أنه يعيّبه او يتنمّى له الموت لأنّه يكرهه ويقصد عليه . حقاً ان للشيخوخة منطقها الضعيف !؟



لهم إني أسألك سلام

١٧ - مقدمة فصل ما بين العداوة والحسد

هذه الرسالة موجهة الى ابي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان وزير المأمور كما يتضح من استشهاد الجاحظ بالبيتين التاليين اللذين يمدح بهما الوزير ويعتبره حاميه من الحسد :

ان ابن يحيى عبيد الله أمنني من الحوادث بعد الخوف من زمني
فلست احذر حсадي وان كثروا ما دمت ممسك حبل من ابي الحسن
وموضوعها حсад ابي عثمان واعداؤه الذين حسدوه على كتبه وما تدر
عليه من المترفة والنعمة ، وتحريض الوزير عليهم . ولكن الجاحظ يتطرق الى
خلة الحسد والفصل بينها وبين العداوة .

ويستهل الكتاب بترغيب الوزير بقراءته ، لكونه يعالج موضوعاً جديداً لم
يسقه اليه أحد ، ولأنه يتصف كالكتاب السابق بالنبيل ، والكتاب السابق هو
استنجاز الوعد . ويرجع نيل هذين الكتايبين في رأي الجاحظ الى الاخبار الآية
الغربية والاحاديث الباعثة على الاخلاق المحمودة . . . الخ .

ويرى الجاحظ انه يوجد في كل زمان علماء محققون الفوا الكتب الفنية

في مختلف ميادين العلم والأخلاق وبذوا سواهم بسواعدهم التي حباهم الله ايساماً . ولكن ظهر لهم حсад معارضون في تلك العلوم والكتب « متuelle يدعون مثل دعاويم ، قد سموا أنفسهم بسمات الباطل وتسموا باسماء العلم على المجاز من غير حقيقة ، ولبسوا لباس الزور متزخرفين متثبيرين بما لا عصول له ، يحتذون امثلة المحققين في زيه وهم وهديهم ، ويقتلون آثارهم في الفاظهم والحاظهم وحركاتهم وأشاراتهم ، ليسبوا اليهم وبحلوا محلهم

وي بدلي الجاحظ خشيته من ان يكون له حсад على كتبه التي يعني بتاليتها يتزلون انتفالها ووضع مثلها . او يطعنون بها ويوجهون « فساد معاناتها وسقوط الفاظها » . ويورد شاهداً على ذلك محمدأ بن ابي العباس الطوسي الذي اتبرى بطبعه على كتابه في تحليل النبيذ لـى عرضه على المؤمنون مما اثار حفيظة المؤمن على الطوسي ، ولم ينكث هذا الطاعن البااغي الا عندما دخل بشر المرسي معارضه وأيد الجاحظ في مذهبة من تحليل النبيذ ، ونحن نعلم ان الكتاب الذي طرق موضوع تحليل النبيذ هو « الشارب والمشروب » ولعله هو المقصود .

ويخبرنا الجاحظ انه « ربما الف الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسبة والخطب والخرج والاحكام وسائر فنون الحكمة » وينسب الى نفسه فيقصد اليه جماعة من اهل العلم بالطعن والتحقيق والعيوب . وربما فعلوا اكثر من ذلك ، اذ يسرقون معاني الكتاب ويؤلفون كتاباً حولها ويهدونه الى الملك الذي اهداء كتابه وغيره .

كما يخبرنا انه ربما الف الكتاب الذي هو دون الكتاب الاول في معاناته والفاظه وينسبه الى غيره امثال ابن المقفع والخليل وسلم صاحب بيت الحكمه والعتابي وغيرهم ، فيقبل عليهم هؤلاء الطاعتون بتدارسون ويتأدبون به معججين بمعاناته والفاظه .

ويقول اخيراً انه ربما الف الكتاب وتركه غفلأ دون ذكر المؤلف اشفافاً من حسد هؤلاء وطعنهم « فينهالون عليه انهيال الرمل ويستيقون الى قراءته سباق الخيل يوم الحلبة الى غايتها » .

وقد ذهب بعض الكتاب الحاسدين ابعد من ذلك عندما هددوا الجاحظ وترعدوه بالويل والثبور وعظام الامور اذا هولم يضمن لهم الشركة فيما يجري عليه .

وعدا مسألة نحل كتب الجاحظ والطعن عليها وهي مسألة في غابة الخطورة ، يعالج الجاحظ مسألة الفصل ما بين العداوة والحسد . فيرى الحسد نتيجة النعمة التي اسبغت على المحسود وحرم منها الحاسد . اما العداوة فلها اسباب مباينة . ويرافق العداوة العقل اما الحسد فيخلو منه . والحسد لا يزول الا بزوال المحسود عليه ، اما العداوة فتحدث لعلة وتزول بزوالها . والعداوة تضعف مع الزمن بينما يبقى الحسد غضاً جديداً . والحسد يرافق الكذب بينما قد تخلي العداوة من الكذب ، والحسد يتفسى في اهل العلم اكثر من الجهلة والملوك والسوقة . والحسود جبان بينما العدو اشجع واظهر .



لهم إني أسألك سلامك

١٨ - مقدمة رسالة في استنجاز انوعد

لم يسم الجاحظ مدوحه ، ولكنه على الارجع ابو الفرج محمد بن نجاج الكاتب الذي وجه اليه رسالة المودة والخلطة ، ورسالة ثالثة باسمه . وتعتبر الرسائل متممة لبعضها البعض من حيث الموضوع والمنحي والغرض .

ان الجاحظ يسأل ويمدح . وقد سارع الى الاصفاح عن غرضه في صدر الرسالة حيث يقول : « اطلبوا الحاجات من حسان الوجوه ». هذا يعني ان لديه حاجة ، ويريد من ابي الفرج ان يلبيها . وهو يهجم على موضوعه دون توطئة فيذكر حاجته ويشرع في مدح ابي الفرج ويركز على جمال وجهه لأن الوجه عنوان الفال او مطلعه : « فاجتمع فيكم تمام القوام وبراعة الجمال ، والبشر عند اللقاء ، ولبن الخطاب ، والكتف للخلطاء ، وقلة البذخ بالمرتبة الرفيعة ، والزيادة في الانصاف عند النعمة الحادثة ، فجعل الناس وعدكم من اكرم الوعد ، وعقدكم من اوثق العقد ، واطماعكم من اصح الانجاز ... ». وهذا التركيز على الوجه والفال والبشر عند اللقاء الخ يذكرنا بمعانى مدح ابن الرومي .

وعدا المدح نجد في الرسالة حملة على المدح الكاذب الخادع كما

في رسالة المودة والخلطة . وينجلي بهذه اياته في قوله : « معاذ الله ان تقول الا معرفة غير مجهول ، وتصف الا صحيحاً غير مدخول ، او يكون من يتصدّد بالملق ، ويتحمّل على اهل القدر شرها الى مال ، او حرضاً على تقرّب ، وابعد الله الحرص واخزى الشره والطعم » .

ويذهب ابعد من ذلك في حرض المدحدين على عدم اجازة المديح الكاذب ، واذا اثابوا الكاذبين شاركوهם في كذبهم وسخفهم وتحملوا وزرهم . وكانوا كمن يمدح نفسه .

ولم يكتف الجاحظ بمدح ابي الفرج ، بل مدح والده ايضاً الذي عرف « بالثبع بالوعد وسرعة الانجاز ، وتمام الضمان » .

واما كان الولد يشبه الوالد في الصفات طبقاً للممثل العربي : « ومن اشبه اباه فما ظلم » فهذا دليل على ان اخلاق الناس طباع يتوارثونها ، وليس نتيجة التربية والتعليم . والجاحظ يعود في هذا الحكم الى اصول فلسفته الطبيعية التي لم يحد عنها في جميع مناسبي فكره .

ولا ينسى الجاحظ في ختام الرسالة ان يذكر المندوح بقاعدة التوازن التي شرحها في رسالة المودة والخلطة وهي تقول : يجب على المندوح العطاء ويجب على المادح الشكر والثناء . « وانك والله ، ايها الكريم المسؤول ، والمستعطف المسؤول ، لا تزرع المحنة الا وتحصد الشكر ، ولا تكثر المودات الا اذا اكثر الناس الاموال ، ولا يشبع لك طيب الاحدوثة وجمال الحال في العشيرة الا لتعبر مرارة المكروره » .

١٩ - مقدمة رسالة الى أبي الفرج بن نجاح الكاتب

إنها الرسالة الثانية التي بين أيدينا من رسائل الجاحظ في أبي الفرج بن نجاح الكاتب . وهي تشبه اختيابها السابقة واللاحقة من حيث الموضوع والنهاية وتحتفل عندهما في الاسلوب .

الموضوع هو مدح أبي الفرج ، والنهاية هي طلب المال او المساعدة او عدم تأخير الأرزاق على حد تعبيره . اما الاسلوب فهو التشر في الرسائلتين الآخريتين ، والتشر والشعر في الرسالة التي نحن بصددها .

وينجاهل الجاحظ في صدر الرسالة صاحب القصيدة التي نظمت في أبي الفرج ، ولكنه يعرف ان كنيته أبو عثمان . ثم يخصي اسماء الذين حملوا تلك الكنية ، ويورد اسمه في جملتهم دون ان يعترف بأنه صاحب القصيدة . بيد اننا نستطيع ان ندرك انه هو الذي نظم القصيدة اذا ملأ مضينا في قراءتها ووصلنا الى البيت التالي :

اعيذك بالرحمن من قول شامت أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو
ان عمرا هذا هو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأنه ورد اسمه في عدد
الشعراء المحتملين الذين قرروا الشعر .

وفي نهاية الرسالة يوضح الجاحظ ان الرائية من نظمه عندما يقول :

وكيقما تصرفت بي الحال ، فاني لم اخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فان وقعت هذه القصيدة والتي قدمنا قبلها بالموافقة فالحمد لله ،
وان خالفت فستغفر الله ، وان شيعتم ضعفها بقوة كرمكم ، وقويتكم اودها
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغ لما املنا . والله الموفق .

ويمكن تقسيم القصيدة ثلاثة اقسام :

في القسم الاول : يصف حاله النفسية ويميط اللثام عن بعض صفاته
 فهو راض بحظه في الحياة قاعد بدار الخفف لا ييرح مكانه . ولكن هذا
الرضا من كالصبر . ولو كان غياباً لقنع بالقليل الذي أصابه ، ولم يجزع من
الاحداث والخطوب التي تعصف به ، ولما طمع الى المفاخر والمكارم .

وقد ساقه الفاقة الى سؤال قوم لم ينزل منهم سوى الابتسامة ، اما المال
فقد ضئوا به عليه ، وعندئذ قرر ان يلزم منزله وينصرف الى الدراسة والتفكير ،
واشبار عليه اصدقاؤه بالتوجه الى ابي الفرج الذي لا يخلف الوعد ولا يرد
عافياً .

وفي القسم الثاني يفصح عن غرضه من الرسالة وهو مطالبة ابي الفرج
اجراء ارزاق للجاحظ يدو أنها تأخرت .

اترضى رفتك اليوم نفسي واسرتني بتأخير ارزاقني وانت تلي امرسي
هذه الارزاق التي يذكرها هنا المع اليها في الرسائلتين الاخريين :
استنجاز الوعد ، والعودة والخلطة . ويبعدون ابا الفرج وعده بتلبية طلبه بعد
نظم هذه القصيدة ، ولكنه تأخر في انجاز وعده ، فكتب له الجاحظ الرسائلتين
الاخريين يحثه على انجاز ما وعد .

وفي القسم الثالث يمدح الجاحظ ابا الفرج وينتهي بفق العسر والكتاب

فائلأً :

الا يا فتى الكتاب والعسكر الذي تأزر بالحسنى وايد بالنصر
تماماً كما نعته في رسالة المسودة والخلطة حيث قال : « وابو الفرج - اعزه
الله - فن العسکرين ، وادیب المصرین ... ».
ويمدحه ايضاً بحسن التدبير والحنكة في معرفة مكائد المحطلين والحزم
والعزم .

ويأمل في نهاية القصيدة ان لا يخيب ابو الفرج امله فيه ، ويعده باللود
والثناء والشکر الدائم .

ان شعر الجاحظ الذي فزنا في هذه القصيدة بنموذج عنه فربد يمتاز
بتقليل المعانى واستقصائهما كشعر ابن الرومي ، كما يمتاز بسهولة اللفظ
ووضوح الأفكار ، ولكنه يفتقر لشعر ابن الرومي الى الجزلة وفخامة الديباجة .



الله يحيي العرش بفتحه

٢٠ - مقدمة رسالة في المودة والخلطة

تنتهي هذه الرسالة الى فن المديح ، والمادح هنا هو الجاحظ ، والممدوح هو ابو الفرج محمد بن نجاح بن سلمة الكاتب ، كان والده على ديوان التوقيع في خلافة المترکل ، وقتلته الخليفة سنة ٢٤٥ هـ وقبض على ابنته محمد . وقد وضع الجاحظ هذه الرسالة قبل نكبة ابى الفرج بساله بعض الحاجات ويتزلف اليه ويتودد ويمدح .

ولكن الجاحظ يمهد للتشود والمديح بوضع اصول فن المديح اهمها وجوب الاخلاص فيه ، والا غدا المديح ضربا من الحيل والخداع يستغل فيه الشعراء والادباء المذاخرون سلامه صدر الممدوحين او حسن ظنهم ، او قلة فطنتهم ، او خوفهم من الهجاء ، او شدة بذلهم وكرمههم . والجاحظ يرفض هذا المديح الخادع ويردله .

ومن اصول المديح تجب الالحاح والتضرع في السؤال مع النظاهر بالزهد واضمار الرغبة .

ومن اصول المديح التوازن بين واجبات المادح والممدوح وحقوقهما . ان واجب الممدوح السخاء ومساعدة المحتاج والاحتفاء بالمادح . ومن حقه

شكر المادح إيه على عطائه وذكر مناقبه والثناء عليه وأضمamar المودة له .

ومن الناحية الفنية ينبغي ان يتواافق في المادح ادبان هما ادب الخلائق وادب الرواية الى جانب رجاحة العقل الذي يمسهما . ويبدو ذلك في اصول نجدر مراعاتها وهي الابيحاز والابتعاد عن اللحن ، ووضوح المعنى واللفظ ، وعدم اللجوء الى الزخرفة البيانية ، والقصد الى المعنى دون لف ودوران ، ودون تصوير الباطل حقاً والحق باطلأ ، وتجنب الفافاة وسائر آفات اللسان .

بعد وضع هذه الاصول الجمالية للمدح ينتقل الجاحظ الى غرضه وهو طلب العطاء من ابي الفرج . وهذا العطاء انما يقتضيه من ممدوحه مقابل ما يمحضه من محبة واكبار ، ويسبب المشاكلة في الادب ، ولأنه في فacaة وابا الفرج في غنى ومجده ، وقد عبر عن ذلك بقوله « وانا اقول بعد هذا كله : لو لم أضر لكم محبة قديمة ولم أضر بكم بشفيع من المشاكلة ، ولا بسب الاديب الى الاديب ، ولم يكن على قبول ، ولا على حلاوة عند المحصول ، ولم اكن الا رجلاً من عرض المعارف ، ومن جمهور الاتباع ، لكان في احسانكم علينا ، وانعامكم علينا ، دليل على أنا قد اخلصنا المحبة ، واصطفينا لكم المودة » . ويردف قائلاً : « ولا خير في سمين لا يتحمل هزال أخيه ، وصحح لا يجر كسر صاحبه » .

ويneathي ابو عثمان الرسالة بتعداد مزايا ابي الفرج على سنة المذاحين ، فلا يترك منقبة الا وينسبها اليه : الأربعية والتجابة والسيادة والقيادة والذكاء والمهابة والجمال وكرم المحتد والادب . لقد اجتمع له المجد من طرفه « وهل المجد الا كرم الارومه . والحسب وبعد الهمة ، وكثرة الادب ، والثبات على العهد اذا زلت الاقدام ، وتوسيع العقد اذا انحلت معاقن الكرام ، والا التراضع عند حدوث النعمة ، واحتسمال كل العترة ، والنفاذ في الكتابة ، والاشراف على الصناعة » .

٢١ - مقدمة التربع والتدوير

رسالة وضعتها الجاحظ بهزاً فيها من معاصره الكاتب أحمد بن عبد الوهاب . وهذا الهزة ينصب على التواحي الجسمية والخلقية والعقلية .

فهو يجلو لاحمد بن عبد الوهاب صورة كاريكاتورية تبعث على الضحك : « كان احمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعى انه مفرط الطول ، وكان مربعاً وتحسنه لسمة جفرته واستفاضة خاصلته مدوراً . وكان جعد الاطراف قصير الاصابع وفي ذلك يدعى السباتة والرشافة ، وانه عتيق الوجه اخمنص البطن معتدل القامة تام العظم . وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى انه طويل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهمامة قد اعطي البسطة في الجسم والسعنة في العلم ، وكان كبير السن متقادم العيلاد ، وهو يدعى انه معتدل الشباب حديث الميلاد » .

هذه الصورة الساخرة تلم بمختلف اعضاء جسم احمد بن عبد الوهاب ، فهي تمثل وجهه واطرافه وبطنه وظهوره وخاصيته وقامته واصابع يديه ، وعمره . ولكنها تعمد الى مواطن الشاعة فيه فتضخمها لتلفت اليها النظر ، وتكرر ذكرها للتأكيد عليها ؛ ولذا نرى الجاحظ يعود الى قصر جسم احمد بن عبد الوهاب

واستفاضة بطنه وخاصرته مراراً عديدة فيقول «فيما شعرأ جمع الاعاريفن ويا شخصأ جمع الاستدارة والطول ، بل ما يهمك من أقاويمهم ويعظامك من اختلافهم ، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون ان استفاضة عرضك قد ادخلت القبيح على ارتفاع سماكت ، وان ما ذهب منك عرضاً قد استفرق ما ذهب منك طولاً ، ولشن اختلفوا في طولك فقد انفقوا في عرضك » .

ثم إنه لا يكتفى بالوصف الساخر بل يضيف اليه التلوين الفكري الهازى» . ان احمد بن عبد الوهاب مربع الجسم ولذا لا يمكن ان ينعت بالطول ولا بالقصر لأن المربع متساوي الأضلاع اي ليس له طول وعرض وهو وبالتالي في مناي عن الزراية لأنه لم يتجاوز الحد في طول او عرض ، وكل ما لا يتجاوز الحد او القصد معتدل ، وكل معتدل جميل : «وبعد ، فائي قد أردت واي نظام أفسد من عرض مجاوز للقدر وطول مجاوز للقصد ؟ ومني لم يضرب العرض بسهمه على قدر حقه ، ويسأخذ الطول من نصبيه على مثل وزنه خرج الجسد من التقدير وجماز التعديل ، وإذا خرج من التقدير تفاسد ، وإذا جماز التعديل تباين ... » . وهو يردف قائلاً : « وقد سمعنا من يذم الطوال كما سمعنا من يزري على القصار ، ولم نسمع احداً ذم المربع ولا ازري عليه ولا وقف عنده ولا شك فيه ، ومن يذمه الامن ذم الاعتدال ، ومن يزري عليه الامن ازري على الاقتصاد » .

ولا يضر ابن عبد الوهاب صغر جسمه فصغر المخلوقات اقواماً واقتلاها واصلبها كالحصى من الحجارة والافى من العيات والفترق من البعض والبعض والبغاث من الطير .

ثم إن صغار المخلوقات اكثراها عدداً كجاجوج وأرجوح ، والذئب والفراش والبعوض .

ثم ان الجسم القصير لا ينحني عند الشيخوخة ولا تعرج عظامه ، ويسعى كل باب ، ولا تخرج رجاله من النعش .

ثم ان صغار النبات اجمله ، كالفلفة والزنبق الخ ..

وعلاوة على ذلك فقد توصف الارض بالعرض دون الطول ، ووصف الله الجنة بالعرض دون الطول « وجنة عرضها السماوات والأرض » وقد وجدنا الأفلاك مدورة لا مطولة وكذلك القمر والبحر والدينار والدرة . وكلها مضرب الجمال . فكيف لا يكون احمد بن عبد الوهاب جميلاً كالقمر والدينار والزهرة والدرة والمهأة والعمامة ؟ .

ومن الناحية الخلقيّة يركز الجاحظ على خلتين في أحمد بن عبد الوهاب هما حب المرأة ، والادعاء بما ليس فيه . فهو كلف بالجدال يكتثر من الاعتراض ويصل إلى الخلاف ويؤثر المقابلة والمعاندة . ولو كان يعقل ذلك عن علم وبصيرة لنهان الأمر ، ولكنه لا يعرف الحجة ولا موضوع الشبهة ، ويعجز عن الرد والافهام . وبدل أن يعرف قدره ويقف عند حده ، نراه يطاول محمد بن عبد الله الزيات وينافره ويراهنه في المحافل والمجامع ، ويصطحب إلى خاشنة الجاحظ نفسه ومظارقته ، ويستهين بالنظام ، والاصماعي ، ويستخف بالاحتف بن قيس .

ومن الناحية العقلية ، ينعت الجاحظ احمد بن عبد الوهاب بالجهل وضيق أفق التفكير ، وبأنه لم يأخذ العلم عن أربابه بالسماع والمجالسة بل اقتني الكتب وقرأها دون أن يفهم منها الكثير ؛ وهذا ما يعني بقوله : « كان قليل السماع غمراً وصحيفياً غفلاً » . ومع ذلك كان يدعى الأدب ويعتمد بمواهبه ومهاراته حتى غدا لا يطاق ، وهذا ما حدا الجاحظ كما يقول على تأليف هذه الرسالة ؛ والهدف منها كشف قناعه وابداء صفتة للحاضر والغائب

وسكن كل ثغر وكل مصر بأن يسأله مائة مسألة يهزأ فيها ويعرف الناس مقدار جهله .

وقد تناولت هذه الأسئلة جميع الموضوعات من مختلف العلوم . ابتداء من الطوفان وانتهاء بالمعرفة عند الإنسان . أسئلة تاريخية وطبيعية وجوية وجغرافية ودينية ومذهبية وكيمائية وفلسفية ورياضية وموسيقية وفزيائية وبيولوجية .

ويؤكد الجاحظ في نهاية طرح هذه المسائل العروضية ان احمد بن عبد الوهاب لا يحسن الاجابة عليها ؛ ويدلل على مظلانها وهي كتبه التي الفها وبحث فيها جميع الموضوعات واجاب على مختلف المسائل . ويطلب منه ان يقرأ تلك الكتب ، ويتخلى عن مذهب التشيع ويستبدل به الاعتزال اي مذهب الجاحظ ، ويختلف على بيت الجاحظ لأخذ العلم عليه .

ونستطيع أن نقول ان الجاحظ توخي من رسالة التربيع والتدوير ان تكون فهرساً للمسائل التي عالجها في كتبه ، وشاهدأ على سعة ثقافته وعمقها وشمولها ، ودعوة سافرة لقراءة تلك الكتب التي لا غنى عنها لكل مثقف او طالب علم ، وترويجاً للاعتزال .

وقد لخص أبو عثمان مزايادا رسالته التربيع والتدوير وفوائدها حيث يقول : « هذا الكتاب مرض مع ما(فيه) من الاختلاط مع اشكال وا Cassidy ، ومن الجد والهزل ، ومن الحظر والاطلاق ، ومن الاستناف والقطع ، ومن التحفظ والتضييع ، ومن الشبت والتهاون . اذا اريد به تقرير معجب او تكثيف مسوه ، او امتحان مشكل ، او تخجيل وقاح ، او قمع ممار ، او مازحة ظريف ، او مسألة عالم ، او مدارسة حافظ ، او تنبئها على الطريق ، او تجلبها للذهن » .

ان كتاب التربية والتدوير يجمع الجد والهزل ، فهو يشحذ الذهن للتفكير في معظم المسائل العلمية والفلسفية التي انطوى عليها ، وهو يثير الصحق بلهجته الساخرة وتصوирه البارع لخلق احمد بن عبد الوهاب وخلقه .

وقد احتاج الجاحظ لكتابه هذا بقوله انه ينفع لمحاذاحة ظريف او مسألة عالم او مدارسة حافظ او تجديداً للذهن . فهو يعتقد ان عقل الانسان احوج الى الشحذ من السيف ، وان للعلم مطالب كثيرة واسباباً عديدة ، وان اهم اسبابه الخواطر الشتى والمسائل التي تطرح على اختلافها . وهذا الكتاب يمثل حشدأً للمسائل والخواطر التي تحض على العلم والتفكير .

وإذا كانت رسالة التربية والتدوير معرضاً للمسائل الثقافية التي شغلت عقول الناس في عصره ، فهي نموذج لادب الجاحظ تمثلت فيه خصائصه الفنية خير تمثيل . وفي طليعة تلك الخصائص الاستطراد الذي ينقله من موضوع الى آخر ثم يعود منه ثانية الى الموضوع الاول . فقد عاد مراراً الى الكلام على الجد والمزاح ، وعلى الجن والسحر ، وعلى الموضوعات التاريخية ، وعلى بشاعة جسم احمد بن عبد الوهاب .

ومن تلك الخصائص مزج الجد بالهزل ، وقد احتاج لهذا الاسلوب بقوله ان لكل منها فوائد ، وقد اراد من المزج بينهما طرد السامة عن نفس القراء . وخصوصاً لبحث هذا الموضوع قسماً لا يأس به من الرسالة .

ومن تلك الخصائص السياق الجدلاني الراهن ، فهو يورد الفكرة ونقضها ، ويحتاج لهذه كما يحتاج لتلك . ويستقصي للشيء وضده ، وكل ذلك انعكاس لغة علم الكلام عليه .

ومن تلك الخصائص العبارة المقطعة تقليعاً متوازناً ، والتي تنطوي على ترداد لفظي ومعنوي ، وهي ان دلت على شيء فعل ثروة لغوية هائلة تمكّنه من

التعبير عن المعنى الواحد بطرق مختلفة والفاظ متقاربة او متضادة . واننا لنشعر
ونحن نقرأ الرسالة أن الالفاظ تتباين عليه انتباها ، والمعانى تزدحم ازدحاماً ،
فيتلاعب بها ويداعبها ويشكلها كما يشاء وسمهارة ورشاقة عجبيتين .

- ١ -

كتمان السر
وحفظ اللسان



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

[١ - موضوع الكتاب]

اما بعد فلاني قد تصفحت اخلاقك ، وتدبرت اعرافك ، وتأملت شيمك ، وزنك عرفت مقدارك ، وقوتك فعلمت قيمتك ، فوجدتك قد ناهزت الكمال ، وأوقيت على التمام ، وتروقت في فرج الفضائل ، وكدت تكون منقطع القرين ، وقاربت ان تلقي عديم النظير ، لا يطمع فضل ان يفوتك ، ولا يأنف شريف ان يقصر دونك ، ولا يخشى عالم ان يأخذ عنك .

ووجدتك في خلال ذلك عل سهل تضييع وإهمال لأمررين : هما القطب الذي عليه مقاوم الفضائل ، فكنت احق بالغسل ، وأعمى بالتأنيب من لم يسبق شاؤوك ، ولم يتسم رتبتك ، لانه ليس ملوماً على تضييع القليل من قد أضاع الكبير ، ولا يسام اصلاح يومه وتقويم ساعته من قد استحوذ الفساد على دهره ، ولا يحاسب على الزلة الواحدة من لا يعلم منه المزلل والبعثار ، ولا ينكر المنكر على من ليس من اهلالمعروف ، لأن المنكر إذا كثر صار معروفاً ، وإذا صار المنكر معروفاً صارالمعروف منكراً .

وكيف يعجب من أمره كله عجب ، وإنما الإنكار والتعجب من خرج

عن مجـرى العـادـة ، وفـارـقـ السـنـة والـسـجـيـة ، كـمـا قالـ الـأـوـل : « تـذـكـرـ » .
وقـبـلـ : « الـكـامـلـ منـ عـدـتـ سـقطـاتـهـ » ، وـقـيلـ : « مـنـ اـسـتوـىـ يـوـمـاهـ فـهـوـ مـغـبـونـ ،
وـمـنـ كـانـ يـوـمـهـ خـيـراـ مـنـ غـيـرـهـ فـهـوـ مـفـتـونـ ، وـمـنـ كـانـ غـدـهـ خـيـراـ مـنـ يـوـمـهـ فـذـلـكـ
الـسـعـيـدـ المـفـبـطـ » . وـفـيـ هـذـاـ الـمـعـنـىـ قـالـ الشـاعـرـ :

رأـيـتـكـ أـمـسـ خـيـرـ بـنـيـ مـعـدـ وـأـنـتـ الـبـوـمـ خـيـرـ مـنـكـ أـمـسـ
وـأـنـتـ غـدـاـ تـزـيدـ الصـعـفـ خـيـرـاـ كـذـاكـ تـزـيدـ سـادـةـ عـبـدـ شـمـسـ

وـقـالـ آخـرـ فـيـ مـعـنـىـ :

أـنـ اـمـرـؤـ هـنـكـ الـمـعـالـيـ	وـذـلـكـ مـعـرـوـفـكـ الـرـبـيعـ
أـنـ اـمـرـؤـ مـنـ وـائـلـ صـمـيمـ	كـالـقـلـبـ تـحـنـنـ لـهـ الـضـلـوعـ
فـيـ كـلـ عـامـ تـزـيدـ خـيـرـاـ	يـشـبـعـهـ عـنـكـ مـنـ يـشـبـعـ

وـالـأـمـرـانـ اللـذـانـ تـقـمـتـهـماـ عـلـيـكـ : وـضـعـ القـولـ فـيـ « غـيرـ مـوـضـعـهـ ، إـضـاعـةـ
الـسـرـ بـإـذـاعـتـهـ . »

[٢ - العـقـلـ وـالـلـسـانـ]

وـلـيـسـ الخـطـرـ فـيـ أـسـوـمـكـ وـأـحـاـوـلـ حـمـلـكـ عـلـيـ بـسـهـلـ وـلـاـ يـسـرـ . وـكـيـفـ
وـأـنـاـ لـاـ أـعـرـفـ فـيـ دـهـرـيـ . عـلـىـ كـثـيرـ عـدـيـ أـهـلـهـ . رـجـلـاـ وـاحـدـاـ مـنـ يـسـتـحـلـ
الـخـاصـةـ ، وـيـنـسـبـ إـلـىـ الـعـلـيـةـ ، وـيـطـلـبـ الـرـبـاسـةـ وـيـخـطـبـ السـيـادـةـ ، وـيـتـحـلـ
بـالـأـدـبـ وـيـدـيمـ التـخـانـةـ وـالـزـمـانـةـ ، وـالـحـلـمـ وـالـفـخـامـةـ ، أـرـضـيـ ضـيـقـةـ لـلـسـانـهـ ،
وـأـحـمـدـ حـيـاتـهـ لـسـرـهـ . وـذـلـكـ أـنـهـ لـاـ شـيـءـ أـصـعـبـ مـنـ مـكـابـدـةـ الطـبـائـعـ ، وـمـغـالـيـةـ
الـأـهـوـاءـ ، فـإـنـ الدـوـلـةـ لـمـ تـزـلـ لـلـهـوـيـ عـلـىـ الرـايـ طـوـلـ الـدـهـرـ . وـالـهـوـيـ هـوـ
الـدـاعـيـةـ إـلـىـ إـذـاعـةـ السـرـ ، وـإـطـلـاقـ الـلـسـانـ بـفـضـلـ القـولـ .

وـإـنـمـاـ سـيـ العـقـلـ عـقـلاـ وـجـجـراـ ، قـالـ تـعـالـىـ - « مـهـلـ فـيـ ذـلـكـ قـسـمـ لـذـيـ

جُنْجُر) - لأنَّ يَزْمُ اللسانَ وَيَخْطِمُهُ ، وَيُشَكِّلُهُ وَيُرْبِّثُهُ ، ويُقْيِدُ الفضلَ وَيَعْقُلُهُ عنْ أَنْ يَمْضِي فُرْطًا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالْمُضْرَّةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعْيِرَ ، وَيُحْجِرُ عَلَى الْبَيْتِيمِ .

وَإِنَّمَا اللسانُ تَرْجِمانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خَرَزانَةٌ مُسْتَحْفَظَةٌ لِلْخَواصِطِرِ وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلُّ مَا يَعْيَهُ [مِنْ] ذَلِكَ عَنِ الْحَوَامِنَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ، وَمَا تَوَلَّهُ الشُّهُوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَجُهُ الْحُكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَانِ الصَّدَرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءً لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا يَعْيَ بِقَدْرَةِ [مِنْ] اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْعِبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضْيِقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَقْلُ مَا حَمَلَ مِنْهُ ، فَبِسْتِرِيجِ الْأَنْبَيْهِ ، وَبِلَذِّ الْقَاءِ عَلَى اللِّسَانِ . ثُمَّ لَا يَكُادُ أَنْ يَشْفَهَ أَنْ يَخَاطِبَ بِهِ نَفْسَهُ فِي خَلْوَاتِهِ حَتَّى يَفْضِيَ إِلَيْهِ مَنْ لَا يَرْعَاهُ وَلَا يَحْرُطُهُ . كُلُّ ذَلِكَ مَا دَامَ الْهُوَى مُسْتَوْلِيَاً عَلَى اللِّسَانِ ، وَاسْتَعْمَلَ فَضْولَ النُّظُرِ فَدَغَتُ إِلَى فَضْولِ الْقَوْلِ .

فَإِذَا قَهَرَ الرَّأْيُ الْهُوَى فَاسْتَوْلَى عَلَى اللِّسَانِ ، مَنْهُ مِنْ تِلْكَ الْمَادَةِ ، وَرَدَّهُ عَنْ تِلْكَ الدُّرْبَةِ ، وَجَسَّمَهُ مَؤْنَةً الصَّبْرِ عَلَى سَرِّ الْحَلْمِ وَالْحُكْمَةِ .

وَلَا شَيْءٌ أَعْجَبَ مِنْ أَنَّ الْمَنْطَقَ أَحَدُ مَوَاهِبِ اللَّهِ الْمُعَظَّمِ ، وَيَعْمَمُهُ الْجَسَامُ ، وَأَنْ صَاحِبَهَا مَسْؤُلٌ عَنْهَا ، وَمُحَايَبٌ عَلَى مَا خَرُولُ مِنْهَا ، أَوجَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ اسْتَعْمَالِهَا فِي ذَكْرِهِ وَطَاعَتْهُ ، وَالْقِيَامُ بِقُسْطِهِ وَحْجَتْهُ ، وَوَضَعَهَا مَوَاضِعَ التَّفْعُلِ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا ، وَالْإِنْفَاقُ مِنْهَا بِالْمُعْرُوفِ لِفَتْلَةٍ لِفَتْلَةٍ ، وَصَرْفُهَا عَنْ أَضَادِهَا .

فَلَمْ يَرْضِ الإِنْسَانُ أَنْ عَطَّلَهَا عَمَّا خَلَقَتْ لَهُ مَا يَنْفَعُهُ حَتَّى اسْتَعْمَلَهَا فِي ضَدِّ ذَلِكَ مَا يَضْرُهُ ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِ الإِنْتَمَانُ الْمَذَانَ اجْتَمَعَ عَلَى صَاحِبِ الْمَالِ الَّذِي كَنْزَهُ وَمَنَّهُ مِنْ حَقِّهِ ، فَوَجَبَ عَلَيْهِ إِنْمَالُ الْمَعْنَى وَإِنْ كَانَ لَمْ يَصْرُفْهُ

في معيشة ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إنم الإنفاق فيها . وهذه غاية الغبن والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا تحمد له ولا ذمٌ عليه ، وإنما الحمد للحلم واللّوم على الجهل . فالحلم هو الاسمُ الجامع لكلِّ فضل ، وهو سلطان العقل القائم للهوى . فليس قمع الغضب وتسكين فوة الشُّرُّ ، وإسقاط طائر المُحرق باحقٍ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من قمع فرط الرضا وغبة الشهوات ، والمنع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والهلع ، وسرعة الحمد والذم ، وسوء الطبع والجشع ، وسوء مناهزة الفُرْصَة ، وفرط الحرص على الطُّلُبة ، وشدة الع恨ين والرقة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت السُّخط ، ووقت التسخط من وقت الرضا ، ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جلوى .

[٤ - حب الأخبار]

واعلم بقيناً أن الصُّمت سرّ مبدأ ، أسهل مَرَاماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقُهود للصواب ، لما قدمنا ذكره من علة مجاذبة الطَّبَاع ، ولأنَّ من طبع الإنسان محنة الإخبار والاستخار . وبهذه الجملة التي جُبِلَ عليها الناس نُقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، عن الغائب إلى الشاهد ، وأحبَّ الناس أن ينقل عنهم ، ونقشوا خواطرهم في الصُّخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبتت حجَّة الله على من لم يشاهد مخارج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرُّسُل ، وقام مجِّهُ الأخبار عن غير شاعر ولا تواظط مقام العيَان ، وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتدابيرات والعلامات ، وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض ذريعة إلى قبول الإخبار عن الرسل ، وسلماً إلى التصديق ،

وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحلت هذا الم محل . ولكن الله عز وجل حبّها إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء داعية للجماع ، ولذة الجماع سبلاً للنساء ، والرقة على الولد عوناً على التربية والحضانة - وبهما كان النشوء والنماء - وحب الطعام والشراب سبلاً للغذاء ، والغذاء سبلاً للبقاء وعمارة الدنيا .

فعمّر على الإنسان الكتمان لإثمار هذه الشهوة ، والانقياد لهذه الطبيعة ، وكانت مزاولة المجال الراسيات عن قواعدها أسهل من مجاذبة الطياع . فاعتراه الكرب لكتمان السر ، وغيّبه لذلك ستم وكمد يحشّ به في سوداء قلبه بمثل دبيب النمل ، وجحّة الحرب ، ومثل لسع الذئب ووخز الأشاني ، على قدر اختلاف مقدّير الحلوم والرّزانة والخلفة . فإذا باح بسره فكانه أنشط من عقال . ولذلك قيل : « الصدر إذا نفت براً ، مثلاً مضرورياً لهذه الحال . وقيل :

* ولا بد من شكوى إذا لم يكن صبر *

وليس قولنا « طبع الإنسان على حب الإخبار والاستخبار » حجّة له على الله ، لأنّه طبع على حب النساء ومبين الرّزق ، وحبّ إلهه الطعام ومنع من الحرام . وكذلك حبّ إليه أن يُخبر بالحقّ النافع ويستخبر عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا وذاك ، فاختار الهوى على الرأي .

ومما يؤكد هذا المعنى في كرب الكتمان وصعوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رواه عن بعض فقهائهم أنه كان يحمل أخباراً مستوراً لا يحتملها العوام ، فضاق صدره بها ، فكان يرُز إلى العراء فيحتقر بها حفييراً يودعها دنعاً ، ثم ينكّب على ذلك الذي فيحدثه بما سمع ، فيروح عن قلبه ، وترى أن قد نقل سره من وعاء إلى وعاء .

وكان الأعمش سيءُ الخلق غلقاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرون به ويسومونه نشر ما يحب طيبةُ عنهم ، ونكرار ما يحدُّنهم به ، ويتعسونه ، فيحلف لا يحدُّنهم الشهر والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، ونطّلت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاةٍ وكانت له فيحدثها بالأخبار والفقه ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « لَيْتَ أَنِّي كنت شاةً الأعمش » .

وشكا هشام بن عبد الملك ما يجد من فقد الآيس المأمور على سرمه فقال : أكلت العampus والحلو حتى ما أجد لهما طعماً ، وأتيت النساء حتى ما أبالي أمرأة لقيت أم حانطاً ، فما بقيت لي لله إلا وجود آخر أضع بينه وبينه مذونة التحفظ .

وقال معاوية لمعرو بن العاص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شباب قريش أن يخرجوا عنا . ففعل ، فقال : اللذة طرح المروءة .

وقد صدق عمرو ، ما تكون الزمانةُ والوقار إلا بحمل على النفس شديد ، ورياحية متّعة .

وقال بعض الشعراء :

الم تَرَ أَنَّ وُشَّةَ الرِّجَالِ	لا يتركون أديمَا صحيحاً
فَلَا تُقْنَشْ بِسْرُكَ إِلَيْكَ	فَهَنَّ لِكُلِّ نَصْبٍ نَصِيبَا

[٤ - مساوىء إنشاء السر]

والسرُّ أبلاك الله - إذا تجاوز صدر صاحبه وأفلت من لسانه إلى أذن واحدةٍ فليس حيئاً بسرّ ، بل ذاك أولى بالإذاعة ، ومفتاح النشر والهرة . وإنما بينه وبين أن يُشعّ ويستطيع أن يُدفع إلى أذن ثانية . وهو مع قلة المأمورين عليه ، وكرب الكنمان ، خريٌ بالانتقال إليها في طرفة عين .

وتصدر صاحب الأذن الثانية أضيق ، وهو إلى إفشاء أسرع ، وبه أسرى
وفي الحديث به أقدر ، والحجج عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الشانى ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث
انتهى .

هذا أيضاً إذا است晦ت المحدث واستكتم ، وكان عاقلاً حليماً ، وناصحاً
وادأ ، فكيف إذا أخبر ولم يؤمن بالكتمان ، وكان من يمشي بالنمائم ويحب
إفشاء العياب ، وكان من يتطوى على غشن أو شحنه ، أو كان له في إظهاره
اجتلافٌ نفعٌ أو دفع ضرر .

فاللهم إذا ذاك على صاحب السر أوجب ، وعمن أفضى به إليه أنزل ،
لأنه كان مالكاً لسره فاطلق عقاله ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده
ووثقه ، وصار هو العبد القبيـن المملوك لمن اتـمه على سـرـه ، وملـكه رـقـه
رقـبـته ، فإن شـاء أـحسـنـ مـلكـتـه لـحـفـظـ ذـلـكـ السـرـ فـجزـ نـاصـيـتـهـ ، وـجـعـلـهـ رـهـيـنـهـ لـيـوـمـ
غـبـبـهـ عـلـيـهـ . وـقـلـ مـنـ يـحـسـنـ الـمـلـكـةـ ، وـيـحـرـسـ الـحـرـيـةـ أوـ يـضـبـطـ نـفـسـهـ ، فـإـنـهـ
رـبـمـاـ لـمـ يـخـرـجـ غـشـاـ فـاخـرـجـ سـخـفاـ وـضـعـفـاـ . وـإـنـ أـسـاهـ الـمـلـكـةـ وـخـتـرـ الـآـمـانـةـ
فـاطـلـقـ السـرـ وـاسـتـرـعـاهـ مـنـ هـوـ أـشـدـ لـهـ إـضـاعـةـ ، فـسـفـكـ الدـمـ وـأـزـالـ النـعـمـ وـكـشـفـ
الـمـوـدـةـ وـفـرـقـ بـيـنـ الـجـمـيعـ ، وـإـنـ كـانـ الـمـضـيـعـ لـسـرـ الـلـوـمـ . قالـ الشـاعـرـ :

إذا خـسـقـ صـدـرـ الـرـءـ عنـ سـرـ نـفـسـهـ فـصـدـرـ الـذـيـ يـسـتوـدـعـ السـرـ أـضـيـقـ

فـمـنـ أـسـواـ حـالـاـ ، وـأـخـسـرـ مـكـانـاـ ، وـأـبـعـدـ مـنـ الـعـزـمـ ، مـمـنـ كـانـ حـرـاـ مـالـكـاـ
لـنـفـسـهـ فـصـيـرـ نـفـسـهـ عـبـدـ مـمـلـوكـ لـغـيرـهـ ، مـخـتـارـاـ لـلـرـقـ ، مـنـ غـيرـ أـسـيرـ وـلـاـ قـسـرـ !
وـالـعـبـيدـ لـمـ يـصـبـرـوـ عـلـىـ الرـقـ إـلـاـ بـذـلـ الـأـسـرـ وـالـسـبـاءـ .

وـمـنـ كـانـ سـيـرـهـ مـصـوـنـاـ فـيـ قـلـبـهـ يـطـلـبـ إـلـيـهـ فـيـ الحـدـيـثـ بـهـ فـأـخـرـجـهـ عـنـ
يـدـهـ ، صـارـ هـوـ الطـالـبـ الرـاغـبـ إـلـىـ مـنـ لـاـ يـوـجـبـ لـهـ طـاعـةـ ، وـلـاـ يـنـكـرـ لـهـ فـيـ

عافية ، ولا يتحرّز له من مُصيبة . وكلما كانت إذاعته لاسراره أكثر كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدمتهم أدوم . فإذا كان أصل السر معلوماً عند عينة أو أقل من العينة ، فما أعنّ استداره . غير أنه لا لوم على صاحب الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفسأه ، ولا من قبله علم .

ولو أن أوزن الناس جلماً ملأ لسانه وخصن سره وقتل لفظه ، ما قدر على أن يملك لحظ عينيه ، وسخنته وجهه ، وتغيير لونه ، وتبسمه أو قطريمه ، عند ما يجري بلبه من ذكر ذلك السر ، أو يخطر بياله منه ، فيبدو في وجهه ومخايشه إذا عرض بذكره ، أو سَعَ له نظير أو مثيل ، أو حضر من له فيه سبب . إلا بعد التصنُّع الشديد ، والتحفُّظ المفرط .

إذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشيئها ، ويُطلع عليه بِتَنْظِينِ
المرجفين ، والمعتفين للأفعال والأقوال ، والناظر في مصادر التدبير ومخايل
الأمور ، فيفسرُ من هذه الجهات أكثر مما تفسِّي السن المذاييع البُذر . فكيف
إذا أطلق به اللسان ، وعُودَ إذاعته القلب . والعادة أملك بالأدب .

وربما ادركه الحَذْن ، وقبضه الظن ، فنالت صاحبَه في خُدعة ، بأن
يُذَكِّر له طرف منه ، وَيُوْهِمَ أنه قد فشا وشاع ، فيصدق الظن فيجعله يقيناً ،
ويفسرُ الجملة فيصِّيرُها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويُويقناها .

وربَّ كلام قد ملا بطنَ الطوامير قد عُرِفَ جملته وما فيه الضُّرُّ منه ،
بسحابة أو طابع ، أو لحظة مطلع في الكتاب ، أو حرفٍ تبيّن من ظهره .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوة الظن بجميع الأئم ، فإنه
روى عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « الحَزْمُ سُوءُ الظن » . وقيل
لثيف : بم بلغتم ما بلغتم من الشرف والسوداد ؟ قالوا : بسوء الظن .

فلا تعتمد على رجل في سُرُّك تحمدُ عقلَه دون أن تحمدَ وده ونصحه ،

فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر :

وما كُلُّ ذي لَبٍ بِمُؤْتِيكَ نُصَحَّهُ ولا كُلُّ مُؤْتِ نُصَحَّهُ بِلَبِّهِ

ولقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن مروان فأوقع بالحجاج عنده وسبه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأتبه وقال : ما يُؤمِنُكَ أَنْ يُخِيرَ أمير المؤمنين عبد الملك الحجاج بما قلت فيه - ومرجعك إلى العراق - فتضيقَتْ عليه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنني ما زلت بيدي قط أحداً أرزن منه .

وهذا والله - أبقاءك الله - الغلط البين ، والعذر الملفق ، وتحسين فارط الخطأ ، لأنَّه ليس كُلُّ راجحٍ وعاقلٍ بناصحٍ لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهون ، و شأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلُّ الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدْنُون بالاغلبِ رغبةً ورهبةً ، وتحسُّناً عندهم بمحاجتهم إليهم .

[٥ - من يذيع الأسرار]

وأكثر ما يذيع أسرار الناس أهلوهم وعيدهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، [٦] من لهم عليهم اليد والسلطان . فالسرُّ الذي يودعه خليفةٌ في عاملٍ له يلحقه زئنه وتشبيهه ، أخرى الأُبَّكتَه . وهذا سهلٌ كل سيرٌ يستودعه الجلة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللائمة .

وقال سليمان بن داود في حكمته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سرك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعدد من تعرف الفأً وتُفضي إلى واحد سرك إن لم يكن ذلك الواحد موضعًا للأمانة في السر . لكنه قبل : رجل يساوي ألف

رجل ، ورجل لا يساوي رجلاً . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « الناس كأبل مائة لا يوجد فيها راحلة » .

فكمل ذلك يراد به أن الفضل قليل والتفص قليل لا على نسب ما يتلقاه
 الاجتماع من هذه الأعداد ، لأننا قد نجد الرجل يُوزن بالآمة ، ونجد الآمة لا
 تساوى قلامة ظفر ذلك الرجل .

فإذا كان من تقع عليه الشريبة معدوماً - سبياً من يُوثق بحلمه وعقله ،
 وأمانته ونصحه ، ومن لا ضرر عليه ولا نفع له في السر الذي يضره ولا يحرم
 عليه كتمانه ، ومن قد واث على نفسه بالسر والحفظ ، فإنه ليس كُلَّ من ضمَّن
 فلم يضمِّن ضامناً ، ولا من استَودع فلم يقبل مستحْفظاً ، ولا من استخلف فلم
 يخلف خاتماً ، وإنما يلحقه الحمد والنِّعم ، والأجر والإثم إذا ضمَّن الأمانة ثم
 خَرَّها - فكان القوم قالوا : لا تودعن سُرُك أحداً . وإنما فتنى تجد رجالاً فيه
 الصفة التي وصف بها مسْكِن الدارمي نفسه حيث يقول :

أني امرؤ مني الحياة الذي ترى
 أنسنة بأخلاقي قليل خداعها
 أواني رجالاً لست أطلع بعضهم
 على سر بعض غيري أني جماعها
 يظلون شئ في البلاد وسرهم
 إلى صخرة أعيها الرجال انصداعها
 وقيل لرجل : كيف كتمانك للسر؟ قال : أجعل قلبي له قبراً أدفعه فيه
 إلى يوم النشور .

وقال الآخر :

* وأكتُم السر في ضربة العنق *

وهذه صفات موجودة بالأقوال ، معدومة بالأفعال . والمفترض من اغتر بما
 يبعد الواقع منها دون أن ييلو الخبر .

والذى جربناه ووجدناه : أن من يُفضى إليه بالشيء ، يبلغ من إذاعته ونشره ما لا يليقه الرسول المستحفظ المعنى بتلبيغ الرسالة ، المحمود المجازى على أدائها ، حتى ربما كان يبلغ في الإذاعة لعن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال ، المعروف بالتنمية والتقويم ، فيوهمه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضوء في الظلمة .

وهذا فعل عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أحب أن يشيع إسلامه فقال : من أنت أهل مكة ؟ قيل له : جميل بن النحوي . فتأنه فاخره بإسلامه وسألة ان يكتمه عليه ، فلم يمس ويمكّنه أحد لم يعلم بإسلام عمر ، رضي الله عنه .

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السرّ الاستهدا به ، والتحذير من نشره ، فإن التهـنـيـنـ أخـرـىـ ، لأنـهـ تـكـلـيفـ مشـقةـ ، والصـبـرـ عـلـىـ التـكـلـيفـ شـدـيدـ ، وهو حـظـرـ ، والنـفـسـ طـيـارـ مـقـلـبةـ ، تـعـشـقـ الإـبـاحـةـ وـتـغـرـمـ بـالـطـلاقـ .

ولعل رجلاً لو قيل له : لا تمسـخـ بـهـذـاـ الجـدـارـ . وهو لم يستـخـدهـ بـقـطـ . غـرـيـ بـانـ يـفـعـلـ .

وكذلك ما حدثـ بهـ منـ السـرـ فـلـمـ يـؤـمـرـ بـسـتـرهـ ، لـعـلـهـ الـأـلـيـخـطـرـ بـيـالـهـ ، لأنـهـ موجودـ فيـ طـبـائـعـ النـاسـ الـوـلـوـعـ بـكـلـ مـنـعـ ، وـالـضـجـرـ بـكـلـ مـحـصـولـ .

[٦ - كل منزع مرغوب]

فربـدـ أـنـ نـعـلـمـ : لـمـ صـارـ الإـنـسـانـ عـلـىـ مـاـ مـنـعـ . وـإـنـ كـانـ لـاـ يـنـفـعـ . أحـرـضـ مـنـهـ عـلـىـ مـاـ اـبـيـعـ مـنـ بـغـيـرـ عـلـةـ وـلـاـ سـبـبـ إـلـاـ اـمـتـهـانـ مـاـ كـثـرـ عـلـيـهـ ، وـاستـطـراـفـ مـاـ قـلـ . عـنـدـهـ ؟ وـلـمـ أـقـبـلـ عـلـىـ مـنـ وـلـىـ عـنـهـ وـلـىـ عـنـ أـقـبـلـ عـلـيـهـ ؟ وـلـمـ قـالـواـ : إـذـاـ جـدـتـ الـمـسـأـلـةـ جـدـ الـمـنـعـ ؟ وـقـالـ الشـاعـرـ :

الـسـرـ يـلـخـىـ وـالـعـصـاـ لـلـعـبـدـ . وـلـيـسـ لـلـمـلـجـفـ مـثـلـ الرـدـ

ولم صار يَتَمَّنُ الشَّيْءَ وَيَنْذَرُ فِيهِ النَّدُورَ ، وَيَقْطَعُ إِلَيْهِ شَوْقًا ، فَإِذَا ظَفَرَ
بِهِ صَدٌّ عَنْهُ وَأَخْلَقَ عَنْهُ ؟ وَلَمْ زَهَدِ الْمُلُوكُ فِيمَا فِي أَيْدِيهِمْ وَرَغَبُوا فِيمَا فِي
أَيْدِي النَّاسِ ؟

فتقول : إن الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مبلغاً من الرُّوْسَعِ لَا يَمْكُنُهَا
تجاوزُهُ ، وَلَا تُسْعِ لَأَكْثَرِهِ . فَكَانَ مَعْهَا فِيمَا دُونَ الرُّوْسَعِ الْفَقْرُ وَحُسْنُ
الإخْرَانِ ، وَفِيمَا تجاوزَهُ عَزُّ الْغَنِيِّ وَأَمْنُ الْعَذَمِ . وَبِهِذَا وَبِمَثَلِهِ مِنَ الْبَخْلِ
وَالحرْصِ اسْتَخْفَتْ مِنْ احْتَاجَ إِلَيْهَا ، وَاعْظَمَتْ مِنْ اسْتَغْنَى عَنْهَا . وَجَعَلَهَا تَوَاقَةً
مِشَاقَةً ، مَتَّرْفَةً مَلَالَةً ، كَثِيرَةً التَّرَازِعَ وَالتَّقْلِبِ ، تَسْتَحِمُ عَلَيْهَا الْفَتَنَةَ ، وَبَيْلَى
خِيرَهَا [مِنْ شَرِّهَا] وَصَبِرَهَا مِنْ جَزْعِهَا . وَلَوْلَا هَذِهِ الْخَلَالُ سَقَطَتِ الْمِنْحَنِ ،
فَهِيَ تَعْظُمُ الْفَلِيلَ بِالْفُرْوَرَةِ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنْ أَقْوَاتِهَا ، أَوْ لَشْدَةِ التَّرَازِعِ وَالشَّوْقِ
إِنْ كَانَ مِنْ طُرْفِ شَهْوَانِهَا ، فَلَمْ يَصْنُفْ الشَّهْوَاتِ كَثِيرًا ، وَلَكُلُّ صَنْفٍ مِنْهَا
أَهْلٌ لَا يَحْفَلُونَ بِمَا سَوَاهُ . وَتَعْجَبُ مِنَ الْغَرِيبِ النَّادِرِ ، وَيَضْحِكُهَا الْبَدِيعُ
الْطَّارِئُ . إِلَّا أَنَّهُ إِذَا كَثَرَ الْغَرِيبُ صَارَ قَرِيبًا ، وَإِذَا تجاوزَ الْمُطَلُوبُ مَقْدَارَ
وَسْعِهَا وَحَاجَتْهَا فَصَارَ ظَهِيرًا وَفَضْلًا اسْتَخْفَتْ بِهِ وَقَلَّ فِي لَعْنَاهَا كَثِيرٌ . وَأَعْظَمَ
الْأَشْيَاءِ عَنْهَا قَدْرًا مَا اشْتَدَّ إِلَيْهِ الْفَقْرُ وَالْحَاجَةُ وَإِنْ قَلَّ قَدْرُهُ ، وَأَهْوَنَهَا عَلَيْهَا مَا
اسْتَغْنَى عَنْهُ وَإِنْ عَظُمَ خَطْرُهُ . وَجَعَلَ لَمَا تَوَقَّعَ إِلَيْهِ وَاشْتَاقَهُ مَكَانًا مِنْ قَوَاهَا ،
لَهُ . فَإِذَا امْتَلَأَ ذَلِكَ الْمَكَانُ سَرُورًا ، وَفَقَضَى ذَلِكَ الْأَرْبُ وَطَرَأَ مَا كَانَ طَمَعَ
إِلَيْهِ ، وَرَوَى مَا كَانَ ظَامِنًا إِلَيْهِ ، انْصَرَفَ عَنْهُ وَقَلَّاهُ ، وَحَالَ عَشْقُهُ بُغْضاً ،
وَشَوْقُهُ مَلَالًا .

وَالْعُلْمَةُ فِي ذَلِكَ : أَنَّ الدُّنْيَا دَارُ زَوَالٍ وَمَلَالَ ، لَيْسَ فِي كِبَانِهَا أَنْ تَبْتَتِ
هِيَ وَلَا شَيْءٌ مِمَّا فِيهَا عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِنَّمَا الثَّبُوتُ الدَّائِمُ لِدَارِ الْقَرَارِ .
فَالْأَسَمَةُ تَلْحِقُهَا فِي مَحْبُوبِهَا ، كَمَا يَصِيبُ الْمُتَهَنِّنَ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالبَاهِ ،
فَلَاهُ لَيْسَ شَيْءٌ أَبْغَضُ إِلَى مَنْ يَتَنَاهِي فِيهِ إِلَى بَاهِتِهِ ، مِنَ النُّظُرِ إِلَى نَاحِيَتِهِ ،

فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطياع تتشابه ، ولكل حائنة قوة ، فإذا امتلاط تلك القوّة من محسوسها لم تجد لها وراء طعمًا ولا ريحًا ، وعاد عليها الضُّر . فبعض النظر يُعنى ، والصُّوت الشدِيد يُعنى ، والرائحة المُتَشَّنة تُبطل المَشم ، والأطعمة الحارّة المُحرقة تُبطل حائنة اللسان .

وتتطُّرف كُلُّ واحدةٍ منها ، فيَّنِي الطَّيِّبُ عِنْدَ مَنْ بَعْدَ عَهْدِهِ [بِهِ] ، والجماع والسماع ، وبين من هو مغمومٌ فيه بونٌ بعيدٌ جداً ، في الحلاوة وحسن الموضع . كُلُّ ذلك مَا لَمْ يَاتِيْ المَالُ وَالْعِلْمُ ، فَإِنَّهُ كُلُّمَا كُتُرْ كَانَ أَشَهَى وَأَعْجَبْ ، لَأَنَّ قَصْدَ النَّاسِ لَهُ لَيْسَ لِطَلْبِ مَقْدَارِ الْحَاجَةِ وَسَدُّ الْخَلَةِ كَمَا يُرِيدُهُ أَهْلُ الْقَنَاعَةِ وَالرِّهَادَةِ ، إِنَّمَا يَرَادُ لِقْمَعِ الْجَرْصِ ، وَالْحَرْصُ لَا حَدُّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، لَأَنَّهُ سَعَى لِلْحَاجَةِ ، وَإِيْضَاعَ لِلْبُغْيَةِ .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لسوأ أن لا بن آدم وابن من ذهب لا يغنى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب » .

وقال بعض الحكماء :

من كان لا يغنى بما يُغْنِيه فكلُّ ما في الأرض لا يُغْنِيه
قال الله عز وجل : « وَتَعْجَبُونَ الْمَالَ حُبًا جُمِعاً » . وقال : « وَإِنَّهُ
لَحُبُّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٍ » . وقال الشاعر :
والناسُ إِن شَيْءْتَ بِطْوَنَهُمْ فَعِيسُونَهُمْ فِي ذَاكَ لَا تُشَبِّع

فأَنَا الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ : « لَا يُشَبِّعُ أَرْبَعَةُ مِنْ أَرْبَعَةِ أَرْضٍ مِنْ مَطْرٍ ، وَعِينٍ مِنْ نَظَرٍ ، وَأَنْشَى مِنْ ذَكْرٍ ، وَعَالَمٌ مِنْ عِلْمٍ » .. فَلَاهُ العَيْنُ لَا تُشَبِّعُ فِي الجَمْلَةِ كَمَا لَا يُشَبِّعُ الْخَيْشُومُ مِنْ الْأَسْتِشَاقِ . فَأَنَا مِنْ صَنْفِ مَا يَرَاهُ دُونُ

صنب ، فإنه يتبَعُ ويروي ، ويصدُّ ويصفِّ إلى غيره .

وأَمَّا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يَحْاطَ بِهِ ، فَمَنْ طَلَبَهُ لِشَرْفِهِ وَفَخْرِهِ فَإِنَّهُ لَا حَدُّ لَهُ وَلَا نِهَايَةُ ، وَلَمْ يَزِدْ دَلْهُ طَلْبًا إِلَّا ازْدَادَ فِيهِ رِغْبَةً . وَمَنْ طَلَبَ مِنْهُ مَقْدَارٍ كَفَائِيَّهُ وَحَاجَتِهِ كَفَاهُ مِنَ الْبَسِيرِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مِنْ كُثُرِ عِلْمِهِ أَنْ يَرَى فِيهِ الْغَنِيَّةَ وَالْكَبْرِيَّةَ أَيْضًا . وَقَدْ يَمْلِكُ كَمَا يَمْلِكُ كُلَّ شَيْءٍ . وَتَمَلِّعُ الْعَيْنُ أَيْضًا مِنْهُ وَمِنَ الْمَالِ .

وقيل : اثنان منهومان : طالب علم وطالب ذُنيـا . وهذه القضية تدلـ على الخروج عن العقل ، لأنـ النـهم تجاوزـ القدرـ .

وأَمَّا الْحَرْصُ عَلَى الْمُمْنَعِ الَّذِي لَا يَتَسْعُ بِهِ ، وَالْعَجْبُ مَا يَتَعَجَّبُ مِنْ مُثْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ أَخْلَاقِ الْمُقْلَأِـ . وَمَا لَمْ يَكُنْ فِي أَخْلَاقِهِمْ قَلَّا نَظَرُ فِيهِ وَلَا قِيَاسُ عَلَيْهِ ، وَإِنَّمَا ذَلِكَ فِعْلٌ مِنْ اسْتَوْحَشَ مِنَ الْحَجَةِ ، وَشَرَدَ عَنِ الْعِلْمِ الْعَلَلِ وَالْأَسْبَابِ .

[٧ - أَكْثَرُ الْأَمْوَارِ عَرْضَةً لِإِفْشَاءِ السَّرِّ]

وإِفْشَاءُ السَّرِّ إِنَّمَا يَوْكِلُ بِالْخَبْرِ الرَّائِعِ ، وَالْخَطْبِ الْجَلِيلِ ، وَالْدَّفِينِ الْمُغَمُورِ ، وَالْأَشْنَعِ الْأَبْلَقِ ، مُثْلِ سَرِّ الْأَدِيَانِ لِغَلَبةِ الْهَوَى عَلَيْهَا ، وَتَضَاغَنُ أَهْلَهَا بِالْخَلَافِ وَالتَّضَادِ ، وَالْوَلَايَةِ وَالْعَدَاوَةِ . وَمُثْلِ سَرِّ الْمُلُوكِ فِي كِيدِ أَعْدَائِهِمْ وَمَكْنُونِ شَهَوَاتِهِمْ وَمَسْتُورِ تَسْدِيرَاتِهِمْ ، ثُمَّ مِنْ يَلِيهِمْ مِنَ الْعَظَمَاءِ وَالْجَلَّةِ ، لِنَفَاسَةِ الْمُلُوكِ عَلَى الْعَوَامِ ، وَأَنَّهُمْ سَاهَةُ مُظَلَّةِ عَلَيْهِمْ ، أَعْيُنُهُمْ إِلَيْهَا سَامِيَّةُ ، وَقُلُوبُهُمْ بِهَا مَعْلَقَةٌ ، وَرَغْبَاتُهُمْ وَرَهْبَاتُهُمْ إِلَيْهَا مَصْرُوفَةٌ . ثُمَّ عَدَاوَاتِ الإِخْرَانِ ، فَإِنَّمَا صَارَتِ الْعَدَاوَةُ بَعْدَ الْمُوْدَةِ أَشَدُّ لِأَطْلَاعِ الصَّدِيقِ عَلَى سَرِّ صَدِيقِهِ ، وَإِحْصَائِهِ مَعَايِيَهِ ، وَرَبِّمَا كَانَ فِي حَالِ الصُّدَاقَةِ يَجْمَعُ عَلَيْهِ السُّقْطَاتِ وَيُحْصِي الْعِيُوبَ ، وَيَحْتَفِظُ بِالرُّقَاعِ ، إِرْصَادًا لِيَوْمِ التَّبُّوَةِ ، وَإِعْدَادًا لِحَالِ

وقد شكا بعض الملوك تنقيب العوام عن أسرار الملوك فقال :

ما ي يريد الناس مثـا ما ينام الناس عنـا
لو سـكـنا باطنـا الأـرـضـ لـكانـوا حـيـثـ كـنـا
إـنـما هـمـمـ اـنـ يـنـشـرـوا ما قـدـ دـفـنـا

ولم نرى حـبـ الطـعـنـ علىـ الـمـلـوـكـ ، والـتـجـسـسـ عـلـىـ أـخـبـارـهـ ، وـعـشـقـ
نشرـ المـعـاـيـبـ ، وـاسـتـحـلـالـ الغـيـبةـ ، ظـاهـرـاـ فـيـ طـبـاعـ النـاسـ لاـ يـكـادـ يـنـجـوـ مـنـهـ
احـدـ مـنـهـ إـلـاـ مـنـ رـجـعـ حـلـمـهـ وـعـظـمـتـ مـرـوـءـتـهـ ، وـظـهـرـ سـوـدـدـهـ ، وـاشـتـدـ وـرـعـهـ ،
حتـىـ قـالـ بـعـضـهـمـ : «ـ الغـيـبةـ فـاكـهـةـ الشـكـ » .

ورـوـوـاـ عـنـ بـعـضـهـمـ أـنـ قـالـ : «ـ الفـاسـقـ لـأـغـيـبةـ لـهـ » .

وـقـالـ آخـرـ : «ـ أـتـرـ عـوـنـ مـنـ ذـكـرـ الـفـاسـقـ ؟ـ اـذـكـرـوـهـ يـعـرـفـهـ النـاسـ » .

[٨ - الغـيـبةـ]

وـلـمـ نـرـ اللـهـ جـلـ شـأـوـهـ رـخـصـ فـيـ اـغـيـابـ مـؤـمـنـ ، بلـ ضـرـبـ المـثـلـ فـيـ
الـغـيـبةـ بـأـكـرـهـ مـاـ تـكـرـهـ النـفـوسـ ، وـمـاـ تـخـتـارـ مـنـهـ الـمـوـتـ عـلـىـ الـحـيـاةـ ، فـقـالـ :
«ـ وـلـاـ تـجـسـسـوـاـ وـلـاـ يـغـتـبـ بـعـضـكـمـ بـعـضـاـ لـيـحـبـ اـحـدـكـمـ أـنـ يـاـكـلـ لـحـمـ أـخـيـهـ مـيـتـاـ
تـكـرـهـتـمـوـهـ » .

وـاـغـيـابـ النـاسـ جـمـيـعـاـ خـطـةـ جـوـرـ فيـ الـحـكـمـ ، وـسـقـرـطـ فيـ الـهـمـةـ ،
وـسـخـافـةـ فيـ الرـأـيـ ، وـدـنـاءـةـ فيـ الـقـيـمةـ ، وـكـلـفـةـ عـرـيـضـةـ ، وـحـسـدـ وـنـفـاسـةـ قدـ استـحـوذـتـ
عـلـىـ هـذـاـ الـعـالـمـ وـغـلـبـتـ عـلـىـ طـبـائـهـ ، وـتـوـكـدـتـ لـسـوـهـ الـعـادـةـ عـنـهـمـ ، وـلـعـلـوـ الشـرـ
عـلـىـ الـخـيـرـ ، وـكـثـرـةـ الدـغـلـ وـالـنـقـلـ وـالـحـسـدـ فـيـ الـقـلـوبـ . فـلـسـتـ تـرـىـ مـنـهـاـ
نـاجـيـاـ . إـمـاـ نـاظـرـ بـعـينـ عـدـلـ وـإـنـصـافـ ، فـهـوـ يـرـىـ مـاـ يـنـكـرـ فـيـ بـيـدـوـ فـيـ وـجـهـهـ

ولسانه . وإنما ناظرُ بعين البخضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد من العيوب في عدوه ما يُعِينه على التحرُّص عليه فيقرئها ويزيد فيها . وإنَّ عدم الحقّ يقول وبُحْرَ الحَسْنِ ، وزاد في قبح القبيح .

والحديث كله . إلَّا ما لا يبال به - ذكرُ النَّاسِ ، ولغو وخطل ، وهجُر وهداء ، وغيبة وقُمْزٌ ولز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنْيَّ ، إنَّما الإنسانُ حديث ، فإنْ استطعتَ أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكلُّ سِرْ في الأرض إنما هو خبرٌ عن إنسان ، أو طَرْ عن إنسان ، فله في البيئة أكثر الحظّ ، وجُلُّها كلفة لا ضرورة ، يُرِى صاحبها أنه قد أهمل محاسبة نفسه ، وغَفَر ذنبَها وألغى عيوبها ، وقصدَ قصداً غيره ، فتشاغل عَنْه بما لا يعنيه ، فانكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدبيره ، وتعجب من مَقابِحه ، ووجهَتْ نفسه في تَفْقُد أموره . ليس ذلك عن عِنابة بصلاحه ، ولا محبة لتقسيمه وتهذيبه ، ولا أنه مسيطرٌ عليه ولا محمومٌ عنده على ما يعني به من شأنه ، بل هو عنده عين المذموم .

وهذا جُلُّ حديث البشر وشُغلُهم في الليل والنهار .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعُوا إلى فضل القول ، وفضول الخواطر تبعث على اللهو والخطل .

[٩ - العدل]

ولو كان الرجلُ لا يتكلّم إلَّا بما يعنيه ، ولا يتكلّف ما قد كُفيه ، قلْ كلامه . ولو حُكِم العَدْل في أموره ، وفيما بينه وبين حالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامليه ، لطاب عيشه وخففت مَؤْوِنته والمَؤْوِنة عليه ، فَإِنَّ اللَّهَ تبارَك وَتَعَالَى لِم

يخلُّ مذاقاً أحلى من العدل ، ولا أروح على القلوب من الإنفاق ، ولا أمر من الظلم ، ولا أبغض من الجحود .

وقال بعض المتقديرين : « إنما يَعْرِفُ الظُّلْمَ مِنْ حُكْمِهِ عَلَيْهِ » . ومن استعمل العدل دُلُّه على أنَّ النَّاسَ يَجِدُونَ مِنْ طَعْمِهِ وَطَعْنِهِ الظُّلْمَ إِذَا فَعَلَهُ بِهِمْ مِثْلَ الَّذِي يَبْغِدُ إِذَا ظُلِمَ ، فَكَرِهُ لَهُمْ مَا كَرِهُ لِنَفْسِهِ ، فَأَنْصَفَ وَلَمْ يَظْلِمْ .

وينظالم الناس فيما بينهم بالشَّرَهِ والحرص المركب في أخلاقهم ، فلذلك احتاجوا إلى الحُكْمِ . وقد أطلق لهم تصريف أخلاقهم وأهاناتهم - التي رقت إليهم بالأحكام فيها ، ما جنَاحَتْهُمْ عَلَيْهِمْ أَكْثَرُ مَا يَطَالِبُهُمْ بِهِ الْخُصُومُ .

وقال بعض الحكماء : إنَّ مِنْ أَصْعَبِ الْأَعْمَالِ إِنْصَافُكَ فِي نَفْسِكَ ، وَمُوسَائِكَ أَخْلَاكَ فِي مَالِكَ ، وَذِكْرِ اللهِ . أَمَّا إِنِّي لَا أَعْنِي قَوْلَ سُبْحَانَ اللهِ ، وَالْحَمْدُ لِلهِ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَاللهُ أَكْبَرُ - وَإِنَّ ذَلِكَ لِمَنْ ذَكَرَ اللهَ - وَلَكِنْ ذَكْرُهُ عِنْدَهُ مَا يَعْرُضُ مِنَ الْأَمْرِ ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً لِلهِ فَعَلَّهُ ، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً لِهِ اجْتَبَبَهُ .

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلثة في ظُلْمٍ عَرْشُ اللهِ يوْمَ لا ظُلْمٌ إِلَّا ظُلْمٌ : رَجُلٌ لَمْ يَعْبُدْ أَخْرَاهُ بِعِيْبٍ فِيهِ مِثْلَهُ حَتَّى يُصْلِحَ ذَلِكَ الْعِيْبَ مِنْ نَفْسِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يُصْلِحُهُ حَتَّى يَهْجُمَ عَلَى آخَرَ ، فَتُشْغِلَهُ عِيْبُهُ عَنْ عِيْبِ النَّاسِ . وَرَجُلٌ لَمْ يَقْدِمْ يَدًا وَلَا رِجْلًا حَتَّى يَعْلَمْ : أَفَ طَاعَةُ اللهِ هُوَ أَمْ فِي مَعْصِيَتِهِ؟ وَرَجُلٌ لَمْ يَلْتَمِسْ مِنَ النَّاسِ إِلَّا مِثْلَ مَا يَعْطِيهِمْ مِنْ نَفْسِهِ . أَمَّا تَحْبِبُونَ أَنْ تُنْصِفُوا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رَحْمَ اللهِ عَبْدًا أَنْفَقَ الْفَضْلَ مِنْ مَالِهِ وَأَمْسَكَ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِهِ ، وَشُغْلَهُ عِيْبُهُ عَنْ عِيْبِ النَّاسِ » .

وقال عيسى بن مريم : « يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ أَيْرِى أَحَدُكُمُ الْقَذَّاءَ فِي عَيْنِ أَخِيهِ وَيَغْسِلُ عَنِ الْجَذْعِ الْمُعْتَرَضِ فِي عَيْنِهِ » .

وقيل لعيسى بن مرير : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي ما لا يعنيني .

وقال عمرو بن عبيد : أعتبرني ثلاث خلال : تركي ما لا يعنيني ، وبرهم من جلّه ، وأخ احتجت إلى ما في بيديه بذلك لي .

وما أحق من أحصيت الفاظه وليس من قوله ينثر منه إلا لديه رقيب عبيد ، ومن أحصيت عليه مثاقيل الذر واستشهد عليه جلته وجوارحه - إن يضبط لسانه .

وقد جاء في بعض الآثار : من عذر كلامه من عمله قُلْ كلامه إلا فيما لا يعنيه .

وكُلْ أمرٌ فحسبي نفسه ، غير مأمور بغيره ، وهو الوحيد دون الأهل والولد والقرابة . وقال الله جل نساؤه - قوله الحق - « كُلُّ أُنْزِلٍ بِمَا كَبَ رَجُلٌ » . وقال : « بِنَائِبِهِ الَّذِينَ آتَوْا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ قُلْ إِذَا أَفْتَدْتُمْ » .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع التهيف والسوط .

وقال بعض الحكماء : شيشان لا صلاح لأحدهما إلا بالأخر : اللسان والتهيف .

وانت إذا تأملت أكثر ما ينتاجني به المتحدثون وجدت أكثر السائلين يسأل عما لا يعنيه ، ويكثرث لما لا يكرره ، ويعني بما لا ينفعه ولا يضره ، وأكثر العجيبين يجيئ ولم يسأل ، ويتكلف ما لا يعلم ، ولو قال له قاتل : من سالك لافتضح ، ولو حاجته فيما أدعى ووقفه لانقطع . قال الله عز وجل : « قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أُنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ » .

ومر هشام بن عبد الملك ببعض أهل الكلفة والفضول ، وعليه حلة ذيالة يسحبها في التراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أنسدت ثوبك . قال : وما يضرك من ذلك ؟ قال : ليتكقيت في النار . قال : وما ينفعك من ذلك ؟ فأفخره غاية الإفحام .

ولو تهياً للمتكلفين في كل وقت مثل ضرامة هشام لازدجر من به حياة منهم ، ولقللت الفضول والكلف والنبية .

[١١ - هودة إلى النبية]

قالوا : وليس من أحد أذل من مفتاح ، لأنّه يخفي شخصه ، ويُطامن جسده ، ويغمس من صوته ، ولا يزيد بما يناله من ذلك إلاّ بآن يرفع من قدر خصمه ومعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدري من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيته هبته ، وإذا غاب عنك اغتبته .

وهي لعمري سبيل العظام عند العوام ، والملوك عند الرعية ، والساسة عند العبيد .

فلم يأخذ المفتاح من اغتابه شيئاً بغضبه إيه إلاّ الذي أعطى من النبية عند حضوره أكثر منه .

ولو كان المفتاح لا يستر من النبية إلاّ مئن بخاف سطوه ، كان أشدّ . ولكن اللؤم المتمكن منه يحمله على اغتاب عبده وأمنه ، فضلاً عن كفته ونظيره .

ويقتات الرجل عند عدوه والماشين له ، مساعدة له بالسُّخف ، وتقرباً إليه بالمهانة والضعف ، من غير أن يكون له عليه طول ، أو بلتسمه على ما

تقرّب به إلى جزاء أو شكوراً .

ثم لعله ينكتفي ، إلى الذي اغتابه وقضبه من ساعته ويومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لعله أيضاً ولا مرفق ولا ربع أكثر من الدولة التي يجدها في نفسه ، والضعف في مُنتهٍ ، كما يعظم الغنى بغير ثمن ، ويحقر الفقير بغير سبب ، فمتي كُوشف أو عُوتَبَ ليُنتَهِ ذلة أخرى من البُكْرَة بالمعافر الكاذبة ، والاعتصام بالأيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دُربَته فهو حريٌ أن يُطْلَعَ على دخلة أمره ، فلا يُفْتَلَ منه عذر ، ولا يُصْنَق في قولٍ ولا حلف ، وقد تُسْرِيَنَ الدُّلُّة ، وتدرُّعَ الخصوْع .

وليس من سُوس النفس الكريمة الشُّهْمَة ، أن تلقى الناس بخلاف ما يتخلّفون به ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، او مكر وجلة ، ويثار بالغيبة فيها الرأي الأصيل من مكانه ، فيفعل ذلك العاقل فيما يحل له ويحسُّ به ، بعد أن تُعيَّنَ العجلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق والملاية .

وإنما قبل : « قُلْ مِنْ اعْتَذَرْ إِلَّا كَذَبْ » ، لكنّة النُّطْفَ في الناس وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار نهت عن كُلْفَة الضعف الأول في الاغتياب ، ولا كُلْفَة الضعف الأول صانت عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه بقابل للعذر على حقيقة وإن أظهر القبول ، لما جرُبَ من سخاء الناس بالأيمان ، وبعدهما من الإقرار بالذنب ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيلاً للمعتذر إليه فيحق على المعتذر - إن كانت في نفسه قيمة - أن لا يعتذر إلا من يحب أن يجد له عذراً ، ولا يجعل إلى المبنين وهو لا يجد للحجّة مكاناً .

وأكثر من يعتذر اليه إنما يفعل ذلك به خوفاً من سلطته ، وإبقاء
لسلطانه .

والمنتفقون يتأنلون في الأيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان
الهمة ، ويلزمهم الظنة ، سبباً في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدُّم
والمال ، وقتُكَ السُّتر .

ولا حسم لهذا الداء إلا باطراح الفضول ، وسلامة اللسان من أن يبلغ في
الأعراض ، ويستسر بالغصيّة والبهتان .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « المسلم من سلم المسلمين من
لسانه ويده ». ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .

[١٢ - حفظ اللسان]

وقال القاتل : احرسْ أخاك إلا من نفسه .

وقالوا : مقتل العرء بين فكيه .

وكتب على بعض أبواب المدن بالسُّند : احفظ رأسك .

وقال الأول : قد تصل النِّصال إلى الإخوان فتستخرج ، وأمثال النِّصال
من القول إذا وصلت إلى القلب لم تستخرج أبداً .

وقال بهرام ، ويسعى في الليل صوت طائر فتحدها بسهم وهو لا يراه ، إلا
أنه تتبع الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطير أيضاً لو سكت كان
خيراً له !

وقيل : ما شيء أحقر بطول سجن من لسان .

وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن ؟ فيقلن :
بحبر لأن تركتنا !

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : « وَهَلْ يَكُبُّ
النَّاسُ عَلَى مَا خَرَمُوهُ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَانَدُ الْسَّتِّيمَ » .

وقال عيسى عليه السلام : « أَعْمَالُ الْبَرِّ ثَلَاثَةٌ : الْمُنْطَقُ ، وَالنَّظَرُ ،
وَالصُّمُّوتُ . فَمَنْ كَانَ مُنْطَقَهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَقَدْ لَغَى ، وَمَنْ كَانَ نَظَرَهُ فِي غَيْرِ
اعْبَارٍ فَقَدْ سَهَّا ، وَمَنْ كَانَ ضَمَّتُهُ فِي غَيْرِ تَفْكِيرٍ فَقَدْ لَهَا » .

فَانظُرْ بِأَيِّ الْأَمْرِينَ قَطَمَتْ عَرْكُكَ ؟ أَبِ الْحُكْمَةِ أَمْ بِاللُّفْوِ ؟ وَانظُرْ كَيْفَ
وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَثْنَيْ عَلَيْهِ بَخِيرَ مِنْ عِبَادِهِ فَقَالَ : « وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ الْلُّفْوِ
مُقْرَبُونَ » ، وَقَالَ : « وَإِذَا سَمِعُوا الْلُّفْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ » ، وَقَالَ : « وَإِذَا
مَرُوا بِاللُّفْوِ مَرُوا كَرَاسًا » . وَصَادَ عَنْهُ أَسْمَاعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَالسَّتِّيمِ فَقَالَ :
« لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِغَوَا وَلَا تَأْتِيَمَا . إِلَّا قِيلَّا سَلَامًا سَلَامًا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْعِبَادَةُ عَشْرَ أَجْزَاءً ، تَسْعَهُ مِنْهَا
فِي الصُّمُّوتِ » .

وقال علي بن أبي طالب : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبَرُ وَانتِظَارُ الْفَرْجِ » .

وقال بعض الحِكَمَاءِ : لَوْلَمْ يَكُنَّ لِلصُّمُّوتِ فِي ضَمَّتِهِ إِلَّا الْكَفَايَةُ لَآنَ
يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ وَيُحَكِّي عَنْهُ مَحْرُوفًا فَيُضْطَرُّ إِلَى أَنْ يَقُولَ : لَيْسَ هَكُذا قَلْتُ ، إِنَّمَا
قَلْتُ كَذَا وَكَذَا . فَيَكُونُ إِنْكَارُهُ إِقْرَارًا ، وَاعْتِرَافُهُ بِمَا حُكِّيَ عَنْهُ شَاهِدًا لِمَنْ
وَشَّى بِهِ ، وَإِذْعَانًا لِتَحْرِيفِهِ غَيْرِ مَقْبُولٍ مِنْ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَ بِبَيْنَةٍ لَهُ - لَكَانَ ذَلِكَ مِنْ
أَكْثَرِ فَضَائِلِ الصُّمُّوتِ .

وَرَبِّمَا ذَكَرَ رَجُلٌ اللَّهُ تَبارَكُ وَتَعَالَى ، فَكَانَ ذَلِكَ الذِّكْرُ إِنَّمَا لِهِ ، لَأَنَّهُ قَدْ
يُدْخِلُهُ فِي بَابِ تَفْحِيمِ الذَّنْبِ الْحَقِيرِ وَالْإِغْرَاءِ وَالتَّحْرِيْضِ ، فَبِسَيْفِكَ الدَّمِ
الْعَرَامِ ، أَوْ يَعْظُمُ الجَرْحَ الصَّغِيرِ . بَلْ رَبِّمَا ضَحَّكَ وَتَبَسَّمَ ، فَأَغْزَى وَحْرَضَ ،
وَأَثْمَمَ وَأَوْبَقَ . قَالَ بَعْضُ الشَّعْرَاءِ :

فإن شئت أدلّ فـي كما غير واحد
محاشرةً أو قال عندي في بـرْ
فـيـان اـنـا لـمـ آـسـرـ وـلـمـ آـنـهـ عـنـكـما
صـحـكـتـ لـهـ حـنـىـ يـلـجـ ويـسـتـشـري
وقـالـ العـربـ : « من كـفـيـ شـرـ لـقـلـقـهـ وـذـبـيـهـ وـفـقـيـهـ فـقـدـ كـفـيـ الشـرـ » .

وهذا بـابـ لوـلاـ أـنـ تـشـغـلـ القـارـيـءـ لـهـذـاـ الكـتـابـ بـغـيرـ ماـ قـصـدـنـاـ إـلـيـهـ وـعـزـمـناـ
عـلـيـهـ لـأـتـبـاـ عـلـيـهـ .ـ وـهـوـ كـبـيرـ مـوـجـودـ لـمـنـ طـلـبـهـ ،ـ وـجـمـلـهـ وـاحـدـةـ فـيـهاـ كـفـيـةـ ،ـ فـإـنـماـ
تـخـتـلـفـ الـأـلـاظـ الـتـيـ تـجـعـلـ كـسـوـةـ لـتـلـكـ الـمـعـانـيـ .ـ وـالـأـ فـلـاسـكـ إـذـاـ نـظـرـتـ إـلـىـ
جـمـيعـ شـرـورـ الـدـنـيـاـ وـجـدـتـ أـوـلـهـاـ كـلـمـةـ عـارـتـ فـجـتـ حـرـباـ غـوـاناـ ،ـ كـحـرـ بـكـرـ
وـتـغـلـبـ اـبـنـ وـاثـلـ ،ـ وـغـبـ وـذـبـيـانـ اـبـنـ بـغـيـضـ ،ـ وـالـأـوـسـ وـالـخـزـرـجـ اـبـنـ قـيـلـةـ ،ـ
وـالـفـجـارـ الـأـوـلـ وـالـثـانـ ،ـ وـعـامـةـ حـرـوبـ الـعـربـ وـالـعـجمـ .ـ

وـإـذـ تـأـمـلـ أـخـبـارـ الـمـاضـيـنـ لـمـ تـحـصـ عـذـدـ مـنـ قـتـلـهـ لـسـائـهـ وـكـانـ هـلـاـكـهـ فـيـ
كـلـمـةـ بـدـرـتـ مـنـهـ .ـ

ولـيـسـ العـجـبـ مـنـ أـفـضـيـ بـسـرـهـ إـلـىـ مـنـ لـيـسـ لـهـ بـمـوـضـعـ ،ـ مـنـ تـقـلـمـتـ
مـعـرـفـهـ وـزـالـتـ الشـكـوكـ عـنـهـ فـيـ اـمـرـهـ ،ـ وـلـكـنـ العـجـبـ عـنـ الـعـجـبـ مـنـ اـسـتـنـامـ
بـسـرـهـ إـلـىـ مـنـ لـمـ تـقـدـمـ مـعـرـفـتـهـ وـمـنـ أـنـسـ إـلـيـهـ عـنـ الـقـلـمـةـ وـالـلـقـاءـتـينـ ،ـ دـوـنـ مـعـرـفـةـ
الـغـيـنـ وـالـأـسـمـ ،ـ وـالـسـبـ وـالـنـسـبـ ،ـ فـانـخـدـعـ فـيـ أـوـلـ وـهـلـةـ وـغـيـنـ عـقـلـهـ قـبـلـ أـنـ
يـغـيـرـ دـيـنـهـ وـمـالـهـ ،ـ وـتـضـاعـفـتـ عـلـيـهـ الـبـلـيـةـ بـطـولـ الـحـسـرـةـ ،ـ فـإـنـ الـبـلـاءـ عـارـضـ
وـمـكـتـبـ ،ـ فـكـانـ الـعـارـضـ السـمـاـويـ وـمـاـ خـوـلـتـهـ الـأـقـدارـ سـرـاـ بـعـدـ اـجـهـادـ صـاحـبـهـ
رـأـيـهـ ،ـ وـحـيـلـتـهـ فـيـ طـلـبـ اـلـخـيـرـ .ـ وـصـوـابـ تـدـبـيـرـهـ فـيـهـ أـسـهـلـ وـأـيـسـ عـلـىـ الـعـاقـلـ
الـمـعـتـادـ لـلـصـوـابـ ،ـ وـإـنـ كـانـ كـلـ مـكـروـهـ مـرـأـ بـشـعـاـ .ـ وـإـنـاـ الـكـرـبـ الـلـازـمـ وـالـدـاءـ الـعـيـاءـ
مـاـ اـجـتـمـعـ عـلـىـ صـاحـبـهـ مـعـ الـفـجـيـعـةـ وـالـحـاجـةـ ،ـ وـالـنـقـصـ وـالـذـلـةـ ،ـ غـمـ الـنـدـاسـةـ
وـالـأـسـفـ عـلـىـ مـاـ فـرـطـ مـنـهـ ،ـ إـذـ كـانـ الـجـانـيـ عـلـىـ نـفـسـهـ بـيـدهـ .ـ

ولـهـذـاـ الـكـلامـ نـظـرـ نـكـرـهـ التـطـوـيلـ بـهـ ،ـ وـالـمـعـنـىـ وـاحـدـ ،ـ وـإـنـماـ نـحـتـاجـ مـنـ

هذا ومثله - مما فلتمن ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ وزدن القول . وإلى
هذا أجزينا ، وله فصلنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرف مما فيه ، لكان ياذن الله كافياً
لمن له لبٌ وعقل ، لكن الاحتجاج أوَكَدَ ، والإبضاح أبلغ ، والحظ في هذا
القول كُلُّهُ لمن عقله والأخذه به ، أوفِ [منه] لمن قاله ولم يعمل بقوله ، لأنَّه
إنما يجتنى ثمرة الصواب ، ويختلف برؤفيه من صدق قوله بفعله ، فإنَّ الحكمة
قول وعمل ، وإنَّا حظُّ القائل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواسفين ،
وحسُّ الصفة يزول بزوالها ، وينقطع بانقطاعها ، ومدُّتها - إلى أن يملأها القائل
والسامع - يسيرة .

والأفعال المحمودة متصلة النفع والشرف والفضيلة في الحياة وبعد
الوفاة ، ومن خور للاعتاب ، وحديث جميل ، ونشر باقي على مرِّ الجديدين .
واكثر من ذلك كُلُّهُ توفيقُ الله وتسديده ، فإنَّ القلوبَ في يده ، والخيرات
مقوساتٌ من عنده . وحسيناً الله ونعم الوكيل .

* * *

تم كتابة كتاب السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون
الله وتأييده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وأخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآلِه الطيبين
الطاهرين وسلامه .

١ - هامش كتاب كتمان السر وحفظ اللسان

- (١) « ووجدتك في خلال ذلك عمل سهل تضييع وامال لامريرن » الامريرن هما كتمان السر وحفظ اللسان .
- التعجب والاعجوبة هو ما خرج عن العادة والطبع او السجية .
- (٢) « لا شيء اصعب من مكافحة الطائع ومحاباة الاهواه » يعني ان طبع الانسان هو افشاء السر . وهو يؤيد مذهب الطبيعي في الاخلاق : الاخلاق بنظر الجاحظ ولبيدة الطبع لا التربية .
- « انا سمي العقل عقلاً وحيناً ... » لاحظ كيف يفهم المعلم هنا بالمعنى الخلقي لا المعرفي .
- « القلب خزانة متحفظة للخواطر والاسرار » يعني ان الجاحظ اعتقاد مثل الفلاسفة الماشيين ان العقل مركزه القلب .
- (٣) « لأن من طبع الانسان عبة الاخبار والاستئثار » كل شيء يرجعه الجاحظ الى الطبيعة . وقد وردت عنده هذه الفكرة في اكثر من مكان من كتبه . راجع حجج النبوة ، والمعرفة وشروط الخبر الصحيح .
- (٤) الفرق بين السر والعنان هو مجازة السر صدر صاحبه الى اذن واحدة . واللوم يقع على صاحب السر اكثر مما يقع على من نقله .
- (٥) الناس المولعون بالاسرار الاولاد والنساء وعمال السلطان والنمامون والمقاتلون .
« رجل يساوي الف رجل ، ورجل لا يساوي رجلاً » معناها ان الفضل قليل .

- (٦) « كل منزع مرغوب » يفسره الجاحظ تفسيراً طيباً بالشهوات التي فطر عليها الانسان ، كلما منعت من حاجتها ازدادت رغبتها فيه . كالشهوة الى الطعام والشراب والجماع الخ .
- « الطبائع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فاذا امتلأت تلك القوة من محسوسها لم تجد لها وراءه طمعاً ولا رجعاً وعليها بالضرر ». المتع يضرم نار الشهوة ، والافراط في اشباع الشهوة يورث التخمة والضرر .
- (٧) قوله « مثل سر الاديان لغيبة الموى عليها وتضاغن اهلها والاختلاف والتضاد ، والولاية والعداوة ». يدل على سبيطه الموى والعاطفة على اصحاب الاديان ، وعمل العداوة بينهم ، وفي الماضي والحاضر .
- (٨) يستعين الجاحظ في تدعيم آرائه بالقرآن والاحاديث النبوية والحكم والشعر . ولعل أجمل ما جاء في الغيبة الآية الكريمة « ولا تجسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ، ايجب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميئاً فكره منهوه » (الحجرات ، ١٢) .
- (٩) العدل ضد الظلم . اسباب الظلم هي الانسانية والحرص المركب في اخلاق الناس . وربما ساق الجاحظ الى الكلام على العدل اعتباره الغيبة ظليلاً بحق الآخرين الذين نفتابهم .
- (١٠) الفضول هو السؤال عما لا يعنينا والاهمام بما لا ينفعنا ولا يضرنا » .
- (١١) العودة الى الحديث عن الغيبة مثال على استطراد الجاحظ وتركه الموضوع الذي يتكلم فيه الى موضوع آخر ثم العودة الى الموضوع الاول .
- تأويل الفقهاء للأيمان السلطانية . إذ يغيرون الكذب فيها مخافة سفك الدم .
- (١٢) حفظ اللسان يعني قلة الكلام أو الصمت . وقد بحث الجاحظ هذا الموضوع في اماكن عديدة في كتبه . راجع مثلاً مقدمة كتاب البيان والبيان .

- ٢ -

الخاسد والمحسود

[١ - موضوع الكتاب]
وَهَبَ اللَّهُ لَكَ السَّلَامَةَ ، وَأَدَمَ لَكَ الْكِرَامَةَ ، وَرَزَقَكَ الْإِسْتِقْدَامَةَ ، وَرَفَعَ
عَنْكَ النُّدَامَةَ .

كتبت إليـ - أبـدـكـ اللهـ - تـسـالـيـ عنـ الحـسـدـ ماـ هـوـ؟ وـمـنـ أـيـنـ هـوـ؟ وـمـاـ
دـلـيـلـهـ وـأـفـعـالـهـ؟ وـكـيـفـ تـعـرـفـ أـمـورـهـ وـأـحـوـالـهـ، وـبـمـ يـعـرـفـ ظـاهـرـهـ وـمـكـتـومـهـ، وـكـيـفـ
يـعـلـمـ مـجـهـولـهـ وـمـعـلـومـهـ، وـلـمـ صـارـ فـيـ الـعـلـمـاءـ أـكـثـرـ مـنـهـ فـيـ الـجـهـلـاءـ؟ وـلـمـ كـثـرـ
فـيـ الـأـقـرـبـاءـ وـقـلـ فـيـ الـبـعـدـاءـ؟ وـكـيـفـ دـبـ فـيـ الـصـالـحـينـ أـكـثـرـ مـنـهـ فـيـ الـفـاسـقـينـ؟
وـكـيـفـ حـضـرـ بـهـ الـجـيـرانـ مـنـ بـيـنـ جـمـيعـ أـهـلـ الـأـوـطـانـ .

[٢ - تعريف الحسد]

والحسـدـ - أـبـدـكـ اللهـ - دـاءـ يـنـهـيـ الـجـسـدـ ، وـيـفـسـدـ الـوـدـ ، عـلـاجـهـ غـيرـ ،
وـصـاحـبـهـ ضـجرـ . وـهـوـ بـاـبـ غـامـضـ وـأـمـرـ مـتـعـذـرـ ، وـمـاـ ظـهـرـ مـنـهـ فـلـاـ يـدـاـوـيـ ، وـمـاـ
يـسـطـعـ مـنـهـ فـمـدـاـوـيـهـ فـيـ عـنـاءـ . ولـذـلـكـ قـالـ النـبـيـ صـلـىـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ : « دـبـ
إـلـيـكـ دـاءـ الـأـمـمـ مـنـ فـيـكـمـ : الـحـسـدـ وـالـبـغـضـاءـ ». وـقـالـ بـعـضـ النـاسـ
لـجـلـسـائـهـ : أـيـ النـاسـ أـقـلـ غـفـلـةـ؟ فـقـالـ بـعـضـهـمـ : صـاحـبـ لـيلـ ، إـنـمـاـ هـمـ أـنـ

يُصبح . فقال : إنَّه لَكُنْدَا وَلَيْسَ كَذَا . وقال بعْضُهُمْ : الْمَسَافِرُ ، إِنَّمَا هُنَّ أَنْ يَقْطُعُ سَفَرَهُ . فقال : إِنَّه لَكُنْدَا وَلَيْسَ كَذَا . قَالُوا لَهُ : فَأَخْبَرْنَا بِأَفْلَى النَّاسِ غَفْلَةً . فقال : الْحَاسِدُ ، إِنَّمَا هُمْ أَنْ يَتَزَوَّعَ اللَّهُ مِنْكُمْ النِّعْمَةُ الَّتِي أَعْطَاهُمْ ، فَلَا يَغْفِلُ أَبَدًا .

[٣ - أسباب الحسد]

ويروى عن الحسن أنه قال : الحسد أسرع في الدين من النار في
الخطب اليابس

وَمَا أَتَيْنَا الْمُحْسُودَ مِنْ حَاسِدٍ إِلَّا مِنْ قَبْلِ فَضْلِ اللَّهِ عَنْهُ وَنِعْمَةٍ عَلَيْهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « أَمْ يَخْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ أَتَيْنَا أَلَّا إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا » .

والحسد عَقِيقَةُ الْكُفَّرِ ، وَحَلِيفُ الْبَاطِلِ ، وَضُدُّ الْحَقِّ ، وَحَرْبُ الْبَيَانِ .
فَقَدْ ذُمَّ اللَّهُ أَهْلُ الْكِتَابِ بِهِ قَالَ : « وَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرَوُنَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسِدًا مِنْ عَنْدِ أَنفُسِهِمْ » .

[٤ - عواقب الحسد]

مِنْهُ تَوْلِدُ الْعَدَاوَةَ ، وَهُوَ سَبَبُ كُلِّ قَطْعِيَّةٍ ، وَمُنْتَجُ كُلِّ وَحْشَةٍ ، وَمَفْرُوضُ كُلِّ جَمَاعَةٍ ، وَقَاطِعُ كُلِّ رَحْمٍ بَيْنَ الْأَقْرَبَاءِ ، وَمُحَدِّثُ التَّفْرِقِ بَيْنَ الْقُرَنَاءِ ، وَمُلْقِعُ الشَّرِّ بَيْنَ الْخُلُطَاءِ ، يَكُمُّ فِي الصَّدْرِ كَمَوْنَ النَّارِ فِي الْحَجَرِ .

ولو لم يدخل على الحاسد بعد تراكم الغسوم على قلبه ، واستكمان الحزن في جوفه ، وكثرة مضمضته ورسوس ضميره ، وتتفقص عمره وكدر نفسه وقد عيشه ، إلا استصغاره نعمة الله عليه ، وسخطه على سبيله بما أفاد غيره ، وتمنيه عليه أن يوجع في هبته إيه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند

ذوي العقول مرحوماً ، وكان لديهم في القياس مظلوماً . [وقد قال بعض الأعراب : ما رأيت ظالماً أشبة بمسالم من الحasad : نفس دائم ، وقلب هائم ، وحزن لازم] والحاسد مخدول وموزور ، والمحسود محظوظ ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مغشىٰ ومزور .

والحسد - رحيلك الله - أول خطيبة ظهرت في السموات ، وأول معصية حدثت في الأرض ، خُصّ به أفضل الملائكة فعصى ربّه ، وقايسه في خلقه ، واستكبر عليه فقال : « خلقتني من نار وخلقته من طين » ، فلعنَه وجعله إبليس ، وأنزله من جواره بعد أن كان آنساً ، وشوه خلقه تشوهاً ، ورميَ على نبيه تعويها نسيء به عزم ربّه ، فواقع الخطيبة ، فارتدع المحسود وتتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحasad في حسه فشقى وغوى .

وأما في الأرض فابنا آدم حيث قتل أحدٌ هما أخيه ، فعصى ربّه وأنكل أباه . وبالحسد طوّعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين .

لقد حمله الحسد على غایة القسوة ، ويبلغ [به] أقصى حدود العقوبة ، فأنسانه من رجمِه جميع الحقوق ، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً وأصبح عليه نادماً صارخاً .

[٥ - راي الحasad في المحسود]

ومن شأن الحasad إن كان المحسود غبياً أن يتوخه على المال فيقول : جمّعه حراماً ومنه أثاماً . وأثبت عليه محاويج أقاربٍ متركهم له خضماً ، وأعانهم في الباطن وحمل المحسود على قطعاتهم في الظاهر وقال له : لقد كفروا معرفتك ، وأظهروا في الناس ذمك ، فليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يشكرون . وإن وجد له خصماً اعاته عليه ظلماً ، وإنْ كان من يعاشره فاستشاره غشه ، أو تفضل عليه بمعرفة كفره ، أو دعاه إلى نصر حذله ، وإن

حضر مذَّهَّبَهُ ذَمَّهُ وَإِنْ سُلِّلَ عَنْ هُمْزَهُ ، وَإِنْ كَانَتْ عَنْهُ شَهَادَةُ كُلُّهَا ، وَإِنْ
كَانَتْ مِنْهُ إِلَيْهِ زَلْهَ عَظِيمَهَا ، [وَقَالَ : إِنَّهُ] يَحْبُّ أَنْ يَعُودَ وَلَا يَعُودُ ، وَيُرِي عَلَيْهِ
الْعُقُودَ .

وَإِنْ كَانَ الْمَحْسُودُ عَالِمًا قَالَ : مُبْتَدِعٌ ، وَتِرَائِيهِ مُتَّبِعٌ ، خَاطِطٌ لِيلٌ وَمِبْتَغِي
نَيْلٍ ، لَا يَدْرِي مَا حَمَلَ ، فَدَّ تَرَكَ الْعَمَلَ ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْجَيْلِ . قَدْ أَقْبَلَ بِوْجُوهِ
الْأَنْسَابِ إِلَيْهِ ، وَمَا أَحْمَقَهُمْ إِذَا اتَّهَلُوا عَلَيْهِ . فَقَبَحَهُ اللَّهُ مِنْ عَالَمٍ مَا أَعْظَمَ بِلَيْسَهُ ،
وَأَقْلَلَ بِرَغْبَتِهِ ، وَأَسْوَأَ طَعْمَتِهِ .

وَإِنْ كَانَ الْمَحْسُودُ ذَا دِينٍ قَالَ : مُتَصَنِّعٌ يَغْرِي وَيُوْضِي إِلَيْهِ ، وَيَحْجَجُ
لِيَقْنِي بِشَيْءٍ عَلَيْهِ ، وَيَصْرِمُ لِتُقْبَلَ شَهَادَتِهِ ، وَيُظْهِرُ النُّكْلَ لِيُؤْذَعَ الْمَالُ بِيَتِهِ ،
وَيَفْرَأُ فِي الْمَسْجِدِ لِيَزُوْجِهِ جَارُهُ ابْنَتِهِ ، وَيَحْضُرُ الْجَنَائزَ لِتُعْرَفَ شَهْرَتِهِ .

وَمَا لَقِيتَ حَاسِدًا قَطُّ إِلَّا تَبَيَّنَ لَكَ مَكْتُونَهُ بِتَغْيِيرِ لَوْنِهِ وَتَخْوِصِ عَيْنِهِ وَإِخْتَاهِ
سَلَامِهِ ، وَالْإِقْبَالِ عَلَى غَيْرِكَ وَالْإِعْرَاضِ عَنْكَ ، وَالْإِسْتِقْبَالِ لِحَدِيثِكَ ،
وَالْخَلَافِ لِرَأِيكَ .

وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي قَبَيلَ نَفَاقَهُ ، نَسِيجُ وَحِيدِهِ لِجَوَدَةِ رَأْيِهِ وَبُعدِ هَمَّتِهِ ،
وَبُلْ شَبَّهَتِهِ ، وَانْقِيادُ الْمُعْتَشِرَةِ لَهُ بِالسُّلْيَادَةِ ، وَأَذْعَانِهِمْ لَهُ بِالرِّيَاسَةِ . وَمَا اسْتَوْجَبَ
ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَمَا اسْتَجَمَعَ لَهُ لُبُّهُ ، وَتَبَيَّنَ لَهُمْ عَقْلُهُ ، وَافْتَقَدُوا مِنْهُ جَهَلُهُ ، وَرَأَوْهُ
لَذِكَ أَمْلَأَ ، لَمَّا أَطْبَقَ [لَهُ] حَمْلَأً . فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
وَقَدِيمَ الْمَدِينَةِ ، وَرَأَى هُوَ عَزِيزًا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَفَعَ بِأَنْفَهِ فَهَدَمَ
إِسْلَامَ لَحْدَهُ ، وَأَظْهَرَ نَفَاقَهُ . وَمَا صَارَ مَنَافِقًا حَتَّى كَانَ حَسُودًا ، وَلَا صَارَ
حَسُودًا حَتَّى صَارَ حَقُودًا . فَهُمْقَى بَعْدَ الْلُّبْ ، وَجَهَلَ بَعْدَ الْعُقْلِ ، وَتَبَوَّأَ النَّارَ
بَعْدَ الْجَنَّةِ .

وَلَقَدْ خَطَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فَشَكَاهُ إِلَى الْأَنْصَارِ ،

فقالوا : يا رسول الله لا تلمنا فانا كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك
بتوجه . ولو سلم المخذول قلبه في الحسد لكان من الاسلام بمكان ومن
السويد في ارتفاع ، فوضعه الله لحسده واظهر نفاقه ولذلك قال القائل :

طالت عل الحاسد احزانه فاصرف من كثرة احزانه
دعه فقد اشعلت في جوفه ما هاج في حر نيرانه
العيوب اشهى عنده لذاته من لذة المال لخزانه
فازم عل غاربه حبله تسلم من كثرة بحثاته

[٦ - حد العجران]

فصل منه : وذلك لأن العجران - يرحمك الله - طلاقع عليك ، وعيونهم
نواظر إليك ، فمئتي كنت بينهم مُعديماً فائيسرت ، فبذلت وأعطيت ، وكسوت
وأطعنت ، وكانوا في مثل حالك فانقضوا ، وسلبوا النعمه واليستها [أنت] ،
فعظمت عليهم بلية الحسد ، وصاروا منه في تنفيص آخر الأبد . ولو لا أن
المحسود بنصر الله إيهام مستور ، وهو بصنمه محجوب لم يأت عليه يوم إلا كان
مقهوراً ، ولم تأت ليلة إلا وكان عن مناقعه مقصوراً . ولم ينس إلا وماله
مسلوب ، ودمه مسفوك ، وعرضه بالضرب منهوك .

[٧ - الحسود لا يستطيع كتمان حسله]

فصل منه : وأنا أقول حقاً : ما خالط الحسد قلبًا إلا لم يمكنه ضبطه ولا
قدر على تسجيجه وكتمانه ، حتى يتمرد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده
ويستملقه ، ويستطيعه ظهوره عليه فهو أغلب على صاحبه من السيد على
عبده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ومن الأسر على
أسيره .

وكان ابن الزبير بالصبر موصوفاً ، وبالدلهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ،
وبالمداراة منهوماً ، فأشهر بلسانه حسداً كان أضيق عليه أربعين سنة لبني

ما شِئْ ، فَمَا أَتَسْعَ قَلْبَهُ لِكَحْمَانَهُ ، وَلَا ضَبَرَ عَلَى اكْتَابِهِ ، لَمَّا طَالَتْ فِي قَلْبِهِ طَائِلَتْ أَظْهَرَهُ وَأَعْنَاهُ ، مَعَ صَبَرَهُ عَلَى الْمَكَارَهُ ، وَحَمَلَهُ نَفْسَهُ عَلَى حَفْهَاهُ ، وَقَلَّ اكْتِرَاهُ وَالْفَقَاهُ لِأَحْجَارِ الْمَعْجَانِيَّقِ النَّبِيِّ [كَانَتْ] تَعَزَّ عَلَيْهِ فَتَذَهَّبُ بِطَافَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا .

حَدَّثَنَا بِذَلِكَ عَنْ عَلِيٍّ بْنِ مُسْهِرٍ عَنِ الْأَعْمَشِ ، عَنْ صَالِحِ بْنِ خَبَابٍ ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيرٍ قَالَ : قَدْتُ ابْنَ عَبَاسَ حَتَّى أَدْخَلْتُهُ عَلَى ابْنِ الرَّزِّيْرِ ، قَالَ : أَنْتَ الَّذِي تَزَوَّدُنِي ؟ قَالَ : نَعَمْ ، لَأَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَيْسَ بِمُؤْمِنٍ مِنْ بَنَاتِ شَبَعَانَةَ وَجَارِهِ طَاوِي » . فَقَالَ لَهُ ابْنُ الرَّزِّيْرِ : لَمْ قُلْتَ ذَلِكَ ؟ إِنِّي لِأَكْتُمُ بَعْضَكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ مُذْ أَرْبَعِينَ سَنَةً . فَحَسِرَ ابْنُ عَبَاسَ عَنْ ذَرَاعِهِ كَأَنَّهَا عَسِيَا نَخْلٌ . ثُمَّ قَالَ لِابْنِ الرَّزِّيْرِ : نَعَمْ فَلَيْلِغُ ذَاكَ مِنْكَ ، مَا عَرَفْتُكَ .

وَلَقَدْ أَجَلْتُ الرَّأْيَ ظَهِيرًا لِبَطْنِ وَفَكَرْتُ فِي جَوَابِهِ لِابْنِ عَبَاسِ أَنْ أَجِدَهُ مَعْنَى سَوْيِ الْحَسْدِ فَلَمْ أَجِدْهُ ، وَكَانَتْ وَخْرَةً فِي قَلْبِهِ فَلَمْ يُدْهَاهَا . وَفَرُوعُ بْنِ هَاشِمَ حَوْلَ الْحَرَمِ بَاسِقَةً ، وَعَرْوَقُ دَوْخَاتِهِمْ بَيْنَ أَطْبَاقِهَا رَاسِيَّةً ، وَمَجَالِسُهُمْ مِنْ أَعْلَاهُها عَامِرَةً ، وَبِحُورِهَا بَأْرَازِقَ الْعَبَادِ زَاهِرَةً ، وَأَنْجَمَهَا بِالْهَدِيِّ زَاهِرَةً . فَلَمَّا خَلَتِ الْبَطْحَاءُ مِنْ صَنَادِيدِهَا اسْتَقْبَلَهَا بِمَا أَكْنَنَ فِي نَفْسِهِ .

وَالْحَاسِدُ لَا يَغْفِلُ عَنْ فَرْصَتِهِ إِلَى أَنْ يَأْتِيَ الْمَوْتُ عَلَى رَمْتِهِ ، وَمَا اسْتَقْبَلَ ابْنُ عَبَاسٍ بِذَلِكَ إِلَّا لَمَّا رَأَيْ عَمْرَ قَنْمَهُ عَلَى أَهْلِ الْقَلْمَنْ ، وَنَظَرَ إِلَيْهِ وَقَدْ أَطَافَ بِهِ أَهْلُ الْحَرَمِ ، فَأَوْسَعُهُمْ حَكْمًا ، وَتَقْبِسُوا مِنْهُ رَأْيًا وَفَهْمًا ، وَأَشْبَهُمْ عَلَمًا وَجَلَمًا .

فَصَلَّ مِنْهُ : وَكَيْفَ يَصِيرُ مِنْ اسْتَكِنَ الْحَسْدَ فِي قَلْبِهِ عَلَى أَمَانِيهِ . وَلَقَدْ كَانَ أَخْوَةُ يُوسْفَ حُلْمَاءُ ، وَأَجْلَةُ عَلَمَاءُ ، وَلَذَّمُ الْأَنْبِيَاءُ ، فَلَمْ يَقْفَلُوا عَمَّا قَدَّمُوا فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْحَسْدِ لِيُوسْفَ ، حَتَّى أَعْطُوا أَبَاهُمْ الْمَوْتَيْنِ الْمَوْكِلَةَ ، وَالْمَهْوَدَةَ

المقلدة ، والأيمان المغفلة ، إنهم له لحافظون ، وهو شفيفهم وبصيرة منهم . فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة ، وألقوه في غيابة الجب ، وجاءوا على قميصه بدم كذب ، فظلمتهم يوسف ظلموا أباهم ، طمعاً أن يخلو لهم وجه ابيهم وينفردوا بمحبه ، وظنوا أن الأيام تسلية ، وجبه لهم من بعد غمه يلهيه ، فاسالوا عبرته واحرقوا قلبه . وكيف تقر اعين المحسودين بعد يوسف وقد ملكه الله خزائن الأرض بصبره على اذى حساده و مقابلته ايام بالعفو والمكافأة وحسن العشرة والمؤاخاة ، بعد امكانه منهم كما اتوه محظيين رفدهم عليه خائفين وهم له منكرون ، فاحسن رفقدهم ، واكرم قراهم ، فاقروا له لما عرفوه بالاذعان ، وسائلوه بعد ذلك الغفران ، وخرعوا له سجداً لما وردوا عليه وفداً .

[٨ - معاملة الصديق الحسود]

فإذا أحست - رحمك الله - من صديقك بالحسد فأقليل ما استطعت من مُخالطته ، فإنه أعن الأشياء لك على مسامته . وحصن سررك منه تسلم من شره وعوانق ضره . ولياتك والرغبة في مشاورته ، ولا يغيرنك خداع ملقيه ، وبيان ذلقيه ، فإن ذلك من جحائل نفاقه .

فإن أردت أن تعرف آية مصادفه فأدبن إلينه من يهينك عنده ، ويدمىك بحضرته ، فإنه سيظهر من شأنه لك ما أنت به جاهل ، ومن خلاف المسودة ما أنت عنه غافل . وهو ألح في حسده لك من الذباب ، وأسرع في تهريجك من السُّل إلى الحُدو .

وما أحب أن تكون عن حاسبك غياً ، وعن وهمك بما في ضميره نبيعاً . إلا أن تكون للذل محتملأ ، وعلى الدناءة مشتملاً ، ولأخلاق الكرام مجانباً ، وعن محمود شيمهم ذاهباً ، أو تكون بك إليه حاجة قد صيرتك لسهام المرأة هدفاً ، وعرضتك لمن أراد غرضاً .

وقد قيل على وجه الدهر : « الحرّة تجوع ولا تأكل بشيءها » .

وريثاً كان الحسود للمصطنع إليه المعروف أكفر له وأشدّ احتقاداً ، وأكثر تصغيراً له من أعدائه .

[٩ - لا خير يرجى من الحسود]

فصل منه : ومتى رأيت حاسداً يصوّب لك رأيَا إن كنت مصيّراً ، أو يرشدك إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أفعّل لك بالخير في غيبته عنك أو تُفرّ من غيبته لك ؟

فهو الكلب الكلب ، والثمر الثمر والسمُّ القثيب ، والفحولُ الفحطم ، والشيلُ الغرم . إن ملكَ قتل وسبي ، وإن ملكَ عصى وبنى ، حيائِك موته ، وموتك عزْسه وسروره . يصدق عليك كل شاهد زور ، ويکذب فيك كل عدلٍ مرضي . لا يحبُّ من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض إلا من يحبُك . عدوك بطانة وصديقك علانية .

وقلت : إنك ربُّما غلطت في أمرِه لما يظهر لك من بره . ولو كنت تعرف الجليل من الرأي ، والدقيق من المعنى ، وكنت في مذاهبك فطينا نقاباً ، ولم تك في غيب من ظهر لك عيّنة مرتابة ، لاستغفست بالرُّمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسرّ عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع ، وبالاختصار عن التطويل ، وبالجمل عن التفصيل ، وأرختنا من طلب التفصيل ولكنني أخاف عليك أنْ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأنْ ضمير قلبك له غير سليم ، وإن رفعت القدى عن لحيته ، وسررت عليه ثوبه فوق مركبـه ، وقلـت صيـبه بحضورـه ، ولبسـت له ثوبـ الاستـكانـة عندـ رؤـيـته ، واغـفـرت لهـ السـرـلة ، واستـجـسـحت كـلـ ما يـقـيـعـ منـ جـهـته ، وصـدـقـتهـ عـلـىـ كـذـبـه ، واعـتـشـهـ عـلـىـ فـجـرـتهـ . فـمـاـ هـذـاـ العـنـاءـ ! كـاتـكـ لـمـ تـقـرـاـ المـعـودـةـ ، وـلـمـ تـسـمـعـ مـخـاطـبـهـ نـيـهـ صـلـىـ اللهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ ، فـيـ التـقـيـمةـ إـلـيـهـ بـالـاستـعـادـةـ مـنـ شـرـ حـاسـدـ إـذـاـ حـدـ .

أَتَطْلُبُ وَيَحْكُ أَثْرًا بَعْدَ غَيْنِ ، أَوْ عَطْرًا بَعْدَ عَرْوَسَ ، أَوْ تُرِيدُ أَنْ تَجْتَنِي
عَنْهَا مِنْ شُوكَ ، أَوْ تَلْتَمِسَ حَلْبَ لَبِنَ مِنْ حَائِلَ . إِنَّكَ إِذَا أَعْيَا مِنْ سَاقِلَ ،
وَأَحْمَقَ مِنَ الْفَصِيبَ ، وَأَغْفَلَ مِنْ هَرِمَ .

إِنْ كُنْتَ تَجْهَلُ بَعْدَ مَا أَعْلَمْتَكَ ، وَتَعْوِجُ بَعْدَمَا قُوْمَنَاكَ ، وَتَبْلُدُ بَعْدَمَا
تَفْقِنَاكَ ، وَتَضْلُلُ إِذَا هَدَيْنَاكَ ، وَتَنْسِي إِذَا ذَكَرْنَاكَ ، فَأَنْتَ كَمْنَ أَنْشَأَ اللَّهُ عَلَى
عِلْمٍ فَبَطَّلَتْ عَنْهُ الْمَوَاعِظَ ، وَعَيْنِي عَنِ الْمَنَافِعَ ، فَخَسِمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ ،
وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غَشَاوَةً . فَتَنَوَّذَ بَالَّهِ مِنَ الْخَدْلَانَ .

إِنَّهُ لَا يَأْتِيكَ وَلَكِنْ يَنْادِيكَ وَلَا يَحَاكِيكَ وَلَكِنْ يَوْزِيكَ . أَحْسَنُ مَا تَكُونُ
عَنْهُ حَالًا [أَقْلَى مَا تَكُونُ مَالًا] ، وَأَكْثَرُ مَا تَكُونُ عِيَالًا ، [وَأَعْظَمُ] مَا تَكُونُ
ضَلَالًا . وَأَفْرَحُ مَا يَكُونُ بِكَ أَقْرَبُ مَا تَكُونُ بِالْمَصْبِيَّةِ عَهْدًا ، وَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ
مِنَ النَّاسِ حَمْدًا .

فَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ عَلَى هَذَا فَمُجاوِرَةُ الْمَوْتِي ، وَمُخَالَطَةُ الزَّمْنِي ، وَالْاجْتَنَانُ
بِالْجَدْرَانِ ، وَمُقْسِرُ الْمُصْرَانِ ، وَأَكْلُ الْقَرْدَانِ ، أَهُونُ مِنْ مَعَاشِرَتِهِ ، وَالْأَنْصَالِ
بِحَلْبِهِ .

وَالْغَلَّ تَبِعُ الْحَسِيدَ ، وَهُوَ رَضِيَّهُ ، وَغَصْنُ مِنْ أَغْصَانِهِ ، وَغَوْنُ مِنْ
أَعْوَانِهِ ، وَشَعْبَةُ مِنْ شَعْبِهِ ، وَفِعْلَ مِنْ أَفْعَالِهِ ، كَمَا أَنَّهُ لِيَنْ فَرَغَ إِلَّا لِهِ أَصْلُ ،
وَلَا مُولُودٌ إِلَّا لِهِ مُولَدٌ ، وَلَا نَبَاتٌ إِلَّا مِنْ أَرْضٍ ، وَلَا رَضِيَّعٌ إِلَّا مِنْ مَرْضَعٍ ،
وَإِنْ تَغْيِيرَ اسْمَهُ ، فَإِنَّهُ صَفَةٌ مِنْ صَفَاتِهِ ، وَنَبَتَ مِنْ نَبَاتِهِ ، وَنَعَتَ مِنْ نَعْوَتِهِ .

[١٠ - الجنة حيث لا حسد]

وَرَأَيْتَ اللَّهَ جَلَ جَلَالَهُ ذَكْرَ الْجَنَّةِ فِي كِتَابِهِ فَعَلَّمَهَا بِأَحْسَنِ جُلْيَّةٍ ، وَزَيَّنَهَا
بِأَحْسَنِ زِينَةٍ ، وَجَعَلَهَا دَارَ أُولَيَّاهُ وَمَقْعُلَ أَنْبِيَاهُ ، فَفِيهَا مَا لَا عَيْنَ رَأَتْ ، وَلَا
أَذْنَ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ . فَذَكْرُ فِي كِتَابِهِ مَا مِنْهُ عَلَيْهِمْ مِنْ

السرور والكرامة عندما دخلوها ويرأها لهم فقال : « إن المُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْوَنٍ . ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ أَمِينٍ . وَنَرْغَنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غُلٍ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَّقَابِلَيْنَ . لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا نَصْبٌ وَمَا هُمْ بِنَهَا بِمُغْرِبِينَ » .

فما أنزلهم دارَ كرامته إِلَّا بعد ما نزع الغُلُّ والحسدَ من قلوبهم ، فنهنوا بالجنة ، وقابلوا إِخْوَانَهُمْ عَلَى السُّرُرِ ، وتلذذوا بالنظر في مقابلة الوجه لسلامة صدورهم . وزَنَعَ الغُلُّ من قلوبهم . ولو لم ينزع ذلك من صدورهم وبخريجه من قلوبهم ، لافتقدوا للذَّادَةِ الجَنَّةَ ، وتدابَرُوا وتقاطعوا وتحاسدوا ، ووَاقَعوا الخطية ، ولم يَمْسُهُمْ فِيهَا النَّصْبُ ، وأَعْقَبُوا مِنْهَا الْخُروجَ ، لَأَنَّهُ عَزٌّ وَجَلٌ فَضْلٌ بَيْنَهُمْ فِي الْمَنَازِلِ ، ورفع درجات بعضهم فوق بعض في الكرامات ، وَسَيِّدُ العطيات .

فَلَمَّا نَزعَ الْغُلُّ وَالْحَسَدَ مِنْ قلوبِهِمْ ظَنَّ أَدْنَاهُمْ مَنْزَلَةَ فِيهَا ، وأَقْرَبَهُمْ بِدُخُولِ الْجَنَّةِ عَهْدًا ، أَبْهَ أَفْضَلَهُمْ مَنْزَلَةً ، وأَكْرَمَهُمْ دَرْجَةً ، وأَوْسَعَهُمْ دَارًا بسلامة قلبه ، وزَنَعَ الغُلُّ مِنْ صدره ، فَقَرَرَتْ عَيْنُهُ وَطَابَ أَكْلُهُ . ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنفس في النظر بالعيون ، والاهتمام بالقلوب ، ولحدثت العيوبُ والذُّنُوبُ .

[١١ - السَّلَامَةُ فِي الابتعاد عن الحسود]
وَمَا أَرَى السَّلَامَةَ إِلَّا فِي قطْعِ الْحَاسِدِ ، وَلَا السُّرُورَ إِلَّا فِي افْتِنَادِ وِجْهِهِ ،
وَلَا الرُّاحَةَ إِلَّا فِي صَرْمِ مَدَارَانِهِ . وَلَا الرُّيحَ إِلَّا فِي تَرْكِ مَصَافَاتِهِ .

فإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَكُلْ هَنْيَا مَرِيَا ، [وَنِمْ رَضِيَا] ، وَعُشْ فِي السُّرُورِ مَلِيُّا .

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ الْجَلِيلَ أَنْ يُصْفِنَنَا كَذَرَ قَلْوَبِنَا ، وَيَجْنَبَنَا وَإِيَّاكَ [دَنَاءَةَ
الْأَخْلَاقِ ، وَيَرْزَقَنَا وَإِيَّاكَ] حُسْنَ الْأَلْفَةِ وَالْأَنْهَافِ وَيُحِبِّنَنَا تَوْفِيقَكَ وَتَسْدِيدَكَ .
وَالسَّلَامُ .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

٢ - هامش كتاب الحاسد والمحسود

- (١) لاحظ وجوه التضليل البيني في المقدمة : السجع مثل : وهب الله لك السلام ،
وادام لك الكراهة ، ورزقك الاستفادة ورفع عنك الندامة . ثم الطباقي مثل : ولم
يعرف ظاهره ومكتومه ، وكيف يعلم مجاهله ومعلمه ولم صار العلم ، فيه اكثـر
من الجهلاء الخ . . .
- (٢) صاحب دليل : المسهد الذي لا يستطيع ان ينام .
ويروى عن الحسن : الارجع ان يكون الحسن البصري .
- (٣) حرب البيان : يعني ان الحاسد يضمـر عكس ما يقصـح .
- (٤) لاحظ بلامـة الجاحظ في تصوير نفس المحسود « تراكم الغموم على قلبه ،
واستمكانـة الحزن في جوفه ، وكثـرة مرضـه ، ووسـواس ضـمـيره ، وتنـغضـر عمرـه ،
وكـدر نـفـسـه ، ونـكـدـ عـيـشـه . . . واستـصـفار نـعـمة الله عـلـيـه وسـخـطـه عـلـى سـيـده بـما
أـفـاء عـلـيـه ، وـتـمـنـيـه أـن يـرـجـع فـي هـبـته إـيـاه وـاـن لا يـرـزـق أـحـدـا سـواـه . . . » .
- رجـوعـ الجـاحـظـ إلىـ القرآنـ باـسـتـمرـارـ دـلـيلـ عـلـىـ اـسـتـمـكـانـ الثـقـافـةـ الـدـينـيـةـ فـيـهـ :
قصـةـ المـلاـكـ الـذـيـ عـصـىـ رـبـهـ فـلـعـنـهـ وـجـعـلـهـ اـبـلـيـاـ وـشـوـهـ خـلـقـهـ ، وـاعـدـهـ عـنـهـ .
وـقـصـةـ قـابـيلـ الـذـيـ قـتـلـ اـخـاهـ هـابـيلـ .
- (٥) يـحـبـ انـ يـعـادـ وـلـاـ يـعـودـ : يـحـبـ انـ يـزـارـ وـلـاـ يـزـورـ اـكـبـرـهـ وـحـفـدـهـ . وـيرـىـ عـلـةـ
الـعـقـودـ : جـمـعـ عـقـدـ وـهـوـ خـيـطـ منـ الـخـرـزـ يـعـقـدـ لـلـرـؤـسـاءـ .
- المـبـدـعـ : مـنـ يـخـالـفـ السـنـةـ اوـ يـأـتـيـ بـجـدـيدـ لـمـ يـعـرـفـ السـلـفـ .
- المـتـبـعـ : غـيـرـ الـأـصـيـلـ يـأـخـذـ عـنـ غـيـرـهـ .

- حاطب لبل : يمشي في السطّام على غير هدى ودون استصار ؛ يخلط في
كلامه .
- عبد الله بن أبي الحزرجي عرف بثقافه وعاش في عهد الرسول .
- (٦) المعدم : الفقر ؛ مطلاع : معلمون وناظرون .
- (٧) الحسود لا يستطيع كتمان حسده . انظر رسالة كتمان السر وحفظ اللسان وتعليل
الجاحظ النفي لغسل الانسان الى الافاء عما في نفسه .
- (٨) البح من الذباب مثل يضر بملجأة الذباب في الحفظ على الاجسام التي
يريدوها . راجع خبر القاضي والذباب الوارد في كتاب الحيوان .
- (٩) الفحل القطم : الذي اشتلت به الشهوة الى الضرب .
- السهل العرم : السهل الغامر الجامح الذي لا يطاق .
- الجليل والدقيق : الجليل الكلام المتعلق بأمور الدين الدقيق : الكلام المعلن
بامور الفلسفة الطبيعية مثل الجوهر والعرض والحركة الخ .
- لاحظ كلف الجاحظ بالطباق في جميع اجزاء الرسالة : الرمز والاشارة ، السر
والجهير ، الخفف والرفع ، الاختصار والتطويل الخ .
- تلمس حلب لين من حائل : الحائل هي الناقة التي انقطع حملها .
- لاحظ كثرة الامثال التي يصر بها الجاحظ : اعني من باقل ، احمد من ضيق ،
اغفل من هرم (مسن) . راجع الامثال للميداني .
- (١٠) وصف الجنة الجميل : فيها ما لا عين رأت ولا اذن سمعت ولا خطط على قلب
بشر . . . الخ تخلي قلوب اهلها من الغل والحسد ويطيب عيشهم .
- (١١) بشير الجاحظ الى نوع الرسالة : انها رسالة في الاخلاق هدفها تصفيه القلوب ،
وحسن الالفة .

- ٣ -

النبل والتثليل وذم الكبر



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

[١ - مقدمة يحرض فيها مخاطبه على اناس نكروا عليه]

فصل منه : قد قرأت كتابك وفهمته ، وتبينت كل ما فيه واستقصيته ، فوجدت الذي ترجع إليه بعد النطويل ، وتبينت عنده بعد التحصيل ، قد سلف القول مَنْا في غَيْبِهِ ، وشاع الخبرُ عَنْهُ في ذَمَّهِ ، وفي النَّصْبِ لاهنه ، والمُبَايَةِ لأصحابه ، وفي العَجْبِ منهم ، وإظهار النفي عنهم .

والجملة أن فرط العجب إذا قارن كثرة الجهل ، والتعرض للعيوب إذا وافق قلة الالترات ، بطلت المزاجـر ، وماتت الخواطر . ومنى تقاضم الداء وتفاوت العلاج ، صار الوعيد لفوا مطرحا ، والعقاب حكما مستعملا .

وقد أصبح شيخك ، وليس يملك من عقابهم إلا التوقف ، ولا من تأدبيهم إلا التعريف .

ولو ملئناهم ملأ السُّلطانِ ، وقهرواهم قهر الولاة ، لنهكتناهم عقوبة بالضرب ، ولقمعناهم بالحصار .

والكبير - أعزك الله تعالى - باب لا يمْدُ احتماله حلمًا ، ولا الصبرُ على أهله حزما ، ولا ترك عقابهم عفوا ، ولا الفضلُ عليهم مجدًا ، ولا التغافل

عنهم كرماً ، ولا الإمساك عن ذمّهم صمتاً .

واعلم أنَّ حمل الغنى أشدُّ من حمل الفقر ، واحتمال الفقر أهونُ من احتمال الذُّل على أنَّ الرضا بالفقر قناعةٌ وعزٌّ ، واحتمال الذُّل نذالةٌ وشخفاً . ولئن كانوا قد أفرطوا في لذم العشيرة ، والتکبر على ذوي الْحُرْمة ، لقد أفرطت في سوء الاختيار ، وفي طول مقامك على العار .

وأنت مع شدة عجِبِك بنفسك ، ورضاك عن عقلك ، خالطت من موته يُضحك السُّنْن ، وحياته تورث الحزن ، وتشاغلتك به من أعظم الغبن .

وشكوت تبُلُّهم عليك ، واستصغارهم لك ، وأنت أكثر منهم في المحسول ، وفي حقائق المعقول . ولو كنت كما تقول لما أقمت على الذُّل ولما تجرعَت الصُّبْر وأنت بمندوحة منهم ، وينجوهُ عنهم . ولعاصتهم من الكبر بما يهضم ، ومن الامتعاض بما يتپهرون .

وقلت : ولو كانوا من أهل التُّبُل عند المساواة ، أو كان معهم ما يُغليط الناسُ فيه عند المقايسة لعذرُهم واحتاججتُ عنهم ، ولشررت عيئهم ، ولرققت وفهمهم . ولكن أمرهم مكشوف ، وظاهرُهم معروف .

وإن كان أمرهم كما قلت ، و شأنهم كما وصفت ، فذاك اللَّوم لك ، وأنت للحججة عليك .

وسأؤخر عذلَك إلى الفراغِ منهم ، وتوكِيقَك بعد التنويم بهم .

[٢ - شروط التُّبُل]

أقول : وإن كان التُّبُل بالتبُل ، واستحقاق العذم بالتعظيم وبقلة الندم والاعتذار ، وبالتهاون بالإقرار ، فكلُّ من كان أقلَّ حياءً ، وأتمَّ قحةً ، وأشدَّ تصلفاً ، وأضعفَ عذمةً ، أحقُّ بالتبُل وأولى بالعذم .

وليس الذي يُوجب لك الرُّفعة أن تكون عند نفسك - دون أن يراك الناس - رفيعاً ، وتكون في الحقيقة وضيعاً .

ومن كُنْتَ من أهْلِ التَّبْلِ لَمْ يَسْرُكَ التَّبْلُ ، وَمَنْ لَمْ تَكُنْ مِنْ أهْلِهِ لَمْ يَنْفَعْكَ التَّبْلُ .

وليس التَّبْلُ كَالرُّزْقِ ، يَكُونُ مَرْزاً قَا الْجَرْمَانَ أَلْيَقَ بِهِ ، وَلَا يَكُونُ نِيَالاً السُّخَاكَةَ أَشْبَهُ بِهِ .

وَكُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا قَدْ يَعْطَى بِهِ غَيْرُ أَهْلِهِ ، كَمَا يَحْظَى بِهِ أَهْلُهُ .

وَمَا ظُلُكَ بِشَيْءٍ المَرْوَةَ خَضْلَةٌ مِنْ خَصَالِهِ ، وَيُنْدُلُبُ الْهِمَةَ خَلْلَةٌ مِنْ خَلَالِهِ ، وَبِهَا الْمَنْظَرُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِهِ ، وَجَزَالَةُ الْلَّفْظِ شَعْبَةٌ مِنْ شَعْبِهِ ، وَالْمَقَامَاتُ الْكَرِيمَةُ طَرِيقٌ مِنْ طَرْفِهِ .

فَصَلْ مِنْهُ : وَاعْلَمُ أَنْكَ مَنْ لَمْ تَأْخُذْ لِلْتَّبْلِ أَهْبَتْهُ ، وَلَمْ تُقْمِ لَهُ أَدَائِهِ ، وَتَسْأَلُهُ مِنْ وِجْهِهِ ، وَتَقْتُمُ بِحَقِّهِ ، كُنْتَ مَعَ الْغَنَاءِ مُبَفْضًا ، وَمَعَ الْكَلْفِ مُسْتَبْلِفًا . وَمَنْ تَبْغُضُ فَقَدْ اسْتَهْدَ لِلشَّتَامِ ، وَتَصْدُى لِلْمَلَامِ .

فَإِنْ كَانَ لَا يَحْفَلُ بِالثَّنَمِ ، وَلَا يَجْزَعُ مِنَ الدَّمِ ، فَعُنْدُهُ مِنْ إِنْ كَانَ حَيًّا ، وَكَلِّاً إِنْ كَانَ إِنْسَانًا .

وَإِنْ كَانَ مَنْ يَكْتُرُ وَيَجْرِعُ ، وَيُحْسِنُ وَيَأْلَمُ ، فَقَدْ خَسِرَ الرَّاحَةَ وَالْمَحِبَّةَ ، وَرَبِيعَ النُّصْبِ وَالْمَذْمَةِ .

وَبَعْدَ ، فَالْتَّبْلُ كَلِيفٌ بِالْمَوْلَى عَنْهُ ، ثَيْفٌ لِلْمُقْبِلِ عَلَيْهِ ، لَازِقٌ بِمَنْ رَفَضَهُ ، شَدِيدُ النَّفَارِ مُنْ طَلَبَهُ .

[٣ - نَبْلُ السَّيْدِ]

فَصَلْ مِنْهُ : وَالسَّيْدُ الْمَطَاعُ لَمْ يَسْهُلْ عَلَيْهِ الْكَظْمُ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كَنْفٌ

الحلم ، إلا بعد طول تجُّرٍ للغَيْط ، ومقاساة للصَّبَر . وقد كان معنى القلب
دهرَه ، ومكلاوة النفس عمرَه ، والمرحب سجالٌ بينه وبين الحلم ، ودُولٌ بينه
وبين الكَظْم . فلما انقادَت له العَشِيرَة ، وسَمِحت له بالطَّاعَة ، وفُوقَ بظُهور
القدرة خلاف المَعْجَزَة سَهَلَ عليه الصَّبَر ، وَعَمِرَ بعلوه دواعي الجَزَع ، بطلت
المجادلة ، وذهبَت المُسَايَلة .

والذِّي كان دعاه إلى تكُلُّفِ الحلم في بدء أمره وإلى احتمال المكرره في
أول شأنه ، الأملُ في الرِّيَاسَة ، والطَّمَعُ في السِّيَادَة ، ثُمَّ لم يتم له أمره ، ولم
يستحِكم له عَقْدَه إِلَّا بعد ثلَاثَة أشيَاء : الاحتمال ، ثُمَّ الاعْتِيَاد ، ثُمَّ ظُهُور
طَاعَة الرِّجَال .

ولولا خوفُ جَمِيع المظلومين من أَن يُظْنَنُ بهم العَجَزُ ، والَا يَسُوِّجَه
احتمالهم إلى السُّذْل لِراحِمِ السَّادَة في الحلم رجَالٌ ليسوا في أَنفُسِهِم
بِدوِّيَّهُم ، ولعَمَرَهُم بَعْضُ مَنْ لَيْسَ مَعَهُمْ مِنْ أَسْبَابِهِم .

[٤ - صفات النَّبِيل]

فصل منه : ولا يكون المرء نَبِيلًا حتى يكون نَبِيلَ الرَّأْيِ ، نَبِيلَ اللَّفَظِ ،
نَبِيلَ الْعَقْلِ ، نَبِيلَ الْخَلْقِ ، نَبِيلَ الْمَنْظَرِ ، يُبَعِّدُ المَذَهَبَ فِي التَّنْزِهِ ، طَاهِرٌ
الثُّوبُ مِنَ الْفَحْشَى ، إِنْ وَاقَ ذَلِكَ عِرْقاً صَالِحاً ، وَمَجْداً تَالِداً .

فالخارجيُّ قد يتبَتَّبُ بِنَفْسِهِ ، والنَّاتِبُيُّ قد يَخْرُجُ بِطَبْعِهِ . ولكلَّ عَزُّ أَوْلَى ،
وأَوْلُ كُلِّ قَدِيمٍ حادِثٌ .

ومن حُسُونَ النَّبِيلِ أَن تتواضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ ، وَتُتَصَّفَّ مِنْ هُوَ مُثْلُكَ ،
وَتُتَبَّلَّ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقُكَ .

[٥ - الكبرُ قَبْعَ في الْإِنْسَانِ]

فصل منه : وكان بعضُ الأشْرَافِ في زَمَانِ الْأَحْنَفِ ، لا يَحْضُرُ أحدًا ،

ولا يترجح لزائر ، وكان يقول :

* نهلان ذو الهَبَبات ما يتعلَّل *

فكان الأحنف ما يزداد إلا علواً ، وكان ذلك الرجل لا يزداد إلا سُفلاً .

وقد ذم الله تعالى المتكبرين ، ولعن المتجرِّرين ، وأجمعَت الأُمَّةُ على
غَيْرِهِ ، والبراءة منه ، وحَنَّ سُنَّى المتكبرِ تائِهاً ، كالذِّي يَتَبَطَّئُ فِي التَّيَّةِ بِلَا
أَمَارَةٍ ، ويَتَعَسَّفُ الْأَرْضَ بِلَا عَلَامَةٍ .

ولعلَّ قائلًا أن يقول : لو كان اسم المتكبر قبيحاً ، ولو كان المتكبر
منوراً ، لَمَّا وصفَ الله تعالى بهما نفسه ، وَلَمَّا تَوَهَّ بها في التنزيل حين
قال : «الْجَبَّارُ الْمُكَبِّرُ»، ثم قال : «هُوَ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى» .

قلنا لهم : إِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُخْلُقُ الْمُسْخَرُ ، وَالْمُضْعِفُ الْمَيْسُرُ ، لَا يَلِيقُ
بِهِ إِلَّا التَّذَلُّلُ ، وَلَا يَجُوزُ لَهُ إِلَّا التَّوَاضُعُ .

وكيف يليقُ الْكَبِيرُ بِمِنْ إِنْ جَاءَ صُرْعًا ، وَإِنْ شَيْءَ طَغَى ، وَمَا يشَبَّهُ الْكَبِيرُ
بِمِنْ يَأْكُلُ وَيَشْرُبُ ، وَيَبُولُ وَيَنْجُو . وكيف يستحقُ الْكَبِيرُ وَيَسْتَوْجِبُ العَظَمَةُ مِنْ
يَنْقُصُهُ التَّصْبِيبُ ، وَيَنْقُصِهُ الرَّاحَةُ؟ .

فإِذَا كانَ الْكَبِيرُ لَا يليقُ بِالْمُخْلُقِ فَإِنَّمَا يليقُ بِالْخَالِقِ ، وَإِنَّمَا عَانَهُ اللَّهُ
تَعَالَى بِالْكَبِيرِ لَتَعْدِيهِ طُورَهُ ، وَلِجَهَلِهِ لَقْلُورَهُ ، وَانْتَهَى لِهِ مَا لَا يَجُوزُ إِلَّا لِرَبِّهِ .
وقالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : «الْمَظْمَنةُ رِدَاءُ اللَّهِ ، فَمَنْ نَازَعَهُ رِدَاءَهُ
نَفَّصَهُ» .

فصلٌ ثالثٌ : والنَّبِيلُ لَا يَتَبَلَّلُ ، كَمَا أَنَّ الْفَصْبِيجَ لَا يَنْفَصِحُ ، لَأَنَّ النَّبِيلَ
يَكْفِيهِ تَبَلُّهُ عَنِ التَّبَلُّلِ ، وَالْفَصْبِيجَ تُغْنِيهِ فَصَاحَتُهُ عَنِ التَّفَصِحِ . وَلَمْ يَتَزَدَدْ أَحَدُ
قَطُّ إِلَّا لِنَفَصِيجِهِ فِي نَفْسِهِ ، وَلَا تَطَاوِلْ مَنْطاوِلُ إِلَّا لِسُوْفَهِ قَدْ أَحْسَنَ بِهِ

قوته .

والكبير من جميع الناس قبيح ، ومن كل العباد مسخوط ، إلا أنه عند الناس من عظماء الأعراب ، وأشباه الأعراب أوجده ، وهو لهم أسرع ، بخلافهم وبعدهم من الجماعة ، ولقلة مخالفتهم لأهل العفة والرقة ، والأدب والصنعة .

[٦ - مواضع استحسان الكبير]

ولم تز الكبرى سُوغ عندهم ويُستحسن إلا في ثلاثة مواضع :

من ذلك أن يكون التكبر صعباً بدنياً ، وذا عرضية وحشياً ، ولا يكون حضرياً ولا مترضاً ، فيحمل ذلك منه على جهة الصُّمودية ومذهب الجاهلية ، وعلى العنجهية والأعرابية .

أو يكون ذلك منه على جهة الانتقام والمُعارضَة ، والمكافأة والمقابلة .

أو على أن لا يكون تكبره إلا على الملوك والجبابرة ، والفراعنة وأشباه الفراعنة .

وصاحبُك خارج من هذه الخصال ، مُجانبٌ لهذه الحال . إن أصاب صديقاً تعظُّم عليه ، وإن أتاه ضيفٌ تغافل عنه ، وإن أتاه ضعيفٌ منْ عليه ، وإن صادف حلِيماً اعتمر به .

ويتبين أن يكون خصوئه لعن فرقه على حسب تكبره على من دونه .

[٧ - صفات اللثيم]

ومن صفة اللثيم أن يظلم الضَّعيف ، ويظلم نفسه للقوى ، ويقتل الصُّرِيع ، ويجهَر على الجريح ، ويطلب الهارب ، ويهرُب من الطالب ، ولا

يطلب من الطوائل إلا ما لا يختار فيه ولا يتكبر إلا حيث لا تزجع مضرُّتْ عليه ، ولا يقُول التقية ولا المروءة ، ولا يعمل على حقيقته .

ومن اختار أن يغىي نبئي ، ومن أراد أن يسمِّي فوله سأله خلقه ، إذ كان لا يحفل ببعض الناس له ووحشة قلوبهم منه ، واحتياطهم في مساعدته ، وقلة ملابسته .

وليس يَسْمَعُ اللَّهُمَّ على إثبات جميع ما اشتمل عليه اسم اللَّهُمَّ إِلَّا حاسد .

فإذا رأيته يعُقُّ أباء ، ويُحْسِدُ أخاه ، ويُظلمُ الضعيف ، ويستخفُ بالآديب ، فلا يُعيذه من الخيانة ، إذ كانت الخيانة لؤماً ولا من الكذب ، إذ كان الكذب لؤماً ، ولا من التُّنَيمَة ، إذ كانت التُّنَيمَة لؤماً ، ولا تأسفه على الكُفُر فإنه أَلَمْ اللَّهُمَّ ، وأيقع العذر .

ومن رأيته منصريناً عن بعض اللَّهُمَّ ، وتاركاً لبعض القبيح ، فإياك أن توجُّه ذلك منه على التجيئ له ، والرغبة عنه ، والإشار لخلافه ، ولكن على أنه لا يشهيه أو لا يقدر عليه ، أو يخاف من مرارة العاقبة أمراً يعفي على حلاوة العاجل ، لأنَّ اللَّهُمَّ كُلُّهُ أصلٌ واحدٌ وإن تفرقت فروعه ، وجنسٌ واحدٌ وإن اختلَفت صُورُه ، والفعل محمول على غلبه ، تابع لسمبه . والشكل ذاهب على شكله ، منقطع إلى أصله ، صائرٌ إليه وإن أبطأ عنه ، ونازعٌ إليه وإن جيل دونه . وكذلك تناصب الكرم وتحين بعضه لبعض .

[٨ - عواقب الكبر]

ولم تر العيون ، ولا سمعت الأذان ، ولا توهمت القول عملاً اجتهاده فهو عقل ، أو اختاره ذو علم ، برأياً مغبٍ ، ولا أنكر عاقبة ، ولا أوحَمَ مرجعي ، ولا أبعدَ مهوى ، ولا أصرَّ على دين ، ولا أفسَدَ بعرض ، ولا أوجبَ لخط

الله ، ولا أدعى إلى مفت النّاس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا أظهر نفراً عن التّربة ، ولا أقل ذراً عند الحقيقة ، ولا أنقض للطّبيعة ، ولا أمنع من العلم ، ولا أشد خلافاً على العلم ، من التّكبير في غير موضعه ، والتّبليغ في غير تكبه .

وما ظلّك بشيء العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والتفريح أليفه ، والصلف عقيدة .

والبذخ متزبد ، والتفاح كذاب ، والتكبر ظالم ، والمتعجب صغير النفس . وإذا اجتمعت هذه الخصال ، وانتظمت هذه الخصال في قلب طال خوابه ، واستغلقت بابه .

وشر العيوب ما كان مضمناً بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة لذنوب .

والتكبر أول ذنب كان في السماوات والأرض ، وأعظم جرم كان من العجز والإنس ، وأشهر نصب كان في القلتين ، وعنه لعن إيليس في الطفيان ، وعُنا على رب العالمين ، وخطأ ربيه في التدبير ، وتلقى قوله بالرّد . ومن أجله استوجب السخط ، وأخرج من الجنة ، وقيل له : ﴿ ما يكون لك أن تتكبر فيها ﴾

ولإفراطه في التمعظيم خرج إلى غاية القسوة ، ولشدة فسنته اعتزم على الإصرار ، وتتابع في غاية الإفساد ، ودعا إلى كل قبيح ، وزين كل شر ، وعن معصيته أخرج آدم من الجنة ، وشهر في كل أفق وأفق ، ومن أجله نصب العداوة لذر بيته ، وتنزع من كل شيء إلا من إهلاك نسله ، فعادى من لا يرجوه ولا يخافه ، ولا يضاهيه في نسب ، ولا يشاكله في صناعة ، وعن ذلك قتل الناس بعضهم بعضاً ، وظلم القوي الضعيف ، ومن أجله أهلك الله الأمم بالمنسخ والرّجف ، وبالخسف وبالطوفان ، والريح العقيم ، وأدخلهم النار ،

وأقتطعهم من الخروج .

والكُبْرُ هو الذي زَيَّنَ لإبليسَ تركَ السُّجود ، وَوَهْمِه شَرَفُ الأَنْفَة ، وَصَوْرُ له عَزَّ الانتقاض ، وَجَبْتُ إِلَيْهِ الْمُخالَفَة ، وَانْسَهَ بِالرَّوْحَدَةِ وَالرَّوْحَشَةِ ، وَهُوَنَ عَلَيْهِ شَخْطُ الرَّبِّ ، وَسَهَّلَ عَلَيْهِ عَقَابَ الْأَبْدِ ، وَوَعَدَهُ الظُّفَرُ ، وَمَنَاءُ السُّلَامَةِ ، وَلَقُنَّهُ الْاحْتِجاجُ بِالْبَاطِلِ ، وَرَزَّيْنَ لَهُ قَوْلَ الرُّورِ ، وَزَعَدَهُ فِي جَوَارِ الْمَلَائِكَةِ ، وَجَمَعَ لَهُ جَلَالَ السُّوءِ ، وَنَظَمَ لَهُ خَلَالَ الشُّرِّ ، لَأَنَّهُ حَسَدَ وَالْحَسَدُ ظَلَمٌ ، وَكَذَبَ وَالْكَذَبُ ذَلٌّ ، وَخَدْعَ وَالْخَدْعَةِ لَوْمٌ . وَخَلَفَ عَلَى الزُّورِ ، وَذَلِكَ فَجُورٌ . وَخَطَا رَبِّهِ ، وَخَطَّبَهُ اللَّهُ جَهَنَّمَ ، وَأَخْطَأَ فِي جَلَى الْقِيَاسِ وَذَلِكَ غَيْرُ ، وَلَعْنَةُ الْجَاجِ ضَعْفٌ . وَفَرَقَ بَيْنَ النَّكْبَرِ وَالْبَدْيِ . وَجَمَعَ بَيْنَ الرُّغْبَةِ عَنْ صَنْبَعِ الْمَلَائِكَةِ وَبَيْنَ الدُّخُولِ فِي أَعْمَالِ السُّفَلَةِ .

وَاخْتَيَّ بَأْنَ النَّارَ خَيْرًا مِنَ الْعَلَىِنِ . وَمَنَافِعُ الْعَالَمِ تَشَابَهُ أَرْبَعَةِ أَرْكَانٍ : نَارٌ بِاِبْسَةٍ حَارَّةٌ ، وَمَاءٌ بَارِدٌ سَيْلٌ ، وَلَرْضٌ بَارِدَةٌ بِاِبْسَةٍ ، وَهَوَاءٌ حَارٌّ رَطْبٌ . لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ مَعَ مُرَازِوجِيَّهِ لِخَلَافَهِ إِلَّا وَهُوَ مُنْهَىٰ مُتَقِّيٌّ . عَلَى أَنَّ النَّارَ يَنْقُمَهُ اللَّهُ مِنْ بَيْنِ جَمِيعِ الْأَصْنَافِ ، وَهِيَ أَسْرَعُهُنَّ إِلَافًا لِمَا صَارَ فِيهَا . وَأَمْحَقَهُنَّ لِمَا دَنَّ مِنْهَا .

هَذَا كُلُّهُ ثُمَرةُ الْكِبْرِ ، وَبِنَاتُ الْنَّبِيَّ ، وَالْكَبْرُ شَرٌّ مِنَ الْقَسْوَةِ ، كَمَا أَنَّ الْقَسْوَةَ شَرٌّ الْمُعَاصِي . وَالتَّوَاضِعُ خَيْرُ الرَّحْمَةِ ، كَمَا أَنَّ الرَّحْمَةَ خَيْرُ الطَّاعَاتِ .

[٩ - الْكِبْرُ رَذِيلَةُ نَعْتَرِي مُخْتَلِفَ طَبَقَاتِ النَّاسِ]

وَالْكِبْرُ مَعْنَى يَنْتَظِمُ بِهِ جَمَاعَ الشُّرِّ ، وَالتَّوَاضِعُ مَعْنَى يَنْتَظِمُ بِهِ جَمَاعَ الْخَيْرِ ، وَالتَّوَاضِعُ عَقِيبَ الْكِبْرِ ، وَالرَّحْمَةُ عَقِيبَ الْقَسْوَةِ . فَإِذَا كَانَ للطَّاعَةِ قِدْرٌ مِنَ الْقُوَّابِ فَلَمْ تَرَكْهَا وَعَقِيبَهَا ، وَلَمْ يَوَازِنْهَا وَيَكَابِلَهَا ، مُثْلُ ذَلِكَ الْقَدْرِ مِنْ

العقاب . وموضع الطاعة من طبقات الرُّضا ، كموضع تركها من طبقات السُّخط
إذ كانت الطَّاعة واجبة ، والترك معصية .

والكثير من أسباب القسوة . ولو كان الكبر لا يعتري إلا الشريف
والجميل ، أو الججاد ، أو الوفي أو الصدوق ، كان أهون لأمره ، وأقل لشينه ،
وكان يعرض لأهل الخير ، وكان لا يفلط فيه إلا أهل الفضل ، ولكن نجده في
السلفة ، كما نجده في العلية ونجده في القبيح كما نجده في الحسن ، وفي
الذميم كما نجده في الجميل ، وفي الذُّنُون الناقص ، كما نجده في الوفي
الكامل ، وفي العيان كما نجده في الشجاع ، وفي الكاذب كما نجده في
الصادق ، وفي العبد كما نجده في الحُرْ ، وفي الذُّمِّي ذي الجزية والضمار
والذلة ، كما نجده في قابض جزيته والمسلط على إذلاله .

ولو كان في الكبر خيرٌ لما كان في ذهر الجاهليَّة أظهرَ منه في ذهر
الإسلام ، ولما كان في العبد أقسى منه في الحُرْ ، ولما كان في السُّند أعمَّ منه
في الرُّوم والفرس .

[١٠ - الكبر ليس من سياسة الملوك]

وليس الذي كان فيه آل ساسان وأنو شروان وجميع وليد أزدشير بن بابك
كان من الكبار في شيء . تلك سياسة للصومام ، وتفخيم لأمر السلطان ، وتسييد
للمملك .

ولم يكن في الخلفاء أشدُّ نخرة من الوليد بن عبد الملك ، وكان
أجهلهم وأخلفهم . وما كان في ولادة العراق أعظم بكثيراً من يوسف ابن عمر ،
وما كان أشجعهم ولا أبصراً لهم ، ولا أئتهم قواماً ، ولا أحسنهم كلاماً .

ولم يدع الربوبية ملكَ قطُّ إلا فرعون ، ولم يك مقدماً في مركبه ، ولا
في شرف حبه ، ولا في ثيل منظره ، وكمال خلقه ، ولا في سعة سلطانه

وشرف رعيته وكرم ناحيته . ولا كان فوق الملوى الأعظم والجلة الأكابر ، بل دون كثيير منهم في الحسب وشرف الملك وكرم الرعية ، ومنتهى السلطان ، والسطوة على الملوك .

ولو كان الكبير فضيلة وفي التيه مروءة ، لما رغب عنه بنو هاشم ولكان عبد المطلب أولى الناس منه بالغاية ، وأحقرهم بأقصى النهاية .

ولو كان محمود العاجل ومرجح الأجل ، وكان من أسباب السعادة أو من حُفر الرياسة ، لبادر إليه سيد بن تيم ، وهو الأحنف بن قيس ، وتشنج عليه سيد بكر بن وائل وهو ملك ، ولاستولى عليه سيد الأزد وهو المهلب .

ولقد ذكر أبو عمرو بن العلاء جميع عيوب السادة ، وما كان فيهم من الخلل المذموم ، حيث قال : « ما رأينا شيئاً يمنع من السُّودَ إِلَّا وقد وجدناه في سيد : وجدنا البخل يمنع من السُّودَ ، وكان أبو سفيان بن حرب بخيلاً . والجهار يمنع من السُّودَ ، وكان عامر بن الطفيلي سيداً ، وكان عاهراً . والظلم يمنع من السُّودَ ، وكان حذيفة بن بدر ظلوماً ، وكان سيد غطفان . والحقن يمنع من السُّودَ ، وكان عتبة بن جضن محظياً ، وكان سيداً . والإملاق يمنع من السُّودَ ، وكان عتبة بن ربيعة ميلقاً . وقلة العدد تمنع من السُّودَ وكان شبيل بن معبد سيداً ، ولم يكن من عشيرته بالبصرة رجالان . والخداثة تمنع من السُّودَ ، وساد أبو جهل وما طر شاربه ، ودخل الندوة وما استوت لحيته .

فذكر الظلم ، والحقن ، والبخل ، والفقر ، والجهار ، وذكر العيوب ولم يذكر الكبير ، لأن هذه الأخلاق وإن كانت داء فإن في فضول أحلامهم وفي سائر أصورهم ما يُداوى به ذلك الداء ، وبمعالج به ذلك السقم ، وليس الداء الممكِن كالداء المُغْضَل ، وليس الباب المغلق كالمسْتَبِئِم ، والأخلاق التي لا يمكن معها السُّودَ ، مثل الكبير والكليب والسفحف ، ومثل الجهل بالسياسة .

وخرجت خارجة بخراسان فقيل لفتيبة بن مسلم : لو ووجهت اليهم وكيع ابن أبي سود لفهم ف قال : وكيع رجل عظيم الكبير ، في أنه خنزوانة ، وفي رأسه نقرة ، وإنما أنفه في أسلوب ، ومن عظم كبره اشتد غشه ، ومن أعجب برأيه لم يشاور كفيها ، ولم يوامر بصحها ، ومن تجُّع بالانفراد وفخر بالاستبداد كان من الظفر بعيداً ، ومن الخذلان قريباً ، والخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقـة . وإن كانت الجماعة لا تخطئ ، والفرقـة لا تصيب .

ومن تكـر على عدوه حـقره ، وإذا حـقره تهـاؤنـ بأمره . ومن تهـاؤنـ بخـصمهـ وـوقـتهـ بـفضلـ قـوـتهـ قـلـ اـحـتـراـسـهـ كـثـرـ عـنـارـهـ .
ومـا رـأـيـتـ عـظـيمـ الـكـبـيرـ صـاحـبـ حـربـ إـلـاـ كانـ منـكـوـيـاـ وـمـهـزـوـمـاـ وـمـخـدـوـعاـ .
ولـاـ يـشـعـرـ حـتـىـ يـكـونـ عـدـوـهـ عـنـهـ ، وـخـضـعـهـ فـيـمـاـ يـغـلـبـ عـلـىـ . أـسـفـعـ مـنـ فـرـسـ ،
وـأـبـصـرـ مـنـ عـقـابـ ، وـأـهـمـىـ مـنـ قـطـاءـ ، وـأـحـلـرـ مـنـ عـقـقـ ، وـأـشـدـ إـقـدـامـاـ مـنـ
الـأـمـدـ ، وـأـتـبـ مـنـ فـهـدـ ، وـأـحـدـ مـنـ جـمـلـ ، وـأـرـقـعـ مـنـ ثـلـبـ ، وـأـغـتـرـ مـنـ
ذـبـ ، وـأـسـخـنـ مـنـ لـافـظـةـ ، وـأـشـعـ مـنـ صـبـيـ ، وـأـجـمـعـ مـنـ فـرـةـ ، وـأـحـرـصـ مـنـ
كـلـبـ ، وـأـصـبـرـ مـنـ ضـبـ . فـإـنـ النـفـسـ إـنـمـاـ تـسـمـعـ بـالـعـنـاـيةـ عـلـىـ قـدـرـ الـحـاجـةـ ،
وـتـتـحـفـظـ عـلـىـ قـدـرـ الـخـوفـ ، وـتـطـلـبـ عـلـىـ قـدـرـ الـطـمـعـ ، وـتـسـطـعـ عـلـىـ قـدـرـ
الـسـبـبـ .

فصل منه : وأقول بعد هذا كلـهـ : إنـ النـاسـ قدـ ظـلـمـواـ أـهـلـ الـحـلمـ
وـالـعـزـمـ ، حـينـ زـعـمـواـ أـنـ الـذـيـ يـسـهـلـ عـلـيـهـ الـاحـتـماـلـ مـعـرـفـةـ النـاسـ بـقـنـوـتـهـ
عـلـىـ الـاـنـقـاطـ ، فـكـيـفـ وـالـمـذـكـورـ بـالـجـلـمـ وـالـمـشـهـورـ بـالـاـحـتـماـلـ يـقـيـضـ لـهـ مـنـ
الـسـفـهـاءـ ، وـيـقـىـ لـهـ مـنـ أـهـلـ الـبـذـاءـ مـاـ لـاـ يـقـومـ لـهـ صـبـرـ ، وـلـاـ يـنـهـضـ بـهـ عـزـمـ .
بلـ عـلـىـ قـدـرـ حـلـمـهـ يـتـعـرـضـ لـهـ ، وـعـلـىـ قـدـرـ عـزـمـهـ يـمـتـحـنـ صـبـرـ وـلـاـ الـذـيـ سـهـلـ
عـلـيـهـ الـحـلـمـ ، وـمـكـنـهـ مـنـ الـعـزـمـ ، مـعـرـفـةـ النـاسـ بـقـدـرـتـهـ عـلـىـ الـاـنـقـاطـ ، وـاـقـدـارـهـ

على شفاء الغيط ؛ فإنْ منعه لنفسه ، ومجاذبته لطبعه مع الغيط الشديد ، والقدرة الظاهرة ، أشدُّ عليه في المزاولة وأبلغُ في المشقة والمكابدة ، من صبر النكيل على أذى شيكله ، واحتمال المظلوم عن مثله ، وإن خاف الطمس ، ونوعُ الغيب .

فصل منه : ومن بعد هذا ، فمن شأن الأيام أن يظلم المرأة أكثرَ محاسنه ما كان تابعاً ، فإذا عاد متبوعاً عادت عليه من محاسن غيره بأضعاف ما منعه من محاسن نفسه ، حتى يضاف إليه من شوارد الأفعال ، ومن شواد العكارم إن كان سيداً ، ومن غريب الأمثال إن كان مُنطيناً ، ومن خiar الفصائل إن كان شاعراً ، مما لا أمارات لها ، ولا سمات عليها .

فكم من يد بيساء وصنيعة غراء ، ضللت فلم يقُم بها ناشد ، وخفيت فلم يظهرها شاكر . والذي ضاع للتابع قبل أن يكون متبوعاً ، أكثرَ مما حفظ ، والذي نسي أكثرَ مما ذكر ، وما ظنك بشيءٍ يقيمه تهُّب السعادة ، ومشكورة يهب الرياسة ، على قلة الشُّكر ، وكثرة الكفر .

وقد يكون الرجل تامُّ النفس ناقصُ الأداة ، فلا يُستبانُ فضله ، ولا يُعْظَم تذره ، كالْمُفْرَج الذي لا عشيره له ، والإتاوِي الذي لا قرم له . وقد يعظم المُفْرَج الذي لا ولاء له ولا عقد جواهير ، ولا عهد جلف ، إذا برغ في الفقه وبلغ في الرُّمُد ، بأكثرَ من تعظيم السيد ، كجهة تعظيم الدينان . كما أن طاعة السلطان غير طاعة السادة ، والسلطان إنما يملك أبدان الناس ، ولهم الخبر في عقولهم ، وكذلك الموالي والعبيد .

وطاعة الناس للسيد ، وطاعة الدينان طاعة محبة ودينونه ، والقلوب أطروع لهما من الأبدان ، إلا أن يكون السلطان مرضياً ، فإنْ كان كذلك فهو أعظم خطراً من السيد ، وأوجع عند الله من ذلك الدينان .

وربما ساد الأتاوِي لأنَّه عربيٌ على الحال . والمُفْرَج لا يسوء أبداً لأنَّه

عجميٌ لا حلف له ، ولا عقد جوار ، ولا ولاء معروف ، ولا نسب ثابت . وليس
التسويد إلا في العرب ، والمعجم لا تطبع إلا للملوك .

والذى أخرج العرب في الجاهلية إلى تسويد الرجال وطاعة الأكابر ، بعده
ذورهم من الملوك والحكام والقضاة ، وأصحاب الأربع ، والمسالح والعمال .
نكان السيد ، ففي منهم من غيرهم ومنع غيرهم منهم ، ووثوب بعضهم على
بعض ، ففي كثير من معانى السلطان .

٣ - هامش كتاب النبل والتليل وذم الكبر

- (١) الجاحظ يعرض على نايلب المنكرين بقوله « والكبر أعزك الله تعالى باب لا يهدى احتماله حلماً ، ولا الصبر على أهله حزماً ، ولا ترك عقابهم عفواً ، ولا الفضل عليهم مجدًا ، ولا التغافل عنهم كرماً ، ولا الامساك عن ذمم صمتاً ». لاحظ تقطيع الجمل المتوازي وزناً ومعنى .
- (٢) يفرق بين النبل والتليل : التليل هو التظاهر بالنبل او تكلفة .
- (٣) الدول جمع دولة ومعناها هنا المهد والمراحلة الزمنية .
- (٤) فالخارجي قد يتثبت بنفسه ، والنابي قد يخرج بطبعه ، وكل غر اول ، واول كل قديم حادث ». هذه العبارة مبهمة لا يتألف معناها مع ما قبلها وما بعدها . الخارجي هو من يتبع الى فرقه الخوارج الذين خرجوا على علي وكفروه بعد ان كانوا من اتباعه وساندوا بالجهاد . والنابي نسبة الى النابة ، اتباع معاوية ، وهي فرقة نبتت اتي حدثت في عصر الجاحظ تدعى مجددًا الى احباء الدولة الاموية ، نبتت خلافة معاوية . وقد كتب الجاحظ حولها رسالة النابة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية .
- (٥) الاخفى هو الاخفى بن قيس ساد قبيلته في المصر الاموي واشتهر بحلمه ولسنه وموهبة الخطابة .
- الكبر والعظمة لله اما الانسان فاختلق به التواضع والتذلل .
- الرغبة : الورع والتقوى .
- (٦) الخلال والخصال مترافقان .
- (٧) اللثيم يستعملها بمعنى المتكبر ؟ .
- الحقيقة تعنى هنا الطبيعة والجوهر .

- (٨) لاحظ الجمل المترادفة والمتوازنة « العجب شقيقه ، والبيذخ صديقه ، والتفحى
البيه ، والصلف عقبده » .
ـ التقلين : الانس والجعن .
- ـ الاركان الاربعة : النار والماء والارض والهواء . يدل على التأثر بالفلسفه
اليونانيين الفائلين بالمعاصر الاربعة : ابندقليس وافلاطون وارسطو .
- ـ لاحظ اقتباس الجاحظ من القرآن : فضة ابليس وكبره ورفضه السجود . وقد
ورد ذلك في اماكن عده من نتاج الجاحظ (انظر مثلاً كتاب الحاسد والمحسود ،
ضمن رسائل الجاحظ الادبية) .
- (٩) الكبر تقىض النواضع .
يكتايلها من الكبيل لمعرفة كمية الشيء ، مثل الموازنة لمعرفة الوزن . الذمي ذي
الجزية : اهل الذمة هم النصارى واليهود الذين منحوا حرية العبادة شرط دفع
الجزية لبيت المال المسلم .
- (١٠) القول ان ملوك آل ساسان لم يعرفوا التعظيم والكبر غير صحيح . لقد احاطوا
ملوكهم بالابهه والاجلال واسرفو في ذلك حتى اصبعوا مضرب الامثال . ويبدو
ان بعض النساخ المبالغ للشعبية حرفوا قول الجاحظ .
- ـ لاحظ اطلاع الجاحظ على اخبار العرب ومعرفة ساداتهم وخصالهم : وهو زاء
السادة عاشوا حتى ادركوا الاسلام وكان لهم مواقف من الدعوه : ابو سفيان
وعامر بن الصفيف وحذيفة بن بدر ، وعيينة بن حصن الفزارى ، وعتبة بن ربيعة
ابن عبد شمس بن مناف الذي قتل كافرا يوم بدر مع أبي جهل عمرو بن هشام
ابن المغيرة المخزومي .
- ـ ثبت الجاحظ جملة من الامثال التي وردت في مجمع الامثال للميداني :
اسمع من فرس ، انصر من غراب ، اهدى من فطاوه ، اخذر من عقعق ، اشد
من اسد ، اوئب من فهد ، احقد من جمل ، اروع من ثعلب ، اغدر من ذئب ،
اسخى من لافطة (ديلك) اشع من صبي ، اجمع من ذرة ، احرص من كلب ،
اصبر من ضب .

- ٤ -

تفضيل البطن على الظهر



لهم إني أسألك سلامك

[١ - مناسبة الرسالة : كتاب وارد من شخص يفضل الظهور على البطن]

فصل منه : عَصَمْنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مِنَ الشَّهْةِ ، وَأَعْذَّنَا وَإِيَّاكَ مِنْ زَبَّاخِ
الْهَوَى ، وَمُضَلَّاتِ الْمُنْتَهَى ، وَوَهَبَ لَنَا وَلَكَ تَأْوِيْبًا مَؤْدِيًّا إِلَى الرُّبَّادَةِ فِي إِحْسَانِهِ ،
وَتَوْفِيقًا مُوجِيًّا لِرَحْمَتِهِ وَرَضْوَانِهِ .

وقد كان كتابك يا ابن أخي - وفقك الله - وَرَدَ عَلَيَّ ، تَصَفُّ فِيهِ فَضْلَةُ
الظُّهُورِ وَصَفَّا بَدْلُ عَلَى شَفَقَكِ بِهَا ، وَجُبُّكِ إِلَيْهَا ، وَحَنِينُكِ إِلَيْهَا وَإِيَّاكَ لَهَا ،
وَفَهْمُكِ .

فَلَمْ تَمْنَعْ - أَعْذَّكَ اللَّهُ مِنْ عَدُوكَ - مِنِ الإِجَابَةِ عَنْ كِتَابِكَ فِي وَقْتٍ
وَرُوِيَّهُ ، إِلَى عَوَارِضِ أَشْغَالِ مَانِعَةِ ، وَحَوَادِثِ مِنَ النَّصْرُوفِ وَالْاِنْتِقالِ مِنْ مَكَانٍ
إِلَى مَكَانٍ عَائِقَةٍ .

ولم آمنْ أَنْ لَوْ تَأْخُرَ الْجَوابُ عَلَيْكَ أَكْثَرُ مِنْهَا تَأْخُرٌ ، أَنْ يَسِقِّي إِلَيْكَ قَلْبِكَ
أَنِّي راضٌ بِاخْتِيارِكَ ، وَمُسْلِمٌ لِمَذْهِبِكَ ، وَمُوَافِقٌ لَكَ فِيهِ ، مُسَاعِدٌ لَكَ عَلَيْهِ ،
وَمُنْقَادٌ مَعَكَ فِيمَا اعْتَقَدْتَ مِنْهُ ، وَمُجِدٌ فِي طَلْبِهِ ، وَمُحَرَّصٌ عَلَيْهِ .

[٢ - الجاحظ يرجو الهدایة لصاحب الكتاب]

فبادرت بكتابي هذا ، منبئاً لك من سنته زقدتك ، وداعياً إلى رشدك .
فإنك تعلم - وإن كنت لي في مذهبِي مخالفاً ، وفي اعتقادِي مبايناً - أنَّ اجتماع
المتباينين فيما يقع بصلاحهمَا أولى في حكم العقل ، وطريق المعرفة [منه]
فيما أبادهما ، وعُد بالضرر في اختيارهما عليهما .

وأنا ، وإن كنت كشفت لك قناع الخلاف ، وأبديت مكنونَ الفحيم
بالمضادة ، وجاهذتني بنصرة الرأي والعقيدة في حُبِّ الظهور ، وتلقيق الفضائل
لها ، غيرَ مُستشيرٍ للناس من رجحتك ، ولا شاكٌ في لطائف حكمتك ،
وغواص فطبتك .

وقد أعلمُ أنَّ معك - بحمدِ الله - بصيرةَ المعتبرين ، وتميزَ المسوقةين
وأنك إذا أمعنت فكرًا وبحثًا ونظرًا ، رجعتَ إلى أصلِ قويِّ الانقياد
والموافقة ، ولم تَسْرُطْ في اللجاج فَعَلَ المُغَيَّبين ، ولم يتداخلَك غرَّةُ
المتحلين ؛ فإنَّا رأينا قوماً انتحلوا الحكمة وليسوا من أهلها ، بل هم أعلامُ
الدعوى ، وحلفاءُ الجهالة ، وأتباعُ الخطأ ، وشيوخُ الضلال ، وحوَّلَ النَّقص ،
الذين قاموا عليهمُ الحجَّة بما تخلوهُ أنفسهم من اسمها ، وسلبوه من فهمِ
عظيم قدرها ومعرفة جليل خطرها ، ولم يجعلوا الرِّين عن قلوبهم والصدأ عن
أسماعهم ، بالتنفير والبحث والتكتُّف ، ولم ينصبوا في عقولهم لأنفهم أصلاً
يتلوون في اعتقادهم عليه ، ويرجعون عند الخيرة في اختلاف آرائهم إليه .
فضلُوا ، وأصبحَ الجهلُ لهم إماماً ، والسفهاءُ لهم قادةً وأعلاماً .

ونحن نسأل الله بحوله وقوته وتمته ، ألا يجعلك من أهل هذه الصفة ،
وأن يبريك الحقَّ حقَّاً فتبغه ، والباطل باطلًا فتجتبه ، وأن يعمتنا ببركةِ هذا
الدعاء ، وجماعة المسلمين ، وأن يأخذ [إلى] الخير بنواصينا ، ويجمع على

الهُدَى فَلَوْنَا ، وَيَرْفَعُ فِيهِ ذَاتَ بَيْتِنَا ، فَإِنَّكَ مَا عَلِمْتَ - وَأَتَقْلَدُ فِي ذَلِكَ أُمَانَةَ
الْقَوْلِ - مَمَّنْ أَحِبُّ مَوْافِقَتَهُ وَمُخَالَطَتَهُ ، وَأَنْ يَكُونُ فِي فَضْلِهِ مُقدَّماً ، وَعَنْ كُلِّ
عَصْبَيَّةٍ مُتَزَّهاً .

وَمَا أَعْلَمُ حَالاً أَنَا عَلَيْهَا فِي الرُّغْبَةِ لَكَ فِيمَا أَرْغَبَ لِنَفْسِي فِيهِ ، وَالسُّرُورِ
بِكَامِلِ أَحْوَالِكَ ، وَاسْتِوَاءِ مَذْهَبِكَ ، وَمَا أَزَّنِّ بِهِ مِنْ إِرْشَادِكَ وَنَصِيحَتِكَ ،
وَتَسْدِيدِكَ وَتَوْفِيقِكَ ، إِلَّا وَصِدْقُ الطَّرْوَةِ مُنْيٌ فِيهَا أَبْلَغُ مِنْ إِسْهَابِي فِي فَضْلِ
صَفْنَاهَا . وَاللَّهُ تَعَالَى الْمُعْيِنُ وَالْمُؤْمِنُ وَالْمُوْفَقُ ، وَالْمُبْدِعُ ، وَحَدَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ، كَمَا هُوَ أَهْلُهُ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا .

[٣ - الشريعة تنهى عن الظهور]

بِاَحْيٍ - اَرْشَدْنَا اللَّهُ - إِنَّكَ أَغْرَقْتَنِي مَدْحَ الظُّهُورَ مِنَ الْجَهَةِ الَّتِي كَانَ
يَنْبَغِي لَكَ أَنْ [تَذَمَّنَهَا ، وَقَدَّمَنَهَا مِنَ الْجَهَةِ الَّتِي يَنْبَغِي لَكَ أَنْ] تَؤْخُرَهَا .
وَأَنْزَلَنَهَا وَهِيَ مَحْقُوقَةٌ بِأَنَّ تُرْضَهَا .

وَمَا رَأَيْنَا هَلَالَ الْأَمْمِ الْغَالِبَةِ ، مِنْ قَوْمٍ لُسوْطٍ ، وَثَمُودٍ وَأَشْيَاعِهِمْ
وَأَتَبَاعِهِمْ ، وَحَلُولَ الْخَسْفِ وَالرُّجْفَةِ وَالْأَيَّاتِ الْمُثْلَاثَاتِ وَالْعَذَابِ الْأَلِيمِ وَالرُّبُيعِ
الْعَقِيمِ ، وَالْغَيْرِ وَالْكَيْرِ وَوجُوبِ نَارِ السُّعِيرِ ، إِلَّا بِمَا دَأَبُوا بِهِ مِنْ اخْتِيَارِ
الظُّهُورِ . قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ، فِي قَصَّةِ لَوْطٍ : « أَتَأْتَوْنَ الْذُكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ .
وَتَنَزَّلُونَ مَا خَلَقْتُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ بِلَ أَنْتُمْ قَوْمٌ غَادُونَ » .

قَدْمُهُمُ اللَّهُ - تَبَارَكَ وَتَعَالَى - كَمَا تَرَى ، وَبَلَّغَ بِهِمْ فِي ذَكْرِ مَا اسْتَعْظَمُ مِنْ
عُتُّهُمْ إِلَى غَايَةٍ لَا تُدْرِكُ صِفَتَهُمْ ، وَلَا يُوقَفُ عَلَى حَدِّهَا مَعَ آتِيٍّ كَثِيرٍ قَدْ أَنْزَلَهَا
فِيهِمْ ، وَقَصْصَ طَوْبِيَّةٍ قَدْ أَنْبَأَ بِهَا عَنْهُمْ ، وَوَوَابَاتٍ كَثِيرَةٍ أَثْرَهَا فِيمَنْ كَانَ مِنْ
طَبَقَتِهِمْ .

وَسَنْتَيْهِ مِنْهَا بِمَا يَقُولُ بِهِ الْكَفَاهَةُ دُونَ اسْتِفْراغِ الْجَمِيعِ ، مِمَّا حَمَلَتْهُ
الرُّوْهَةُ ، وَنَقَلَهُ الصَّالِحُونَ .

فَصَلْ مِنْهُ : وَالْحَقُّ بَيْنَ لَمْنَ التَّمَسَّهُ ، وَالْمَنْهَجُ وَاضْعَفُ لَمْنَ أَرَادَ أَنْ
يَسْلُكَهُ . وَلَيْسَ فِي الْعُنُودِ ذَرْكٌ وَلَا مَعَ الْاعْتَرَامِ فَلَأْجَ . وَالرُّجُوعُ إِلَى الْحَقِّ خَيْرٌ
مِنَ الْتَّمَادِي فِي الْبَاطِلِ ، وَتَرْكُ الدُّنْبِ أَبْسُرُ مِنَ التَّمَاسِ الْحُجَّةِ ، كَمَا كَانَ عَضْنُ
الْطُّرْفِ أَهْوَانُ مِنَ الْحَنِينِ إِلَى الشَّهْوَةِ . وَبِاللَّهِ تَعَالَى التَّوفِيقُ .

[٤ - فَضَائِلُ الْبَطُونِ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ وَالْحُكْمِ]

فَصَلْ مِنْهُ : نَبَأُ الْآذَنَ بِذِكْرِ مَا خَصَّ اللَّهُ بِهِ الْبَطُونُ مِنَ الْفَضَائِلِ ، لِيرْجِعَ
رَاجِعُهُ ، وَيُنَبِّئَ مُنْبِئُ مُفْكَرٍ ، وَيَتَبَهَّ رَاقِدٌ ، وَيُبَصِّرُ مُتَحِيرٌ ، وَيَسْتَغْفِرُ مُذَنبٌ ،
وَيَسْتَقْبِلُ مُخْطَلٌ ، وَيُنْزِعُ مُصِيرٌ ، وَيَسْتَقِيمُ عَانِدٌ ، وَيَتَأْمَلُ غَمَرٌ ، وَيَرْشِدُ
غَوِيًّا ، وَيَعْلَمُ جَاهِلًا ، وَيَزْدَادُ عَالَمًا .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا وَصَفَتْ بِهِ النُّخْلُ : « يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ
مُخْتَلِفُ الْوَانَةِ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ » .

وَبَعْثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي خَيْرِ بُطُونِ قَرِيشٍ .

وَوَجَدْنَا الْأَغْلَبَ فِي صَفَةِ الرَّجُلِ أَنْ يَقُولَ إِنَّهُ مَعْرُوفٌ بِكَذَا مَذْ خَرَجَ مِنْ
بُطْنِ أُمِّهِ ، وَلَا يَقُولُ مِنْ ظَهَرِ أَيْمَهِ .

وَيَقُولُ فِي صِفَاتِ النِّسَاءِ : « قُبْ الْبَطُونِ نَوَاعِمٌ » . وَيَقُولُ : خَمْصَانَةُ
الْبَطْنِ ، وَلَا يَقُولُ : خَمْصَانَةُ الظَّهَرِ .

وَيَقُولُ : غَلَانٌ بَطَنَ بِالْأَسْوَرِ ، وَلَا يَقُولُ : ظَهَرٌ . وَيَقُولُ : بِطَانَةُ الرَّجُلِ
وَبِطَارَتِهِ ، فَيُبَدِّأُ بِالْبَطَانَةِ .

ويطن القروطاس خيرٌ من ظهره ، ويطن الصحبة موضع التفع منها لا ظهرها ، ويطن القلم يكتب لا ظهره ، ويطن السُّكين يقطع لا ظهرها .

ـ وخلق الله جلَّ وعزَّ آدمَ من طينٍ ، ونشأه من بطن حواءً . ـ

ورأينا أكثر المنافع من الأغذية في البُطون لا في الظُّهور؛ فبطن البقر أطيب من ظهورها ، وبطن الشاة كذلك .

ومن أفضل صفات عليٍ رضي الله عنه أنَّ كان أخصَّ بطبنا .

وأسَّعَ من غنائِهم :

بطنني على بطنك يا جاريه لا تُمْطأْ نَبْفي ولا باريه
ولم يقل « ظهري على ظهرك » ، فجعل مماسة البطن غانياً عن الوطاء ،
كافياً من الفطاء .

ولو لم يكن في البطن من الفضيلة إلَّا أنَّ الوجه الحسن ، والمنظر الأنوث
من حِيزه ، وفي الظُّهور من العيب ، إلَّا أنَّ الذُّرُّ في جانبه ، لكان فيها أوضاع
الأدلة على كرم البطن ولذم الظُّهور .

ولم نرهم وصفوا الرجل بالفحولة والشجاعة إلَّا من تلقائه ، وبالجحث
والأنفة إلَّا من ظهوره .

ـ وإذا وصفوا الشُّجاع قالوا : مَرْ فلان قُدُّماً ، وإذا وصفوا الجَبَان قالوا :
ولئى مُدِيراً .

ولشَّانَ بين الرَّوْصَفَيْنِ : بين من يلقى الحرب بوجهه وبين من يلقاها
بغفاه ، وبين الناكع والمنكوح ، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ،
والآتي والماشي ، والأسفل والأعلى ، والزائر والمُزور ، والقاهر والمقهور .

ولمَّا رأينا الكنوز العادمة والذخائر النَّفَسية ، والجوائز الشَّميمَة مثل اللُّرْ

الأصفر ، والياقوشم الأحمر ، والرُّمْد الأخضر ، والمسك والعنبر والعقبان واللُّجُون ، والزُّرْنيخ والزُّرْقَن ، والحديد والبُورق ، والنُّفط والقار ، وصنوف الأحجار ، وجميع منافع العالم وأدواتهم وألاتهم ، لحربيهم وسلمتهم ، وزرعهم وضرعهم ، وعنافهم ومراقيفهم ومصالحهم ، وسائر ما يأكلونه ويشربونه ، ويلبسونه ويُشْمُونه ، ويتفعون برائحته وطعمه ، وداين في بطون الأرض ، وإنما يُستَبَطِّنُ منها استباطاً ، ويُسْتَخْرَجُ منها استخراجاً ، وإن على ظهرها الهوام القاتلة ، والسباع العادنة التي في أصغيرها تلُّفُ النفوس وداعي الفتاء وعوارض البلاء ، وأنه قل ما يمشي على ظهرها من دائمة ، إلا وهو للمرء عدو ، وللموت رسول ، وعلى الهمكة دليل - لم يمتنع [في] عقولنا ، وأرانتنا ومعرفتنا من الإقرار بفضل البطن على الظهر في كل وقت ، وعلى كل حال .

ومن فضيلة البطن على الظهر أنَّ أحداً إن ابْتَلَنَ فيه بداءٍ كان مستوراً ، وإن شاءَ أن يكتُمه كتمةً عن أهله ، ومن لا ينطوي عنه شيءٌ من أمره ، وغيره .

ومن بلية الظهر إنه إن كان ذاماً ظهر وبيان ، مثل التجرب والسُّلَيم والخنازير وما أشبهها ، مما سلَّمَتْ منه البطون وجُعل خاصاً في الفُهود .

[٥ - حرم الله إتيان النساء من دبرهن]

وفضل الله تعالى البطون بأن جعل إتيان النساء ، وطلب الولد ، والتعاس الكثرة مباحاً من يلقانيها ، محرماً في المعاشر من ورائيها ، لأنَّ حرام على الأمة إتيان النساء في أدبارهن ، لما جاء في الحديث عن الصادق صلي الله عليه وسلم : « لا تأْتُوا النِّسَاءَ فِي مَحَاشِهِنَّ » .

وقد ترى بطانة التُّوب تقومُ بنفسها ، ولا ترى الظاهرة تستغنى .

وجعل الله تعالى البطن وعاءً لخير خلقه محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، ثم جعل أول دلائل نبوته أن أهبطَ إليه ملائكة حين أيقنُ ، وهو يدرج مع غلمان الحبي في هوازن ، وهو مسترخص فيبني سعد ، حين شقَّ عن بطنه ، ثم استخرج قلبه فحشى نوراً ، ثم ختم بخاتم النبؤة . ولم يكن ذلك من قبل الظاهر .

فصل منه : ومما فضلت به البطون : أن لحم السرة من الشاة أطيب اللحم ، ولحم السرة من السمك الموصوف ، وسرة حمار الوحش شفاعة يتدارى بها ، ومن سرة الظباء يستخرج المسك . وهذا كلُّه خاصٌ للبطون ليس للظهور منه شيء .

وببدأ الله عز وجل في ذكر الفوائح بما ظهر منها ، ولم يبدأ بما يُطْن ف قال : « إنما حرم ربِّي الفوائح ما ظهر منها وما يُطْن » ، فجعله ابتداء في الذم .

والظهور في أكثر أحواله سُبْحَانَ ، والبطن في أكثر أحواله حَسْنَ . والظهور في كل الأوقات وَخَشَةُ وَرُؤْشَ ، والبطن في كل الأوقات سَكُنَ وأَنْسَ .

[٦ - محسن المرأة من جهة البطن لا الظهر]

ولم ترُمِّمْ حين بالغوا في صفات النساء بدأوا بذلكها إلا من جهة البطن فقالوا : مُدْمِجةُ الْحَضْرِ ، لذِيَّنَةُ الْعِنَاقِ ، طَبِيَّةُ النَّكْهَةِ ، حُلُوةُ الْعَيْنَيْنِ ، سَاحِرَةُ الطُّرْفِ ، كَانَ سُرْتُهَا مُدْهَنٌ ، وَكَانَ فَاهَا خَاتَمٌ ، وَكَانَ ثَديَهَا حُقَابٌ ، وَكَانَ عَنْقَهَا إِبْرِيقٌ فَضْلَةٌ . وليس للظهور في شيءٍ من تلك الصفات حُظُّ .

[٧ - حِدَّ الزَّانِي وَاللَّوْطِي]

وَاتَّى تَبْلُغُ في صفة البطون ، وإنْ أَسْهَبْنَا ، وكم عسى أن تُحصى من

معايير الظهور وإن اجتهدنا وبالغنا . ألا ترى أن حُدُّ الزَّانِي ثمانون جلدةً ما لم يكن مُحصناً ، وحدُّ اللُّوطِيُّ أن يُخْرَقَ . وكلامما فجورٌ ورجاسة ، وإيمانٌ ونجاسة . إلَّا أنَّ أَيْسَرَ المُكْرَهِينَ أَحَقُّ بِأَنْ يَعْمَلَ إِلَيْهِ مِنْ ابْتِلِي ، وَعَيْرُ الشَّرَّيْنِ أَحَسْنَ فِي الْوَصْفِ مِنْ شَرِّ الشَّرَّيْنِ .

ولو أَنَا رأينا رجلاً في سوقِ منْ أَسْوَاقِ الْمُسْلِمِينَ يَقْبِلُ امرأةً فَسَأَلَنَاهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ : امْرَأَتِي . وَسَأَلْنَاهَا فَقَالَتْ : زَوْجِي - لِذَرَانِا عَنْهُمَا الْحُدُّ ، لَأَنَّ هَذَا حُكْمُ الْإِسْلَامِ . وَلَوْ رَأَيْنَاهُ يَقْبِلُ غَلَاماً لِأَذْبَنَاهُ وَجِبْنَاهُ ، لَأَنَّ الْحُكْمَ فِي هَذَا غَيْرُ الْحُكْمِ فِي ذَلِكَ .

أَلَا ترى أَنَّهُ لَيْسَ يَمْتَنِعُ فِي الْعُقُولِ وَالْمَعْرِفَةِ أَنْ يَقْبِلَ الرَّجُلُ فِي حُبِّ مَا مَلَكَتْ يَمْبَيْنُهُ حَتَّى يَقْبِلُهَا فِي الْمَلَأِ كَمَا يَقْبِلُهَا فِي الْخَلَاءِ ، يَصْدُقُ ذَلِكَ حَدِيثُ ابْنِ عُمَرَ : « وَقَفَتْ فِي يَدِي جَارِيَةٌ يَوْمَ جُلُولَةٍ كَيْنَانَ عَنْقَهَا إِبْرِيقٌ فَضْةٌ فَمَا صَبَرَتْ حَتَّى قَبَّلْنَاهَا وَالنَّاسُ يَنْظَرُونَ » .

[٨ - تفضيل الظهر على البطن يثير الشك]

فصل منه : وقد رأيتُ مِنْكُمْ أَيْمَانَ الرَّجُلِ إِفْرَاطَكَ فِي وَصْفِ فَضْيَلَةِ الْظَّهُورِ ، وَفِي مَحْلِ الرِّئِيْهِ وَقَفَتْ ، لَأَنَّا رَوَيْنَا عَنْ عَمِّ أَنَّهُ قَالَ : « مِنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا ظَنَّا بِهِ خَيْرًا ، وَمِنْ أَظْهَرَ لَنَا شَرًا ظَنَّا بِهِ شَرًا » .

وَإِنَّمَا يَصْفِ فَضْلَ الْظَّهُورِ مِنْ كَانَ مُفْرِمًا بِحُبِّ الْظَّهُورِ ، وَالِّي رَكْوَبَهُ صَبَّا ، وَبِالنَّوْمِ عَلَيْهِ مُسْتَهْرِّا ، وَبِالْتَّوْلِعِ بِطَلْبِهِ نَوْكِلا ، وَمَنْ كَانَ لِلْمَحَالِ مُبَابِنًا ، وَلِسَبِيلِهِ مُفَارِقاً ، وَلِأَهْلِهِ قَالِياً ، وَلِلْمَحْرَامِ مَعَاوِداً ، وَيَحْبِلُهُ مُسْتَمْسِكًا وَإِلَى قَرْبِهِ دَاعِيَا ، وَلِأَهْلِهِ مَوَالِيَا .

وَقَدْ اضطَرَرْنَا بِتَصْبِيرِكَ الْمُفْضُولِ فَاضْلَا ، وَالْعَامُ خَاصَا ، وَالْخَيْسَنَ

نفيساً ، والمحمود مذموماً ، والمعروف منكراً ، والمؤخر مقدماً والمقدم مؤخراً ،
والحلال حراماً ، والحرام حلالاً ، والبدعة سنة ، والسنّة بيعة ، والخطير
إطلاقاً ، والإلتفاف حظراً ، والحقيقة شبهة والشبهة حقيقة ، والشين زيناً والزین
 شيئاً ، والزجر أمراً والأمر زجراً ، والزوفم أصلاً والأصل وهم ، والعلم جهلاً
والجهل فضلاً - إلى أن دخلنا عليك العطن ، وأحقناك التهمة ، وتبناك إلى
غير أصلك ، وتبناك غير عقيدتك ، وقضينا عليك بغیر مذهبك . و « يداك
أوكفاً ، وفاك بفتح » . فلا يبعد الله غيرك !

أوجذنا أيها الصال التفضل ، المغلوب على رأيه ، المسلوب فهمه ،
المولى على تميزه ، الناكس على عقبه في اختياره ، المفارق لأصل عقده ،
المذير بعد الإقبال في معرفته ، الساقط بعد الهوى في وزرته ، المتخلى من
فهمه ، الغني عن إفهامه ، المقصي لحكمته ، المتزوع عقده ، المختلس لبُه ،
المستطار جنانه ، المعدوم بيانه ، في الظهور بعد الفضائل التي أوجذناها في
البطون ، إما قياساً ، وإما اختياراً ، وإما ضرورة ، وإما اختياراً وإما اكتساباً ،
أو في كتاب متزل ، أو سنة مأثورة ، أو عادة محمودة ، أو صلاح على خير .

أم هل لك في مقالتك في إمام ثائم به ، أو أستاذ تقفي أثره ، وتهتدي
بهداه ، وتسلك سنته .

فصل منه : وقد حضتني عليك عند انتهاءي إلى هذا الموضوع رقة ،
وتداخلتني لك رحمة ، ووجدت لك بقية في نفس ، لأنّه إنما يرحم أهل
الباء .

والحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به ، وفضلنا على كثير من خلقه
تفضيلاً .

فرأيت أن أختتم بأسط الدعاء لك كتافي ، وأن أحجز به أجيري وثوابي ،

ورجوت أن تُبيَّب وترجع بعد الجماح واللّجاج ، فإن للجواد استقلالاً بعد الكُبْرَى ، وللشُّجاع كُرْة بعد الكُشْفَة ، وللحليم عطفة بعد النُّبْوة .

وأنا أقول : جعلنا الله وإياك من أبصار رُشْتَه ، وعَرَفَ حَظْهُ ، وأثَرَ
الإنصاف واستعمله ، ورفض الهوى واطرحوه ؛ فبِإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَتَلَّ بِالْهُوَى
إِلَّا مِنْ أَضْلَلَهُ ، وَلَمْ يُبَعِّدْ إِلَّا مِنْ اسْتَبَعْدَهُ .

٩ - فصل في ذم اللواط^(١)

والذى يدل على ان هذه الشهوة معيية في نفسها ، قبيحة في عينها ، ان الله تعالى وعز لم يعرض في الآخرة بشهوة الولدان من ترك لوجهه في الدنيا شهوة الغلمان . كما سقى في الآخرة الخمر من تركها له في الدنيا ، ثم مدح خمر الجنة باقصى الكلام ، فنظم به جميع المعانى المكرورة في خمر الدنيا فقال : « لا يصدعون عنها ولا ينزعون » . كأنه تبارك وتعالى قال : لا سكر فيها ولا خمار .

وفي اكتفاء الرجال بالرجال والنساء بالنساء انقطاع النسل ، وفي انقطاع النسل بطلان جميع الدين والدنيا . وغضيان الرجل الرجل والمرأة المرأة من المنكوس المعكوس ، ومن المبدل المقلوب ؛ لأن الله جل ذكره ائمما خلق الذكر للأنثى ، وجعل بينهما اسباب التحاب وعلاقتين الشركة ، وعمل المشاكلة وجعل الذكر طبقاً للأنثى ، وجعل الأنثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاء الأمر وعكسوه ، واستقبلوا من اختصار الله لهم بالرذد والزهد فيه .

(١) هذه الصفحة وردت وسط كتاب المعلمين في طبعة عبد السلام هارون وهي بدون شك مقتضي على الكتاب وربما اختيرت من كتاب ذم اللواط الفاسد . ورأينا من المناسب الحالها بكتاب تفضيل البطن على الظهر الذي يعالج الموضوع ذاته .

٤ - هامش تفضيل البطن على الظهر

- (١) الجاحظ يعلن موقفه الجازم من الموضوع : انه ليس راضٍ باختيار من يفضل الظهر على البطن ، ولا مسلماً لمذهبـه ، ولا موافقـاً فيـه ، او مساعدـاً عليه .
- (٢) الجاحظ ينصح ويرشد ويستد الخطيـ . وكأنـه ينفي عن نفسه تهمة الميل الى مذهبـ من يفضل الظهر على البطن .
- (٣) الشريعة تنهـي عن اللواط . والاستشهاد بالأيات القرآنية دليل على اهتمام الجاحظ بعلم الكلـام .
- (٤) بطون قريش : ما تترفع اليـه من عثـاثـ .
ـ لاحظ استغلال اللغة في تأيـيد آرائه : بـطن الامر خـير من ظـهـره . بـطن القرطـاس خـير من ظـهـره ، بـطن الصـحـيفـة خـير من ظـهـرهـا الخ ..
ـ السـلـعـ جـمع سـلـمةـ : زـيـادـةـ فيـ الجـسـدـ كالـغـدـةـ .
- (٥) المحـاشـ ، جـمع المحـثـثـةـ ، اي الدـبـرـ .
ـ لاحظ المعـجزـةـ النـبوـيةـ : المـلاـكـ يـشـتـ بـطنـ النـبـيـ حـنـ اـيقـعـ وـيـحـشـ قـلـبـهـ نـورـاـ وـيـخـتـمهـ .
- (٦) مـدهـنـ : قـارـورةـ الـدـهـنـ .
ـ مـدمـجـةـ الـخـصـرـ : مـسـتـقـيمـةـ الـخـصـرـ ، مـحـكـمـةـ الـخـصـرـ .
- (٧) لـاحـظـ كـيفـ يـسـتـغـلـ الفـرقـ بـيـنـ حـدـ الزـانـيـ وـحدـ الـلوـطـيـ تـأـيـيدـ رـأـيهـ وـكـذـلـكـ تـفـسـيلـ الغـلامـ وـالـمـرـأـةـ .

(٨) لاحظ هذا القلب المعل : صيرت المؤخر مقدماً والمقدم مؤخراً ، والحلال حراماً
والحرام حلالاً ، والبدعة سنة والسنة بدعة ... السع .. هل تظن ان الجاحظ
كان غافلاً عن هذه اللعبة؟
ـ يد الله اوكنا ، وفالله نفع » مثل يضرب لمن يجني على نفسه .

- ٥ -

كتاب

مفاخرة الجواري والغلمان



لهم إني أسألك سلامك

[١ - موضع الكتاب ومبررات مرج العد بالهزل]

بالله نستعين واياه نستهدي وعليه نتوكل .

ان لكل نوع من العلم اهلاً يقصدونه ويتوتونه ، واصناف العلم لا تحصى ، منها الجزل ومنها السخيف . واذا كان موضع الحديث على أنه مضحك ومله ، وداخل في باب حد المزح ، فابدل السخافة بالجزالة انقلب عن جهته ، وصار الحديث الذي وضع على ان يسر النفوس يكر بها ويغمها .

ومتن كان صاحب علم ممننا موقحاً ، الف تفكير وتنقيب ودراسة ، وخلف تبين ، وكان ذلك عادة له ، لم يضره النظر في كل فن من الجد والهزل ؛ ليخرج بذلك من شكل الى شكل . فان الاسماع قد تمل الاصوات المطربة والاوئر الفصيحة والاغاني الحسنة ، اذا طال ذلك عليها .

وقد روي عن ابي الدرداء ، رضي الله عنه ، انه قال : « اني لاستجم نفسي ببعض الباطل مخافة ان أحمل عليها من الحق ما يملها » .

وقد روي عن علي بن ابي طالب رضي الله عنه انه قال : « العلم اكثرا من ان يحصل ، فخذلوا من كل شيء احسنهم » .

وَرُوِيَّ عَنِ الشَّعْبِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « إِنَّ الْقُلُوبَ تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الْأَبْدَانُ ، فَابتَغُوا لَهَا طَرَائِفَ الْحَكْمَةِ » .

وَيُعْسَنُ مِنْ يُظْهِرُ النِّسَكَ وَالتَّقْسِيفَ إِذَا ذُكِرَ الْجِرْحُ وَالْأَيْرُ وَالْئِيْكَ تَقْرَزُ وَانْبَضُ . وَأَكْثَرُ مِنْ تَجْدِهِ كَذَلِكَ فَإِنَّمَا هُوَ رَجُلٌ لَيْسَ مَعَهُ مِنَ الْعِرْفَةِ وَالْكَرْمِ ، وَالْأَبْلَى وَالْوَقَارِ ، إِلَّا بِقَدْرِ هَذَا التَّصْنِيْعِ .

وَلَوْ عَلِمْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ أَنْشَدَ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَهُوَ مُحْرِمٌ :

وَهُنَّ يَمْشِينَ بِنَا هَمِيسًا إِنَّ تَصْدِيقَ الطَّيْرِ نَكَلٌ لَّمِيسَا

فَقَيلَ لَهُ : إِنَّ هَذَا مِنَ الرُّكْثَ ! فَقَالَ : إِنَّمَا الرُّكْثُ مَا كَانَ عِنْدَ النِّسَاءِ

وَقَوْلُ عَلَيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَدَخْلُ عَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْبَصَرَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي حَسَبِهِ بِذَاكِرَةِ ، فَقَالَ : مَنْ فِي هَذِهِ الْبَيْوَتِ ؟ فَقَالَ : عَقَائِلُ مِنْ عَقَائِلِ الْعَرَبِ . فَقَالَ : « مَنْ يَطْلُلُ أَبْرُ أَبِيهِ يَسْتَطِعُ بِهِ » .

فَعَلَى عَلَيِّ فِي النَّزَهَةِ يَعْوَلُ .

وَقَوْلُ أَبِي بَكْرِ الصَّدِيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِبْدِيلِ بْنِ وَرْقَةِ يَوْمِ الْحُدَيْبِيَّةِ ، وَقَدْ تَهَلَّدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « عَضَضْتَ بِيَسْطُورِ السَّلَاتِ ، أَنْحَنَّ نَخْدُلَهُ ! ! ! » .

وَقَوْلُ حَمْزَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « وَأَنْتَ يَا ابْنَ مَقْطُومَةِ الْبُطُورِ مَنْ يَكْثُرُ عَلَيْنَا ! ! ! » .

وَحَدِيثٌ مَرْفُوعٌ : « مَنْ عَذِيرِي مِنْ ابْنِ أَمْ سِبَاعِ مَقْطُومَةِ الْبُطُورِ » .

وَلَوْ تَبَعَتْ هَذَا وَشَبَهُهُ وَجَدَتْهُ كَثِيرًا .

وإنما وُضعت هذه الألفاظ لاستعمالها أهل اللغة ، ولو كان الرأي الآيلُفظُ بها ما كان لأولٍ كونها معنٌ ، ولكن في التحرير والصّون للغة العرب أن تُرَفَعْ هذه الأسماء والألفاظ منها .

وقد أصاب كل الصواب من قال : « لكل مقام مقال » .

ولو كان من يتصوّف ويتفشّف ، علم قول امرأة رفاعة الفرضيَّة تجيئه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم غير محتشمة : إني تزوجت عبد الرحمن بن الزبير ، وإنما معه مثل هدبة التوب ، وكانت عند رفاعة فطلقني - ورسول الله صلى الله عليه وسلم ما يزيد على النبِّس حتى قضت كلامها - فقال : « تريدين أن ترجعي إلى رفاعة حلا ، حتى تذوقى من عُسلِّته ويسذوقى من عُسلِّتك » . ورواه ابن المبارك عن معمر عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها - لعلم أنه على سبيل التصْنُع والرِّياء .

ولو سمعوا حديث ابن حازم حين زعم أنه يُقيِّم ذكره ويُصدِّد السُّلْمَ وامرأته متعلقة بذلك حتى يتصدَّ .

وحدثَ ابن أخي أبي الزناد إذ يقول لعمه : انخرَ عند الجماع ؟ قال : يا بُنْيٌ إذا خلوتَ فاصنعن ما أحبيت . قال : يا عَمٌ ، انخرَ أنت ؟ قال : يا بُنْيٌ ، نورايت عُنكِبَتَكَ يجامع لظنتَ أنه لا يؤمن بالله العظيم !

وهذا من ألفاظ المُجان .

وروى عن بعض الصالحين من التابعين رحمة الله ، أنه كان يقول في دعائه : اللهم قُوْذِكِي على نكاح ما أحللت لي .

ونحن لم نقصد في ذكرنا هذه الأخبار الرد على من انكر هذه الأمور ، ولكننا لما ذكرنا اختصار الشتاء والصيف ، واحتجاج أحدهما على صاحبه ، واحتجاج صاحب المعز والضيَّان بمثل ذلك ، أحبينا أن نذكر ما جرى بين

اللأطنة والرُّزْنَة ، وذكرنا ما نقل حُمَّال الآثار ورويَتِ الرُّوَاة ، من الأشعار والأمثال ، وإن كان في بعض البطولات ، فاردنا أن نقدم الحُجْجَة لمذهبنا في مصدر كتابنا هذا .

ونعمَّد بالله أن نقول ما يُوْتَعُ وَيُرْدَى ، وإليه نرحب في التأييد والعصمة ، ونَسَأَلُه السَّلَامَةَ فِي الدِّينِ وَالْأَنْوَارِ بِرَحْمَتِهِ .

* * *

[٤ - ذكر الولدان والجواري في القرآن]

قال (صاحب الغلمان) : إنَّ من فضل الغلام على الجاريه أن الجاريه إذا وُصفت بكمال الحسن قيل : كأنها غلام ، ووصيفه غلامية .

لها قدُّ الغلام وعارضاه وتفضير المبئنة المُعرِّب

وقال :

فطُبْ لِحَدِيثِي مِنْ نَدِيمِ موافقِ
إِذَا هِيَ قَاتِمَةُ وَالْسُّدَاسِيَّ طَائِلَهَا
وساقِيَةُ بَيْنَ الْمُرَاهِقِ وَالْحَلْمِ
وَبَيْنَ الْحَيْفِ الْجَسِّ وَالْحَسَنِ الْجَسِّ

وقال والبة بن الحُجَّاب :

وَمِيراثِيْةُ تَمَشِيَ اخْتِيَالًا
لَهَا زَيْنُ الْغَلَامِ وَلَمْ أَقْسِهَا
مِنَ التَّكْرِبِيِّ قَاتِلَةُ الْكَلَامِ
إِلَيْهِ وَلَمْ أَقْصِرْ بِالْغَلَامِ

وقال عُكَاشَة :

مَطْمُومَةُ الشَّفَرِ فِي قُمْصِ مَزَرُورَةٍ فِي زَيْنِ ذِي ذَكْرٍ سِيمَاهُ سِيمَاهَا
وَأَكْثَرُ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : هُوَ يَطْوِفُ عَلَيْهِمْ غَلَمانَ لَهُمْ كَائِنُهُمْ لَؤْلُؤٌ

مَكْنُونٌ ۝ وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : « يَطْوِفُ عَلَيْهِمْ وَلِدَانَ مُخْلَدُونَ . بِأَكْوَابٍ
وَأَبَارِيقٍ ۝ . فَوَصَفُوهُمْ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِّنْ كِتَابِهِ ، وَشَرَقَ إِلَيْهِمْ أُولَيَّاهُ ۝ .

قال (صاحب الجواري) : قد ذكر الله جل اسمه الحُوز العين أكثر مما
ذكر الولدان ، فما حجّتك في هذا إلا كحجّتنا عليك .

وممَّا صَانَ اللَّهُ بِهِ النِّسَاءُ أَنَّهُ جَعَلَ فِي جَمِيعِ الْأَحْكَامِ شَاهِدَيْنَ : مِنْهَا
الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَمَ اللَّهُ تَعَالَى ؛ وَجَعَلَ الشَّهَادَةَ عَلَى الْمَرْأَةِ
إِذَا رُمِيَتْ بِالرَّبْزَى أَرْبَعَةَ مُجَتَمِعِينَ غَيْرَ مُفْتَرِقِينَ فِي مَوْضِعٍ ، يَشَهُدُونَ أَنَّهُمْ رَأَوُهُ
مُثْلَ الْجَبَلِ فِي الْمَكْحُلَةِ . وَهَذَا شَيْءٌ لَا يُغَيِّرُ ؛ لَمَّا إِرَادَ اللَّهُ مِنْ إِعْمَالِهِ هَذَا
الْحَدْثُ إِذْ جَعَلَ فِيهِ الشَّدَّاخَ بِالْحَجَارَةِ .
وَإِنَّمَا خَلَقَ اللَّهُ الرُّجَالَ بِالنِّسَاءِ .

وَرِيحُ الْجَارِيَةِ أَطَيْبُ ، وَثِيَابُهَا أَعْطَرُ ، وَمِثْبُتها أَحْسَنُ ، وَنَفَقَتْهَا أَرْقَى ،
وَالْقُلُوبُ إِلَيْهَا أَمْيَلُ ، وَمَنْ أَرْدَهَا مِنْ قُدَّامِهِ أَوْ خَلْفِهِ مِنْ حِلْبَةٍ يَحْسُنُ وَيَحْلِلُ
وَجَدَتْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

وَصِيفَةُ كَالْغَلَامِ تَصْلُحُ لِلَّهِ لَمَرِينِ كَالْفَصَنِ فِي شَيْئِهَا
أَكْمَلَهَا اللَّهُ ثُمَّ قَالَ لَهَا لَمَا اسْتَمْتُ فِي حُسْبِهَا : إِلَيْهَا
قال : وَنَظَرَ بَعْضُ الْحَاجِ إِلَى جَارِيَةٍ كَانَهَا نَعْيَةً فِي مَحْرَابٍ ، قَدْ أَبْدَتْ
عَنْ ذِرَاعِهِ كَانَهُ جَمَارَةً ، وَهِيَ تَكَلُّمُ بِالرُّفْقِ ، فَقَالَ : يَا هَلَهُ ، تَكَلُّمِينَ بِمُثْلِ
هَذَا وَأَنْتَ حَاجَةً ! قَالَتْ : لَسْتُ حَاجَةً ، وَإِنَّمَا يَعْجِزُ الْجَمْلُ ، الَّتِي تَرَانِي
جَالَسَةً وَهُوَ يَمْشِي ! قَالَ : وَيَحْلِيكَ ، لَمْ أَرْ مُثْلَكَ فَمَنْ أَنْتِ ؟ قَالَتْ : أَنَا مِنْ
اللَّوَاتِي وَصَفَهُنَّ الشَّاعِرُ فَقَالَ :

وَدَقَّتْ وَجْلَتْ وَاسْبَكَرَتْ وَأَكْمَلَتْ فَلَوْ جُنْ إِنْسَانٌ مِنَ الْحُسْنِ جُنْتْ

[٣ - القلمان والجواري في الحديث النبوى]

قال (صاحب القلمان) : إن أحداً لا يدخل الجنة إلا أمرأ ، كما جاء في الحديث : « إن أهل الجنة يدخلونها مُدَّاً مكحلين ». والنساء إلى المرة أميل ، وله أشهى ، كما قال الأعشى :

وأرى الغسواني لا يواصلن امرأ فَقَدِ الشُّبَابَ وَقَدِ يَصْلَنَ الْأَمْرَادَا

وقال أمروء القيس :

فِي أَرْبَبِ يَوْمٍ قَدْ أَرْوَحَ سَرْجَلًا
أَرَاهُنَّ لَا يُعْجِبُنَّ مَنْ قَلَّ بِسَالَةٍ

وقال علقة بن عبدة :

فِيَنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَلَيْتَنِي
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُه
بُرِزَّدَ شَرَاءُ الْمَالِ حِيثُ عَلِمْتَهُ
بَصِيرٌ بِأَدَوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ

قال (صاحب الجواري) : فإن الحديث قد جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إِلَيْنَا النِّسَاءُ وَالطَّبِيبُ ، وَجَعَلْتُ فُرَةً عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » . ولم يأت للقلمان مثل هذه الفضيلة . وقد فُتنَ بالنساء الأنبياء عليهم السلام ، منهم داؤد ، ويوسف ، عليهما السلام .

[٤ - حد الرزق واللواء]

قال (صاحب القلمان) : لولم يكن من بلية النساء إلا أن الرزق لا يكون إلا بهن ، وقد جاء في ذلك من التغليظ ما لم يأت في غيره في الكتاب نصاً ، وفي الروايات الصحيحة . قال الله تبارك وتعالى : « وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ »

إِنَّمَا كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سِيَلًا) ، وقال : « وَلَا يَرْثُونَ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ يُلْقِي أَثَاماً . يُضَاغِفُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدُ فِيهِ مَهَاتِمًا » ، وقال : « الرَّازِيَةُ وَالرَّازِيَيْنِ فَاجْلِلُوهُا كُلُّ وَاجِدٍ مِنْهُمَا مِائَةً جَلْلَةً وَلَا تَأْخُلُكُمْ بِهِمَا رَأْفَةً » . وقد جعل بينهما إذا لم يكن شهود التلاعن والفرقـة في عاجل الدنيا ، إلى ما أعد للكاذبـ منهما من اللعن والغضب في الآخرة .

قال (صاحب الجواري) : ما جعل الله من الحـ على الرـ إـ ما جعل على اللـ مـ مثلـ . وقد رـ عن عليـ بن أبي طـ رـ الله عنهـ ، أنه أـ بـ مـ مثلـ ، فأـ بـ المـ ثم رـ منـ على رـ رـ ، وقال : « هـ يـ بـ في نـ جـ » .

وـ عن أبيـ بـ ، رـ اللهـ عنهـ ، أنه أـ بـ مـ فـ قـ عليهـ حـ .

وـ عن أبيـ بـ كـ ، رـ اللهـ عنهـ ، أنـ خـ الـ بـ الـ كـ إـ في قـ لـ قـ .

وـ أـ حـ قـ هـ شـ بـ عـ الـ مـ ، وـ أـ حـ قـ هـ خـ الـ بـ عـ الـ بـ مـ هـ شـ .

وـ فيـ حـ دـ مـ جـاـهـ اـنـ الـ ذـ يـ عـ مـ عـ مـ قـ لـ قـ لـ لـ اـ غـ سـ بـ كـ قـ طـ .

مـ السـ مـ وـ كـ قـ طـ فيـ الـ اـرـضـ لـ بـ زـ نـ جـ .

وـ حـ دـ الرـ هـ رـيـ : « اللـ مـ يـ سـ رـ جـ ، أـ حـ سـ اـنـ اوـ لـ بـ حـ سـ ؛ سـ نـ مـ اـسـيـةـ » .

وـ رـ وـ عنـ الـ حـ كـ بـ عـ ئـيـةـ اـنـ عـلـيـ رـ حـ مـ اللهـ رـ جـ لـ وـ طـ بـ اـ وـ قالـ : « لـ عـ رـ سـ وـ اللهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـ وـ سـلـمـ الذـ كـرـيـنـ يـلـعـ اـحـدـهـماـ بـ الـ اـخـرـ » .

وـ حـ دـ أـنـسـ بـ قـالـ : « لـ عـ رـ سـ وـ اللهـ صـلـيـ اللهـ عـلـيـ وـ سـلـمـ الـ مـؤـتـيـنـ مـنـ الـ رـجـالـ ، وـ الـ مـذـكـرـاتـ مـنـ النـسـاءـ » .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم مختلطًا من المدينة يقال له «جيت»، وسبقه يقول لأم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا فتحت الطائف فعليك باديه أبنت غيلان، فإنها هيفاء شموع، إذا قامت ثنت، وإذا نكلمت ثنت، تُقْبَل باربع وتدبر بثمان، وبين رجلها كالإماء المكفوء، فزوجيها عمر ابنيك». فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد تغلقت في النظر يا عدو الله، وما ظنتك من ذوي الإربة!»، فنفاه عن المدينة.

[٥ - النبي يبعث على الزواج والاتحاج]

قال (صاحب الغلمان): من عيوب المرأة أن الرجل إذا صاحبها شيئاً في رأسه، وسهرت ريحه، وسودت لونه، وكثُر بوله. وهن مصايد إبليس وحبائل الشيطان، يتبعن الغني، ويكلفن الفقير ما لا يجد. وكم من رجل تاجر مستور قد فلسته امرأته حتى هام على وجهه، أو جلس في بيته، أو أقامته من سُوقه ومعاشه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما تركت بعدي فتنة أفسر على الرجال من النساء».

قال (صاحب الجواري): قد جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تزوجوا فإني مُكافِر بكم الأمم».

وجاء عنه: «إذا قضيتم غزوكم فالكيس الكيس»، يعني النكاح.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مسكين مسكيّن رجل لا زوجة له، مسكيّنة مسكيّنة امرأة لا بعل لها».

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: «تزوجوا والتيسوا الولد؛ فإنهم ثعارات القلوب. ولبياكم والعجز المفر».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر أهل عصره نساء ، وكذلك
كانت الأنبياء عليهم السلام قبله .

وقد أنبأك الله عز وجل بخبر داود عليه السلام في القرآن ، وما روى الله
كان لسليمان عليه السلام .

وقد ترجم ابن سعدي في مرضه الذي مات فيه .

وقال معاذ : زوجوني لا أقوى الله تعالى وأنا عَزَبٌ .

وروى عن عمر رضي الله عنه أنه قال : إني لأُجْهِد نفسي في النكاح
حتى يُخْرِجَ الله مني نسمة تسبحه .

وروى أنه قال : عليكم بالابكار الشُّواطِ ، فإنَّهُ أطيب أفواها ، وأنق
أرحاماً .

والحديث في هذا أكثر من أن تأتَّ علىَّ

[٦ - عيوب الزنا]

قال (صاحب الغلمان) : إنَّ من عيوب الجواري أنَّ الرجل إذا اشتري
الوصيفَ إلى أن يستبرئها محرمٌ عليه أن يستمتع بشيء منها قبل ذلك ،
والوصيف لا يحتاج إلى ذلك . وقد قال الشاعر :

فديتك إنما اخترناك غمداً لأنك لا تحيس ولا تُبِينُ

وقد جاء في الحديث أنَّ الرُّزْنَى فيه ست خصال : ثلث في الدنيا وثلاث
في الآخرة . فلما التي في الدنيا فيذهب بالبهاء ، ويعجل الفناء ، ويقطع
الرُّزْقَ من السماء . وأما اللواتي في الآخرة فالحساب ، والعذاب ، ودخول
النار .

وروى عن مجاهيد ، قال : إن أهل النار صرخة من ربع الزنة .
وقالوا : إن أهل النار ليتأذون بربع الزنة .

[٧ - حب النساء يتيم صاحبه بعكس حب الغلمان]

قال (صاحب الجواري) : لم نسمع بعاشيق قتل حب غلام . ونحن نعد من الشعراء خاصةً الإسلاميةً جماعة ، منهم جميل بن معمر قتله حب شيبة ، وكثير قتله حب غرة ، وغزوة قتله حب عفرا ، ومجنون بنى عامر هيئته ليلي ، وقيس بن ذريح قتلته شيبة ، وعيبد الله بن عجلان قتلته هند ، والغمر بن ضرار قتلته جميل . هؤلاء من أحصينا ، ومن لم نذكر أكثر .

قال (صاحب الغلمان) : لو نظر كثيرون وجمل وعروة ، ومن سمعت من نظرائهم ، إلى بعض خدم أهل عصرنا من قد اشتري بالمال العظيم فراغة وشطاطاً ونقاة لون ، وحسن اعتدال ، وجودة قد وقوام ، لنبذوا بئنة وغرة وغفرا من حالتي ، وتركوه بمجزر الكلاب . ولكنك احتججت علينا بأعراب أجلاف جفاة ، غذوا بالبيوس والشقاء ونشروا فيه ، لا يعرفون من رفاهة التيش ولذات الدنيا شيئاً ، إنما يسكنون القفار ، وينفرون من الناس كثبور الوحش ، ويقتلون القنادن والضباب ، وينتفعون الحنظل ، فإذا بلغ أحدهم جهدة بكى على الدمعة وفت المرأة ، ويشبهها بالبلقرة والظفيرة ، والمرأة أحسن منها . نعم حتى يشبهها بالحبة ، ويسماها شوهاء وجرباء ، مخافة العين عليها يزعمه .

فاما الأدباء والظفيراء فقد قالوا في الغلمان فاحتسبوا ، ووصفوهم فاجادوا ، وقدموهم على الجواري ، في الجد منهم والهزل .

[٨ - اشعار في الفلمان والجواري]

وقال الشاعر يصف الغلام :

غريبُ الحسنِ في قدْ غريبٍ
ونبطَ بحقوْهِ بعضُ الكنبِ
نما تصدُّهُ أهواهُ القلوبِ
سلمةً الضميرِ من التُّنوبِ
ولمْ ادْنَسْ بهْ ذاتَ المُرِيبِ

شبيه بالقضيبِ وبالكتيبِ
بَرَاهَ اللهَ بدرًا فوقَ غصَنِ
أغنَّ تولُّ الشهواتِ منهُ
وما اكتحلتْ بهْ عينَ فضياتِ
شغلتْ بهْ الهوى ونزعَتْ عنهِ

وقال آخر :

سُوالُفُ أَدْمَانَهُ
عَلَى شَعْبَتِي بَاهَ
وَالفَاظُ إِنْسَانَهُ

كَلِفْتُ بِظَبَّيِ لَهُ
قَضَيْتُ عَلَى رَمْلَةِ
لَهُ لَحْظَةٌ وحشَيَّةٌ

وقال أبو نواس :

وَغَيْرُ أَطْلَالِ مَيِّبَالْجَزِيدِ
جُدِّتِ اللُّؤْيِ مَرَّةً فَلَا تَعْدِ
بُلْدَانُ كَانَتْ زِيَادَةُ الْكَبِيدِ
يُكَنْ مَقْرُرُي مِنْهُ إِلَى الْمُرَدِ
أَذْنِيكِ إِلَّا تَصَابِعُ النَّقَدِ
فَهُنْرُ مُلْحَابِهِ عَلَى وَتَدِ
وَمَيْرُ كَامِسِ إِلَى فَمِ بَيْدِ
مَنْتَسِبُ عِيْدُهُ إِلَى الْأَحَدِ
صَلْبُ فَوْقَ الْجَبَينِ بِالرَّبِيدِ

سَقِيَّاً لِغَيْرِ الْعَلِيَاءِ وَالسَّنَدِ
وَبِا صَبَّتِ السُّحَابُ إِنْ كُنْتَ قَدِ
لَا تَسْفِيْنَ بِلَدَةً إِذَا عَدْتَ إِلَى
إِنْ أَنْحَرَزَ مِنَ السُّفَرَابِ بِهَا
بِحِيتَ لَا تَجْلِبَ الْفَجَاجَ إِلَى
أَحْسَنِ عَنْدِي مِنْ انْكِبَابِكِ بِالدِّ
وَقُوفُ رِيحَانَةِ عَلَى أَذْنِ
يَسْقِيَكُها مِنْ بَنِي الْعَبَادِ رَشَّاً
إِذَا بَنَى الْمَاءُ فَوْقَهَا خَبَباً

فيه رُضاباً [بجري] على بَرَدٍ
رُبْعٌ، وانى في الرُّوح والجَسَدِ

قال (صاحب الجواري) : فقد قال أبو نواس الحكيم شاعركم أيضاً :

واشرب على الوردي من حمرة كالوردي
رأيت حمرتها في العين والخد
من كف لؤلؤة مشوقة الفد
حمراً فما لك من سكرين من بُذُّ
شيء خُصصت به من بينهم وحدى

أشرب من كفه الشمول ومن
فذاك خير من البكاء على الد

لا تبكي ليلى ولا تطرب إلى هند
كأساً إذا انحدرت في حلقي شاربها
فالخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة
ئقهك من عينها سحراً ومن يدها
لي نشوتان وللنسمان واحدة

وقال أيضاً :

وداوني بالتي كانت هي الداء
لومتها حجر مُثْنَه سرأه
لها مُجبانٌ؛ لوطي وزنة
فظلل من وجهها في البيت للاء
كائناً أخذها بالعين إغفاء
فما يصيّبُهم إلا بما شاموا
كانت تكون بها هند وأسماء

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها
من كف ذات جبر في ذي ذكر
قامت بإبريقها والليل متذكر
فارسلت من فم الإبريق صافية
في قبيبة رُهْرِ ذُلُّ الزمان لهم
لثالث أبكي ولا أبكي لمنزلي

[قال صاحب الغلمان] وقال النظام :

وحل عن وصفك الضمير
صغيرٌ امِّرٌ ولا كَبِيرٌ
جسمًا على أنه منيَّرٌ
وانت عند السُّلْحاظ نورٌ

بيان بك الشكل والنظير
فلبس يخطبك في امتحان
خُبلقت من مثل لا عيَانٌ
فانت عند المَجْسُن نازٌ

وقال أبو هشام الخراز :

لما قصرنَ الصُّفَاتُ عنْ كُنْتِهِ
مكتجلاً راحَ أو عَلَى مُرْبِهِ
يُوشِكَ بِقُنْيِ النُّفُوسِ فِي نُزَمَّهِ
وَالْقُلُوبُ فِي كُرْبَهِ وَفِي دَلَبِهِ
طَرَوعاً وَلَمْ يَأْتُكُمْ عَلَى كُبُرِهِ
بَايُوسِنْ قَلْبٌ يَذُوبُ مِنْ شَرِبِهِ
اعْيَا عَلَيْهِ وَصَالُ مُنْتَهِيَةِ

بِمَا مَنَّ تَعَدَّى الْعِبَادُ مِنْ شَبَهِهِ
وَبِإِغْرِيَالْأَنْسِيَيِّ بِلَحْظَتِهِ
يَجْعَلُ قَتْلَ النُّفُوسِ نَزَمَّهِ
لِبُكَ دَاعِ دَعَا فَقْلَتْ لَهُ
هَذَا فَرَوَادِيَ أَنَّكَ مُبْتَدِعًا
يَشْرَهُ مُنْكَمَ إِلَى مُواصِلَةِ
فَالآنَ قَلَ لِلْخَيَالِ يَطْرُقُ مَنْ

وقال الحكمي :

عَنِّي عَلَيْهِ بَكَا عَلَيْكَ طَرِيلُ
حَتَّى تَضْحُطَ بِيَنْهَى قَتِيلُ
مَا حَلُّهَا الشَّرُوبُ وَالْمَاكُولُ

رَثَمُ الْكَرَى بَيْنَ الْجَفَرَوْنَ مُجِيلُ
بَا نَاظِرًا مَا أَقْلَعَتْ نَظَارَهُ
أَحْلَلَتْ مِنْ قَلْبِي مُرَاكَ مَحَلَّهُ

وقال أيضاً :

جَفَوْبَهُ لِي كَانَ اثْنَهُ
نَظَرْتُ عَبْنَاكَ مِنْهُ كَانَ وَجْهَا
اثْنَا مِنْ ائْمَاهَا فِي الْعَيْنِ أَبْهِي

لِي حَبِيبَ كُلُّمَا زَادَ فِي
مُرْوَجَهُ كُلُّهُ فِي كُلُّ مَا
وَكَذَا الدُّرَّةُ لَا يَدْرِي السَّفَنِي

وقال أيضاً :

وَصَفَاتٍ مَا أَلْقَى مِنَ الْبَلْوَى
أَبْصَرْتُنِي أَغْفَلْتُ عَنْ مَعْنَى
فَاعْوَدُ فِيهِ مَرَّةً أُخْرَى
لَا رَاحَنِي ظَنَّنِي مِنَ الشَّكْوَى
تَبَوَّعَ الْمَعَاوَى عَنْهُ بَلْ اُنْتَسِي

أَفْنَيْتُ فِيكَ مَعْانِي الشَّكْوَى
فَلَبِّيَ آفَاقُ الْكَلَامِ فِيمَا
وَأَعْدَى مَا لَا اشْنَكَيَ غَبَنَا
فَلَوْلَانَ مَا اشْكَوَ إِلَى بَشِيرٍ
لَسْكَنَنِي اشْكَوَ إِلَى حَجَرٍ

فهذا وشبهه من الشعر كثير .

وإذا جئت إلى أصحاب الهرل كقول بعضهم ممن ذم النساء :

واسقني يا ابن مصعب
هذه الخمر فأشرب
من لقلب معذب
اسقنيها وغبني :
رب راج مجذب
طيفت في طفلة
أفترت لي : تنفسني
قلت لما رأينها
إسبعي بخمر عقرب
لست والله مدخلًا

وقال آخر :

ولا أبشع الظبي بالارنب
لا أبتفى بالمرد مطمومة
اخشى من الحية والغقرب
لا أدخل الجحمر يدي طائعاً

وقال آخر :

تبگ عندى سماجه
ليس لي في العجر حاجه
كل ذي فقر وحاجه
ما ينفك الجر إلا
امرأة في لون عاجه
فإذا نكتم فنิกوا

وقال يوسف آقوه :

عند أميري بعرشين.
ما يساوي ذيكم أنثى
خل ذئبين بعد دين
إنما ذيكم الجواري
غير ريح الخصياثين
ليس للأبر حياة

وهو الذي يقول :

إن اللواط سجية في الكاتب
وعلى اللواط فلا تلومن كاتباً
وعن الخصى ما عاش ليس بثاب
ولقد يتوب من المحارم كلها ،

وقال الحكيم :

لَطِمَةٌ يُلْطِمُنِي أَمْرَةٌ
تَاحِدٌ مَنِي الْعَيْنُ وَالْفُكُّا
مَعْسُوْبَةٌ قَدْ مَلَتْ مِنْكَا

وقال آخر :

إِنْ تَرَزِّيْنِ مَحْصَنَةً تُرْجِمُ عَلَانِيَةً
وَإِنْ يَلْطِفُ عَزْبُ ؟ يُرْجِمُ الْغَرْبُ

وقال آخر :

أَيْسَرُ مَا فِيهِ مِنْ مَفَاضِلَةٍ أَنْتَكَ مِنْ طَمِيْهِ وَمِنْ حَبَّلِهِ
وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ مَا قَالُوا ، فَقَدْ قَالَتِ الشَّعْرَاءُ فِي الْفَلَامِ فِي الْجَدَّ
وَالْهَزَلِ فَاحْسَنُوا ، كَمَا قَالَتِ الشَّعْرَاءُ فِي الْغَرَزَلِ وَالنُّسُبِ ، وَلَا يَفِيرُ الْمُحَسَّنُ
مِنْهُمْ أَقْدِيمًا كَانَ أَوْ مَحْدُثًا .

قال (صاحب الجساري) : أَنَا أَنْتَ فَحِيتَ اجْتَهَدْتَ وَاحْتَفَلْتَ جَئْتَ
بِالْحَكَمَيْ ، وَالرَّقَاشِيَّ ، وَوَالْبَةَ ، وَنَظَرَاهُمْ مِنَ الْفُسَاقِ وَالْمَرْغُوبِ عَنْ
مَذَهْبِهِمْ ، الَّذِينَ نَبَغُوا فِي آخِرِ الزَّمَانِ ، سُقَاطٌ عَنْ أَهْلِ الْعَرَوَةِ ، أَوْ ضَاعَ
عَنْ أَهْلِ الْفَضْلِ ؛ لَأَنَّهُمْ وَإِنْ أَسْهَبُوا فِي وَصْفِ الْفَلَامَانِ ، فَإِنَّمَا يَمْدُحُونَ
الْمُزَاطَ وَيُشَيدُونَ بِذَكْرِهِ .

وَقَدْ عَلِمْتَ مَا قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي قَوْمِ لَوْطٍ ، وَمَا عَجَلَ لَهُمْ مِنْ
الْخَرْزِيِّ وَالْقَذْفِ بِالْمَحْجَارَةِ ، إِلَى مَا أَعْدَّ لَهُمْ مِنَ الْمَذَابِ الْأَلِيمِ . فَمَنْ أَسْوَى
حَالًا مِنْ مَذَاجَحَ مَا ذَهَبَ اللَّهُ ، وَخَسَّ مَا قَبَحَ ! وَأَيْنَ قَوْلُ مِنْ سَمِّيَّتْ مِنْ قَوْلِ
الْأَوَّلِيَّ فِي الْغَرَزَلِ وَالنُّسُبِ وَالنِّسَاءِ ! وَهَلْ كَانَ الْبَكَاءُ وَالْتَّشِيبُ وَالْعَوْبِيلُ إِلَّا
فِيهِنَّ وَعَلَيْهِنَّ ، وَمَنْ أَجْلَهُنَّ ! وَهَلْ ذَمَّتِ الْعَرَبُ الْفَيْبَ مِنْ الْخَسَالِ الْمُحَمَّوَةِ
الَّتِي فِيهِ إِلَّا لَكْرَاهَتِهِنَّ لَهُ . قَالَ شَاعِرُ الشَّعْرَاءِ مِنَ الْأَوَّلِيَّنِ وَالآخِرِيَّنِ ، أَمْرَأُ
الْقَيْسِ :

أراهنَّ لَا يَحِبُّنَّ مِنْ قَلْ مَالٍ

وقال علقة بن عبدة الفحل ، وكان نظير امرئ القيس في عصره :

**إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قُلَّ مَالُه
فليس له في ودْهُنَّ نصيَّبٌ
مُرْدَنَ ثَرَاءُ الْمَالِ حِيثُ عَلِمْتَهُ
وَشَرَخُ الشَّبَابِ عَنْهُنَّ عَجِيبٌ**

وما قالت القدماء في النسب أكثر من أن ناتي عليه . وإن قول من ذكرت في صفات الغلمان من قول امرئ القيس في التشبيب حيث يقول :

**وَمَا أَرَفْتُ عَيْنَاكِ إِلَّا تَنْضَرُ بِسِيَّدِكِ
بَهْمِيَّكِ فِي أَعْشَارِ قَلْبِ مَقْتُلٍ
أَغْرِيَكِ مَنِيَّ أَنْ حُبِّيَّكِ قَاتَلَيَ
وَأَنْكِ مَهْمَا تَلْمِريَ الْقَلْبَ يَفْعَلُ**

وقول الأعشى :

**لَوْ اسْنَدْتَ مَيْنَأَا إِلَى نَحْرِهَا
عَاشَ وَلَمْ يُنْشَأْ إِلَى قَابِرِهَا
حَتَّى يَقُولَ النَّاسُ مَا رَأَوَا
يَا عَجِيبًا لِلْقَاتِلِ النَّاثِرِ**

وقال جرير :

**إِنَّ الَّذِينَ غَلَّوْا بِلْبِكِ غَادُوا
غَيْفَسْنَ مِنْ غَبَرَاتِهِنَّ وَقَلَّنَ لِي
وَشَلَّأَ بِعِينِكِ لَا يَزَالُ مَعِينَا
مَاذَا لَقِيتَ مِنَ الْهُوَى وَلَقِينَا**

وقال جميل :

**خَلِيلِي فِيمَا عَشْتَ مَا هَلَ رَأَيْتَ مَا
قَتِيلًا بَكَى مِنْ حَبَّ قَاتِلِهِ قَبْلِي**

وقال القطامي :

**يَقْتَلُنَا بِحَدِيثِ لِيْسَ يَعْلَمُهُ
فَهُنَّ يَنْبَذَلُونَ مِنْ قَوْلِي يُصْبِنُ بِهِ
مَنْ يَتَقْبِيَنَّ وَلَا مَكْنُونَ بِهِ
مَوْاقِعَ الْمَاءِ مِنْ ذَيِّ الْفُلْلَةِ الصَّابِيِّ**

فهؤلاء القدماء في تجاهلية والإسلام ، فلين قول من احتججت به من
قولهم !

ولا نعلم أحداً قال في الغلام ما قال الحكمي وهو من المحدثين . وأين
يقع قوله من قول الأوائل الذين شُبّوا بالنساء ! فذَع عنك الرُّفَاشِي ووالبة
والخراز ومن أشبّهم ؛ فليست لك علينا حجّة في الشعراء .

وأخرى : ليس من قال الشعر بقريحته وطبعه واستغنى بنفسه ، كمن
احتاج إلى غيره يطرد شعره ، ويبحثني مثاله ، ولا يبلغ معشاره .

[٩ - صفات المرأة الجميلة]

قال (صاحب الغنمان) : ظلمت في المناظره ولم تصيف في الحجّة ،
لأنما لم ندفع فضل الأوائل من الشعر ، إنما قلنا إنهم كانوا أعراباً أجلافاً
جُفّة ، لا يعرفون رقيق العيش ولا لذات الدنيا ؛ لأن أحدهم إذا اجتهد عند
نفسه شبّه المرأة بالبقرة ، والظبيّة ، والحيّة . فإن وصفها بالاعتدال في الخلقة
شبّهها بالقضيب ، وشبّه ساقها بالبرْدَيَة ؛ لأنهم مع الوحش والأحناش نشروا ،
فلا يعرفون غيرها .

وقد نعلم أن الجارية الفاقفة الحُبُّين أحسن من البقرة ، وأحسن من
الظبيّة ، وأحسن من كل شيء شبّهت به .

وكذلك قولهم : كأنها القمر ، وكأنها الشمس ؛ فالشمس وإن كانت
حسنة فإنما هي شيء واحد ، وفي وجه الإنسان الجميل وفي خلقه مصروبٌ من
الحسن الغريب ، والتركيب العجيب . ومن يشكُّ أن عين الإنسان أحسنُ من
عين الظبي والبقرة ، وأن الأمر بينهما متفاوت !

وهذه أشياء يشترك فيها الغلمسان والمجواري ، والحجّة عليك مثل المحجة
لك في هذه الصفات

وأَمَا احْجاجُك عَلَيْنَا بِالْقُرْآنِ وَالْأَثَارِ وَالْفَقِهِ ، فَقَدْ قَرَأْنَا مِثْلَ مَا قَرَأْتَ ،
وَسَمِعْنَا مِنَ الْأَثَارِ مِثْلَ مَا سَمِعْتَ . فَإِنْ كُنْتَ إِلَى سُرُورِ الدُّنْيَا تَذَهَّبُ ، وَلِذَاهِبِها
تُرِيدُ ، فَالْفَوْلُ قَوْلُنَا . كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

ما العيش إلا في جنون الصبا فإن توئي فزمانُ السُّذَامِ
كأساً إذا ما الشَّيْخُ والى بها خمساً ترى برداء الغلام

[١٠ - مفاخرة أهل البصرة والковفة]

وَإِنْ كُنْتَ إِلَى التَّقْشِفِ وَالتَّرْهِيدِ فِي الْلَّذَادِ تَعْمِدُ فَتَرُكُ جَمِيعَ الشَّهَوَاتِ
مِنَ النَّسَاءِ وَغَيْرِهِنَّ أَفْضَلُ . فَإِنْ أَنْصَفْتَ فَأَنْتَ بِمِثْلِ حِجَّتِنَا . فَإِنَّمَا أَنْتَ تَتَلَوَّ عَلَيْنَا
الْقُرْآنَ وَتَأْتِينَا بِأَحْدَاثِ الْفَتَنَاهُ فَهَذَا مِنْكَ انْقِطَاعٌ . وَمَتَّلَنَا وَمَثَلُكَ فِي ذَلِكَ مُثَلُّ
بَصَرِيٍّ وَكَوْفِيٍّ نَفَاخِرًا بَعْدَ أَشْرَافِ أَهْلِ الْبَصَرَةِ وَأَشْرَافِ أَهْلِ الْكَوْفَةِ ، فَقَالَ
الْبَصَرِيُّ لِلْكَوْفِيِّ :

هَاتِ فِي أَرْبَعِ قِبَائلِ الْكَوْفَةِ مِثْلَ أَرْبَعِهِ رِجَالٌ بِالْبَصَرَةِ فِي أَرْبَعِ قِبَائلِ :
فِي تَمِيمِ الْكَوْفَةِ مِثْلَ الْأَحْنَفِ ، وَفِي بَكْرِ الْكَوْفَةِ مِثْلَ مَالِكِ بْنِ مَسْمَعٍ ، وَفِي
قِيسِ الْكَوْفَةِ مِثْلَ قَتِيَّةِ بْنِ مُسْلِمٍ ، وَفِي أَزْدِ الْكَوْفَةِ مِثْلَ الْمَهْلَبِ .
فَقَالَ الْكَوْفِيُّ : يَخْنَفُ بْنُ سُلَيْمٍ مِنْ أَزْدِ السُّرَّاةِ ، وَهُمْ أَشْرَفُ مِنْ أَزْدِ
عُمَانَ .

فَقَالَ الْبَصَرِيُّ : إِنَا لَمْ نَكُنْ فِي شَرْفِ الْقِبَائلِ وَفَرَقِ مَا بَيْنَهَا ، فَإِنَّمَا
ذَكَرْنَا الْمَهْلَبَ بِنَفْسِهِ ، وَمَا عَلِمْتُ أَنَّ أَحَدًا يَلْعَنُ مِنْ جَهَّهُ أَنْ يَفْخُرَ بِيَخْنَفِ بْنِ
سُلَيْمٍ فَيُفَضِّلَهُ عَلَى الْمَهْلَبِ . وَأَخْمَلَ رَجُلٌ مِنْ وَلَدِ الْمَهْلَبِ أَشْهَرَ فِي الْوَلَيَاتِ
وَفِي الْفَرَسَانِ وَفِي النَّاسِ مِنْ مَخْنَفٍ . وَالْمَهْلَبُ رَجُلٌ لَيْسَ لَهُ بِالْعَرَاقِ نَظِيرٌ
يَقْلُومُهُ ، وَمَنَاقِبُهُ وَآيَاتُهُ وَفَتْوَحَهُ أَكْثَرُ وَأَشَهَرُ مِنْ أَنْ يَجُوزَ لَنَا أَنْ نَجْعَلَهُ إِزَاءَ
يَخْنَفٍ . وَمَا زَالُوا يَقُولُونَ : « بَصَرَةُ الْمَهْلَبِ » . وَلَوْلَمْ يَكُنْ لِلْمَهْلَبِ إِلَّا أَنَّهُ

ولَدَ يَزِيدَ بْنَ الْمُهَلْبِ كَانَ كَافِيَا . وَنَحْنُ إِذَا قُلْنَا : لَيْسَ فِي قِيسِ الْكُوفَةِ مِثْلُ
قَتِيهَةَ بْنِ مُسْلِمٍ ، قَالَ قَسَائِلُ : فَزَارَةُ أَشْرَفَ مِنْ سَاهِلَةَ . قُلْنَا : لَيْسَ هَذِهِ
مَعَارِضَةٍ ؛ فَإِنَّا الْمَعَارِضَةُ أَنْ تَذَكَّرَ أَسْمَاءَ بْنَ خَارِجَةَ ثُمَّ تَقُولَ وَتَقُولُ ، فَنَذَكِرُ
فَتْوَحَ قَتِيهَةَ الْعِظَامَ ، وَالثَّهَامِةَ وَالنَّفْسَ الْأَبِيَّةَ ، وَالشَّجَاعَةَ وَالْحَزَمَ وَالرَّأْيَ ،
وَالْوَفَاءَ ، وَشَرْفَ الْوَلَايَةَ ، وَنَذَكِرُ سُودَادَ أَسْمَاءَ ، وَجُودَةَ وَنِسَالَةَ . فَإِنَّمَا أَنْ تَخْطُلُ
أَنفُسَهُمَا إِلَى قَبَائِلِهِمَا كَمَا تَخْطُلُتْ بَدَنَ الْمُهَلْبِ وَبَدَنَ مَخْفَى إِلَى أَزْدَ عَمَانَ
وَأَزْدَ السَّرَّاةَ ، فَهَذَا لَيْسَ مِنْ مَعَارِضَةِ الْعَلَمَاءِ .

وَكَذَلِكَ إِذَا ذَكَرْنَا عَبَادَ الْبَصَرَةَ وَرَهَادَهَا وَنُسَاكِهَا قُلْنَا : لَنَا مُثْلِ غَامِرٍ بْنِ
عَبْدِ قِيسٍ ، وَهَرِمَ بْنَ حَيَّانَ ، وَجَلَةَ بْنَ أَشْيَمَ . قَلَتْ : فَعَبَادُ الْكُوفَةِ : أُوْيَسُ
الْقَرْنَيِّ ، وَالرَّبِيعَ بْنَ حَفِيمَ ، وَالْأَسْوَدَ بْنَ يَزِيدَ النَّخْعَنِيِّ . وَهَذَا جَوابٌ .
فَإِنَّمَا أَنْ تَذَكَّرَ طَبِيبُ الدُّنْيَا وَالْمُتَمَتِّعُ مِنْ لَذَاتِهَا وَصَفَاتِ مَحَاسِنِهَا ، وَنَذَكِرُ
ظُرْفَاتِهَا وَأَرْبَابِهَا ، وَتَجَبَّنَا بِأَحَادِيثِ الزَّهَادِ وَالْفَقِيمَاءِ ، فَنَقْدَ انْقَطَعَ الْجَجَاجَاجُ بِيَتِنَا
وَبِيَنِكُ .

وَقَدْ قُلْنَا فِي صَدْرِ كِتَابِنَا : إِنَّ الْكَلَامَ إِذَا دُبَحَ عَلَى الْمَرْحَ وَالْهَرْلَ ، ثُمَّ
أَخْرَجَهُ عَنْ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ مِنَ الْجَدَّ ، تَغَيَّرَ مَعْنَاهُ وَيَطَّلُ .

وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ مَعَاوِيَةَ سَأَلَ عُمَرَ بْنَ الْعَاصِمَ يَوْمًا - وَعِنْهُ شَبَابٌ مِنْ
قَرْبَشَ - فَقَالَ لَهُ : يَا أَبا عبدَ اللهِ ، مَا اللَّهُ ؟ فَقَالَ : مُرْ شَبَابَ قَرْبَشَ
فَلَبِقُومُوا . فَلَمَّا قَامُوا قَالَ : « إِسْقَاطُ الْمَرْوَةَ » .

قَالَ الشَّاعِرُ فِي مِثْلِ ذَلِكَ :

مَنْ رَاقَ النَّاسَ مَاتَ غَمَّاً وَفَازَ بِاللَّهِ الْجَسُورَ

وَقَالَ الْحَكَمَيِّ :

تَجَسَّرَتْ فَكَاثَفَتْ لَكَ لِمَا غَلَبَ الصَّبَرُ

وَمَا أَحْسَنَ فِي مُثْلِكَ أَنْ يَنْهِيَكَ السُّتْرُ

[١١ - فضل الجارية على الغلام]

قال (صاحب الجواري) :

فَنَحْنُ نَشْرِكُ مَا أَنْكَرْتَ عَلَيْنَا وَنَقُولُ : لَوْلَمْ يَكُنْ حَلَالٌ وَلَا حَرَامٌ ، وَلَا
نَوَابٌ وَلَا عَقَابٌ ، لَكَانَ الَّذِي يُحَصِّلُهُ الْمَعْقُولُ وَيُدْرِكُهُ الْجِحْنُ وَالْوِجْدَانُ ، دَأْلًا
عَلَى أَنَّ الْاسْتِمْتَاعَ بِالْجَارِيَةِ أَكْثَرُ وَاطْلُوْلَ مَدْتَهُ ؛ لَأَنَّهُ أَقْلَى مَا يَكُونُ التَّمْتُعُ بِهَا
أَرْبِيعَونَ عَامًا ، وَلَيْسَ تَجْدَهُ فِي الْغَلَامِ مَعْنَى إِلَّا وَجْدَهُ فِي الْجَارِيَةِ وَأَضْعافِهِ .
فَإِنْ أَرْدَتَ التَّضْخِيدَ فَأَرْدَادَتْ وَثِيرَةً ، وَأَعْجَازَ بَارِزَةً لَا تَجْدَهَا عَنْدَ الْغَلَامِ . وَإِنْ
أَرْدَتَ الْعِنَاقَ فَالثَّدِيُّ النَّوَاهِدُ ، وَذَلِكَ مَعْدُومٌ فِي الْغَلَامِ . وَإِنْ أَرْدَتَ طَيْبَ
الْمَائِئَةِ فَنَاهِيكَ ، وَلَا تَجْدَ ذَلِكَ عَنْدَ الْغَلَامِ . فَإِنْ أَتَوْهُ فِي مَحَاشِهِ حَدَّ هَنَاكَ
مِنَ الطُّفَّاسَةِ وَالقُنْدَرِ مَا يَكْدُرُ كُلَّ عِيشٍ ، وَيَنْغُصُ كُلَّ لَذَّةٍ .

وَفِي الْجَارِيَةِ مِنْ نَعْمَةِ الْبَشَرَةِ وَلِسْوَنَةِ الْمَفَاصِلِ ، وَلِطَافَةِ الْكُفَّينِ
وَالْقَسْدَمَينِ ، وَلِنِسْنَةِ الْأَعْطَافِ ، وَالثَّنْيِ وَقَلَّةِ الْحَسَنِ وَطَيْبِ الْعَرْقِ مَا لَيْسَ
لِلْغَلَامِ ، مَعَ خَصَالٍ لَا تَحْصِي ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

.....

يَصُفُّ جَوْدَةَ الْقَدْ وَحُسْنَ الْخَرْطِ ، وَيُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَجْدُولَةِ وَالسُّمْنَةِ .

وَقَوْلُهُمْ « مَجْدُولَةٌ » يَرِيدُونَ جَوْدَةَ الْعَصْبِ وَقَلَّةَ الْاِسْتِرْخَاءِ ، وَلِذَلِكَ
قَالُوا : خُمْصَانَةُ وَسِيفَانَةُ ، وَكَانُهَا جَانُ ، وَكَانُهَا جَذَلُ عَنَانُ ، وَكَانُهَا قَضَبُ
خِيَرْرَانُ . وَالثَّنْيُ فِي بِشَيْهَةِ الْجَارِيَةِ أَحْسَنُ مَا فِيهَا ، وَذَلِكَ فِي الْغَلَامِ عَيْبٌ ؛
لَأَنَّهُ يُنْسَبُ إِلَى التَّخْبِيتِ وَالتَّأْيِيثِ . وَقَدْ وَصَفَتِ الشِّعْرَاءُ الْمَجْدُولَةَ فِي
أشْعَارِهَا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ :

لَهَا قِسْمَةٌ مِنْ خُوطٍ بَانٍ وَمِنْ نَقَأٍ وَمِنْ رَشًا الْأَفْوَازِ جِيدٌ وَمَذْرُوفٌ

وقال آخر :

مجدولة الأعلى كثيُّب نصفها إذا مثُّت أعمدما مخالفها
وقال الآخر :

ومجدولة جدل العنان إذا مثُّت بنوه بخسرها يقال الرُّواديف
وقال الأحوص :

من المتمجات اللهم جيلاً كأنها عنان صناع انعمت أن تخرودا
وقالوا في ذلك أكثر من أن ناتي عليه .

والسلام أكثر ما تبقى بهجه ونقاه خذيه عشرة أعوام ، إلى أن تُحصل
لحيته ويخرج من حد المرودة ، ثم هو وفاح طوراً يتتف لحيته ، وتارة يهليها
ليستدعى شهوة الرجال . وقد أغنى الله الجارية عن ذلك ، لما وهب لها من
الجمال الفائق ، والحسن الرائق .

فإن قلت : إن من النساء من تتحسن وتستربع بها بخضاب الشعر وغيره ،
كما قال الشاعر :

عجزت ترجي أن تكون فتية وقد لعجب الجنان وأحنّ ذب الظهر
تدس إلى العطار بيرة أهلها ولن يصلح العطاؤ ما أفسد الدهر
قلنا : قد يفعل ذلك بعض النساء إذا شئْت وليس كالغلام ، لعموم هلب
اللُّحْن في الغلمان .

[١٢ - الخصيَّان]

وذكرت الخصيَّان وحسن قدوتهم ، ونعمة أبشرهم ، والتلذذ بهم ، وإن

ذلك شيء لا تعرفه الاولى ، فالجاتنا إلى أن نصف ما في الخصيأن وإن لم يكن لذلك معنى في كتابنا ، إذ كنا إنما نقول في الجواري والفلمان .

والخصي - رحمة الله - في الجملة ممثل به ، ليس برجل ولا امرأة ، وأخلاقه مُقْسَّمة بين أخلاق النساء وأخلاق الصبيان ، وفيه من العيوب التي لو كانت في حُرَاءٍ كان حقيقةً أن يُزَفَّد فيها منه ، لأن الخصي سريعة التبدل والتنتقل من حدّ البصاحة وملائسة الجلد ، وصفاء اللون ورقته ، وكثرة الماء وسرقه ، إلى التكسر والجمود والكمود ، والتقبّض والتجمد والتحذب ، وإلى الهُرُول وسوء الحال . لأنك ترى الخصي وكان السيفوف تلمع في وجهه ، وكانه مرأة صينية ، وكأنه جُمَارَة ، وكأنه فضيّب فضيّب قد مسّه ذهب ، وكان في وجنته الوردة . فإن مِرْضَ مَرْضَة ، أو طعنَ في السنْ ذهب ذهاباً لا يعود .

وقال بعض العلماء : إن الخصي إذا قطع ذلك العضو منه قويت شهونه ، وقويت معدته ، ولانت جلدته ، وانجردت شعرته ، وكثرت دمعته ، وأُنْسَعَت ففخْته ، وبصير كالبغل الذي ليس هو جماراً ولا فرساً ، لأنَّه ليس برجلي ولا امرأة . فهو مذنب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ويعرض للخصي سرعة النُّفَعَة والغضب ، وذلك من أخلاق النساء والصبيان . ويعرض له حبُّ النسمة وضيقُ الصدر بما أُرْدَعَ من السُّرُّ .

ويعرض لهم البول في الفراش ولا سيما إذا بَسَتْ أحدهم ممتلئاً من النيد .

وما ناله من الحسرة والأسف لما فاتهم من النكاح مع شنة حبهم للنساء ، أبغضوا الفحول أشدّ من تباغض الأعداء ، فأبغضوا الفحول بغضّ الحاسد لنبوء النُّفَعَة .

وزعم بعض أهل التجربة من الشيوخ المعمررين أنهم اعتبروا أعمازاً

ضروب الناس فوجدوا [طول] أعمار الخصيان أعمَّ من جميع الجنسين الرجال ، وأنهم لم يجدوا لذلك علة إلا عدم النكاح . وكذلك طول أعمار البغال لقلة التزوِّج . ووجدوا أقل الأعماres أعمار العصافير ؛ لكثرتها سفادها .

ثم الخصي مع الرجال امرأة ، ومع النساء رجال . وهو من النمايم والتحرير والإفساد بين المرأة وزوجها ، على ما ليس عليه أحد . وهذا من النساء والحسد للفحول على النساء . ويعتبره إذا طعن في السن امروجاج في أصابع اليد ، والتواه في أصابع الرجل .

ودخل بعض الملوك على أهله ومعه خصي فاسترط منه ، فقال لها : تسررين منه وإنما هو بمنزلة المرأة ! فقالت : الموضع المثلث به يجعل له ما حرم الله عليه .

مع أنَّ في الخصي عبوداً يطول ذكرها .

ولولا خوف الملال والسمامة على الناظر في هذا الكتاب ، لقلنا في الاحتجاج عليك بما لا يدفعه من كانت به مسكة عقل ، أو له معرفة . وفيما قلنا ما أقمع وكفى . وبإله الثقة .

* * *

[١٣ - مقطمات من أحاديث البطالين]

وقد ذكرنا في آخر كتابنا هذا مقطمات من أحاديث البطالين والظفراء ، ليزيد القارئ لهذا الكتاب نشاطاً ، وينذهب عن الفتور والكلال ، ولا قوَّة إلا بالله .

١ - قال : مرض رجل من عادة الألطمة مرضًا شديداً ، فايسوا منه ، فلما أفاق وأبلُّ من مرضه ، دخل عليه جيرانه فقالوا له : احمد الله الذي أقالك ،

وَدَعْ مَا كُنْتُ فِيهِ مِنْ طَلْبِ الْخَلْصَانِ وَالْأَنْهَمَكَ فِيمُ ، مَعَ هَذِهِ السُّنْنِ الَّتِي قَدْ
بَلَغْنَاهَا . قَالَ : جَزَّاكُمُ اللَّهُ خَيْرًا ؛ فَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ فَرْطَ الْمَنَابِيَةِ وَالْمَوْدَةِ دُعَائِكُمْ
إِلَى عِظَبِيِّ . وَلَكُنِّي اعْتَدْتُ هَذِهِ الْمَسَاعَةَ وَأَنَا صَغِيرٌ ، وَقَدْ عَلِمْتُ مَا قَالَ بَعْضُ
الْحُكَمَاءِ : مَا أَشَدُ فِطَامَ الْكَبِيرِ ।

فَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَالشِّيخُ لَا يُشَرِّكُ أَخْلَافَهُ حَتَّى يُسَوِّرَ فِي شَرِي رَمِبِّي
فَقَامُوا مِنْ عَنْهُ آيَسِينَ مِنْ فَلَاحِهِ .

٢ - قَالَ : كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَطْلَاطَةِ وَلَهُ بَنْوَنَ لَهُمْ أَقْدَارٌ وَمَرْوِهَاتٌ ، فَشَانُهُمْ
بِعِشْيَتِهِ مَعَ الْفَلَمَانِ وَطَلْبِهِ لَهُمْ ، فَعَانِبُوهُ وَقَالُوا : نَحْنُ نَشْتَرِي لَكَ مِنَ الرَّوْصَافِ
عَلَى مَا تَشْتَهِي ، تَشْتَغِلُ بِهِنْ ، فَقَدْ فَضَحَتَا فِي النَّاسِ . فَقَالَ : هَبْكُمْ تَفْسِرُونَ
لِي مَا ذَكَرْتُمْ فَكَيْفَ لَشِيْخُكُمْ بِحَرَارَةِ الْجُلْجُلَتَيْنِ ! فَتَرَكُوا عَتَابَهُ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا
حِيلَةَ فِيهِ .

٣ - وَقَالَ بَعْضُ الْلُّوْطَيْنِ : إِنَّمَا خُلِقَ الْأَيْرُ لِلْفَقْحَةِ ، مَدْوَرٌ لِمَدْوَرَةِ ؛
وَلَوْ كَانَ لِلْجِرِيِّ كَانَ عَلَى صِبَغَةِ الطَّبَرِيَّنِ .

وَقَالَ شَاعِرُهُمْ :

إِذَا وَجَدْتَ صَفِيرًا وَكَلَّ أَصْلَ الْحَمَارِ
وَإِنْ أَصْبَتَ كَبِيرًا قَصَدَتْ قَصْدَ الْحَرَارَةِ
فَمَا أَبَالِي كَبِيرًا قَصَدَتْ أَوْ ذَا غَرَارَةِ

٤ - وَقَبْلَ لَامِرَةِ مِنَ الْأَشْرَافِ كَانَتْ مِنَ الْمَتَزَوْجَاتِ : مَا بِالْكَ مَعَ جَمَالِكَ
وَشَرِيفِكَ لَا تَمْكِثِنَ مَعَ زَوْجِكَ إِلَّا يُسِيرَأُ حَتَّى يَطْلُقُكَ ؟ قَالَتْ : يَرِيدُونَ
الْفُسْقَ ، ضَيْقَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ .

٥ - قال : طلقَ رجُلَ امرأة ، فمُرِّ رجُلٌ في بعض الطُّرُقات فسمع امرأةً تسألُ أخرى عنها فقالت : البائسة طلقها زوجها ! فقالت : أحسنْ باركَ اللهُ عليه . فقال لها : يا أمَّةَ اللهِ ، من شأنَ النِّسَاءِ التَّمْضِيبُ بعَضُهُنَّ لبعض ، وأسمِعُكِ تقولين ما قلتِ . قالت : يا هذا ، لو رأيتها لعلمتُ أنَّ اللهَ تَعَالَى قد أحلَّ لزوجها الزُّنى ، من قبْع وجهها .

٦ - وقال مخْتَنْتُ لامرأة : يا معاشرَ النِّسَاءِ ، مالكُنْ هَمَّةٌ إِلَّا طلبَ النِّبَكِ ، لا تُثْرِنَّ عَلَيْهِ شَيْئاً . فقالت : إنَّ امرأةً انقلبَتْ من شَهْوَتِهِ مِنْ طَبْعِ الرِّجَالِ إِلَى طَبْعِ النِّسَاءِ حَتَّى عَفَرَتْ لعيَّنكِ له ، لحقِيقَةِ الْأَنْلَامِ عَلَيْهِ .

٧ - قال إِسْحَاقُ الْمُوصَلِيُّ : نظرَتْ إِلَى شَابٍ مخْتَنْتَ حَسْنَ الوجهِ جَدَّاً فَدَهَّبَ لِحِيَتِهِ فشَانَ وَجْهَهُ ، فقلَّتْ لَهُ : لِمَ تَفْعَلُ هَذَا بِلِحِيَتِكِ ، وَقَدْ عَلِمْتَ أَنَّ جَمَالَ الرِّجَالِ فِي اللَّهِ ؟ فقال : يَا مُحَمَّداً ، أَيْسَرُكِ بِاللهِ أَنْهَا فِي أَسْبَكِ ؟ قَلَّتْ : لَا وَاللهِ ! فقال : مَا أَنْصَفْتَنِي ، أَنْكَرْتَ أَنْ يَكُونَ فِي أَسْبَكِ شَيْءٌ وَنَاصَرْتَنِي أَنَّ أَذْعَهُ فِي وَجْهِي .

٨ - وقال : اشتَرَى بَعْضُ وُلَادِ الْعَرَاقِ قَيْنَةً بِمَالِ كَثِيرٍ ، فجَلَسَ يَوْمًا يَشْرُبُ وَأَمْرِهَا أَنْ تَغْنِيهِ ، فَكَانَ أَوَّلُ صَوْتٍ تَغْنَتْ بِهِ :

أَرْوَحُ إِلَى الْفَهْصَاصِ كُلُّ عَشْبَةٍ أَرْجُبُ شَوَّابَ اللهِ فِي عَدْدِ الْخُطَّى

فقال للخدم : يا غلامُ ، خذْ بيدَ هذهِ الزَّانِيَةِ فادفعُها إِلَى أَبِي حَزَّرَةِ القَاسِصِ . فمضى بها إِلَيْهِ فلَقِيَهُ بَعْدَ ذَلِكَ ، فقال : كَيْفَ رَأَيْتَ تِلْكَ الْجَارِيَةَ ؟ فقال : مَا شَتَّ أَصْلَحَكَ اللهُ ، غَيْرَ أَنَّ فِيهَا حَصْلَتَيْنِ مِنْ صَفَاتِ الْجَنَّةِ ! قال : وَبِلَكَ مَا هُمَا ؟ قال : الْبَرَدُ ، وَالسُّعَةُ .

٩ - قال : عَلِقَ رجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ امرأةً فَطَالَ عَنَاؤُهُ وَشَقاوَهُ بِهَا حَتَّى طَفَرَ بِهَا ، فَصَارَ بِهَا إِلَى مَنْزِلِ صَدِيقٍ لَهُ مَعْنُونَ ، ثُمَّ خَرَجَ يَشْتَرِي مَا يَعْتَاجُ

إليه ، فقالت له : لو غيَّبْت لي صوْنَا إلى وقت مجيء صديقك !

فأخذ المودة وتعنى :

من الخَيْرات لم تُفْضِحْ أخْاهَا ولم تُرْفِعْ لِوالدَهَا شَنَارَا

قال : فأخذت المرأة خفْها ولبست إزارها وقالت : ويلي ويلي ، لا والله لا جلست ! فجهد بها فابت وصاحت ، فخشى الفضيحة فاطلقها . وجاء الرجل فلم يجدُها ، فسأله عنها فقال : جشّي بمجنونة ؟ قال : ما لها وبلك ؟ قال : سأثني أن اغْنِيَها صوْنَا ففعلت ، فضررت بيدها إلى خفْها ونبابها فلبست وقامت تولول ، فجهذت أن احبسها فصاحت فخلبْتها . قال : وأيُّ شيء غَيْنَيْها ؟ فأخبره ، فقال : لعنك الله ! حُنْ لها أن تهرب !

قال : تواصف قومُ الجماع ، وأفاضوا في ذكر النساء ، وإلى جانبهم مختَّنْ فقال : باهه عليكم دعوا ذكر الْجَنِّ لعنة الله ! فقال له بعضُهم : متى عهنتك به ؟ قال : مُذْ خرجت منه !

١٠ - قال : تزوج رجل امرأة ، فمكثت عنده غير بعيده ، ثم أتى الرجل بالذى زوجه فقدمه إلى القاضي فقال : أصلحك الله ، إنَّ هذا زوجي امرأة مجنونة . قال : وأيُّ شيء رأيت من جنونها ؟ قال : إذا جامعتها غشى عليها حتى أحسِّبُها قد ماتت . فقال له القاضي : قم فبحك الله فما أنت لمثل هذه باهل . وكانت زبوخاً .

١١ - قال : كانت عائشة بنت طلحة من المتزوجات ، فتزوجها عمر بن عبد الله بن مقرئ التميمي ، فبينما هي عنده تحدث مع امرأة من زوارها إذ دخل عمر فدعى بها فوافعها ، فسمعت المرأة من التخير والشهيق امراً عجيبة ، فلما خرجت قالت لها : أنت في شرفك وقدرتك تفعلين مثل هذا ! قالت : إنَّ الدواب لا تجید الشرب إلا على الصغير !

١٢ - قال : وكانت حُنَيْيَةُ الْمَدِينَةُ من المقتلمات ، فدخلَ عليها نسوةٌ من المدينة فقلن لها : يا خالَةُ ، أتَيْنَاكِ نسالُكَ عن القَبْعِ عند الجماع يفعُّلُ النِّسَاءَ ، أهُو شَيْءٌ قديمٌ أمْ شَيْءٌ أحدثَ النِّسَاءَ ؟ قالت : يا بنتَيَّ ، خرجتُ للعمرَة مع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ، فلما رجعنا فكُنَّا بالعرج نظرتُ إلى زوجي ونظرتُ إليه ، فأعجبَه مِنِّي ما أَعْجَبَنِي منه فواثبَني ، ومررتُ بنا عِرْبُ عثمان فسبَّتْ قبعةً وأدركتني ما يصيب بنتَ آدم ، ففُرِّتَ العِرْبُ - وكانت خمسَ مائةٍ - فما التقى منها بغيرَانِ إلى الساعَةِ .

والقَبْعُ : التُّخْيِرُ عند الجماع . والغَرْبَلَةُ : الرُّهْزُ . كذلك تسمّيه أهل المدينة .

ويقال إن حُنَيْيَةَ عَلِمَتْ نساءً أهلَ المدينةَ القَبْعَ والغَرْبَلَةَ .

١٣ - قال : وكانت خَلِيلَةُ امْرَأَةٍ سوداءَ ذاتَ خَلْقٍ عَجِيبٍ ، وكانَ لها دَارٌ بمكَّةَ تُكَرِّيَها أيامُ الحجَّ ، فجَحَّ فنِيَّةً من أهلِ العَرَقِ فاكثِرَى مِنْزَلَهَا ، فانصَرَفَ لِيَلَةَ مِنَ الْمَسْجِدِ وقد طافَ فاعِباً ، فلما صَبَدَ السُّطْنَاحَ نظرَ إِلَى خَلِيلَةَ نَائِمَةً فِي الْقَبَرِ ، فرأَى أهْيَا النَّاسِ واحْسَنَتْ خَلْقًا ، فدَعَتْهُ نَفْسُهُ إِلَيْهَا فَدَنَتْ مِنْهَا ، فترَكَهُ حَتَّى رَقَعَ رِجْلِيهَا فتابَعَتْهُ وارْتَأَتْ أَنَّهَا نَائِمةً ، فناكَهَا ، فلَمَّا فَرَغَ نِيمَ فَجَعَلَ يَبْكِي وَيَلْطِمُ وَجْهَهُ ، فتَعَارَبَتْ وَقَالَتْ : مَا شَانِكَ ؟ لَسْعَنْكَ حَيَّةً ؟ لَدَغَنْكَ عَقْرَبًّا ؟ مَا بَالَكَ تَبْكِي ؟ قَالَ : لَا وَاللهِ وَلَكُنِّي نَكْتُكَ وَأَنَا مَحْرِمٌ . قَالَتْ : فَتَبْكِي وَتَبْكِي ؟ أَنَا وَاللهِ أَحَقُّ بِالبَكَاءِ مِنْكَ . قَمْ يَا أَرْعنَ !

١٤ - وَقَالَ ابْنُ حُنَيْيَةَ لِأَمِّهِ : يَا أُمَّهُ ، أَيُّ الْحَالَاتِ أَعْجَبُ إِلَى النِّسَاءِ مِنْ أَخْذِ الرِّجَالِ إِيَاهُنَّ ؟ قَالَتْ : يَا بَنَّيَّ ، إِذَا كَانَتْ مُسِيَّةً مُثْلِي فَابْرِقْهَا وَالصَّنْ خَدْنَهَا بِالْأَرْضِ ثُمَّ أَوْعِنْهَا . وَإِذَا كَانَتْ شَابَةً فَاجْمِعْ فَخَذِنَهَا إِلَى صَدْرِهَا فَانْتَهِرْكَ بِذَلِكَ مَا تَرِيدُّ مِنْهَا وَتَبْلُغْ حَاجَتَكَ مِنْهَا .

١٥ - وقال : اشتري قومَ بغيراً وكان صعباً ، فارادوا إدخاله الدار فامتنع ، فجعلوا يضربونه وهو يابي ، فأشرفت عليهم امرأة كأنها شفحة قمر ، فبهرها ينظرون إليها ، فقالت : ما شأنه ؟ فقال لها بعضهم : نربده على الدخول فليس يدخل . قالت : بُل رأسه حتى يدخل .

١٦ - قال : نظر رجل بالمدينة إلى جارية سريرة ترتفع عن الخدمة ، فقال : يا جارية ، في يدك عمل ؟ قالت : لا ، ولكن في رجلي .

١٧ - قال بعضهم : كنا في مجلس رجل من الفقهاء فقال لي رجل : عندك حرة أو مملوكة ؟ قلت : عندي أم ولد ، ولم سألتني عن ذلك ؟ قال : إن العزة لها قدرها فاردت أن أعلمك ضرباً من النبك طريفاً . قلت : قل لي . قال : إذا صرت إلى منزلك فنم على قفالك ، واجعل مخنثة بين رجليك وركبك ليكون وطاء لك ، ثم ادع الجارية وأقم ليرك وأقبذها عليه ، وتحوّل ظهرها إلى وجهك ، وارفع رجليك ومراها أن تأخذ بإيهامك كما يفعل الخطيب على المنبر ، ومرها تصمد وتنزل عليه ؛ فأنه شيء عجب . فلما صار الرجل إلى منزله فعل ما أمره به ، وجعلت الجارية تعلو وتسفل ، فقالت : يا مولاي ، من علمك هذا النبك ؟ قال : فلان المكفوف . قالت : يا مولاي ، رد الله عليه بصره !

١٨ - قال : كانت امرأة من قريش شريفة ذات جمال رائع ومال كثير ، خطبها جماعة وخطبها رجل شريف له مال كثير ، فردها وأجابت غيره ، وعزما على الغدو إلى ولية ليخطبواها ، فاقتنم الرجل غنماً شديداً ، فدخلت عليه عجوز من الحي فرأى ما به وسألته عن حاله فأخبرها ، قالت : ما تجعل لي إن زوجتك بها ؟ قال : ألف درهم . فخرجت من عنده ودخلت عليها ، فتحديث عندها ملياناً وجعلت تنظر في وجهها وتتنفس الصعداء ، ففعلت ذلك غير مرأة ، فقالت الجارية : ما شائلك يا خالة ، تنظرين في وجهي وتتنفسين ؟

قالت : يا بُنْيَة ، أرى شبابك ، وما أنتِ الله عليك به من هذا الجمال ، وليس
يتَّمُ أمرُ المرأة إلَّا بالزُّوج ، وأراكِ أَيْمًا لَا زوجَ لك . قالت : فلا يَعْمُلُكَ الله ،
قد خطبني غير واحد وقد عزمت على تزويج بعضهم . قالت : فاذكري لي من
خطبك . قالت : فلان . قالت شريف ، ومن ؟ قالت : فلان . قالت :
شريف ، فما يمنعك منه ؟ قالت : وفلان - لصاحبها . قالت : أَفْ أَفْ ، لا
تربيته . قالت : وماهُ أليس هو شريفاً كثير المال ؟ قالت : بلى ، ولكن فيه
خصلةٌ أكرهُها لك . قالت : وما هي ؟ قالت : دعى عنك ذكرها . قالت :
أخبريني على كُلِّ حال . قالت : رأيُه يبول يوماً فرأيَتُ بين رجليه رجلاً ثالثة .
وخرجت من عندها فاتسَه ، فقالت : أَعْذُّ إِلَيْهَا رَسُولَك . وأناها الرجل الذي
كانت أجابتَه - بعد مجيءِ الرسول - فردهُه ويعثُّ إلى صاحبِ المرأة : أَنْ أَغْدُ
باصحابك . فتزوجها فلما بَنَى بها إذا معه مثل الرَّزْ ، فلَمَّا أتَتْها العجوز
فقالت : بكم بعتني يا لُخْناء ؟ قالت : بآلف درهم . قالت : لَا أَكُلُّهَا إلَّا في
العرض !

١٩ - قال : كان هشام بن عبد الملك يقبض الثُّيَاب من عظَمِ أَيْرَه ،
فكتب إلى عامله على المدينة : « أَمَّا بعد فاشترط لي عِكَاكَ النُّبِيك » . قال :
وكان له كاتبٌ مدینيٌّ طريف ، فقال له : وبحكم ، ما عِكَاكَ النُّبِيك ؟ قال :
الوصائف . فوجه إلى التَّخَاسِيْنَ فسألهُم عن ذلك . فقالوا : عِكَاكَ النُّبِيك
الوصائفُ الْيَسِّيْنُ الطُّوال . فاشترى منها حاجةَه ، ووجه بهنَّ إليه .

قال : وكانت بالمدينة امرأة جميلةٌ وضيّقة ، فخطبها جماعةٌ وكانت لا
ترضى أحداً ، وكانت أمّها تقول : لَا أُزُوْجُهَا إلَّا مِنْ ترضاه . فخطبها شابٌ
جميل الوجه ذو مالٍ وشرف . فذكره لابتها وذكرت حاله وقلت : يا بُنْيَة إِنْ
لَمْ تَزُوْجي هذا فمن تَزُوْجي ؟ قالت : يا أَمِّه : هُوَ مَا تَقُولِين ، ولكنَّي بَلَغْتُني
عنه شيءٌ لَا أَقْدِرُ عَلَيْهِ . قالت : يا بُنْيَة لَا تَحْتَشِمِينْ مِنْ أَمْكَ ، اذكري كُلَّ

شيء في نفسك . قالت : بلغني أنَّ معه أمراً عظيماً وأخافُ الأقوى عليه . فأخبرت الأمُّ الفتى فقال : أنا أجعلُ الأمراً إلَيْكَ تُدخلينَ أنتَ منه ما تريده وتحسسينَ ما تويد . فأخبرت الابنة فقالت : نعمْ أرضي إنْ تكفلت لي بذلك . قالت : يا بنتهُ والله إنَّ هذا هو لشديدٍ علىِّ ، ولكنِّي أتكلفُ لك . فتزوجته . فلما كانت ليلةُ البناء قالت : يا أمُّه ، كوني فتيبةٌ مُنِي لا يقتلي بما معه . فجاءت الأمُّ وأغلقت الباب وقالت له : أنتَ علىِّ ما أعطيتنا من نفسك ؟ قال : نعم ، هو بين يديك . فقبضت الأمُّ عليهِ وادته من أبنتهَا فدُسْتَ رأسه في جرها وقالت : أزيـد ؟ قالت : زيدي . فانحرجت إصبعاً من أصابعها فقالت : يا أمُّه زيدي . قالت : نعم . فلم تزل كذلك حتى لم يبق في يدها شيءٌ منه ، وأوعبه الرجلُ كلهُ فيها ، قالت : يا أمُّه زيدي . قالت : يا بنتهُ لم يبق في يدي شيءٌ . قالت بنتُها : رحـم الله أمـي فإـنهـ كانـ أعرـفـ الناسـ يـكـ ،ـ كانـ يقولـ إذا وقعـ الشـيءـ فيـ يـديـكـ ذـهـبـتـ البرـكةـ مـنـهـ قـوـميـ عـنـيـ ١

٢٠ - قال : تزوجَ رجُلٌ امرأةً وكانَ معهُ أمراً عظيماً جدّاً ، فلما ناكها أدخلَهُ كلُّهُ في جرها ، ولم تكنْ تقوى عليه امرأة ، فلم تتكلّم ، فقال لها : أيُّ شيءٌ حالكُ خرجَ من خلفكِ بعدَ ؟ قالت : بابي أنتَ وهل أدخلته ؟

٢١ - قال : نظرَ رجلٌ إلى امرأةٍ جميلةٍ سريةً ، ورجلٌ في دارها دميم مشوهٌ يأمرُ وينهى ، فظنَّ أنه عبدُها ، فسألها عنه فقالت : زوجي . قال : يا سبحانَ الله ، مثلُكَ في بعمةِ الله عليكِ تتزوجين مثلَ هذا ؟ فقالت : لو استدبرتكَ بما يستقبلني به لعزمتُ في عينك . ثم كثفتُ عن فخذها فإذا فيه يُقْعِنُ حضور ، فقالت : هذا خطأه فكيف إصابةُ .

٢٢ - قال : وكانت بالمدينة امرأة ماجنة يقال لها سلامـةـ الخضراءـ ،ـ فأخذـتـ معـ مختـبـ وهيـ تـبـكـ بـكـيرـنـجـ ،ـ فـرـقـعـتـ إـلـىـ الرـالـيـ فـأـوـجـعـهـ ضـربـاـ وـطـافـ بـهـ عـلـىـ جـمـلـ ،ـ فـنـظـرـ إـلـيـهـ رـجـلـ يـعـرـفـهـاـ فـقـالـ :ـ مـاـ هـذـاـ يـاسـلامـةـ ؟ـ

فقالت : بالله اسْكُتْ ، ما في الدُّنْيَا أَظْلَمُ مِنَ الرِّجَالِ ، أَتَشْتَمْ تَنِيكُونَا الْدَّهْرَ كُلَّهُ
فَلَمَّا نَكَنَا كُمْ مَرْأَةً وَاحِدَةً قَتَلْتُمُونَا .

٢٣ - قال : تزوج رجل امرأة فقيل له : كيف وجدتها ؟ قال : كان ركبها دارة القمر ، وكان شفريها أير حمار مثني .

٤٤ - وقال بعض العجائز المغتلمات :

وَخَضِبَتْ مَا مَبَعَ الزَّمَانُ فَلَمْ يَلْمُ
أَيَّامَ أَمْسِيٍّ وَالشَّبَابَ غَرِيرَةٍ
صَبَغَى وَدَامَتْ صِبَغَةُ الْأَيَّامِ
وَأَنْسَكَ مِنْ خَلْفِهِ وَمِنْ قَدَّامِهِ

٢٥ - وقال مياء ، وكان من مردة اللافطة ، واسمها ميمون بن زياد بن ثروان ، وهو مولى لخزاعة :

فَضَعُوا أَكْفَكُمْ عَلَى الْأَفْوَاهِ
وَالْفَاتِقُونَ مُشَارِجُ الْأَسْنَاءِ
مَجْدًا تَلِيدًا طَارِفًا بِسَبَاءِ
أَخْرَاجٌ إِنْ عَذُّ الْقَبَائِلُ فَخَرَّمْ
إِلَّا إِذَا ذُكِرَ اللَّوَاطُ وَاهْمَلْ
فِهَاكَ فَانْتَخِرُوا فِيَانَ لَكُمْ بِهِ

٢٦ - قال : وجاء سباه إلى الْكَمِيت فقال له : يا أبا عمارة ، قد قلتْ على عروض قصيتك :

* أبْتَ هَذِهِ النُّفُسُ إِلَّا ادْكَارًا *

فقايل : هات . فقايل :

ابُتْ هَذِهِ النَّفْسُ إِلَّا خَسَارًا
وَخَمْلَ الدُّبُوكَ وَقُوَّةَ الْكَلَابِ
وَشَرِبَ الْخُمُورَ بِمَاءِ الْغَمَامِ

٢٧ - وقال : أتَجِدْ « دِيكَ » ، وكان من كبار الألطنة ، وهو رجلٌ من أهل

الحجاز ، مع غلامٍ من قُريش كأنه قد يدَّة ، فقيل له : عذْوا الله هبك تُعلَّم في
الغِلْمَانَ بِالصَّبَاحِ فما أردتَ إلى هذا ؟ فقال : بأبي أنتم وأمّي ، قد وَالله علِمْتُ
أَنَّه كَمَا تَقُولُونَ ، وَإِنَّمَا نَكْتُه لِشَرْفِهِ .

٢٨ - وقد يُضَربُ المثلُ في اللُّوَاطِ بالحجاز فيقال : « اللُّوَاطُ من دِيكِ » ،
كما يقول أهل العراق : « اللُّوَاطُ من سِيَاهِ » ، وهو كوفي .
وقد اختصرتُ كتابي هذا ثلاثة يمْلأُه القارئ . وبِالله التوفيق .

* * *

تم كتاب مفاجرة الجواري والغِلْمَانَ ، والله المستعان ، وعلِبَ النَّكْلَانَ ،
وَلَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب القيان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر
الجالحظ أيضاً ، والله الموفق للصواب . والحمد لله أولاً وأخراً ، وصلواته على
سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ نَبِيِّهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَامُهُ .

٥ - هامش مفاخرة الجواري والفلمان

- (١) السب في مزاج الجد بالهزل هو طرد الملل عن نفس القارئ، هذه العلة يذكرها الجاحظ في معظم كتبه لتبسيط أسلوبه . والواقع ان الجاحظ كان مطبوعاً على الطرف وهذا هو السب الحقيقي لما نلقيه في كتابه من خلط الجد والهزل .
ـ لكل مقام مقال ، اصل فني من اصول فلسفة الجاحظ الجمالية . راجع نظرية الجمالية في كتابنا المأهلي الفلسفية عند الجاحظ ، المنحى الجمالي .
- (٢) والبه بن الحباب شاعر عباسي من زمرة ابي نواس في المعجنون والنهيثك . عكاشة : هو عكاشة بن عبد الصمد العمى ، عاشر في البصرة في مطلع الدولة العباسية ، وهو شاعر مقل .
الرفث : حديث الجنس .
- (٣) لاحظ الاحاديث النبوية حول الجنس ، ومدى صحتها . « ان اهل الجنة يدخلونها جرداً مكحلين » . . . « حيث لمي النساء والطيب » .
- (٤) حد الزنى = عقاب الزنى .
لاحظ لجوء الجاحظ الى الكتاب والستة والاستشهاد بهما .
الهيفاء الشموع : الضامرة البطن ، والضممون اللعوب .
- (٥) لاحظ التناقض في الحديث « ما تركت بعدي فتنة اصر على الرجال من النساء ، والحديث السابق « حب الى النساء والطيب » .
ـ النساء العُجَزُ والعقر : اللائي لهن اعجز كثيرة ولا ينجبن الاولاد .
- (٦) عيوب الزنى والتست : يذهب بالبهاء ، ويعجل بالبغاء ، ويقطع البرزق ويعاقب عليه في الآخرة ويعذب من اجله هناك ويدخل النار .

- (٧) الشعراة الذين تيمهم الحب : جمبيل بن معمر وكثير عزة وعروة بن الورد ، وقيس ابن الملوح ، وقيس بن ذريح ، وعبد الله بن عجلان والغمر بن ضرار .
- (٨) اشعار في الغلمان والجواري هـ معظم هذه الاشعار اختيرت من ابي نواس (٧٦٣ - ٨٢٤ م) الذي اشتهر بتهنّكه ، وتفزّله بالغلمان . وكذلك نجد نموذجاً من شعر النظام استاذ الجاحظ الذي يبدو فيه اثر الفلسفة ظاهراً . ويوسف لقوة صاحب ابي نواس ونظيره في المجنون . حتى قال في ابي نواس « ولا نعلم احداً قال في الغلام ما قال الحكمي ... » .
- (٩) صفات المرأة الجميلة : نقد للتشابه التي وجدتها في الشعر القديم الذي يتناول وصف المرأة : لقد شبهوها بالقضيب والبقرة والظلية والشمس . وهي اجمل من هذا كله .
- (١٠) مفاخرة اهل البصرة والكونفه : هذا من نوع الاستطراد الذي نجده في كتب الجاحظ . ويمكن ان نلتقط في المفاخرة بين المديتين دليلاً على التنافس بينهما في المجالات العلمية والسياسية .
- (١١) لاحظ الكلمات الجنسية التي تدل على اعضاء الجسم : الارداف ، والاعجاز ، والثدي ، والمحاش ، والقد والخرط والمجلولة والسمينة الخ .
- (١٢) الخصيان : جمع خصي ، وهو الانسان الذي عطلت قدرته الجنسية . لاحظ الوصف الدقيق لنفس الشخصي وجسمه وخلقه ، و موقف الجاحظ الانساني من مسألة النساء .
- (١٣) مقطوعات من احاديث البطالين والظرفاء : ربما زيد عليها الكثير مما لم يورده الجاحظ .



المجلس الأعلى للمعلمين



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

[١ - مدخل]

فصل منه : أعنك الله على سورة الغضب ، وعصنك من سرف الهوى ، وصرف ما أغارك من القوة إلى حب الإنصاف ، والرجح في قلبك بإشار الأناء . فقد استعملت في المعلمين نوك السفهاء ، وخطل الجهلاء ، ومفاحشة الأبذاء ، وبمحابية سُلْطُن الحكام ، وتهكم المقدرين ، وأمن المفترين . ومن تعرّض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى تكُلُّف ما كُفيت .

[٢ - فضل المعلم]

فصل منه : ولو لا الكتاب لاختلت أخبار الماضي ، وانقطعت آثار الغائبين . وإنما اللسانُ للشاهد لك ، والقلمُ للغائب عنك ، وللماضي قبلك والثابر بعده . فصار نفعه أعمَّ ، والذواوين إليه أفقر .

والملِكُ الْقِيمُ بالواسطة لا يدرك مصالح أطرافه وسد ثغوره ، وتقويم سُكَان علكته ، إلا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تم تدبير ، ولا استقامت الأمور . [وقد] رأينا عمرو

صلاح الدين والذئب إنما يعتدل في نصابه ، ويقوم على أساسه بالكتاب والحساب .

وليس علينا لأحدٍ في ذلك من الملة بعد الله الذي اخترع ذلك لنا ودُلّنا عليه ، وأخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخّرهم لنا ، ووصل حاجتهم إلى ما في أيدينا . وهؤلاء هم الذين هجوتهم وشكوكهم وحاججتهم وفاحت عليهم ، وألزمت الأكابر ذنوب الأصغر ، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصرين ، ورثيَت لآباء الصبيان من إبطاء المعلمين عن تحقيقهم ، ولم تُرِث المعلمين من إبطاء الصبيان عن يسراد بهم ، وبعيدهم عن صرف القلوب لما يغفظونه ويدرسونه ، والمعلمون أشقي بالصبيان من رعاة الصان ورؤاض المهارة .

ولو نظرت من جهة النظر علمت أن النعمة فيهم عظيمة سابقة ، والشكر عليها لازم واجب .

[٣ - الحفظ والاستباط]

فصل منه : وأجمعوا على أنهم لم يجدوا كلمة أقْل حرفًا ولا أكثر زينًا ، ولا أعمّ نفعًا ، ولا أحث على بيان ، ولا أدعى إلى تبيين ، ولا أهجي لمن ترك التفهم وقصر في الإفهام ، من قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضوان الله عليه : « قيمة كلّ أمريء ما يحسن » .

وقد أحسن من قال : « مذكرة الرجال تلقيح لأبابها » .

وكرهت الحكمة الروسأ ، أصحاب الاستباط والتفكير ، جودة الحفظ ، لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا : « الحفظ عذق الذهن » . ولأنَّ مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستباط هو الذي يفضي بصاحب إلى برد اليقين ، وعز الثقة .

والقضية الصحيحة والحكم المحمود : أنه متى أداه الحفظ أضرَ ذلك بالاستباط ، ومتى أداه الاستباط أضرَ ذلك بالحفظ ، وإن كان الحفظ أشرف

منزلة منه .

ومن أهل النظر لم تسرع إليه المعانى ، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه ،
وقلل مكثتها في صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستبطاط . والذى يُعاجلُهُ به ويستعينان متفقٌ
عليه ، [ألا] وهو فراغ القلب للشيء ، والشهوة له ، وبهَا يكون التمام ،
وتفهر الفضيلة .

ولصاحب الحفظ سبب آخر يتعاقب عليه ، وهو الموضع والوقت .
فاما الموضع فائيها يختار إذا أرادا ذلك الفوق دون السفل .

وأما الساعات فالاسحارات دون سائر الأوقات ، لأن ذلك الوقت قبل وقت
الاشغال ، ويعقب تمام الراحة والجسم ، لأن للجسم مقداراً هو المصلحة ، كما
أن للكدّ مقداراً هو المصلحة .

[٤ - أكثر المظاهِر كانوا معلمين]

فصل منه : ويُستدلُّ أيضاً بوصايا الملوك للمؤذين في أبنائهم ، وفي تقويم
أحدائهم ، على أنهم قد قلدُوهُم أمورهم وضميرهم يبلغ التمام في تأدِيبِهم .
وما قلدُوهُم ذلك إلا بعد أن ارتفع إليهم في الخنز حالم في الأدب ، وبعد أن
كشفُوا الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت - حفظك الله - لو استقصيت عدَّة النحوئين والمرتضىين
والفرضيَّين ، والحسَّاب ، والخطاطين ، لوجدت أكثرهم مُؤذِّبٌ كباراً ومعلمٌ
صفار ، فكم نظرنا أنا وجدنا منهم ، من الرؤاة والقضاء والحكمة ، والولاية من
المناقير والدهاء ، ومن الحُمَّة والكفاءة ، ومن القادة والذادَة ، ومن الرؤساء
والسادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأدباء ، ومن أصحاب
الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أصناف البلاغة ، ومن الفرسان وأصحاب
الطعام ، ومن نديمِ كريم ، وعالمِ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍ

عفيف .

ولا تعجل بالقضية حتى تستوفى آخر الكتاب ، وتبليغ أقصى العذر ، فإنك إن كنت تعمدت تذمّت ، وإن كنت جهلت تعلّمت ، وما أظن من أحسن بك الظرف إلا وقد خالف الحزم .

[٥ - جميع أصناف العلوم معلومون]

فصل منه : قال المعلم : وجدنا لكل صفي من جميع ما بالناس إلى تعلمه حاجة ، معلمين ، كمعلمي الكتاب والحساب ، والقراءض والقرآن ، والنحو والعروض والأشعار ، والأخبار والآثار ، ووجدنا الأوائل كانوا يتخذون لأنسابهم من يعلمهم الكتابة والحساب ، ثم أعب الصواليحة ، والرمي في التبُوك ، والمجسمة ، والطير الخاطف ، ورمي البنجكار . وقبل ذلك الدبُوق والتفسخ في السُّبطانة . وبعد ذلك الفرسية ، واللعب بالرماح والسيوف ، والمشافة والمنازلة والمطاردة ، ثم النجوم واللحون ، والطرب والمهندسة ، وتعلم الشُّرد والتَّطرنج ، وضرب الدُّوف وضرب الأوتار ، والواقع والتفسخ في أصناف المزامير .

ويسأرون بتعليم أبناء الرعية الفلاحة والنّجارة ، والبيان والصياغة والخطابة ، والشُّرد والتفسخ ، وأنواع الحياكة . نعم حقاً علّموا البلبل وأصناف الطير الألحان .

وناساً يتعلّمون القرود والذئبة والكلاب والظباء المكعنة والبيضاء ، والستور وغراب البين ، ويعملون الإبل ، والخيول ، والبغال ، والحمير ، والفيلة ، وأصناف المثي ، وأجناس المُحضر ، ويعملون الشواهين والصقور والبوادي ، والفهد ، والكلاب ، وعناق الأرض ، الصيد .

ويتعلّمون الدواب الطحن ، والبخاني الجمر حتى يرّوضوا المملاج والمعناق ، بالتخليع وغير التخليع ، وبالموضع والأوسط والمرفوع . ووجدنا للأشياء كلها معلمين .

[٦ - الانسان عالم صغير]

وإغا قبل للإنسان العالم الصغير ، سليل العالم الكبير ، لأنَّ في الإنسان من جميع طبائع الحيوان أشكالاً ، من خجل الذئب وزؤغان الكلب ، ووشوب الأسد ، وجقد البعير ، وهداية القططة . وهذا كثير ، وهذا باهٌ .

ولأنَّ يحكي كل صوتٍ بفيه ، ويصور كل صورةٍ بيده . ثم فضلَ الله تعالى بالمنطق والروية وإمكان التصرف .

وعلَّ أنا لا نعلم أنَّ لأحدٍ من جميع أصناف المعلمين جمِيع هذه الأصناف - كفضيلة المعلم من الناس الأحداث المنطبق المشور ، ككلام الاحتجاج والصفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات في جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد والأرجاز ، ومن المزدوج والأسجاع ، مع الكتاب والحساب ، وما شاكل ذلك ووافقه واتصل به ، وذهب مذهبه .

[٧ - معنى المعلم والمذوب]

وقالوا : إنما اشتُقَّ اسم المعلم من العلم ، واسم المذوب من الأدب . وقد علمنا أنَّ العلم هو الأصل ، والأدب هو الفرع .

والأدب إما حُلُق وإنما رواية ، وقد أطلقوا له اسم المذوب على العموم .

والعلم أصلٌ لكلٍّ خير ، وبه ينفصل الكرم من اللئم ، والخلال من الحرام . والفضل من الموازنة بين أفضل الخيرين ، والمقابلة بين أنقص الشررين .

فلم يغرسوا لأحدٍ من هذه الأصناف التي أخذَ الناس لها المعلمين من جميع أنواع الحق والباطل ، والسرف والاقتصاد ، وأخذُ والهزل ، إلا هؤلاء الذين لا يعلمون إلا الكتاب والحساب ، والشعر ، والنحو ، والفرانس ، والغروض . وما بالسماء من نجوم الاهتداء والأنواء والسمود ، وأسماء الأيام والشهور ، والمناقلات .

وينتعمهم بالغراوة ، ويأخذهم بالصلة في الجماعة ، وينتهي لهم القرآن ،
ويهذب لهم برواية الفصید والأرجاز ، ويُعاقب على التهاون ، ويُضرب على
القرار ، ويأخذهم بالمناقلة ، والمناقلة [من] أسباب المنافسة .

للحقيق بخلاف هذه السيرة ، وبضم هذه المعاملة .

[٨ - فقر الأدباء]

فصل منه : وقد ذهب فوس إلى أنَّ الأدب حرف ، وطلبه شرم . وأنشد
قول الشاعر :

ما ازدلت في أبي حرفأً أسرْ به إلا تزَيَّدْتُ حِرْفًا تَحْتَه شُرم
إن المقدم في جلْقِ بصنعته أَنْ توجَّهَ فِيهَا فَهُو مُحْرُوم
ولم نر شاعرًا نال بشعره الرُّغائب ، ولا أدبياً بلغ بأدبه المراتب ، ذكرَ
يُمْنَنُ الأدب ، ولا برَكَة قول الشعر . فإذا حُرم الواحد منهم ، والرجل الشاذ
ذكر حرف الأدب وشرم الشعر . وإن كان عندَ من نال الرغائب أكثرَ من عند
من أخفق .

ومهما غيرنا منْ كان في هذه الصفة فإننا غير معايرين لأبي يعقوب
الغربيبي ، لأنَّه نال بالشعر وأدرك بالأدب .

وليس الذي يحمل أكثر الناس على هذا القول إلا وجдан المعناني
والآلفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيّعوا ياباً من إظهار الظرف وفضل اللسان وهم
عليه قادرون .

[٩ - المعلم يراعي مستوى الصي العقلي]

فصل منه : وقد قالوا : الصيُّ عن الصيِّ أفهمُ ، وبه أشكُل . وكذلك

الغافل والغافل ، والأحمق والأحمق ، والغبي والغبي ، والمرأة والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ». لأنَّ الناس عن الناس أنهم ، وإليهم أسكن . فمما أعان الله تعالى به الصبيان ، أنَّ قرب طبائعهم ومقدار عقولهم من مقدار عقول المعلمين .

وسمع الحجاج - وهو سير - كلام امرأة من دار قوم ، فيه تخلط وهذيان ، فقال : مجنونة ، أو ترقص صبياً !

ألا ترى أنَّ أبلغ الناس لساناً ، وأجوادهم بياناً وأدهم فطنة ، وأبعدهم رؤية ، لو ناطق طفلاً أو ناغي صبياً ، لتوخى حكاية مقدار عقول الصبيان ، والشبة لمحاجة كلامهم ، وكان لا يجد بدأً من أن ينصرف عن كلٍّ ما فضلَه الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة بين المتفقين في الصناعات .

[١٠ - تعلم النحو والرياضية]

فصل منه : وأما النحو فلا تشغل قلبَه منه إلَّا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه ، وشعر إن أنشده ، وشيء إن وصفه . وما زاد على ذلك فهو مشغله عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أرد عليه منه من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع .

وإنما يرغب في بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه ، من لا يحتاج إلى تعرُّف جسميات الأمور ، والاستبساط لغواصِن التدبر ، ولمصالحة العياد والبلاد ، والعلم بالأركان والقطب الذي تدور عليه الرئْسَى ؛ ومن ليس له حظُّ غيره ، ولا معاش سواه .

ونغوص النحو لا يجري في المعاملات ولا يُضطرُّ إليه شيء . فمن

الرأي أن يعتمد به في حساب الفقد دون حساب الهندس ، ودون الهندسة
وعريض ما يدخل في المساحة . وعليك في ذلك بما يحتاج إليه كفالة السلطان
وكتاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ في معرفة الحساب الذي يدور عليه العمل ،
والثُّرْقَى فيه والسبب إليه ، أرْدُ عليه من البلوغ في صناعة المحرررين ورؤوس
الخطاطين ، لأنَّ في أدنى طبقات الخطَّ مع صحة الهجاء بلاغاً . وليس كذلك
حال الحساب .

[١١ - تعليم صناعة الكتابة]

ثمَّ خذه بتعريف حجج الكتاب وتخالصهم باللفظ السهل القريب المأخذ
إلى المعنى الفاسد . وأذْفَنَ حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره
التتكلف واستكرياه العبارة ؛ فإنَّ أكرم ذلك كله ما كان إيفاماً للسامع ، ولا
يُحِرِّج إلى التأويل والتعقب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصراً عنه ، ولا
فاضلاً عليه .

فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مُغْرِقاً في الإكثار
والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براءة اللفظ وغموضه
على السامع بعد أن يُتَسَقَّل له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه
العبارة . فالمعنى بعد مقيمه على استخفافه وصارت العبارة لغواً وظفراً حالياً .

وشرُّ البلاغاء من هُم رسم المعنى قبل أن يهُمُّ المعنى ، عثقاً لذلك
اللفظ ، وشققاً بذلك الاسم ، حتى صار يجُرُّ إليه المعنى جرراً ، ويُلزِّمه به
الزراقتاً . حتى كانَ الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسمَاً غيره ، ومنته
الإخراج عنه إلَّا به .

والآفة الكبرى أن يكون ردِيء الطُّبع بطيء اللفظ ، كليل الحدة ، شديد

العجب ، ويكون مع ذلك حرباً على أن يُعذَّ في البلاغة ، شديد الكلف
باتحالة اسم الأدباء . فإذا كان كذلك خفي على فرق ما بين إعابة الألفاظ
واستكراهه لها .

وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، وحزم أو
إضاعة ، ضرباً من اللفظ هرّحه وحشه ، ونصيحة الذي لا يبني أن يجاوزه أو
يقصر دونه .

ومن قرأ كتب البلاغة ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليفسخ المعانى ، فهو
على سبيل ضواب . ومن نظر فيها ليفسخ الألفاظ فهو على سبيل الخطأ .
والخسارة هنا في وزن الربع هناك ؛ لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ
حمله الحرص عليها ، والاستهان بها إلى أن يستعملها قبل وقتها ، وبطبيعتها في
غير مكانها . ولذلك قال بعض الشعراء لصاحب : أنا أشعر منك ! قال
صاحب : ولم ذاك ؟ قال : لأنني أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن
عمه .

وإنما هي رياضة وسياسة ، والرفيق : مصلحٌ وآخرٌ مفسد . ولا بد من
هدان وطبيعة مناسبة .

وسماع الألفاظ ضارٌ ونافع .

فالوجه النافع : أن يدور في مسامعه ، ويغب في قلبه ، ويختمر في
صدره ، فإذا طال مكتها تناكحت ثم تلاقت فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ،
وثرمتها أطيب ثمرة ؛ لأنها حينئذ تخرج غير مُترقبة ولا مختلسة ولا مفترضة ،
ولا داللة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شيءٍ بعينه ، والاعتماد عليه دون
غيره . وبين الشيء إذا عُشِّ في الصدر ثم باض ، ثم فُرِّخ ثم نهض ، وبين
أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرق بُيُّن .

ومنى انكُل صاحبُ البلاغة على الهوى والرِّكال ، وعلى السُّرقة والاحتياط ، لم يَتَلْ طائلاً ، وشقّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهران ، واستهلكه سوة العادة .

والوجه الضار : أن يتحفظ الفاظاً بعينها من كتابٍ بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد أن يعده لتلك الألفاظ قسمها من المعاني ، فهذا لا يكون إلا بخيلاً فقيراً ، وحانفاً سروقاً ، ولا يكون إلا مستكريهاً لأنفاظه ، منكلاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظم . فإذا مُـ كلامه بـ قـاد الأـ لـ فـاظ وجـاهـدةـ المـعـانـيـ استـخـفـواـ عـقـلـهـ ، وبـهـرـجـواـ عـلـمـهـ .

نـمـ اـعـلـمـ أـنـ الاـسـتـكـراـهـ فيـ كـلـ شـيـ ؛ سـمـجـ ، وـحـيـثـ ماـ وـقـعـ فـهـوـ مـذـمـومـ ، وـهـوـ فيـ الطـرـفـ أـسـمـجـ ، وـفـيـ الـبـلـاغـةـ أـقـبـحـ . وـمـاـ أـحـسـ حـالـهـ مـاـ دـامـتـ الـأـلـفـاظـ مـسـمـوـةـ مـنـ فـيـهـ ، مـسـرـوـدـةـ فيـ نـفـسـهـ ، وـلـمـ تـكـنـ مـخـلـدـةـ فيـ كـتـبـهـ .

وـخـيـرـ الـكـتـبـ مـاـ إـذـاـ أـعـدـتـ النـظـرـ فـيـ زـادـكـ فـيـ حـسـنـهـ ، وـأـوـفـكـ عـلـىـ حـلـةـ .

[١٢ - عبد الله بن المقفع]

فصل منه : ومن المعلمين ثم من البلاء المتأدبين : عبد الله بن المقفع ، ويكتفى أبا عمره ، وكان يتولى لآل الأهتم ، وكان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة ، وانخراط المعاني وابتداع السير . وكان جرواداً فارساً جميلاً ، وكان إذا شاء أن يقول الشعر قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أين غير المفتر ووثيق الواقع . وإذا أردت أن تعتبر ذلك ، إن كنت من خلص المتكلمين ومن النظاريين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ، ردئ المدخل في مواضع الطعم

وقد يكون الرجل يُحسن الصُّنف والصنفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أنه لا يحمل عقله على شيء إلا تندبه فيه ، كالذى اعتبرى الخليل بن أحمدَ بعد إحسانه في النحو والعروض ، أنَّ أدعى العلم بالكلام وبأوزان الأغاني ، فخرج من الجهل إلى مقدار لا يليقه أحدٌ إلا بخذلان الله تعالى . فلا حرمتنا الله تعالى عصمتَه ، ولا ابتلتنا بخذلانه .

فصل منه : وهذا الشاعر جاهيليان ، بعيدان من التوليد ، وينجحه من التكليف .

[١٣ - تعلم التجارة والصيارةة أفضل من عمل السلطان]

فصل منه : ومن خصال العبادة وإن كانت كلها راجحة فليس فيها شيء أردُّ في عاجل ، ولا أفضل في آجل من حُسْن الظن بالله تعالى وعز .

ثم أعلم أنَّ أعقل الناسُ السُّلطانُ ومن احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه يفتح له باب الحيلة ، والاهتداء إلى مواضع الحجة . وما أقرب فضل الراعي على الرعية من فضل السائس على الدابة . ولو لا السُّلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً ، كما أنه لو لا المُسيِّم لوثب السُّباغ على السُّوام .

وَدَعْنِي من تدريسيه كتب أبي حنيفة ، ودعني من قولهم : اصرفه إلى الصُّيارةة ؛ فإن صناعة الصرف تجتمع مع الكتاب والحساب المعرفة بأصناف الأموال ، ولا تجد بُدُّا من جلة السُّلطان .

وَدَعْنِي من قول من يقول : قد كانت قريش تجارة ؛ فإن هذا باب لا ينفاس ولا يطرد . ومن قاس تجارة الكرْخ وباعته ، وتجارة الأهواز والبصرة ، على تجارة قريش ، فقد أخطأ مواضع القياس ، وجهل أقدار العلل .

قريش قوم لم ينزل الله تعالى يغتالهم في الأرحام البربرة من الآفات ، وينقلهم من الأصلاب السليمة من العاهات ، ويعيّنهم لكل جسم ، ويربيّهم لكل عظيم .

ولو علم هذا القائل ما كانت قريش عليه في التّجارة لعرف اختلاف المُبْلِل ، وتفاوت ما بين الطرق . ولو كانت علّتهم في ذلك كملة تجارة الأبلة ، ومحتكري أهل الحيرة ، لتلّمت دقة التجارة في أغراضهم ولنهاك سخف التّربع من مروءاتهم ، ولصغار ذلك من أقدارهم في صدور العرب ، ولوضع من علومهم عند أهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشّعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظام ، فأَسْتَرُوا لهم العطية ، ولم يقصُّروا عن غاية ، فسقُوا الحجيج وأقاموا البُرئ لزوار الله تعالى ، وهم بواه غير ذي زرع . فلو أنّه كان معهم من الفضل ما ينهر العقول ، ومن المجد ما تخرّج فيه العيون ، لما أصلح طبائعهم الشيء الذي يفسد جميع الأمة . ولقد أورث ذلك صدورهم من السُّنة بقدر ما أورث غيرهم من الضيق . ولو كانت سُبُّهم عند الملوك إذا وفدو عليهم ، أو وردوا بلادهم بالتجارات ، سُبُّلُ غيرهم من التجار لما أوجّهُوهم وقربُوهم ، ولما أقاموا لهم قرى الملوك وحبّوهم بكرامة الخاص .

وإذا كانت قريش حُسْنَا تَتَلَكُ في دينها ، وتتَالَّه في عبادتها وكان مانعاً - لهم من الغارات والسباء ، ومن وطء النساء من جهة المعنم ، ولذلك لم يشدوا البنات ولا ولدت منهم امرأة غيرهم من جهة النساء ، ولا زوجوا أحداً من العرب حتى يتحمس ويدين بدينه . ولذلك لما صاروا إلى بناء الكعبة لم يخرجوا في بنائها من أموالهم إلا مواريث آبائهم ونسائهم ، خوفاً من أن يخالطه شيء حرام ، إذ كانت أرباح التجارات متّسخةً عليها ذلك . فلما كانوا بواه غير ذي زرع ويحتاجون إلى الأقوات ، وإقامة القرى ، لم يجعلوا بدأ من أن يتكلّفوا ما يعيشهم ويصلّب شأنهم ، فأخذذوا الإيلاف ، ورحلوا إلى الملوك

بالتُّجَارَاتِ . فهذا هو السبب .

فانظر كم بين علئهم وعلئ غيرهم ! فيسرُك بعد هذا أن يتحول ابنك في سلاح صالح الزراريسي ، أو في طباع ابن بادام ، أو في عقل ابن سامي . فإن زعموا أن أصحاب السلطان بعرض مكرروه فليعلموا أن كل مسافر بعرض مكرروه ، وقد قال بعض الحكماء : « المسافر متاغه على قلت إلا من حفظ الله » ، يعني على هلاك .

وراكب البحر أشد خطرًا ، ومشتري طعام الأهواز أشد تهوراً ، ورافع الشَّرَاع بعرض هلكة . والمتعرّض للبلاحة والمعرض نفسه للسباع أقل شفقة . وسكان الجزائر والسواحل أحق بالعرض ، وأولى بالخوف . والمنهوم بالطعام الرديء ، والمدمن للشراب أشهى بأصحاب التغريب ، والمتباري في ذلك والمتزيّد منه أحق بتوفّ العجذاث وحوادث الأزمان ، قد جرت عليه عادة الدهر وبسيرة الأيام . وهذا كنه أحق بالاهتمام .

وإن كنت إلى الإشراق تذهب ، وإلى إعطاء الحزم أكثر من نصيبيه ، وكيف دار الأمر فإن الناجر قد استشعر الذلة ، وتغشى ثوب المذلة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حد العزّ والهيبة . وإنما عيّه سُكّر — السلطان ، وإفراط التعظيم . قد استبطن بالعزّ ، وظاهر(بالبشر واستحكمت تجربته ، وبعدت بصيرته حتى عرف مصلحة كلّ مضر ، وإصلاح كلّ فاسد ، وإقامة كلّ معوج ، وعمارة كلّ خرب .

ولا أعلم في الأرض أعمّ إفلاساً ولا أشدّ نكبة ، ولا أكثر تحولاً من يسر إلى عسر ، ولا رأينا الجوانح إلى أحدٍ أهدى منها إلى أموال الصّيارة . فكيف يقاس شأنّ قومٍ تعنّهم المغاطب بشأن قوم أهل السّلامـة فيهم أكثر ، والنكبات فيهم أقل .

وبعد هذا فإني أرى الأستكراه فتُبَقِّضُ إِلَيْهِ الْأَدْبُ ، وَلَا تَهْمِلُهُ فِي عِتَادِ
اللهِ .

عَلَى أَنِّي لَا أَعْلَمُ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ شَيْئاً أَجْلَبُ لِجَمِيعِ الْفَسَادِ مِنْ قُرْنَاءِ
السُّوَءِ ، وَالْفَرَاغِ الْفَاضِلِ عَنِ الْجَمَامِ .

دَرْسُهُ الْعِلْمُ مَا كَانَ فَارِغاً مِنْ أَشْغَالِ الرِّجَالِ ، وَمَطَالِبِ ذَوِي الْوَمَمِ .
وَاحْتَلَ فِي أَنْ تَكُونَ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَهْمَهُ . وَلَا تَسْتَطِعُ أَنْ يَمْحُضُكَ الْمِيقَةُ ،
وَيُصْفِي لَكَ الْمَوْذَةَ مَعَ كِرَاهَتِهِ لِمَا تَحْمِلُ إِلَيْهِ مِنْ ثَقْلِ التَّأْدِيبِ عَنْدَ مَنْ لَمْ يَلْعَظِ
حَالَ الْعَارِفِ بِعِصْبِيلِهِ .

فَاسْتَخْرُجْ مَكْنُونَ مَحْبُّهُ بِبَرِّ اللِّسَانِ ، وَبِذُلِّ الْمَالِ . وَلِهَذَا مَقْدَارٌ مِنْ
جَائِزَةِ أَفْرَطِ . وَالْإِفْرَاطُ سَرَفٌ . وَمِنْ قُصْرِ عَنِ الْفَرَطِ ، وَالْمُفْرَطُ بِضَيْعَ .

وَلَا تَسْتَكْثِرْ هَذَا كُلُّهُ فَإِنَّ بَعْضَ النِّعَمَ فِيهِ ثَانِي عَلَى أَصْعَافِ النِّعَمَةِ ،
وَالَّذِي تَحَاوَلُ مِنْ صَلَاحِ امْرِ مِنْ تَؤْمِنُ فِيهِ أَنْ يَقُولُ فِي أَهْبَلِكَ مَقَامَكَ ، وَإِصْلَاحَ
مَا خَلَقْتَ كَفِيَابِكَ ، لِحَقِيقَتِ الْحَيَّةِ عَلَيْهِ ، وَبِإِعْطَائِهِ الْمَجْهُورُ مِنْ نَفْسِكَ .

وَقَالَ زَكَرِيَاً عَلَيْهِ السَّلَامُ : « رَبُّ لَا تَنْذِرْنِي فِرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثَيْنِ » .
فَعَلِمَ اللَّهُ تَبارَكَ وَتَعَالَى ، فَوَهَبَ لَهُ غَلَامًا ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : « وَلِيَسَ الْذَّكَرُ
كَالْأُنْثَى » .

اعْلَمَ أَنَّهُ أَعْطَاكَ وَلِدًا عَبْرَةَ عَيْنِ الْعَدُوِّ ، وَقُرْةَ عَيْنِ الصَّدِيقِ الْوَلِيِّ .
فَاحْمِدْ اللَّهَ وَأَخْبِلْهُ فِي الدُّعَاءِ ، وَأَكْثِرْ مِنَ الْخَيْرِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى .

٦ - هامش كتاب المعلمين

- (١) يهجو الجاحظ شخصاً ذم المعلمين ويتهمه بالسوء والجهل والذلة والغزو .
- (٢) فوائد الكتاب في حفظ العلم والأخبار عن الماضي الخ . . . وقد عدد الجاحظ فوائد الكتاب في مقدمة كتاب الحيوان حيث أيدع في ذلك .
- (٣) الاستبطاط تعني التفكير والحكماء هم أصحاب الاستبطاط أما الحفظ فمن عمل المقلدين . لاحظ تأثر الجاحظ بالفلسفة .
 - القضية تعني الحكم . والحكم عند المتكلمين مؤلف من قضية .
 - لاحظ الآراء التربوية حول طبيعة الحفظ وزمانها ومكانتها وطبيعة التفكير .
- (٤) الفرضيين : علماء الميراث وتقسيم الارث على الورثة .
 - القضية : معناها هنا الحكم ايضاً .
- (٥) الجاحظ لا يتورع عن استعمال الالعاظ الاعجمية مثل النبوك (القوس) البنجكاز (خمس اخشاب ، فارسية مثل النبوك) . كما يستعمل كلمات عربية اصبحت غريبة بالنسبة لنا لعدم استعمالها مثل الدبوق (لعبة للصبيان) والسبطانة (فناة جوقة يرمي بها الطير) والمجتمعه (حيوان ينصب ويرمي ويقتل) .
- (٦) الانسان عالم صغير : وردت هذه الفكرة مع شرحها في الحيوان ج ١ ص ٢١٢ طبعة عبد السلام هارون .
 - . . .
 - الباب = الباب والوجه .
- (٧) المعلم مشتق من العلم . والمزدج مشتق من الادب . والعلم أصل والادب فرع .
 - الادب له معنيان : معنى خلقى ثأديبي ، ومعنى تعليمي .

- (٨) الحرف = العرمان . الادب لا يشيع ولا يغنى من جوع .
- (٩) ناطق : تكلم او حدث .
- توخي حكاية مقداير عقول الصبيان : راعى مستوى عقوفهم .
- (١٠) اللحن : الخطأ في تحريك الكلمات .
- (١١) استكراه العبارة : استعمال العبارة الكريهة .
- التأويل : التفسير .
- الطبع : الموهبة الأدبية - القراءة .
- (١٢) عبد الله بن المفعع : يقدم الجاحظ ترجمة موجزة له . والجديد في هذه الترجمة قوله أنه اشتغل بعلم الكلام دون اجادة فيه .
- (١٣٢) التجار وعمال السلطان : هذه الفقرة مشتركة بين كتاب المعلمين وكتاب « مدح التجار وذم السلطان ». وفيه مدح قريشاً وخصالها ومهاراتها في التجارة ويتحدث عن الإبلاف الذي عقدته مع ملوك اليمن والحبشة والشام وفارس . ونجد كلاماً مشابهاً عن خصال قريش في كتاب الاوطان والبلدان ، وكتاب فضل هاشم علىبني عبد شمس .

- ٧ -

طبقات المغنيين



لهم إني أسألك سلامك

[١ - تصنیف العلوم]

فصل منه : ثم إننا وجذنا الفلسفه المتقدّمين في الحكمه ، المحظيين بالأمور معرفة ، ذكروا أن أصول الآداب التي منها يتفرّع العلم لذوي الآلاب أربعة :

فمنها النجوم وبروجها ، وحسابها الذي يعرف به الأوقات والأزمنة ،
وعليها مزاج الطيائع وأ أيام السنة .

ومنها الهندسة وما انصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أشبه ذلك .

ومنها الكيمياء والطب اللذان بهما صلاح المعاش وقوام الأبدان ، وبعلاج الأسمام ، وما يشتبه من ذلك .

ومنها اللحون ومعرفة أجزائها وقسمها ، ومقاطعها ومخارجها وزنها ، حتى يستوي على الإيقاع ويدخل في الوتر وغير ذلك مما اقتصرنا من ذكره على اسمائه وجمله ، اجتناباً للتطويل ، وتوكحاً للاختصار . وفضلنا للأمر الذي إليه انتهينا ، وإيام أردننا . والله الموفق وهو المستعان .

[٢ - الخليل يضع علمي الفتنه والعرض]

ولم يرَ أهل كل علم فيما خلا من الأزمنة يركبون منهاجه ، ويسلكون طريقة ، ويعِرون غامضه ، ويسلُّون سبيلاً المعرفة بدلائله ، خلا الفتنة ، فلأنهم لم يكونوا عرَفوا عللها وأسبابه وزنه وتصاريفه ، وكان علمهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسية والهندية إلى أن نظر الخليل البصري في الشعر وزنه ، ومخارج الفاظه ، وميَّز ما قالـت العرب منه ، وجمعـه والقـه ، ووضعـه فيه الكتاب الذي سمـاه الفروض ، وذلك أنه عرض جميع ما رُويـ من الشـعر وما كانـ به عالـما ، على الأصولـ التي رسـمـها ، والعلـلـ التي يـثـنـها ، فلمـ يـجدـ أحدـاً منـ العـربـ خـرـجـ مـنـهـاـ ، ولاـ قـصـرـ دـوـنـهـاـ . فـلـمـ أـحـكـمـ وـبـلـغـ مـنـ مـاـ بـلـغـ ، أـخـدـ فيـ تـفـسـيرـ النـفـمـ وـالـلـحـونـ ، فـاستـدرـكـ مـنـ شـيـاـ ، وـرـسـمـ لـهـ رـسـمـاـ اـحـتـدـىـ عـلـيـهـ مـنـ حـلـفـهـ ، وـاسـتـمـمـ مـنـ غـيـرـهـ .

[٣ - ابراهيم الموصلي يتم علم الفتنه]

وكان إسحاق بن ابراهيم الموصلي أول من حدا خلته ، وامتلأ هذبه ، واجتمـعـ لهـ فيـ ذـلـكـ آـلـاتـ لمـ تـجـتـمـعـ لـلـخـلـيلـ بنـ أـحـمـدـ قـبـلـهـ ، مـنـهـ مـعـرـفـتـهـ بالـغـنـاءـ ، وـكـثـرـةـ اـسـتـمـاعـهـ إـيـاهـ وـعـلـمـهـ بـخـصـيـصـهـ منـ قـيـحـهـ ، وـصـحـيـحـهـ مـنـ سـقـيمـهـ .

وـمـنـهـ جـذـفـهـ بـالـضـرـبـ وـالـإـيقـاعـ ، وـعـلـمـهـ بـوزـنـهـ . وـأـلـفـ فيـ ذـلـكـ كـبـيـراـ مـعـجـبـةـ ، وـسـهـلـ لـهـ فـيـهـ مـاـ كـانـ مـسـتـصـبـيـاـ عـلـىـ غـيـرـهـ ، فـصـنـعـ الفتـنـاءـ بـعـلـمـ فـاضـلـ ، وـجـذـقـ رـاجـعـ ، وـوـزـنـ صـحـيـحـ ، وـعـلـىـ أـصـلـ مـسـتـحـكـمـ لـهـ دـلـائـلـ صـحـيـحةـ وـاضـحةـ ، وـشـوـاهـدـ عـادـلـةـ . وـلـمـ تـرـ أـحـدـ وـجـدـ سـيـلـاـ إـلـىـ الطـعنـ عـلـيـهـ . والـعـيـبـ لـهـ .

وصنع كثيرون من أهل زمانه أغاني كبيرة بهاجس طبعهم والاتّباع لمن سبّهم ، ف بعض أصاب وجّه صوابه ، وبعض أخطأ ، وبعض قصر في بعض وأحسن في بعض .

[٤ - طبقات المغنين في عصر العاجظ]

ووجدنا لكل دهر دولة للمغنين يحملون الغناء عنهم ، ويُطاردون به فتىان زمانهم ، وجواربي عصريهم . وكان يكرون في كل وقت من الأوقات قوماً يتندمون ، ويستحسنون الغناء ، ويميزون رديء من جيده ، وصوابه من خطائه ، ويجمعون إلى ذلك محسّنات كثيرة في آدابهم وأخلاقهم ، وروائعهم وهباتهم ، فلم نجد هذه الطبقة ذكرها . ووجدنا ذكر الغناء وأهله باقياً .

وخصصنا في أيامنا وزماننا بفتية أشراف ، وخلاقين بذوق ، انتظم لهم من آلات الفتّة وأسباب المروعة ما كان محجوراً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملني الكلف والمسودة لهم والسرور بتحليل فخرهم وتشيد ذكرهم والحرض على تقويم أودي الأود منهم حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته ، والفضل في معرفته ، على غيّر طبقة [عل] طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم ، والآلةم وأدواتهم ، والمذاهب التي تسبوا إليها أنفسهم ، واحتلّهم إخوانهم عليها . وخلطنا جداً بهؤلئة ، ومزجنا تقريراً بتعريفهم ، ولم نرّد بأحدٍ ممن سمعنا سورة ، ولا تعهدنا نقداً ولا تجاوزنا حداً .

ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً وحائينا آخرين . ولم نفعل ذلك ؛ تجباً للحيف ، وقدراً للإنصاف . وقد نعلم أنَّ كثيراً منهم سيعالج في الندم ، ويحتفل في الشتم ، وينذهب في ذلك غير مذهبنا .

وما أيسَ ذلك فيما يجب من حقوق الفتيان وتفكيرهم ، والله حبيب من ظلم ، عليه نتكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نقصد في وصف مَنْ وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم ، إلَّا لمن أذرُكنا من أهل زماننا مُمْنَ حصل بعِدِيَّةِ السَّلَام ، إِذَا مَنْ خَرَجَ عَنْهَا وَنَزَعَ إِلَى الْفَتْوَةِ بَعْدِ التُّسْوِيَّةِ ، وَالَّتِي أَخْلَاقُ الْخَدَائِيَّةِ بَعْدِ الْحُكْمَكَةِ ، وَذَلِكَ فِي سَنَةِ خَمْسَ عَشَرَةِ وَمَائَتَيْنِ . فَرَحْمَ اللَّهُ أَمْرًا أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ أَمْرَنَا ، وَحَدَّا فِيهِ حَدُونَا ، وَلَمْ يَعْجَلْ إِلَى ذَمْنَا ، وَدَعَا بِالْمُغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ لَنَا .

[٥ - طريقة تأليف الكتاب]

وَقَدْ تَرَكَنَا فِي كُلِّ بَابٍ مِنَ الْأَبْوَابِ الَّتِي صَنَفْنَا فِي كَابِنَا ، فَرْجًا لِرِزَادَةِ إِنْ زَادَتْ ، وَلَا حَقَّةً إِنْ لَحَقَتْ ، أَوْ نَابِتَةً إِنْ نَبَتْ . وَمَنْ عَسَى أَنْ يَسْتَقْلَ بِهِ الْجَلْقَى مِنْ مَرْتَبَتِهِ إِلَى مَا هُوَ أَعْلَى مِنْهَا ، أَوْ يَعْجِزُ بِهِ الْفَصُورَ عَمَّا هُوَ عَلَيْهِ مِنْهَا إِلَى مَا هُوَ دُونَهَا ، إِلَى مَكَانِهِ الَّذِي إِلَيْهِ نَقَلَهُ ارْتِفَاعُ درْجَةٍ أَوْ انْحِطَاطُهَا ، وَمَنْ لَعْنَا نَصِيرٌ إِلَى ذَكْرِهِ مِنْ غَرَبٍ عَنْ ذَكْرِهِ ، وَأَنْسِنَا اسْمَهُ ، وَلَمْ يُحِظْ عَلَمْنَا بِهِ ، فَنَصِيرُهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَتُلْجِئُهُ بِأَصْحَابِهِ .

وَلِيُسْ لَأَحَدٍ أَنْ يَشْتَتِ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ إِلَّا بَلَّمْنَا ؛ وَلَا يَسْتَبِدُ بِأَمْرٍ فِي دُونَنَا . وَيُورُدُ ذَلِكَ عَلَيْنَا فَنَمْتَحِنُهُ ، وَتُعْرَفُهُ بِمَا عَنْهُ ، وَيُصِيرُ إِلَى تَرْتِيبِهِ فِي الْمَرْتَبَةِ الَّتِي يَسْتَحْقُهَا ، وَالْطُّبْقَةِ الَّتِي يَحْتَلُّهَا .

[٦ - الاحتياط من العيب]

فَلَمَّا اسْتَبَّ لَنَا الْفَرَاغُ مَا أَرَدَنَا مِنْ ذَلِكَ خَطَرَ بِيَالِنَا كَثْرَةُ الْعَيَّابِينَ مِنَ الْجَهَالِ بَرْبِ الْعَالَمِينَ ، فَلَمْ نَأْمِنْ أَنْ يَسْرِعُوا بِسُفْهِ رَأْيِهِمْ وَنَحْنُ أَحْلَامُهُمْ إِلَى نَفْسِ كَابِنَا وَتَبْدِيلِهِ ، وَتَحْرِيفِهِ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَإِزَالَتِهِ عَنْ أَماَكِنَهُ الَّتِي عَلَيْهَا رَسَّمْنَا ، وَانْ يَقُولُ كُلُّ امْرَىءٍ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى حَالِهِ ، وَيَقْدِرُ هُوَاهُ وَرَأْيُهُ ،

وموافقته ومخالفته ، والميل في ذلك إلى بعض ، والذِّم لطبة والحمد
لآخر ، فيهجّنوا كتابنا ، ويُلحقوا بنا ما ليس من شأننا .

وأحبينا أن نأخذ في ذلك بالحزن ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمّه
كتابنا ، ونبادر إلى تفريغ نسخ منها وتصييرها في أيدي الثقات والمستصرين ،
الذين كانوا في هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه ، صالح بن
أبي صالح ، وأحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة .

فعملنا ذلك وصيّرناه أمانة في أعقابهم ، ونسخة باقية في أيديهم ، ووثقنا
بهم أمانة ومستودعين وحافظة غير مضيّعين ولا متّهمين . وعلمنا أنهم لا يدعون
صيانة ما استودعوا ، وحفظ ما عليه ائْتمنوا .

فإن ثبّت به شوبٌ يُخالفه ، وأضيف إليه مالا يلائم ، رجعنا إلى
النسخة المنصوبة ، والأصول المخلدة عند ذوي الأمانة والثقة ، واقتصرنا
عليها ، واستعملنا بها على المبطلين ، ودفعنا بها إدغال المُذَعْلين ، وتحرير
المحرفين ، وتزييد المترددين ، إن شاء الله .

ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

٧ - هامش كتاب طبقات المغنين

(١) الكتاب يخلو من المقادمة التقليدية التي عهدها في مؤلفات الجاحظ كالدعوة الى الهدى والسلامة والتوفيق الخ . . .

- الفلسفه : هم الذين تقدمو في الحكمة واحتاطوا بمعرفة الامور .

- الأداب : تتفرع منها العلوم . الفلسفه كانوا يجعلون الفلسفه ام العلوم ومنها تتفرع . ولكن هنا تحمل لفظة الأداب محل الفلسفه وتعتبر الأصول التي تتفرع منها العلوم . الخلط ظاهر بين المفهومين .

(٢) الخليل البصري : هو الخليل بن احمد الفراهيدي الذي وضع اسس علم الموسيقى العربي ، واكتشف علم العروض ، واسهم في بناء علم النحو وعلم المعاجم . عاش في البصرة وتوفي فيها سنة ٧٨٦ م .

(٣) اسحق بن ابراهيم الموصلي قلد الخليل واكمel علم الموسيقى والغناء . نشأ ومات في بغداد (٧٧٢ - ٨٥١ م) ونادم الخلفاء . وترك عدة كتب في الموسيقى والأدب .

(٤) طبقات المغنين في عصر الجاحظ وفي بغداد يقسمون الى فئتين . فئة تركت الغناء ونابت بذكر منهم ثلاثة هم صالح بن ابي صالح ، واحمد بن سلام ، وصالح مولى رشيدة . وفئة لا تزال تمارس الغناء وهم فتية يعطى عليهم الجاحظ ولكنه لم يذكر هنا احداً منهم .

(٥) طريقة تأليف الكتاب ليست جديدة على الجاحظ فقد اتبعها في البيان والتبيين . او خطط لها ولكن لم يتقيد بها نظراً لميله الى الاستطراد .

(٦) خوف الجاحظ من العبابين الذين يسفهون كتابه او يسرعون الى نقضه وتحريفه
عن مواضعه هو الذي حداه على ابداع نسخ يرجع اليها لدى حدوث ذلك .
هذا التدبير يشير العجب ويدعو الى الشك في صحة ما وصلنا من الكتاب ذاته .

- ٨ -

الوکلاء



لهم إني أسألك سلامك

[١ - المقدمة]

فصل منه : وَفَكَ اللَّهُ لِلْطَّاعَةِ ، وَعَصَمَكَ مِنَ الشُّبُهَةِ ، وَأَلْجَكَ
بِالْحُجَّةِ ، وَخَتَمَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ .

[٢ - يحب التثبت في الأمور]

غَيْرَتْ - أَصْلَحَكَ اللَّهُ - أَزْمَانَ وَأَنْتَ عِنْدِي مَمْنُونٌ لَا يُمْضِي الْقَوْلُ إِلَّا بَعْدِ
الثَّبْتِ ، وَلَا يُخْرِجُ الْكِتَابَ إِلَّا بَعْدِ التَّصْفُحِ ، وَكُنْتَ خَرِيقًا بِتَهْبِيَةِ الرَّأْيِ الْفَطِيرِ ،
جَدِيرًا أَنْ تُعْلِمَ بِنَفْسِكَ عَاقِبَةَ التَّفْرِيطِ . وَلَوْلَا كَثْرَةُ مُرُورِ أَيَّامِ الْمُطَالَبَةِ عَلَيْكَ لِمَا
تَقَلَّ عَلَيْكَ الثَّبْتُ ، وَلَوْلَا قَصْرُ أَيَّامِ التَّحصِيلِ لِمَا وَقَتَتْ بِأَوْلِ خَاطِرِ ، وَلَوْلَا
سُوءُ الْعَادَةِ لِمَا كَذَبَكَ رَائِدُ النَّظَرِ وَأَتَهِمَتَ الرَّأْيِ .

[٣ - ينبغي عدم الانقياد مع الهوى]

وَأَعْتَرَامُ الغَضْبَانِ يُهُمُّ الْأَعْمَارِ ، فَإِنَّ الغَضْبَانَ أَسْوَأُ أَثْرًا عَلَى نَفْسِهِ مِنْ

لشکران ، ولو لا أن نار الغضب تخبر قبل إفاقه المعتوه ، وضباب السكر يكشف قبل انکشاف غروب عقل المذله ، وأن حكم الطاعن خلاف حكم المقيم ، وقضية المختار خلاف قضية الماکث ، لکانت حال الغضبان أسوأ مغبة ، وجهلة اوبا ، على أن الحكم له ألزم والناس له ألم .

وما أكثر ما يُقحم الغضب المقامح التي لا يلتفها جنابة الجنون ، وفترط جهل المضروع .

فصل منه : وإن الغمر لا يكون إلا عديم الآلة ، منقطع المادة ، يرى الغيّ رُشدًا وانفلو قصداً . فلو كنت إذا جئت لم تُقم على الجنابة ، وإذا عزمت على القول لم تخلد في الكتب ، وإذا خلدت لم تُظهر التبُّج به ، والاستبصار فيه ، كان علاج ذلك أيسَرْ ، وكانت أيام سقمك أقصَرْ .

فأنجزى الله التصميم إلا مع الحزم ، والاعتزام إلا بعد التثبت والعلم إلا مع القريبة المحمودة ، والنظر إلا مع استقصاء الروية .

وأخلق بمن كان في صفتك ، وأخِر بمن جرى على ذَرْبك ، إلا يكون سبب تسرُّعه ، وعلة تشحُّذه إلا من ضيق الصدر .

وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر . فقد صَحَّ الان أن سعة الصدر أصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع .

[٤ - ينفي الاحتراز من اصدار الاراء الفطرية]

وقد رأيتك - حفظك الله - خوئت جميع الوکلاته وفجّرتهم ، وشنئت على جميع الوراقين وظلّلتهم ، وجمعت المعلمين وهجرتهم ، وحافظت مساوئهم ، وتناسبت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة ، حتى صوب نفسك عند السامع لكلامك ، والقاريء كتابك ، أئنك من ينكر الحق جهلا ،

أو يتركه معاندة له . وقد علم الناس أنَّ من تركه جهلاً به أصغر إيماناً من تركه عمداً .

ولعمري إنَّ العلم لقطع يديك ، والمتصرُّف مع خواطرك ، والمستملي من بديهتك ، كما يستملي من ثمرة فكرك ، والمحصل من روْشك . ولكن الرأي لك أن لا تدق بما يرسمه العلم في الخلاء ، وتتوقف في الملاه .

اعلم أنك متى تقررت بعلمك استرسلت إليه . ومتى اشتملت على نفسك نواجه خواطرك ، فقد أملكَت العدو من رقبة عنفك . وبنية الطائع وتركيب النفس ، والذي جرَّت عليه العادة ، إهمال النفس في الحال ، واعتقالها في الملاه .

فتوقفت عند العادة ، وأتهم نفسَك عند الاسترسال والثقة . قال ابن هرمة :

إِنَّ الْحَدِيثَ تَفَرُّ الْقَوْمَ حَلْوَهُ حَتَّى يَكُونَ لَهُ عَيْنٌ وَإِكْثَارٌ

وَبَشِّنَ الشَّيْءَ الْعَجِيبَ ، وَحُسْنَ الظُّنُونَ بِالْبَدِيهَةِ !

واعلم أنَّ هذه الحال التي انتصفيها لشأنك هي أئمَّةُ المدعى ، ونهضة الخضم ، ومتى أبرزت كتابك على هذه الصُّورة وأفرغته هذا الإفراغ ، ثم سبَّكته هذا السُّبك ، فليس بعده حاجة إلى التكذيب عليك ، وقول الزور فيك ، لأنك قد مكنته من عرضك ، وحُكِّمْتَ في نفسك .

وبعد : فمن يعجز عن عيب كتاب لم يحرس بالثبت ، ولم يُعْضَن بالتصفح ، ولم يُغْبَّ بالمعاودة والنظر ، ولم يُقلَّب فيه الطرف من جهة الإشافي والحدى . فكيف يوقن اللهُ الواثق بنفسه ، والمستبدُ برأيه لأدب ربِّه ، ولما وضَّى به نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ [حين قال لرجلٍ خاصٍّ عنه رجلٌ فقال في بعض كلامه : حسبي الله] فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] : « أَبْلَى اللَّهُ »

من نفسك عذراً ، فإذا غلبت أمر فقل : حسبي الله .
 وزعمت في أول تشبيعك عليهم ، فقلت : قال يعقوب بن عبيد لبعض
 ولده حين قال له في مرضه : أي شيء تشتئ ؟ قال : كبد وكيل .
 وقد كان ترك التجارة من سوء معاملتهم وفحش خبائثهم .

[٥ - لا ينبغي تعليم الحكم على جميع الوكلاء]

فصل منه : قد فهمنا عذرك وسيمّعنا قولك ، فاسمع الآن ما نقول :

اعلم أنَّ الوكيل ، والأجير ، والأمين ، والوصي ، في جملة الأمر ،
 يحررون مجرى واحداً . فليُبشِّرَ لك أنَّ تقضي على الجميع بإمساك البعض . ولو
 بشرجنا جميع الوكالء وخرؤنا جميع الأبناء ، وأنهمنا جميع الأوصياء
 وأسقطناهم ، ومنعنا الناس الارتفاق بهم ، لظهورت الحلة وشاعت المعجزة ،
 وبطلت العقد وفقدت المستغلات ، واضطربت التجارات ، وعادت النعمه بلية
 والمغونة جرماناً ، والأمر مهملاً ، والمعهد مريجاً .

ولسو أنَّ التجار وأهل الجهاز صاحبوا الجمالين والمكابرين والملأحين ،
 حتى يعاينوا ما نزل بأموالهم في تلك الطرق والمياه ، والمسالك والخانات ،
 لكان عسى أن يترك أكثرهم الجهاز .

فصل منه : وقد قال الله عز وجل : « الرِّجَالُ قَوْمٌ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا
 نَصَلَ اللَّهُ بِعَصْمَهُمْ عَلَى بَعْضِهِمْ » ، وقال : « فَإِنَّ أَنْتُمْ مِنْهُمْ رُشَدًا فَإِذَا قَعَدُوا
 إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ » و قال : « وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلَيَسْتَغْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلَيَأْكُلْ
 بِالْمَعْرُوفِ » .

وقال يوسف النبي صلى الله عليه وسلم لفرعون وفرعون كافر :

﴿ اجعلني على خزانت الأرض إني حفيظ علیم ﴾ .

وقالت بنت شعيب في موسى بن عمران : ﴿ يا أبتي استأجرة إنَّ خيرَ مَنْ استأجرتِ القويُّ الأمينُ ﴾ : فَجَمِعَ جَمِيعَ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي الْكَلْعَتَيْنِ .

وفي قياسك هذا إسقاطٌ جَمِيعٌ مَا أَذْبَنَا اللَّهُ بِهِ ، وَجَعَلَهُ رِبْطًا لِّمَرَاشِدِنَا فِي دِيَنَا ، وِنِظَامًا لِّمَصَالِحِنَا فِي دِنِيَا .

وَالَّذِي يَلْزَمُنِي لَكَ أَنْ لَا أُعْنِمَ بِالْبَرَاءَةِ ، وَالَّذِي يَلْزَمُكَ أَنْ لَا تَعْنِمَ بِالْتَّهِمَةِ ، وَأَنْ تَعْلَمَ أَنَّ نَفْعَهُمْ عَامٌ ، وَخَيْرَهُمْ خَاصٌ .

وَقَالُوا : مَثُلُّ الْإِمَامِ الْجَائِرِ مَثُلُّ الْمَطَرِ ، فَإِنَّهُ يَهْبِطُ عَلَى الْفُضَيْفِ ، وَيَمْسِعُ الْمَسَافَرَ .

وَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - « حَوَّلَنَا وَلَا عَلَيْنَا » .
وَالْمَطَرُ إِنْ أَفْسَدَ بَعْضَ الثَّمَارِ ، وَأَصْرَرَ بَعْضَ الْأَكْرَةِ فَإِنَّ نَفْعَهُ غَامِرٌ لِضَرِرِهِ .

وَلِيُّسْ شَيْءٌ مِّنَ الدُّنْيَا يَكُونُ نَفْعَهُ مَحْضًا ، وَشَرُّهُ مِسْرَفًا . وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ الْجَائِرُ ، وَإِنْ أَسْتَأْنِرَ بِعَضَ الْفَقِيهِ ، وَعَطَّلَ بَعْضَ الْحُكْمِ ، فَإِنَّ مَضَارُهُ مَغْمُورَةٌ بِمَنَافِعِهِ .

قَالُوا : وَكَذَلِكَ أَمْرُ الرُّوكَلَاءِ وَالْأَوْصِيَاءِ وَالْأَمْنَاءِ ، لَا تَعْلَمُ قَوْمًا شَرُّهُمْ أَعْنَمْ وَلَا بَيْنُهُمْ فَيْحَشُّ فِيهِمْ أَكْثَرُ مِنَ الْأَكْرَةِ ، وَمَا يَجُوزُ لَنَا مَعْ هَذَا أَنْ نَعْنِمَ بِالْحُكْمِ مَعَ إِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهِمْ شَدِيدَةٌ ، وَتَنَزَّعُ هَذِهِ الْعَادَةُ [وَهَذَا] الْحُلْقَى مِنْهُمْ أَشَدُّ .

فَصَلَّى مِنْهُ : وَإِنَّا أَظَنَّ أَنَّ الذَّنْبَ مَقْسُومٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ وَكَلَّاتِكَ . فَارْجِعْ إِلَى نَفْسِكَ فَلَعْلَكَ أَنْ تَرَى أَنَّكَ إِنْمَا أَبْيَتَ مِنْ قَبْلِ الْفِرَاسَةِ ، أَوْ مِنْ قَبْلِ أَنْكَ لَمْ تَنْقُطْ لَهُمُ الْأَجْرَةُ السَّنِيَّةُ ، وَحَمَلْتُهُمْ عَلَى خَاتَمِ الْمَسْئَةِ فِي أَدَاءِ الْأَمَانَةِ وَتَمَامِ

[٦ - لَا بدَّ من صحةِ الفراسةِ في معرفةِ الرجالِ]

فصل منه : ولا بدُّ في بابِ البصَرِ بجواهِرِ الرِّجالِ من صدقِ الحِسْنِ ،
ومن صحةِ الفراسةِ ، ومن الاستدلالِ في البعضِ على الكلِّ ، كما استدلَّ
بنُتْ شعيبٍ - صلواتُ اللهِ عليهِ - حين قضتْ لموسى - عليهِ السَّلامُ بالأمانةِ
والقوَّةِ ، وهوَ الرُّكَانُ اللَّذانِ تُبْنَى عَلَيْهِما الِوكَالَةُ .

[٧ - خطر قولِ « ما تركَ الأولَ للآخرَ شيئاً »]

فصل منه : وقد قالوا : ليس مما يستعمل الناسُ كلمةً أضرَّ بالعلمِ
والعلماءِ ، ولا أضرَّ بالخاصةِ والعمامةِ ، من قولِهم : « ما تركَ الأولَ للآخرَ
شيئاً » .

ولو استعملَ النَّاسُ معنى هذا الكلامَ فتركوا جميعَ التَّكْلُفَ ، ولم يتعاطُوا
إلا مقدارَ ما كانَ في أيديهم لفقدوا علمًا جمَّا ومرافقًا لا تُحصَى ، ولكنَّ أَنَّ
اللهُ إِلَّا أَنْ يَقْسِمَ يَعْمَمَ بينَ طبقاتِ جمِيعِ عبادِهِ قِسْمَةَ عَدْلٍ ، يُعطِي كُلُّ فَرِينَ
وكلِّ أُمَّةٍ حِصْنَتَهَا ونَصِيبَهَا ؛ على تمامِ مَرَاشِدِ الدِّينِ ، وكمالِ مصالحِ الدِّنيَا .

فهؤلاءِ ملوكُ فارسٍ نزلُوا على شاطئِ الدُّجلةِ ، من دونِ الصُّرَاةِ إلى فوقِ
بغدادِ ، في القصورِ والبساتينِ ؛ وكانوا أصحابَ نَظَرٍ وفَكْرٍ ، واستخراجِ
واستنباطِ ، من لِذْنِ أَرْذَشِيرِ بْنِ بَابِكَ إلى فِرْوَادِ بْنِ يَزَجِرَهِ .

وقبيلَ ذلكَ ما نَزَلُوا ملوكُ الأَشْكَانِ ، بعدِ ملوكِ الْأَرْدَوَانِ .

فهل رأيتم أحداً اتَّخَذَ حَرَاقَةَ ، أو زَلَّةَ ، أو قَارِبَةَ !؟

وهل عرفوا المُخْبِشَ مع حَرَّ الْبَلَادِ ووَقْعَ السُّومِ !؟

وهل عرفوا الجِمَازاتِ لأسفارهم ومتّهاتهم !؟

وهل عرف فلائحهم الشّمار المطعمة ، وغراس النخل على الْكُرَدَاتِ
المسطّرة ؟ .

وأين كانوا عن استخراج فُوه العَصْفُرِ ؟ وأين كانوا عن تفليق الدُّورِ
والْمُدَنِ ، وإقامة ميل الحيطان والسواري المائة الرؤوس ، الرفيعة السُّموكِ
المركبة بعضها على بعض !؟

وأين كانوا عن مراكب البحر في مُتارسة العدو الذي في البحر ، إن طارت الْبُوارج أدركَهَا ، وإن أكرهتها فاتتها بعد أن كان القوم أسرى في بلاد
الهند ، يتحمّمون عليهم ويتلّعون بهم ؟

وأين كانوا عن الرُّومي بالنيران !؟

نعم ، وكانوا يُخذّلون الأحصار وينفقون عليها الأموال ، رجالهم دسم
العمائم ، وسخنة القلانس ، وكان الرُّجُلُ منهم إذا مر بالمعطار ، أو جلس إليه ،
فأراد كرامته دهن رأسه ولحيته ، لا يحتشم من ذلك الكبير ، وكان أهل البيت
إذا طبخوا اللّحم غرقوا للحجارة غرفة غرفة .



مَسْكُونَةُ الْمَلَائِكَةِ

٨ - هامش كتاب الوكلاء

- (١) افلجح بالحججة او افلحك بالحججة : يراد به منحك الحجة والبيبة في اعمالك .
ـ التثبت : التحقيق .
- (٢) التصفح : المراحة واعادة النظر ، وتقليله .
ـ الرأي الفطير: الرأي الفرع الذي لم يتضمن .
ـ (٣) يهور : ينلف ، يقضى .
ـ الغمر : الجاهل ، وعديم التجربة او الخبرة .
- (٤) العلم طوع يديك والمتصرف مع خواطرك : يراد به انه من صنعك .
ـ الملا : الجميع من الناس .
ـ نهزة : المناسب الموافقة للغاية .
- (٥) ايش لك : تحفيف لتكلمتين : اي شيء . مثل ويلمه بذل ويل لامه .
ـ العقد : العقود ، الانفاقات .
- (٦) « ولا بد ... ومن الاستدلال في البعض على الكل » هذا ينافي كل ما قاله
المجاهظ في الفقرة السابقة من عدم تعميم الحكم . ويبدو ان بعض التحرير في
اجزاء العبارة ادى الى ان يكون معناها منافقاً لمعنى الفقرة السابقة .
- (٧) التكلف : لا يراد بها التصنيع ، بل تحمل الكلفة والمشقة او التعب في سبيل
البحث والاستبيان .

- ملوك الاشكان بعد ملوك الاردوان : طائفتان من ملوك الفرس حكموا بعد اجتياح الاسكندر ايران وموافقة منه .
- حرافة ، زلاله : نوعان من السفن السريعة الحركة .
- العنيش : باب وقحة من الكتان .
- الجمازات : الابل .
- الكردات : القنوات التي تجري بها المياه بين المزارع .

- ٩ -

مدح التجار وذم عمل السلطان



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

[١ - مقدمة]

نصل منه : أَدَمَ اللَّهُ لَكَ السُّلَامَةَ ، وَأَسْعِدَكَ بِالْغُمَّةَ ، وَخَتَمَ لَكَ
بِالسُّعَادَةِ ، وَجَعَلَكَ مِنَ الْمَازِرِينَ .

فَهِمْتُ كِتَابَ صَاحِبِكَ ، وَوَقَفْتُ مِنْهُ عَلَى تَعْدُدٍ فِي الْقَوْلِ ، وَحِيقَبِ فِي
الْحَكْمِ ؛ وَسَمِعْتُ تَوْلَهُ . وَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ حَانِثٌ ، وَطَرِيقُهُ طَرِيقُهُمْ ، وَكُتُبُهُ
تُشَاكِلُ كُتُبَهُمْ ، وَالْفَاظُهُ نُطَابِقُ الْفَاظُهُمْ .

وَكَذَلِكَ حَالُنَا وَحَالُ صَاحِبِ كِتابِكَ فِيمَا يَسْخَطُهُ مِنْ أَمْرَنَا ، أَنَّنِي لَا أَعْتَدُ
مِنْهُ ، وَأَسْتَكِفُ مِنَ الْاِنْتِسَابِ إِلَيْهِ ، بِلَ أَسْتَبِي مِنَ الْكِتَابَةِ ، وَأَسْتَكِفُ بِأَنَّ
أَنْسُبُ إِلَيْهَا مِنَ الْبَلَاغَةِ أَنْ أَعْرَفُ بِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، وَمِنَ السُّجُوعِ أَنْ يَظْهُرَ
مِنِّي ، وَمِنَ الصُّنْعَةِ أَنْ تُعْرَفَ فِي كِتَبِي ، وَمِنَ الْعُجْبِ بِكَثِيرٍ مَا يَكُونُ مِنِّي .

وَقَدِيمًا كَرِهَ ذَلِكَ أَهْلُ الْعَرْوَةِ وَالْأَنْفَةِ ، وَأَهْلُ الْاِخْتِيَارِ لِلصُّوَابِ وَالصُّدُّ
عَنِ الْخَطِإِ ، حَتَّى إِنْ مَعاوِيَةً مَعَ تَخْلُفِهِ عَنِ مَرَاتِبِ أَهْلِ السَّابِقَةِ ، أَمْلَى كِتابًا
إِلَى رَجُلٍ فَقَالَ فِيهِ : « لَهُوَ أَهْرَوْنٌ عَلَيَّ مِنْ ذَرَّةٍ ، أَوْ كَلْبٌ مِنْ كِلَابِ الْحَرَّةِ » نَمِ
قَالَ : « امْحُ : مِنْ كِلَابِ الْحَرَّةِ ، وَاَكْتُبْ : مِنَ الْكِلَابِ » . كَانَهُ كَرِهَ اِنْصَالَ

الكلام والمزاوجة وما أشبة السُّجْعَ ، وأرى أنه ليس في موضعه

[٢ - فضيلة التجار]

فصل منه : وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان . فأمسا عليهم ومصالحهم ، وذرو البصائر والتميز منهم ، ومن فتقه الفطنة ، وأرهقه التأديب ، وأرهقه طول الفكر وجسرى فيه الحياة وأحكمته التجارب ، فعرف العوائق وأحکم التفصيل وتبسط غواص التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلة التجار ويتمنون حاليهم ، ويحکمون لهم بالسلامة في الدين ، وطيب الطعم ، ويعلمون أنهم أودع الناس بذنبًا وأهنتهم عيشاً ، وآمنهم برباً ، لأنهم في أفنائهم كالملوك على أسرارهم ، يرحب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملنسو اليساعات ، لا تلحظهم الذلة في مكاسبهم ، ولا يستبعدهم الضرع لمعاملاتهم .

[٣ - ذل رجال السلطان]

وليس هكذا من لابس السلطان يتفقىء ، وقاربه بخدمته ؛ فإن أولئك ليس لهم الذلة ، وشعارهم الملائكة ، وقلوبهم ممن هم خوال مسلوقة ، قد ليس بها الرعب ، وإنها الذلة ، وصاحبها ترقب الاحتياج ؛ فهم مع هذا في تكثير وتغليس ، خوفاً من سطوة الرئيس وتكليل الصاحب ، وتغيير الدول ، واعتراض حلول المحن . فإن هي حللت بهم ، وكثيراً ما نحلل ، فناهيك بهم مرحومين يرقى لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء .

فكيف لا يميز بين من هذا ثمرة اختياره وغاية تحصيله ، وبين من قد نال الرفاهية والذلة ، وسلم من البوائق ، مع كثرة الإثراء وقضاء اللذات ، من غير مبنية لأحد ، ولا مئة يعتذر بها رئيس ومن هو من نعم المفضلين خلي ، وبين

من قد استرقه المعروف ، واستعبده الطَّمَع ، ولزمه نقل الصُّنْبِعَة ، وطوق عنقه
الامتنان ، واسترهن بتحمل الشُّكْر .

[٤ - شهرة قريش بالتجارة]

فصل منه : وقد علِمَ الْمُسْلِمُونَ أَنَّ خِبْرَةَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ خَلْقِهِ ، وصَفْيَهِ
مِنْ عِبَادِهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ عَلَى وَخِيهِ ، مِنْ أَهْلِ بَيْتِ التَّجَارَةِ ، وَهِيَ مَعْوِلُهُمْ وَعَلَيْهَا
مُعْتمَدُهُمْ ، وَهِيَ صِنَاعَةُ سُلْفِهِمْ ، وَبِهِرَةُ خَلْفِهِمْ .

ولقد بلغتك بِسَالْتُهُمْ ، وَوَجَّهْتُ لَكَ جَلَادَتُهُمْ ، وَنَعْتَ لَكَ أَحْلَامَهُمْ ،
وَنَقْرَرْتُ لَكَ سَخَاوَهُمْ وَضِيَافَتُهُمْ ، وَبَذْلَهُمْ وَمُوَاسَاتُهُمْ . وَبِالْتَّجَارَةِ كَانُوا يَعْرَفُونَ .
ولذلك قالت كامة اليمن « اللَّهُ دُرُّ الدِّيَارِ لِقَرِيشِ التَّجَارِ » .

وليس قولهم : قرشيٌّ كقولهم : هاشميٌّ ، وَزَهْريٌّ وَتَمِيٌّ ، لأنَّه لم يكن
لهم أَبٌ يَسْئَلُ قُرِيشًا فَيَتَبَسَّونَ إِلَيْهِ ، وَلَكُنَّ اسْمَ اشْتَقُّ لَهُمْ مِنَ التَّجَارَةِ
وَالْتَّقْرِيشِ ، فَهُوَ أَفْخَمُ أَسْعَانِهِمْ وَأَشَرَّفُ أَنْسَابِهِمْ ، وَهُوَ الْاسْمُ الَّذِي نَوَّهَ اللَّهُ
تَعَالَى بِهِ فِي كِتَابِهِ ، وَخَصَّهُمْ بِهِ فِي مُحْكَمٍ وَحِيدٍ وَتَنْزِيلِهِ ، فَجَعَلَهُ قُرَآنًا عَرَبِيًّا
يُتَلَى فِي الْمَسَاجِدِ ، وَيُكَتَّبُ فِي الْمَصَاجِفِ ، وَيُجَهَّرُ بِهِ فِي الْفَرَائِضِ ، وَحُسْنَةُ
عَلَى الْحَبِيبِ وَالْخَالِصِ .

ولهم سُوقٌ عَكَاظٌ ، وَفِيهِمْ يَقُولُ أَبُو ذُؤْبٍ :

إِذَا ضَرَبُوا الْقِبَابَ عَلَى عَكَاظٍ وَقَامَ الْبَيْعُ وَاجْتَمَعَ الْأَلْوَثُ

وَقَدْ غَيْرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ تَاجِرًا ، وَشَخَصَ فِيهِ
سَافِرًا ، وَبَاعَ وَاشْتَرَى حَاضِرًا ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ حِيثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .

ولم يَقْسِمْ اللَّهُ مَذْهَبًا رَضِيًّا ، وَلَا خَلْقًا زَكِيًّا وَلَا عَمَلاً مَرْضِيًّا إِلَّا وَحْظَهُ مِنْ
أَوْفَ الْحَظْوَنَ ، وَقَسَمَهُ فِيهِ أَجْزَلُ الْأَقْسَامِ .

ولشهرة أمره في البيع والشراء قال المشركون : « مَا لَهُدَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ
الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ » ، فأوحى الله إليه : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكُمْ مِنَ
الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ » . فأنجيز أن الأنبياء
قبله كانت لهم صناعات وتجارات .

[٥ - التجار لا تدعوهم العلوم]

فصل منه : وإن الذي دعا صاحبكم إلى ذم التجارة توهنه بقلة تحصيله ،
انها تنقص من العلم والأدب وتقطع دونهما وتمتنع منها . فرأى صنيف من
العلم لم يبلغ التجار فيه غاية ، أو يأخذوا منه بتصيب ، أو يكونوا رؤساء أهليه
وعليتهم !

هل كان في التابعين أعلم من سعيد بن المسيب أو أثيل ؟ وقد كان تاجراً
بيع ويشتري ، وهو الذي يقول : ما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم والله
ولا أبو بكر ، ولا عمر ، ولا عثمان ، ولا علي - رضوان الله عليهم - قضاء إلا
وقد علمته .

وكان أعتبر الناس لرؤيا وأعلمهم بآنساب قريش ، وهو من كان يُتفقى
 أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوافرون . وله يُعذّد علم بأخبار
الجهالية والإسلام ، مع خشوعه وشدة اجتهاده وعبادته ، وأمره بالمعروف ،
وجلالته في أعيان الخلفاء ، وتقديره على الجبارين .

ومحمد بن سيرين في فقهه وزرعه وظهوره .

ومسلم بن يسار في علمه وعبادته ، واستعجاله بطاعة ربّه .

وأبيُّ السختياني ، ويونس بن عبيد ، في فضلهم وورعهما .

٩ - هامش كتاب مدح التجار وذم عمل السلطان

- (١) السجع : اتفاق اللفظ في آخر الجمل بالحرف الواحد . وقد اعطى مثلاً عليه كلام معاوية « لهر اهون علي من ذرة ، او كلب من كلاب العرفة » . ينفي عن نفسه تهمة الاهتمام به او تكلفه .
- (٢) الحشوة : العامة والطبة السفلية يقابلها العالية .
تبطن الامر : تعمق فيه .
الطعممة : الكسب .
- الضرع والتضرع = الخضوع والاستكانة .
الاقنية جمع فناء : البيت .
- (٣) لابس : قاربه ولصق به كاللباس الذي يلتصق بالجسم .
- (٤) فريش : مشتقة من قرش ونقرش تقرشاً اي حسب الفروش وجمعها .
- سوق عكاظ : سوق عامّة كانت تقام في الجاهلية في الجزيرة العربية للتجارة وفرض الشعر ، تقع قريباً من مكة ، وتندوم شهراً .
يمشي في الاسواق : أي يتجر وي العمل في البيع والشراء .
- (٥) تجارت علماء أمثال سعيد بن المسيب و محمد بن سيرين الخ ..
- كان اعبر للرؤيا : أجدود تفسيراً للأحلام .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

- ١٠ -

رسالة الفتيا



گلستان شاعر پیر سعد

[١ - مدخل في مدح احمد بن أبي ذؤاد] .

أطال الله بقامك وأعزك ، وأصلح على يديك .

كان يقال : **السلطان سوق** ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما ينفع فيها .

وأنت أبها العالم معلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه
- من موضع **السلطان** بارفع المكان ، لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ،
ومصالح البلاد ، وجعله متصرفاً على القضاة ، وعنداداً على الولاية ، ثم جعله
الله منزع العلماء ، ومفزع الصعفاء ، ومستراح الحكماء ، فقد وضنه بارفع
المنازل ، وأسنى المراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « **لَمَّا يَزَعُ اللَّهُ بِالْسُّلْطَانِ**
أَكْثَرُ مَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ » .

وقد كان يقال : شيئاً متباهياً ، إن صلح أحدهما صلح الآخر :
السلطان والرعية .

فقد صلح **السلطان** ، وعلى الله تمام التعمة في صلاح الرعية ، حتى
يتحقق الآخر ، وتصلق الشهادة في الخبر .

[٤ - صناعة الجاحظ]

فَسَأْلُ الَّذِي مَنَحَكَ حُسْنَ الرُّعَايَا أَنْ يَمْنَحَنَا حُسْنَ الطَّاعَةِ .

وقد نظرت في التجارة التي اخترتها ، والسوق التي أقمتها ، فلم أر فيها شيئاً ينفع إلا العلم والبيان عنه ، وإلا العمل الصالح والدعاة إليه ، وإنما التعاون على مصلحة العباد ، ونفي الفساد عن البلاد .

وأنا - مد الله في عمرك - رجل من أهل النظر ، ومن حمّال الأثر ، ولا أكسل لكل ذلك ولا أفي ؛ إلا أني في سبيل أهله وعلى منهاج أصحابه . والمرء مع من أحب ، وله ما اكتسب .

[٣ - التعريف بكتاب أصول الفتيا]

وعندي - أبقاك الله - كتاب جامع لاختلاف الناس في أصول الفتيا ، التي عليها اختلفت الفروع وتفاصيل الأحكام ، وقد جمعت فيه جميع الدعاوى مع جميع العلل . وليس يكون الكتاب تاماً ، ولجاجة الناس إليه جامعاً ، حتى تتحجج لكل قول بما لا يُصَابُ عند صاحبه ، ولا يلتفت أهله ؛ وحتى لا ترضي بكشف قناع الباطل دون تجريده ، ولا بتوهينه دون إبطاله . وقد قال رسول رب العالمين وخاتم النبيين ، محمد صلى الله عليه وسلم : « تهادوا تحابوا » .

فتحت على الهدية وإن كان كراعاً وشيئاً يسيراً . وإذا دعا إلى اليسير الحقير فهو إلى الشّمرين الخطير أدعى ، وبه أرضى .

ولا أعلم شيئاً أدعى إلى التحاب ، وأوجب في التهادي ، وأعلى منزلة وأشرف مرتبة ، من العلم الذي جعل الله العمل له تبعاً ، والجنّة له ثواباً .

ولا عذر لمن كتب كتاباً وقد مغاب عنه خصم ، وقد تكفل بالإخبار

عنه ، في ترك العجيبة له ، والقيام بكل ما احتمله قوله . كما أنه لا غدر له في التقصير عن فساد كل قول خالف عليه ، وضاد مذهبه ، عند من قرأ كتابه وتفهم أدخوله ، لأنَّ أقل ما يُزيل عذرها ويزيح عنْته ، أنَّ قولَ خصمه قد استهدف لخصمه ، وأصحر للسانه ومكنته من نفسه ، وسلطه على إظهار عورته . فإذا استراح واسع الكتاب من شغب خصمه ومداراة جليسه ، فلم يبق إلا أن يقوى على كسر الباطل أو يعجز عنه .

ومن شُكر المعرفة بمقاوي الناس ومرادهم ، ومضارهم ومنافعهم ، أن تحتمل نقل مؤنthem في تعريفهم ، وإن ترثي إرشادهم ، وإن جهلو فضل ما يُسدى إليهم .

[٤ - الكتاب أفضل من صاحبه]

ولم يُعنِ العلم بمثل بذله ، ولم يُستيقن بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يكثر الشظائم ، وتفريط النصرة ، وتشتت الحمية . وعند المواجهة يُفرط حُبُّ الغلة ، وشهوة المباهاة والرِّياضة ، مع الاستحياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدث الصُّفات ، وبظهور التباین . وإذا كانت القلوب على هذه الصفة وهذه الجلية ، امتنعت من المعرفة ، وعميت عن الدلالة .

وليس في الكتب علة تمنع من ذرُّك البُغية ، وإصابة الحُجة ، لأنَّ المتوجه بقراءتها ، والمتردُّد بفهم معانيها ، لا يُباهي نفسه ، ولا يغالب عقله .

والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويرجع على واسعه بأمور :

منها أنه يوجد مع كل زمان على ثبات الأعصار ، وبعد ما بين الأعصار . وذلك أمرٌ يستحيل في واسع الكتاب ، والمنازع بالمسألة والجواب . وقد يذهب العالم وينهى كتبه ، وينهى المعقّب وينهى آثره . ولو لا

ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمها ، ودُوَّنت من أنواع بسراها ؛ حتى شاهدنا بها ما غاب عننا ، وفتحنا بها المستغلق علينا ، فجمعتنا إلى قليلنا كثيراً لهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم - لقد خُسِّ حظنا في الحكمة ، وانقطع سبباً من المعرفة ، وقصّرت الهمة ، وضعفت النية ، فاعتقم الرأي وماتت الخواطر ، ونبأ العقل .

[٥ - يجُب على العالم اظهار ما عنده]

وأكثر كتبهم نفعاً ، وأحسن ما نكلّموا به موقعاً ، كتب الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كلّ عبرة ، وتعريف كلّ سُيّفة وحسنة .

فيبني أن يكون سبلاً لنا فيمن بعدها كليل من قبلنا فيما . على أنا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أنّ من بعدها يجد من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما يتطلّب العالم بإظهار ما عنده ، والتأشير للحقّ من القيام بما يلزم . فقد أمكن القول وصلح الدهر ، وخوّى نجم النّبيّة ، وهبّت ريح العلماء ، وكتّب الجهل والغبيّ وقامت سوق العلم والبيان .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن خُسِّن في عيني ، وحلاً في صدرني ، فلست آمن أن يعترني فيه من الغلط ما يعترني الآباء ، والشاعر في قريضه .

[٦ - غرض العاجظ من هذه الرسالة مساعدة القاضي وثوابه]

والذّي دعاني إلى وضعه مع إشفافي منه ، وهيبي لتصفحك له ، أُنّي حين علمت أنّ الغالب على إرادتك ، والمستولى على مذهبك ، تقرّب العالم وأفّصاء الجاهم ، وأنّك متى قرأت كتاباً أو سمعت كلاماً ، كنت من وراء ما

فيه من نقص أو فضل ، باتساع الفهم ، وصحة العلم ؛ وأنك متى رأيت زللاً غفرته وقومت صاحبه ، ولم تُفرغه به ، ولم تُخرجه له . ومني رأيت صواباً أعلنته ورعيته ، فدعوت إليه وأتيت عليه . ولائي حين أمنت عقاب الإساءة ، [و] وثقت بثواب الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم استكراه نفسي عليه ، وصار ذلك موجباً لنفعه ومحاجياً للنقرئ به . والسبب أحق بالفضيل من المسبب ؛ لأن الفعل محمول على سببه ، ومضاف إليه ، وعيال عليه ، ومضمون به .

واحساني - مَدُ الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنت محسناً ، صغيراً في جنب إحسانك ، إذ كنت المثير له من مراقبه ، والباعث له من مراقبه . فلذلك صار أوفر النصيبين لك ، وأمتن النسيبيين مضافاً إليك . وإن كنت قد تضررت عن الغاية ، فأنا المضيّع دونك . وإن كنت قد بلغتها فضلك أظهر وحظك أوفر . لأنني لم أنشط له إلا بك ، ولا اعتمدت فيه إلا عليك .

ولولا سوقك التي لا ينفع فيها إلا إقامة السنة ، وإماتة البدعة ، ودفع الظلمة ، والنظر في صلاح الأمة . لكان هذه السلعة باشرة ، وهذا الجلب مدفوعاً ، وهذا العلق خبساً .

فالحمد لله الذي عمر الدنيا بك ، وأخذ لمظلومها على يديك ، وأيّد هذا الملك بيّنك ، وصدق فراسة الإمام فيك .

وأيّة منزلة أرفع وأيّة حالة أحمد ممن ليس على ظهرها عالم إلا وهو يحيى إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كفيه وتحت جناحه . وليس على ظهرها ظالم إلا وهو يتقيه ، ولا مظلوم إلا وهو يستعديه .

ومن يقف على قدر ثواب من هذا قدره ، وهذه حاله !

[٧ - ندى الجاحظ كتب أخرى]

وعندي - مدَّ الله في عمرك - كتبَ سوى هذا الكتاب ، وليس يعنيني من ان أهديها إليك ممَّا لا أعرفه من كثرة شُغلك ، وكثرة ما يلزمك من التدبر في ليك ونهارك . والعلم وإن كان حياة العقل ، كما أنَّ العقل حياة الروح ، والروح حياة البدن ، فإنَّ حكمَ حكم الماء وجميع العذاء ، الذي إذا فصل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنما يسُوغ الشراب ويُستمرا الطعام الأول فالآول . فكذلك العلم يجري مجرأه ، وينذهب مذهبة .

ومن شأن النُّفوس الملاة لِمَا طالَ عليها ، وكثيرٌ عندها . فليس لنا أن تكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛ فإنَّ أقوامٍ ضعيفٍ ، وأنشطهم سُوْمٌ ؛ وإنْ كانت حالاتهم متفاوتة فإنَّ الضعف لهم شامل ، وعليهم غالب .

فإذا قرئَ ، عليك - أيُّك الله - هذا الكتاب التمسنا أوقات الجمام وساعات الغراغ ، بقدر ما يمكن من ذلك ويتهمُوا . والله المؤقِّن لذلك ، والمهيء له . ثم أتيقنا كل كتاب بما يليه إن شاء الله .

وليس بحمد الله من باب الطُّفْرَة والمداخَلة ، ولا من باب الجسوهر والغرض ، بل كلُّها في الكتاب والسنَّة ، وبجميع الأمة إليها أعظم الحاجة .

ثم نسألُ الذي عرُفنا فضلك ، أن يصلَّ جبنا بحيلك ، وإن يجعلنا من صالحِي أعونك ، المستبعين منك ، والناظرين معك ؛ وأن يُحسِّن في عينك ورُزْنَ في سمعك ، ما تقرُّبنا به إليك ، والتمسنا الدنو منك ، إله قريب مجيب ، فعالٌ لما يريد .

أطال الله بقاءك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وكرامته لك في الدنيا والآخرة .

* * *

تمت الرسالة بعون الله تعالى ومنه وتوفيقه . والله الموفق للصواب .

والحمد لله أولاً وأخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وأله وصحبه

الطيبين الطاهرين وسلامه .



لهم إني أسألك سلام

١٠ - هامش رسالة الفتيا

(١) القاضي احمد بن ابي دؤاد عالم ، انه شيخ من شيوخ المعتزلة . ومنصب قاضي القضاة هام جداً لأنه يشرف على الولاية والقضاة ويدبر شؤون الناس ، انه يتصرف في القضاة أي يراقب اعمالهم .

- قوله « لما يزع الله بالسلطان اكثر مما يزع بالقرآن » يراد به أن من يكف من الناس عن ارتکاب العظام خوفاً من السلطان اكثر من يكف عن ارتکابها خوفاً من نهي القرآن وامرها وانذاره .

(٢) قوله « انا رجل من اهل النظر ، ومن حمال الاثر » يراد به انه من اهل الفكر والعلم (النظر) . والحديث (الاثر) .

(٣) لاحظ اسلوب الجاحظ في البحث الذي عبرت عنه الجملة التالية : « وليس يكون الكتاب تاماً ، ولجاجة الناس فيه جامعاً ، حتى تتحقق لكل قول بما لا يصادب صاحبه ، ولا يبلغه اهله ، وختى لا ترضى بكشف فتاع الباطل دون تجريده ، ولا بتوهينه دون ابطاله » .

(٤) قوله « وليس في الكتب علة تمنع من درن البغية » العلة تعنى السب وليس الخل .

- المتواحد بقراءتها : المنفرد .

(٥) يجب على العالم اظهار ما عنده = خير تعبر عن مبدأ الالتزام . ينبغي ان يكون سينا فيمن بعدها كسبيل من قبلنا فيما : اي تحصيل العلم ونشره .

(٦) لاحظ موقف القاضي من الكتب التي تعرض عليه او تؤلف : انه يقرأها ببطء على مافيها ويراقبها ، فيقع على الخطأ او يصفح ، ويشجع على الصواب ويکافئ . هذا يعني ان الدولة كانت تمارس رقابة على المنشورات والمؤلفات .
ـ قوله «ولولا سوقك التي لا ينفع فيها الا اقامه السنة ، وامانة البدعة ، ودفع الظلماء ، والنظر في صلاح الامة ... ». يعني حرص القاضي على العمل بالشريعة الاسلامية وعدم الابتعاد عنها ، واحفاظ الحق ورفع الظلم ، واصلاح الرعية .

- «صدق فرنسة الامام فيك » : الخليفة .

- لاحظ احترم الجاحظ لعلم احمد بن ابي دؤاد وخشية سطونه .

(٧) كثرة كتب الجاحظ تستفاد من هذه العبارة « وعندي مد الله من عمرك ». كتب سوى هذا الكتاب . لقد وصلتنا اسماء نحوماتي رسالة وكتاب .
ـ العلم حبة العقل ، والعقل حبة التروح ، والروح حبة البدن . انه يميز بين العقل والروح والبدن . ويجعل الروح وسطاً بين العقل والبدن .
ـ العلم اذا زاد مقداره على العقل كالطعم اذا زاد مقداره على الجسد يعود ضرراً . قاعدة تربوية ينبغي الانتهاء اليها .

- من شأن النقوس الملالة لما طال عليها ، فكرة يتذرع بها الجاحظ في معظم كتبه ، اما ليسرر عدم اطالة الكتاب ، واما ليبرر منزج الجد بالهرزل ، او الاستطراد .

- « الكتاب ليس من باب الطفرة والمداخلة ولا من باب الجوهر والعرض » . اربع مسائل يختها المتكلمون ، الطفرة : انتقال جسم من المكان الاول الى المكان الثالث دون المرور بالمكان الثاني ، قال فيها النظام . المداخلة : دخول اجزاء الجسم في اجزاء الجسم الاخرى . الجوهر : هو ما قام بنفسه . العرض هو ما قام بالجوهر . (راجع كتابنا : المناحي الفلسفية عند الجاحظ ، باب المنهي الطبيعي) .

- ١١ -

مدح النبيذ وصفة اصحابه



[١ - وصف النبي لا ي فيه حقه]

أنا - أباك الله - الطالب المشغول ، والقائل المعنور ، فإن رأيت خطأ
فلا تذكر فإني بضدِّه ويُعرضُ منه ، بل في الحال التي تُوجِّه ، والسبِّ الذي
يؤدي إليَّه . وإن سمعت تسديداً فهو الغريب الذي لا نجده . اللهم إلَّا أن
يكون من بركة مكتابتك ، وَمِنْ مطالبتك . ولأنَّ ذكرك يُشحذ الذهن ،
ويصوِّرك في الوهم ، ويجلُّ العقل ؛ وتأمِّلْك ينفي الشُّغل .

ولا يُعجبني ما رأيت من قلة إطبابك في هذا النَّبيذ ، وقلة تلهيتك بهذا
الشرابِ وأنت تجد من فضل القول وحسن الوصف ما لا يُصاب عند خطيب ،
ولا يوجد عند بلع . وأنت ولو ثبَّتَ الخِيلَة ، وخفَّرتَ العِظَمَة ، وأرغَبتَ
الشَّعَرَاء ، وأعطيتَ الخطباء ، ليكونَ القولُ منهم موصولاً غير مقطوع ،
ومبسوطاً غير مقصور ، لكنَّ بعدَ مقصراً في أمره ، مفرطاً في واجب حقه .
فلا تأدِّبَ اللَّهَ قِيلَتْ ، ولا قولَ الناصِح سَيَّمتْ .

قال الله تبارك وتعالى : « وأما بِنَمَّةٍ رَبِّكَ فَخَدَثْ ». وقال الأول :
« استبِّم النُّعْمَة بِإِظْهَارِهَا ، واستزِّد الْوَاهِبَ بِإِدَامَةِ شَكْرَه ». .

[٢ - النبيذ دواء يشفى من الامراض]

بل كيف أبْسَت بالجلساء ، وأرْسَلْت إلى الأطْباء ولم يكن في قربك [منه] ما يغْنِيك ، وفي النَّظر إِلَيْهِ مَا يُشْفِيك ؟ ولمْ ملِكتْ نَفْسُك دونَ أَنْ تهْذِيَ ، ولمْ رأَيْتِ الْوَقَارَ مُرْوَةَ قَبْلَ أَنْ تَسْخِفَ وَلَمْ كَانَ الْهَذِيَانُ هُوَ الْهَذِيَانُ ، والْسُّخْفُ هُوَ الْمُرْوَةُ ، والتَّنَاقْصُ هُوَ الصُّحَّةُ وَإِلَّا بِأَيِّ شَيْءٍ وَخَصْصَتْ ، وَبِأَيِّ معْنَى أُتَبَّتْ ، وَلَمْ لَمْ تَخْلُعْ فِيهِ الْعِذَارَ ، وَلَمْ تَخْرُجْ فِيهِ عَنْ كُلِّ مَقْدَارٍ .

وَأَيِّ شَيْءٍ وَأَجْرَبَ جِلْدَكَ وَأَمَاتَ حَالَكَ ، وَأَضَعَفَ مَسْرُوكَ ، وَأَوْحَشَ مِنْكَ رَفِيقَكَ ، إِلَّا العَقْرَبُ الْمَخْضَةُ ، إِلَّا الغَضْبُ وَالْعِقَابُ ، وَحرَمَكَ الشُّوَابُ إِلَّا التَّهَاوُنُ فِي أَمْرِهِ ، وَقَلَّةُ الرُّعَايَا لِحَقِّهِ .

وَكَيْفَ صَارَتْ أَمْرَاضِي أَمْرَاضُ الْأَغْنِيَاءِ وَأَمْرَاضِكَ أَمْرَاضُ الْفَقَرَاءِ إِلَّا لِمَعْرِفَتِي بِفَضْلِهِ ، وَاسْتِخْفَافِكَ بِقَدْرِهِ . أَلَا تَرَى أَنِّي مُنْتَرَسٌ مَفْلُوحٌ ، وَأَنْتَ أَجْرَبُ مَبْسُورٍ .

فَإِنْ ثَبَّتَ فَمَا أَقْرَبُ الْفَرَجَ ، وَأَسْرَعُ الإِجَابَةَ . وَسَنَرْغُ لَكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ فَرِبيَاً ، وَتَفْلُحُ سَرِيعًا .

وَإِنْ أَصْرَزْتَ وَتَبَاعِيتَ وَتَمَادَيْتَ أَنَاكَ وَاللهُ مِنْ سَفْلَةِ الْأَدْوَاءِ ، وَرَبِّيَ عنكَ مِنْ عُلْيَّةِ الْأَمْرَاضِ ، مَا يَضْعُكَ مَوْضِعًا لَا ارْتِفَاعَ مَعَهُ ، وَيُلْزِقُ بَعْقِبَكَ عَارًا لَا زَوَالَ لَهُ . ثُمَّ تُتَبِّعُ أَشْيَاخَكَ السُّبْبَةَ ، وَتُتَبِّعُهُمُ الْمَذَمَّةَ .

[٣ - النبيذ شقيقك الذي شفئت عنه]

عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ اسْتَظْرَفَكَ وَاسْتَلْمَحَكَ ، وَاسْتَحْسَنَ فَسْكَ ، وَاسْتَرْجَحَ عَقْلَكَ ، وَأَحْسَنَ بِكَ ظَنًا ، وَرَأَكَ لِنَفْسِهِ أَهْلًا ، وَلَا تَخَافَهُ مَوْضِعًا ، وَلِلْأَنْسَ بِهِ

مكاناً ، وأنت لا عنده زايٍ عليه متهاون به ، قد اقبلت على ديوانك تشغل
بملازمته وتدع ما يجب عليك من صفاتك ، والذِّعاء إلى تعظيمه . بل هل
كنت من شيعته والذائبين عن ذوقه ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانتبات في
حبله ، إلا أن يكون عندك التقصير لحقه ، والتهاون بأمره اللازم ، وتهيي الناس
عنه .

ولو خرجت إلى هذا الخرجَ من جميع الأخلاق المحمودة ، والأفعال
المرضية . وأحسب أنت لا تعظم ولا ترق له . ولو لم تتعصب إلا لجمالي
وحسنه ، ولو لم تحافظ على نقاشه وعنته لكان ذلك واجباً ، وأمراً معروفاً .
فكيف مع المناسبة التي بينكما ، والشكل الذي يجمعكمَا . فإنْ كان بعضك
لا يصون بعضاً وأنت لا تعظم شيئاً ، فأنت والله من حفظ العشيرة أبئد ،
ولمعرفة الصديق أنكر .

ولقد نعيت إلى لبك ، وأتكلمتني حفاظك ، وأفسدت عندي كلُّ صحيح .
وقد كان يقال : « لا يزال الناس يخرب ما تعجبوا من العجب » . قال الشاعر :

وهلْك الفتى أَنْ لَا يَرَأَ إِلَى النَّدَى وأنْ لَا يرى شيئاً عجيباً فَيَعْجِب
قال بكر بن عبد الله المزني : « كنا نتعجب من دهرٍ لا يتعجب أهله من
العجب فقد صرنا في دهرٍ لا يستحبّس أهله الحسن . ومن لا يستحبّس الحسن
لم يستفتح القبيح » .

وقال بعضهم : « العجب ترك التعجب من العجب » .

ولم أقل ذلك إلا لأن تكون به ضئيناً ، وبما يجب له عارفاً . ولكنك لم
توفِّ حقه ولم توفِ نصيبه .

فإن قلت : ومنْ يفهي واجب حقه ، ويتهضم بجميع شكره ؟ قلنا :
فهل أعتذر في الاجتهاد حتى لا ينتم إلا تعجبك ، وهل استقررت الاعتذار

حتى لا تتعاب إلا بما زاد على قدرتك . ولو لا أنك عين الجحود لم نطلبنا منك . ولو لا ظُنك لم تحمدناك عليه . ولو لا معرفتك بفضله لم نعجب من تقديرك في حفته ، ولو لا أن الخطأ فيك أقبح ، والقبيح منك أسمج ، وهو فيك أثين والناس به أكلف ، والعيون إليه أسرع - لكان كتابنا كتاب مطالبة ، ولم يكن كتاب معاتبة ، ولشنّلنا الجلم لك عن العلم عليك ، والقول لك عن القول فيك .

وقد كنت أهابك بفضل هيئتي لك ، وأجرتني عليك بفضل بسطك لي ، فمعنى جرصن المنوع ، وخوف المشفق ، وأمن الواثق ، وقذاعة الراضي .

[٤ - الباحظ يطلب النيد ويخشى أن يرد طلبه]

وبعد فمن طلب ما لا يجده به ، وسأل ما لا يُوقب مثله ممن يوجد بكل ثمين ، ويئب كل خطير ، فواجب أن يكون من الرد مشفقاً ، وبالنحو موفقاً .

وإن كان ، أبقاك الله ، أهلًا لأن يُمْسِعَ ، وكنت حفظك الله أهلًا أن تبذل ، وجب أن تكون بذلاً مائعاً ، وساكتاً مطمئناً ، إلا أن يكون الحرب سلماً بسجالة ، والحالات دولاً .

ولهذه الخصال ما وقع الطلب ، وشاع الطمع .

فإن منعت فعدرك ميسوط عند من عرف قدره ، وإن بذلت فلم تند الذي أنت أهلها عند من عرف قدرك ، إلا أنه لا يجود بمثله إلا غني عند جميع الناس ، أو عاقل فوق جميع الناس .

وكيف لا أطلُب طلب الجريء المتهور ، وأمسك إمساك الهابط الموقر . وليس في الأرض خلق يغتر في وصفه المحال ولا يستحسن الهذيان سواه ١٩

على أنَّ من الهدىيان ما يكون مفهوماً ، ومن المحال ما يكون مسموعاً .
فمن جهل ذلك ولم يعرِفه ، وقصْرَ ولم يلْفِه ، فليسمِّي كلامَ الْهُنَانِ
والْكُلَانِ ، والْغَفْسَانِ والْغَيْرَانِ ، ومرْقَصَةَ الصَّيْبَانِ ، والمُنْتَظِطَ إذا دنا منه
الْحَلْقَيِ .

حتى إذا استوهَكَ لم تهُبْ له منه حتَّى تَقْفَ وقْفَةَ ، وَتَطْرُقَ مَسَاعِدَ ، ثُمَّ
تَسْخَنَ وَتَسْتَشِيرَ ، ثُمَّ تَشْفَعُ عَلَى مُسْتَوِيهِ ، وَتَعْجَبَ مِنْ شَارِيهِ ، ثُمَّ تُطْبَلَ
الْكِتَابَ بِالْامْتَنَانِ ، وَتَسْطُرُ فِيهِ بِتَطْلِيمِ الإِنْعَامِ مَعَ ذِكْرِ مَنَاقِهِ ، وَتَنْثَرُ مَحَاسِبَهِ
بِقَدْرِ الطَّاقَةِ . وإنْ لَمْ تَبْلُغْ الْغَايَةَ فَاعْرِفْ وَرْزَهُ ، وَاشْهُدْ بِطَيْهِ ، وَأَرْجُ سَاعِتَهُ ،
وَاشْهُدْ فِي النَّاسِ يَوْمَهُ .

وَمَا ظُلْكُ بِشَيْءٍ: لَا تَقْدِرُ أَنْ تَشَدِّدَ فِي ذِكْرِهِ وَتَفْرَطَ فِي مَدْحَهِ ، وَتَقْصِيرُكَ
واَضَعُ فِي لَوْنِهِ ، مَكْتُوبٌ فِي طَعْمِهِ ، مَوْجُودٌ فِي رَائِحَتِهِ ، إِذَا كَانَ كُلُّ مَمْدوحٍ
يَقْصُرُ عَنْ مَدْحَهِ وَقَدْرَهِ ، وَيَصْفُرُ فِي جَنْبِهِ .

ولو لَمْ يُسْتَدَلْ عَلَى سَعَادَةِ جَدْكَ ، وَإِقْبَالِ أَمْرَكَ ، وَأَنَّ لَكَ زَيْ صَنْقَيِ فِي
الْمَعْلُومِ ، وَجَهَّاظًا فِي الرُّزْقِ الْمُقْسُومِ ، وَأَنَّكَ مِنْ تَبْقَى بِنَعْمَهُ ، وَيَدْوِمُ شَكْرَهُ ،
وَيَفْهَمُ النَّعْمَةَ وَرَبُّوْبُهَا ، وَيَدْرُأُ عَنْهَا وَيَسْتَدِيمُهَا ، إِلَّا أَنَّهُ وَقَعَ فِي قَسْكَ ، وَكَانَ
فِي نَصِيبِكَ - لَكَانَ ذَلِكَ أَعْظَمُ الْبَرَاهَانِ ، وَأَوْضَعُ الدَّلَالَةِ .

بل لا نَقُولُ: إِنَّهُ وَقَعَ اِنْفَاقًا وَغَرْسًا نَادِرًا ، حتَّى يَكُونَ التَّوْفِيقُ هُوَ الَّذِي
قَصَدَ بِهِ ، وَالصُّنْطُنُ هُوَ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ .

[٥ - الْبَيْدُ فَنِي لِمَالِكِهِ وَفَقَرُ لِفَاقِدِهِ]

ولو لَمْ تَمْلِكْ غَيْرَهُ لَكْنَتْ غَيْبًا ، ولو مَلَكَتْ كُلُّ شَيْءٍ سَوَاهُ لَكَتْ فَقِيرًا .
وَكَيْفَ لَا يَكُونَ كَذَلِكَ وَهُوَ مُسْتَرَاحٌ قَلِيلٌ ، وَمَجَالٌ عَقْلَكَ ، وَمَرْتَجَ عَيْنِكَ ،

وموضع أنسك ، ومستبيط لذنك ، وينبع سرورك ، ومصباحك في الظلام ،
وشعراك من جميع الأقسام .

وكيف وقد جمع أمة الجلال ، ورشاقة البخلال ، ووقار البهاء ، وشرف
الخير ، وعز المجاهرة وللة الاختلاس ، وحلوة الدبيب .

[٦ - النبِيُّ يطرد الهم ويبعد الشَّباب]

وسألف لك شرف النبِيُّ في نفسه ، وفضيلته على غيره ، ثم أصف
فضل شرابك على سائر الأشربة ، كما أصف فضل النبِيُّ على سائر الأنبياء ؛
لأنَّ النبِيُّ إذا تمَّ في عظامك ، والتبَّس بأجزائك ، ودبَّ في جنائرك ،
متحكَّ صدقَ الحُسْن ، وفراغَ النَّفْس ، وجعلَك رخيَّ البال ، خليَّ النَّزع ،
قليلَ الشُّواغل ، غَرِيرَ العَيْن ، واسعَ الصُّدر ، فسحَ الْيَمِّ حَسَنَ الظَّنِّ . ثم
سَدَّ عليكَ أبْوَابَ التُّهْم ، وحسنَ دونَكَ الظُّنُونَ وشواطِرَ الفَهْم ، وكفاكَ مَؤْنَةَ
الجراسة ، وألمَ الشُّفْقَة ، وخوفَ التَّعْذَنَ ، وذُلَّ الطَّعْمَ وَكُدُّ الْطَّلْب ، وكلَّ ما
اعترضَ على السُّرُورِ وأفسَدَ اللَّهَةَ ، وفَاسِمَ الشَّهْوَةَ ، وأخْلَلَ بالنَّعْمةَ .

وهو الذي يرثُ الشَّيوخَ في طبائعِ الشَّبانَ ، ويرثُ الشُّبانَ في نشاطِ الصُّبيانَ ،
وليس يخاف شاربه إلَّا مجاوزةَ السُّرُورِ إلَى الأُشْرِ ، ومجاوزةَ الأُشْرِ إلَى البَطْرِ .

[٧ - النبِيُّ يبعث على الظرف والفسحك في كل وقت]

ولو لم يكن من أئمَّةِ وِمَتَّهِ ، ومن جمِيلِ آلاتِهِ ونَتَّهِ ، إلَّا أنَّكَ ما دُمْتَ
تمزَّجه ببروحك ، وتزَارِج بينه وبين نَمِيكَ فقد أَعْفَاكَ من الجدِّ وَنَصِيبِهِ ، وجُبِّ
إليكَ المزاَجُ والفكَامَةُ ، وبغضِّ إليكَ الاستَّحْصَاءُ والمحاولةُ ، وأزالَ عنكَ تَعَدُّدَ
الجُحْشَةَ وَكُدُّ المروءَةِ ، وصارَ يومُهُ جمِالًا لأَيَّامِ الفَكْرَةِ ، وتسهيلًا لِمَعاوِدةِ
الرَّوْءَةِ ، لِكَانَ في ذلكَ ما يوجِبُ الشُّكْرَ ، ويطَّبِ الذَّكْرَ . معَ أَنَّ جمِيعَ ما

وصفناه وأخبرنا به عنه يقوم ب AISER الجرم ، وأقل الشمن .

ثم يعطيك في السُّفَر ما يعطيك في الحضُر ، وسواء عليك الستائين والجِنَان . ويصلح بالليل كما يصلح بالنهار ، ويطيب في الصُّحُور كما يطيب في الدُّجَن ، ويُلذُّ في الصيف كما يُلذُّ في الشتاء ، ويجري مع كُل حال . وكُل شيء سواه فإنما يصلح في بعض الأحوال .

ويدفع مُصرَّة الحُمَار ، كما يجعل منفعة السُّرُور .

إن كنت جذلاً [كان] بازأ بك ، وإن كنت ذا هم نفأ عنك .

وما الغيث في العرش بأنفع منه في البَدْن ، وما الرُّيش السُّخَام بأدفأ منه للمقرور .

ويُسْتَمرُّ به الغذاء ويدفع به ثقل الماء ، و تعالج به الأدواء ، وتحمر به الوجنتان ، ويعدل به فضاء الدين .

[٨ - التبَيَّد يسبب السُّرُور ويبحث على الجِود]

إن انفردت به ألهاك ، وإن نادمت به سواك .

ثم هو أصنع للسُّرُور من زلزل ، وأشَدُّ إطراضاً من مُخارق ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغاثة عنهما ؛ لأنَّه أصل اللذات وهي فرغه ، وأول السُّرُور ونتائجُه .

وله دُرُّ أول من عيله وصنه ، وسقياً لمن استتبطه وأظهره . مَاذا دُبَر ؟ وعلى أي شيء ذَلَّ ؟ وبأي معنى أَنْتُم ؟ وأي دفين أثار ؟ وأي كنز استخرج .

ومن استفائه التَّبَيَّد بنفسه ، وقلة احتياجه إلى غيره ، أنَّ جميع ما سواه من الشراب يصلحه اللُّجُع ، ولا يطيب إلا به .

وأول ما يُتَّسِّى عليه به ، ويُذَكَّر منه ، أَنَّه كريم الجوهر ، شريفُ النَّفْسِ ،
رفيعُ القدر ، بعيدُ الْهَمِّ ، وكذلك طبيعته المعروفة وسجنه الموصوفة . وأَنَّه
يُسْرُ النُّفُوس ويبَحِّبُ إِلَيْهَا الْجُود ، ويزِينُ لَهَا الْإِحْسَان ، ويرغُبُهَا فِي التَّوْسُعِ ،
ويسُورُهَا الغَنَّى ، ويتَّفَى عَنْهَا الْفَقْر ، ويملؤُهَا عَزَّاً ، ويعَدُّهَا خَيْراً ، ويهُسِّنُ
الْمَسَارَة ، ويصِيرُ بِهِ النَّبْتَ حَضْبًا وَالْجَنَابُ مَرِيمًا ، وَمَاهُولاً مُغْتَبَا .

[٩ - النَّبِيُّ يَجْمِعُ التَّدَمَّاءَ وَيَرْفَقُ بِالسَّكَارِيِّ]

ولِيَسْ شَيْءٌ مِّنَ الْمَأْكُولِ وَالْمَشْرُوبِ أَجْمَعَ لِلظُّرْفَاءِ ، وَلَا أَنْشَدَ تَالْفَأَ
لِلْأَدِيَاءِ ، وَلَا أَجْلَبَ لِلْمُؤْتَسِينِ ، وَلَا أَدْعُ إِلَى خَلَافِ الْمُمْتَعِينَ ، وَلَا أَجْدَرَ أَنْ
يُسْتَدَامَ بِهِ حَدِيثُهُمْ وَيُخْرَجَ مَكْتُونَهُمْ ، وَيَطْوُلَ بِهِ مَجْلَسَهُمْ ، مِنْهُ .

وَإِنْ كُلُّ شَرَابٍ كَانَ حَلَّاً وَرَقْ ، وَصَنَا وَقْقَ ، وَطَابَ وَعَذْبَ ، وَبَرَدَ
وَنَقْعَ ، فَإِنْ اسْتَطَابْتُكَ لِأَوَّلِ جُرْعَةٍ مِّنْ أَكْثَرِ ، وَيَكُونُ مِنْ طَبَائِعِكَ أَوْقَعُ . ثُمَّ لَا
يَزَالُ فِي نَفْصَانِي إِلَى أَنْ يَعُودَ مَكْرُوهًا وَبَلَيْةً ، إِلَّا النَّبِيُّ ، فَإِنَّ الْفَدْحَ الثَّانِي
أَسْهَلُ مِنَ الْأَوَّلِ ، وَالثَّالِثُ أَيْسَرُ ، وَالرَّابِعُ أَذْ ، وَالخَامِسُ أَسْلِسُ ، وَالسَّادِسُ
أَطْرَبُ ، إِلَى أَنْ يُسْلِمَكَ إِلَى النُّسُومِ الَّذِي هُوَ حِيَاكَ ، أَوْ أَحَدُ أَقْوَاتِكَ . وَلَا
خَيْرٌ فِيهِ إِذَا كَانَ إِسْكَارَهُ تَفْلِيْبًا ، وَأَخْدُهُ بِالرَّأْسِ تَعْسِفًا ، حَتَّى يُمْبَتِّعَ الْحَسْنُ
بِحَدَّهُ ، وَيَضْرِعَ الشَّارِبُ بِسُورَتِهِ ، وَيَسُورُهُ الْبَهْرُ بِكَاظِتِهِ ، وَلَا يَسْرِي فِي
الْعُرُوقِ لِغَلَظَهِ ، وَلَا يَجْرِي فِي الْبَدْنِ لِرُكُودِهِ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي الْعُمَقِ وَلَا يَدْخُلُ
الصُّبْمِ .

وَلَا وَاللَّهِ حَتَّى يَفَازِ الْعُقْلُ وَيَعْرَضَهُ ، وَيَدْعَدِعُهُ وَيُخَادِعُهُ ، فَيُسْرِهُ ثُمَّ
يَهُزُّهُ ، فَإِذَا امْتَلَأَ سَرُورًا وَعَادَ مَلِكًا مَحْبُورًا ، خَاتَمَهُ السُّكَّرُ وَرَأْوَغَهُ ، وَدَارَاهُ
وَمَاكَرَهُ ، وَهَازَلَهُ وَغَائِبَهُ . وَلِيَسْ كَمَا يَنْتَصِبُ السُّكَّرُ ، وَيَعْسُفُ الدَّادِيُّ ،
وَيَفْشِرُ الرَّبِّيْبُ ؛ وَلِكُنْ بِالْفَتَنِيْرِ وَالْغَمَرِ ، وَالْحَبْلَةِ وَالْخَثْلِ ، وَتَحْبِيبِ النُّسُومِ ،

وتزيين الصُّمُتْ .

وهذه صفة شرابك إِلَّا مَا لَا تُجِيبُ بِهِ ، ونحوه تبَدِّلُ إِلَّا مَا يَقْبَعُ مِنْهَا
الجهلُ بِهِ .

وَخَيْرُ الْأَشْرِبَةِ مَا جَمَعَ الْمُحْمُودَ مِنْ خَصَالٍ وَخَصَالٍ غَيْرِهَا . وَشَرَابُكَ
هَذَا قَدْ أَخَذَ مِنَ الْخَمْرِ دِبِيْهَا فِي الْمَفَاصِلِ ، وَتَمَسَّهَا فِي الْعِظَامِ وَلَوْنَهَا
الْغَرِيبُ : وَأَخَذَ بَرْزَةَ الْمَاءِ وَرَقَّةَ الْهَمَاءِ ، وَحَرْكَةَ النَّارِ ، وَحُمْرَةَ خَلْكِ إِذَا
خَجَلَتْ ، وَصَفْرَةَ لَوْنِكَ إِذَا فَرِغْتَ ، وَبَياضَ عَارِضِكَ إِذَا خَسِيْجَكْتَ .

[١٠ - مدح الحسن بن وهب]

وَحَسِيْبُ بِصَفَاتِكَ عَوْضًا مِنْ كُلُّ حُسْنٍ ، وَخَلْفًا مِنْ كُلَّ صَالِحٍ . وَلَا
تَعْجِبْ أَنْ كَانَتْ نِهايَةَ الْهَمَةِ وَغَايَةَ الْمُثْبَتِ ؛ فَإِنَّ حُسْنَ الرَّوْجُوْهِ إِذَا وَاقَ حُسْنَ
الْقَوْمِ وَشَدَّةَ الْعُقْلِ ، وَجُودَةَ الرَّأْيِ ، وَكَثْرَةَ الْفَضْلِ وَسَمَّةَ الْخُلُقِ ، وَالْمُغْرِسُ
الْطَّيِّبُ وَالنَّصَابُ الْكَرِيمُ ، وَالْقَطْرُفُ النَّاصِعُ ، وَاللُّسَانُ الْفَعْمُ وَالْمَخْرَجُ السُّهْلُ
وَالْحَدِيثُ الْمُؤْنِقُ ، مَعَ الإِشَارَةِ الْحَسَنَةِ وَالْتَّنْبِيلِ فِي الْجَلْسَةِ ، وَالْحَرْكَةِ الرَّشِيقَةِ
وَالْلَّهِجَةِ الْفَصِيْحَةِ ، وَالْسَّهْلُ فِي الْمَحَاوِرَةِ وَالْهَمْزُ عِنْدَ الْمَنَاقِلَةِ ، وَالْبَدِيءُ الْبَدِيعُ
وَالْفَكْرُ الصَّحِيحُ ، وَالْمَعْنَى الشَّرِيفُ ، وَالْلَّفْظُ الْمَحْذُوفُ ، وَالْإِيجَازُ يَسُومُ
الْإِيْجَازَ وَالْإِطْنَابَ يَوْمَ الْإِطْنَابَ ، يَقْلُلُ الْحَزْرُ وَيُصَبِّبُ الْمَفْصِلَ ، وَيَلْعَبُ بِالْعَفْرِ مَا
يَقْصُرُ عَنْهُ الْجَهْدُ ، كَانَ أَكْثَرُ لِتَضَاعُفِ الْحُسْنِ ، وَأَحْقَنُ بِالْكَمَالِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ .

وَإِنَّ النَّاجِ بِهِ وَهُوَ فِي رَأْسِ الْمُلُوكِ أَبِيهِ ، وَالْبَاقِوْتُ الْكَرِيمُ حُسْنٌ وَهُوَ
فِي جَيْدِ الْمَرَأَةِ الْحَسَنَاءِ أَحْسَنُ ، وَالشُّعْرُ الْفَانِخُ حُسْنٌ وَهُوَ مِنْ فَمِ الْأَعْرَابِيِّ
أَحْسَنُ . فَإِنَّ كَانَ مِنْ قَوْلِ الْمَنْشِدِ وَقَرِيْبِهِ ، وَمِنْ تَحْبِبِهِ وَتَحْبِيرِهِ ، فَقَدْ بَلَغَ
الْغَايَةِ وَأَقْلَمَ النِّهايَةَ .

وهذا الشراب حسن وهو عندك أحسن ، والهدية منه شريقة وهي منك أشرف .

وإن كنت قدْرَتَ أَنِّي إنما طلبتُه منك لأنْ شربَه أو لأسْفِيه ، أو لآهْبَه ، أو لأنْ تحسَّاه في الخلا ، أو أديْرَه في الملا أو لأنْ تافس فيه الأكفاء ، واجتَرَ زِيادةُ الخلطاء ، أو لا يَتَدَلَّه لعيون التَّنَمَّاء ، أو أعْرَضَه لنواب الأصدقاء فقد أَسْأَلَ بي الظنُّ ، وذهبَتْ من الإِسَاعَةِ بي في كُلِّ فَنْ ، وفَصَرَتْ بِه فَهُوَ أَشَدُّ عَلَيْكَ ، وَوَضَعَتْ مِنْهُ فَهُوَ أَضَرُّ بِكَ .

وإنْ ظنَّتْ أَنِّي إنما أَرِيدُه لأطرف به معشوقَة ، أو لاستِمْيلَ به فَوْيَ مِيلَك ، أو لاغْسلَ به أوضارَ الأَفْلَةِ ، أو أَدَاوَيَ به خطاياَ الأَشْرَبةِ ، أو لاجْلُوبَ الأَبْصَارَ الْعَلِيَّةَ ، وأصلَحَ به الْأَبْدَانَ الْفَاسِدَةَ ، أو لأنْ تَنْطَعَ به على شاعرَ مُفْلَقَ أو خطيبَ مُضْيقَ ، أو أَدِيبَ مُدْقِعَ ، ليَقْتِنَ لَهُمُ الْمَعْانِي ، ولِيَخْرُجَ الْمَذَاهِبَ ، ولِيَسْأَلَ فِي جَانِبِهِمْ مِنَ الْأَجْزَرِ ، وَفِي أَعْنَاقِهِمْ مِنَ الشَّكَرِ ، ولِيَنْفَضُوا مَا قَالُوا الشُّعْرَاءُ فِي الْحَمْدِ ، ولِيَرْجِعوا مَا شَاعَ لَهُمْ مِنَ الذِّكْرِ ؟ فَلَمَّا أَرِيدَ أَنْ أُضْعَفَ مِنْ قَدْرِهَا ، ولَمَّا أَكْسَرَ مِنْ بَالِهَا ، فَقَدْ تَاهَتْ وَرَبَّهَا . أو لأنَّ اتِّفَاقَلْ بِرَوْبِهِ وَأَتَبْرُكْ بِمَكَانِهِ ، وَاتَّسَعْ بِقُسْرِهِ ، أو لأشْفَقَ بِهِ الظَّمَاءُ ، أو أَجْعَلَهُ إِكْسِيرَ أَصْحَابِ الْكِيمِيَّةِ ، أو لأنَّ أَذْكُرَكَ كُلُّمَا رَأَيْتَهُ ، وَادَّعَكَ كُلُّمَا قَابَلْتَهُ أو لأنْ جَلَبَ بِهِ الْيُشَّرِ وَأَنْقَبَ الْعَسْرِ . ولأنَّهُ وَالْفَقِيرُ لَا يَجْتَمِعُانَ فِي دَارٍ ، وَلَا يَقْتَمِيَانَ فِي رَبْعٍ . ولأنْ تَنْتَرِفَ بِهِ حُسْنَ اخْتِيارِكَ ، وَأَتَذَكَّرَ بِهِ جُودَةِ اجْتِبَايَكَ . أو لأنَّ أَسْتَدِلُّ بِهِ عَلَى خَالِصِ حُبُّكَ ، وَعَلَى مَعْرِفَتِكَ بِغَصْلِي ، وَقَبَامِكَ بِوَاجِبِ حُقُّي - فَقَدْ احْسَنَ بِي الظنُّ ، وَذَكَرَتْ مِنَ الإِحْسَانِ فِي كُلِّ فَنْ . بل هو الذي أَصْوَتَهُ صِيَانَةَ الْأَعْرَاضِ ، وَأَغَارَ عَلَيْهِ غَيْرَةَ الْأَزْوَاجِ .

واعلمْ أَنكِ إِنْ أَكْثَرْتُ لِي مِنْهُ خَرَجْتُ إِلَى الْفَسَادِ ، وَإِنْ أَقْلَلْتُ أَقْسَمْتُ
عَلَى الْاِقْتَصَادِ .

وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي كَنَانَةَ ، وَلِلْخَلَافَةِ قِرَابَةٌ ، وَلِي فِيهَا شُفْعَةٌ ، وَهُمْ يَغْدُّ
جَنْسَ وَعَصْبَةً ، فَأَقْلُلُ مَا أَصْنَعُ إِنْ أَكْثَرْتُ لِي مِنْهُ أَطْلَبُ الْمُلْكَ ، وَأَقْلُلُ مَا
يَصْنَعُونَ بِي أَنْ أُنْقَلِي مِنَ الْأَرْضِ . فَإِنْ أَقْلَلْتَ فَإِنْكَ الْوَلُدُ النَّاصِحُ ، وَإِنْ أَكْثَرْتَ
فَإِنْكَ الْغَاشُ الْكَاشِحُ . وَالسَّلَامُ .



مَسْكُونَةُ الْمَلَائِكَةِ

١١ - هامش رسالة مدح النبيذ وصفة اصحابه

- (١) « ان الطالب المشغول والقاتل المعذور » يلخص موضوع الرسالة . فهو يطلب من مخاطبه الحسن بن وهب النبيذ ، وصفة ومدحه .
- (٢) « اني منقرس مفلوج ، وانت اجرب ميسور » اشارة الى مرضي الجاحظ اللذين اصيب بهما في شيخوخته وهما التقرس والفالج . مما يدل على تاريخ وضع الرسالة المتأخر . اما مرض الحسن بن وهب فهو ال بواسير . وكأن الجاحظ يحاول ان يقنع الحسن بن وهب بأن النبيذ يساعد على الامراض المذكورة .
- (٣) لاحظ كيف يبحث الجاحظ على افتاء النبيذ وبحسنه . انه بمتابة الصديق الذي ينبغي المحافظة عليه والغضن به .
- افبلت على ديوانك تشغل بعلاقته : اشارة الى عمل الحسن بن وهب كاتبا في ديوان الخليفة .
- (٤) لاحظ كيف يصف تردد المرء اذا سئل شيئاً عزيزاً عليه « وحتى اذا استوهبك لم تهب منه حتى تتف وفقه ، وتطرق ساعة ، ثم تستحسن وتستشير ، ثم تشفع على متوهبه ، وتعجب من هاربه ... » .
- (٥) النبيذ غنى لمالكه وفقر لفاقده ، لماذا ؟ لأنه « مستراح قلبك وجمال عقلك ، ومرتع عينيك ، وموضع انفك ، ومستبيط لذتك ، وينبع سرورك ، ومصاحبتك في الظلام ، وشعارك في جميع الاقسام » . هذه ذروة البلاغة .
- (٦) تأثير النبيذ في النفس : يطرد الهم ويريح النفس ويعيد الشباب لمن فقده .
- الدرع : المطاقة والواسع .

(٧) النبي يحب الظرف والفكاهة . والجاحظ يشدد على هذه الصفة لانه مطبوع على الظرف كلف به .

- وما الريش السخام (اللين) بادفأ منه للمقرور : إشارة الى خاصة النبيذ في اثاره الدفء في الجسم ابان البرد .

- تعالج به الادواء : تردد لل فكرة التي اشرنا إليها .

(٨) اصنع للسرور من زلزل واشد اطراها من مخارق : زلزل معن مشهور عاش في عصر الرشيد واخذ عن ابراهيم الموصلي .

- اما مخارق : فمعن عباسي آخر معاصر لزلزل والجاحظ .

(٩) النبيذ يجمع الندامي ويرفق بالسكاري ؛ لاحظ جمال الوصف .
الداذى : شراب يستخرج من حب كالشعير طيب الرائحة .

(١٠) مديح الحسن بن وهب يحيط بجميع النواحي الجسمية والخلقية والمقلية ، والنفسية والفنية عنده . ان ادبه كأدب الجاحظ يتضمن « بالبديه البديع والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ المحذوف ، والايجاز يوم الابجاز ، والاطباب يوم الاطباب ... ». وراجع مفهوم البلاغة عند الجاحظ في رسالة البلاغة والايجاز ضمن هذا الكتاب اي رسائل الجاحظ الأدبية .

(١١) لاحظ براعة الجاحظ في تبرير غایته .

- اكسير اصحاب الكيمياء : يدعى ايضاً حجر الفلسفة ، وهو مادة كيميائية اعتقاد القدماء انها تحول المعادن الرخيصة الى ذهب .

- انا وجل منبني كنانة : يشير الى اصله ويعتز به . وهو لم يذكر انه مولى كما زعم البعض . مما يدل على صحة نسبه العربي .

- ١٢ -

الشارب والمشروب



لهم إني أسألك سلام

[١ - موضوع الكتاب]

فصل منه : سأّلت - أكرم الله وجهك ، وأدام رُشك ، ولطاعته توفيقك ، حتى تبلغ من مصالح دينك ودنياك منازل ذوي الألباب ، ودرجات أهل الشّواب - أن أكتب لك صفات الشراب والمشروب وما فيها من المذبح والعيوب ، وأن أميز لك بين الأنبلة والخثرة ، وأن أفقك على حد السُّكر ، وإن أعرّفك السبب الذي يرغّب في شرب الأنبلة وما فيها من اجتلاف المتفقة ، وما يكرهه من نبيذ الأوعية .

وقلت : وما فرق ما بين الجر والستاء ، والمرفت والختم والدباء ، وما القول في المُمْتَل والمكسوب ، وما فرق ما بين التقبع والذادي ، وما المطبوخ والبادق ، وما الفريسي والمروق ، وما الذي يحل من الطبيخ ، وما القول في شرب الفضيحة ، وهل يكره نبيذ العكر ، وما القول في معنقي السُّكر ، وأنبلة الـجرار ، وما يعمل من السُّكر ، ولم تُكره النمير والمغير .

وسأّلت عن نبيذ العسل والمعطرات وعن رزين سوق الأهواز ، وعن نبيذ أبي يوسف وجمهور ، والمعلق والمشحوم . والحلو والترش بشيرين ونبيذ

الكشيش والثين ، ولم تُكرِّه الجلوس على البواطي والرَّياحين .

وقلت : وما نصيب الشيطان ، وما حاصل الإنسان ؟

وسألت عن شرب الأنبياء أو كرهها من الأوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأجروبة والسائل ، وما كانوا عليه فيها من الآراء ، وتشبُّهوا فيها من الأهواء ، ولائي سبب تضادٍ فيها الآثار ، واحتللت فيها الأخبار .

[٢ - منافع النبيذ]

وسألت أن أقيس في ذلك إلى الإيجاز والاختصار ، وحذف الإكثار .

وقلت : فإذا جعلَ الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحة بالأشريبة الهيئة المندوحة ، فما تقول فيما خُسِنَ من الأنبياء صفاء ، وبقى مداء ، واشتدت قواه ، وعنت حتى جاد ، وعاد بعد قدم الكون صافٍ اللون ، هل يحصل إليه الاجتماع ، وفي الإكتراع ، إذ كان بهضم الطعام ويوطئه المنام . وهو في لطاف الجسم سارٍ ، وفي خفَّيات المروق جاري ، ولا يضرُّ معه بُرْغوث ولا بعوض ولا جرچس عضوض .

وقلت : وكيف يحصل لك تركُ شربه إذا كان لك مراجفاً ، ولجسمك ملائمة . ولم لا غلت : إن تارك شربه كثارٍ العلاج من أدواء الأدواء وإنَّ كالمعين على نفسه إذا ترك شربه أفعىَ الداء . وأنت تعلم أنك إذا شربته عذلت به طبعتك ، وأصلحت به صفار جسمك ، وأظهرت به حمرة لونك ، فاستبدلت به من السُّقم صحة ، ومن حلول العجز فُؤة ، ومن الكَسْل نشاطاً ، وإلى اللذة انبساطاً ، ومن الغمَّ فرجأ ، ومن الجمود تحرّكاً ، ومن الوحشة أنساً ، وهو في الخلوة خيرٌ ماسِرٍ ، وعند الحاجة خيرٌ ناصر . يترك الفُسْيَفُ و هو مثل أسدٍ

وقلت : الجيد من الأبدلة يُصفِي الذهن ويقوِي الرُّكْن ، ويشدُ القلبَ والظهر ،
ويمعن الضيق والقهر ، ويشحذ المعدة ، وبهيج للطعام الشهوة ، ويقطع عن إثارة
الماء الذي منه جُلُّ الأدواء ، ويحدِرُ رُطوبة الرأس ، ويُريح العطاس ،
ويشدُ البصمة ، ويزيد في النُّطفة ، وتنفِي الفرققة والرُّياح ، ويبعث
الجود والسماح ، ويمعن الطحال من العظام ، والمعدة من التَّخَم ، ويُحرِّك
البيرة والبلغم ، ويلطف دم العروق ويُجريه ، ويرفع ويُصفِي ، ويسط الآمال ،
ويُنعم بالبال ، ويغشى العين في الرُّؤْة ، ويُصفِي البشرة ويترك اللون كالعصر ،
ويُخدر أذى الرأس في المتأخر ، ويموئ الوجه ويُسخن الكلبة ، ويُلذِّ التُّرمَم
ويُحلل التَّخَم ، ويذهب بالإعياء ، ويغدو لطيفَ الغداء ، ويُطَيِّب الأنفاس ،
ويطرد الوسواس ، ويُطَرب النفس ، ويُؤنس من الوحشة ، ويُسكن الرُّوعة ،
ويذهب الحشمة ، ويُقذف فضولَ الصُّلب بالإشاط للجماع ، وفضول المعدة
بالهُرَاع ، ويُشجع المرتاع ويُزهي التَّذليل ، ويُكتَسر القليل ، ويزيد في جمال
الجميل ، ويُسلِّي المُحزن ، كويجمع الذهن ، وينفي الهم ، ويُطرد النَّمَم ،
ويكشف عن قناع الخزم ، ويُولُد في العليم الحلم ، ويُكتفي أصنافات الحلم ،
ويُثْثُ على الضير ، ويُصْبِح من الفكر ، ويُرجِي القانط ، ويُرضي الساخط ،
ويُغْنِي عن الجليس ، ويقسم مقام الأنبياء وحتى إن عَزَّ لم يقتُنْ منه ، وإن
حضر لم يصِرْ عنه ، يدفع التوازن العظيمة ، وينقى الصدر من المخصومة ،
ويزيد في المساغ ، وسخونة الدماغ ، وينشط الباه حتى لا يزيف شيئاً يراه ،
ونقلبه جميع الطبايع ، ويتزرع به صنوف البدائع ، من اللذة والسرور ،
والنُّفَرَة والحبور . وحتى سُمَّ شُربه قصراً ، وسمى فقدُه خسناً . وإن شُربَ
منه الصُّرف بغير مزاج ، تحلل بغير علاج . ويكتفي الأحزان والهموم ، ويندفع
الأهواه والسموم ، ويُفتح الذهن ، وينعن الغبن ، ويلقن الجواب ، ولا يكيد
منه العتاب ، به تمام اللذات ، وكمال المروءات . ليس لي شيءٌ كحلاوته في

النُّفوس ، وَكَسْطُونِهِ فِي الْجَاهِ وَالرُّوْسِ ، وَكَانْشَاطِهِ لِلْحَدِيثِ وَالْجَلوْسِ ، يَحْمِرُ
الْأَلْوَانَ ، وَيُرْتَبُ الْأَبْدَانَ ، وَيَخْلُعُ عَنِ الْطُّرُبِ الْأَرْسَانَ .

[٣ - مساوىء النيد]

وقلت : ومع كل ذلك فهو يُلْجِلُ اللسان ، ويُكثِرُ الْهَذِيَانَ ، وَيُظْهِرُ
الْفَضُولَ وَالْأَخْلَاطَ ، وَيُنَاوِبُ الْكَسْلَ بَعْدَ النُّشُاطِ . فَأَمَّا إِذَا تَبَيَّنَ فِي الرَّأْسِ
الْمَيْلَانُ ، وَاحْتَلَفَ عَنِ الْمُشَيِّرِ الرِّجْلَانِ ، وَأَكْثَرَ الإِخْفَاقِ ، وَالنَّتْخُوخِ وَالْبَصَاقِ ،
وَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْفَقْلَةُ ، وَجَاءَتِ الرِّزْلَةُ بَعْدَ الرِّزْلَةِ وَلَا سَوَاءٌ إِنْ دَسَعَ بِطَعَامِهِ ، أَوْ
سَالَ عَلَى الصُّدْرِ لِعَابِهِ ، وَصَارَ فِي حَدِّ الْمُخْرَفِينَ ، لَا يَفْهَمُ وَلَا يَبْيَسُ ، فَتَلْكَ
ذَلِيلَاتُ النُّكْرِ ، وَظَهُورُ عَلَامَاتِ السُّكْرِ ، يُتَبَيَّنُ الذِّكْرُ ، وَيُورَثُ الْفَكْرُ ، وَيَهْتَكُ
السُّتُّرُ ، وَيُسْقَطُ مِنَ الْجَدَارِ ، وَيُهُوَرُ فِي الْأَبَارِ ، وَيُغَرِّقُ فِي الْأَهَارَ ، وَيَصْرُفُ
عَنِ الْمَعْرُوفِ ، وَيَعْرُضُ لِلْحَسْوَفِ ، وَيَحْمِلُ عَلَى الْهَقْوَةِ ، وَيُؤَكِّدُ الْفَقْلَةَ ،
وَيُورَثُ الصُّبَاحَ أَوِ الصُّمَاتَ ، وَيَصْرُعُ الْفَهْمَ لِلْسُّبَاتِ فَلِغَيْرِ مَعْنَى يَضْحِكُ ،
وَلِغَيْرِ سَبِيلٍ يَمْحَكُ ، وَيَحْبِدُ عَنِ الْإِنْصَافِ ، وَيَنْقَلِبُ عَلَى السَّاَكِتِ الْكَافَ . ثُمَّ
يُظْهِرُ السَّرَّائِرَ ، وَيُطْلِعُ عَلَى مَا فِي الضَّمَائِرِ ، مِنْ مَكْنُونِ الْأَحْقَادِ ، وَخَفْيَ
الاعْتِقادِ .

وَقَدْ يَقْلُ عَلَى السُّكْرِ الْمَتَاعَ ، وَيَطْلُو مِنْهُ الْأَرْقَ وَالصُّدَاعَ ، ثُمَّ يُورَثُ
بِالْفَتَوَاتِ الْخُمَارَ ، وَيَخْتَلُ سَائِرُ النَّهَارِ وَيَمْنَعُ مِنْ إِقَامَةِ الصُّلُواتِ ، وَفَهْمِ
الْأَوْقَاتِ ، وَيَقْعِبُ النَّلَّ ، وَيَقْعِبُ فِي الْفَلُوبِ الْغَلْلِ ، وَيَجْفَفُ الْعَظْمةُ ، وَيُورَثُ
الرُّعْشَةُ ، وَيُولَدُ الصُّنَافَارُ ، وَضَرْوَبُ الْعَلَلِ فِي الْإِبْصَارِ ، وَيَقْعِبُ الْمَرَازِالُ ،
وَيَجْحِيْفُ بِالْعَالَ وَيَجْفَفُ الْطَّبِيعَةُ وَيَقْوِيُ الْفَاسِدَ مِنَ الْبَرْمَةِ وَيُذَيلُ النَّفْسَ ،
وَيَفْسِدُ مِزَاجَ الْجَسَنِ ، وَيُحَدِّثُ الْفَتْوَرَ فِي الْقَلْبِ ، وَيُبَطِّلُهُ عَنِ الْجِمَاعِ
الصَّبَّ ، حَتَّى يَحْسَدَتْ مِنْ أَجْلِهِ الْفَقْنَ ، الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَقْنٌ ، وَيَحْمَلُ عَلَى

المظالم ، وركوب العاثم ، وتضييع الحقوق حتى يقتل من غير علم ، ويُكفر
من غير فهم .

[٤ - أنواع النبيذ]

فصل منه : وقلت : ومن الحلو في المعيد التحْم ، وفي الأبدان التَّحْم ،
وللشرش شيرين رياح كمثل رياح العَدَس ، وحموضة تولد في الأسنان
الضرس .

والسكر فحسبك بفرط مراته ، وكسوف لونه ، وبشاشة مذاقه ، ونفار
الطبيعة عنه .

وأنواع ما يعالج من التّمور والجحوب فشربها الداء العضال .

وللمسجور ، والبتي ، وأشاهها يُدوره ترسب في المعدة ، وتولد بين
الجلدتين المحكمة . وأشاه هذا كثيرة تزكّت ذكرها ، لأنّي لم أُقيِّد بالمسألة
أبغي منك تحليل ما يجلب المضرّة .

ولكن ما تقول فيما يسرُك ولا يسوّك ، وما إذا شربته تلقته العروق فاتحة
أفواهها كأفواه الفراخ ، محسّناً للون مللة للنفس ، يجثم على المعدة ، ويزود
في العروق ، ويقصد إلى القلب فيولد فيه اللثة ، وفي المعدة الهضم ، وهو
غسلوها ونضوها ، ويسرع إلى طاعة الكبد ، ويقيس بالعجل إلى الطحال ،
ويتنفس منه العروق ، وتظهر حمرّته بين الجلدتين ، ويزيد في اللون ، ويولد
الشجاعة والشّخاعة ، ويزرع من اكتنان الصفن ، ويعقّى على تغير النّكهة ،
ويُنفي الدّفر ، ويسرع إلى الجبهة ، وينفع عن الصُّلاء ، ويعنِّي القرّ !

وما تقول في نبيذ الرّزيب الجهنمي والغسل المائي إذا تزود لونه ،
وتقادم كونه ، ورأيت حمرّته في صفرته تلوح . تراه في الكأس لكانه بالشمس

ملتحف ، شعاعه يضحك في الأكفت ؟

وما تقول في عصير الكرم إذا أخذت طبخه وأنعمت إنصاصجه ، وأحسن
الذئن بناتجه ، فإذا فض عن غضارة قد صار في لون البِجلادي في صفاء باقوتية
تلمع في الأكفت لمع الدُّناني ، ويضي كالشهاب المتقد .

وما تقول في نبيذ عسل مصر ، فإنه يؤدي إلى شاربه الصحيح من فهم
الزُّعفران ، لا يُلِيس الخلقان ولا يوجد إلا في جُدد الدُّنان ، ولا يستخدم
الأنجاس ولا يألف الأرجاس . وكذلك لا يزكي على علاج الجُبُب والحالض ،
ولا ينفع على شيء من الأجسام لونه حتى لو غُمِس فيه قطن لخرج أيض
يقفأ . وحسبك به في رقة الهراء ، يكتدره صافي الماء ، وهو مع ذلك كالهربز
ذي الأشبال ، المفترس للأقران ، من عاقره عقره ، ومن صارعه ضرره ؟

وما تقول في زين الأهاواز من زبيب الداقيد إذ يعود صلباً من غير أن
يُسلِّم سُلَافَه ، أو يُمطَاط عنده ثقله ، حتى يعود كلون العقيق ، في رائحة المisk
العقيق . أصلب الأبنية عريكة ، وأصلبها صلابة ، وأشدُّها خشونة . ثم لا
يستعين بعسل ولا سُكُر ولا دُوشاب . وما ظنُوك به وهو زبيب نقيع ، لا يشتُد
ولا يوجد إلا بالضرب الوجيع ١٩

وما تقول في الدُّوشاب البُستانى ، سُلالة الرُّطب الجفني بالحُبُّ الرتيلي ،
إذا أوجع ضرباً ، وأطيل خسا ، وأعطى صفرة وفتح رفنه ، ويندل ما عنده ،
فيإذا كُثُيف عنه قباغ الطُّين ظهر في ثون الشُّقر والكفت وستطع برائحة
كالمisk . وإذا هَجَمَ على المعدنة لانت له الطُّبائع ، وسلَّست له الأمعاء ،
وأيَّسَ الحُصُر ، وانقطع طمع القوائج ، وانقادت له اليُومة ، وأذعنَت له
بالطَّاعة ، وابتلَّ به الجلد القُفل ، وارتَحل عنده البَاسور ، وكفى شاربه الوخز .
فيإذا شُجَّ بما يَنْظُلُ ورمي بشرره ، هل يحلُّ أن يُشعشع إذا سُكِّن جأسه ،
وابَّ إلَيه حلمه .

وما تقول في العنت من أبلة التمر ، فإنك تنظر إليه وكأن النيران تلسع من جوفه . قد ركذ ركود الزلال حتى لكان شاربه يكرع في شهاب ، ولكن بربند في وجه سيف . وله صفيحة مرآة مخلوقة تحكي الرؤوبة في الزجاجة ، حتى يهم فيها الجلاس !

وما تقول في نيد الجزر ، الذي منه تمتد النطفة وتشتد النقطة ، يجلب الأحلام ، ويركذ في مُنْ العظام !

وما تقول في نيد الكشمش الذي لونه لون زمرة خضراء صافية ، محكم الصلابة ، مقرط الحرارة ، حديد السورة ، سريع الإفادة عظيم المؤونة ، قصير العمر ، كثير العلل ، جم البدوات تطعم الآفات فيه ، وتسرع إليه !

وما تقول في نيد التين فإنك تعلم أنه مع حرارته لين العريكة ، سلس الطبيعة ، عذب المذاق ، سريع الإطلاق ، مرفق للغروف ، نصوح للكبش فتاح للسداد ، غسال للأمعاء ، هياج للباء ، أحاذ للثمن ، جلاب للمؤمن ، مع كسوف لون وقبع منظر !

وما تقول في نيد السكر الذي ليس مقدار المتنفع به على قدر المؤونة فيه ، هل يوجد في المحصول لشربه معنى معقول !

وما تقول في المروق والغربي والفضييخ ؟ ألل مشروبات في أزمانها وانفع ما خودات في إيانها . أقل شيء مؤونة ، وأحسن شيء معونة ، وأكثر شيء قسوة ، وأسرعه بلوعة ، ضموزات عروفات للرجل الوفرات . ولها أرياح على الشاهسترم كاذكي رائحة تشم ، أقل المشروبات صداعاً ، وأشدُّهن خداعاً .

فصل منه : وكرمت أيضاً تقليد المختلف من الآثار فأكون كحاطب ليل ، دون التأمل والاعتبار بأن ظلام الشك لا يجعله إلا يفتاح اليقين .

[٥ - الرد على اسئلة السائل]

قد فهمت - أسعذك الله تعالى بطاعته - جميع ما ذكرت من أنواع الأبدية ، وبديع صفاتها ، والفضل بين جيدها ورديها ، ونافعها وضارها ، وما سألت من الالتفاف على حدودها . ولا زلت من عداد من يسأل ويتحث ، ولا زلنا في عداد من يشرح ويقصص .

[٦ - هناك فرق بين الخبر والنبيذ]

اعلم - أكرمك الله - أنك لو بحثت عن أحوال من يتوثر شرب الخمر على الأنبياء ، لم تجد إلا جاهلاً مخدولاً ، أو حذذاً مغورراً ، أو خليعاً ماجناً ، أو رعاعاً همجاً ؛ ومن إذا غدا بهيمة ، وإذا ران نعامة ، ليس عنده من المعرفة أكثر من انتقال القول بالجماعة ؛ قد مزج له الصحيح بالمحال ، فهو مدین بتقليد الرجال ، يُشجع الرأاح ، ويحرّم المباح ، فمتى عذله عاذل ووعظه واعظ قال : الأشربة كلها خمر ، فلا أشرب إلا أجوئها .

وقد أحبت - أيك الله - التوثق من إصراء فهمك ، وستوت علينا بالتعريض فقدت لك من التوثيق ما يسهل [لك] سبيل المعرفة . وذلك إلى مثلك من مثل حزم سينا فيما خفيت معالمه ودرست مناهجه ، وكثرت شبهه ، واشتدَّ غموضه .

ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاصَ على البرهان في إظهاره ، واحتجت في الإبانة عنه إلى ذكر ضلْه ، ونظيره وشكْلِه ، لم أحتشم من الاستعانة بكل ذلك . فكيف والقدرة - بحمد الله - وافرة ، والمحجة واضحة .

قد يكون الشيء من جنس الحرام فيعالج بضرب من العلاج حتى يتغير

بلون يحذّث له ، ورائحة وطعم ونحو ذلك ، فيتغّير لذلك اسمه ، ويصير
حلاًّ بعد أن كان حراماً .

فصل منه : فإن قال لنا قائل : ما تدرؤن ، لعل الأنبياء قد دخلت في
ذكر تحريم الخمر ، ولكن لما كان الابتداء أجري في ذكر تحريم الخمر ،
خرج التحرير عليها وحدها في ظاهر المخاطبة ، ودخل سائر الأشربة في
التحريم بالقصد والإرادة .

قلنا : قد علمنا أن ذلك على خلاف ما ذكر السائل ، لأسباب موجودة ،
وعلل معروفة .

[٧ - الصحابة ميزوا بين الفرائض والمسكرات]

منها : أن الصحابة الذين شهدوا نزول الفرائض ، والتابعين من بعدهم ،
لم يختلفوا في قاذف المحضين أن عليه الحد ، وختلفوا في الأشربة التي
تسكر ، ليس لجهلهم أسماء الخمور ومعانها ، ولكن لأن الخبر المروية في
تحريم المُسْكَر ، والواردة في تحليلها .

ولو كانت الأشربة كلها عند أهل اللغة في القديم خمراً لاما احتاجوا إلى
أهل الروايات في الخمر ، أي الأجناس من الأشربة هي؟ كما لم يخرجوها إلى
طلب معرفة العبيد من الإمام .

وهذا باب يطول شرحه إن استقصيَت جميع ما فيه من المسألة
والجواب .

وما يُنكر من خالقنا في تحليل الأنبياء مع إقراره أن الأشربة المُسْكَرة
الكثيرة لم تزل معروفة بأسمائها وأعيانها ، وأجناسها وبُلدانها ، وأن الله تعالى
قصد للخمر من بين جميعها فحرّمها ، وتترك سائر الأشربة ملتفاً مع أجناس

[٨ - حرم الله أشياء وحلل سائر اجتناسها]

والدليل على تجويه ذلك أنَّ الله تعالى ما حرم على الناس شيئاً من الأشياء في القديم والحديث إلا أطلق لهم من جنسه ، وأباح من ينبعه ونظيره وشبيهه ، ما يعمَل مثل عمله أو قريباً منه ، ليغتنيهم بالحلال عن الحرام . أعني ما حرم بالسمع دون المحروم بالعقل . قد حرم من الدم المسقوف ، وأباح غير المسقوف ، كجamide دم الطحال والكبد وما أشبههما ، وحرم الميَّة وأباح الذكية . وأباح أيضاً مينة البحر وغير البحر ، كالجراد وشبيهه ، وحرم الربا وأباح البيع ، وحرم بيع ما ليس عندك وأباح السُّلْم ، وحرم الفُسْرِم وأباح الصلح ، وحرم السُّفَاح وأباح النُّكاح . وحرم الخنزير وأباح الجندي الرُّضيَّع ، والخروف والمحوار .

والحلال في كل ذلك أعظم موقعاً من الحرام .

[٩ - أهل المدينة حرموا النبي ولكنهم ليسوا حججاً]

فصل منه : ولعل قائلًا يقول : وأهل مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسكان حرمته ودار هجرته ، أبصَرُ بالحلال والحرام ، والمُسْكِر والخمر ، وما أباح الرسول وما حظره ، وكيف لا يكون كذلك والذين ومعالمه من عندهم خرج إلى الناس ؛ والسوحي عليهم نَزَل ، والنبي صلى الله عليه وسلم فيهم دُفِن . وهم المهاجرون السابقون ، والأنصار المؤثرون على أنفسهم . وكلهم مُجتمع على تحريم الأنبياء المُسْكِرة ، وأنها كالخمر .

وخلقهُم على منهاج سلفهم إلى هذه الغاية ، حتى إنهم جلدوا على

وكيف لا يفعلون ذلك ويدينون به وقد شهدوا من أشهدهم النبي صلى الله عليه وسلم قد حرمها وَدَهَا ، وأمر بجلد شاربها .

ثم كذلك فعل أئمة الهدى من بعده . فهم إلى يوم الناس على رأي واحد ، وأمير متفق ، ينهون عن شربها ، ويجيلتون عليها .

وإنا نقول في ذلك : إن عظيم حق البلدة لا يجعل شيئاً ولا يحرمه ، وإنما يُعرف الحلال والحرام بالكتاب الناطق ، والأشنة المجتمع عليها ، والعقول الصحيحة ، والمقاييس المُصيبة .

وبعد ، فمن هذا المهاجرى أو الأنصارى ، الذي روى عنه تحرير الأنبية ثم لم يرروا عنه التحليل ؟ بل لو أنيفت القائل لعلم أنّ الذين من أهل المدينة حرموا الأنبياء ليسوا بأفضل من الذين أخلوا النكاح في أدبار النساء ، كما استحلّ قومٌ من أهل مكة عارية الفروج ، وحرّم بعضهم ذيائع الزنوج ، لأنّهم فيما زعموا مشوهو الخلق . ثم حكموا بالشاهد واليمين خلافاً لظاهر التنزيل . وأهل المدينة وإن كانوا جلدوا على الريح الخفي فقد جلدوا على حمل الرزق الفارغ ، لأنّهم زعموا آلة الخمر ، حتى قال بعض من ينكر عليهم : فهلا جلدوا أنفسهم ؟ لأنّه ليس منهم إلا ومحه آلة الزنى ! وكان يجب على هذا العشال أن يحكم بقتل ذلك على حامل الشيف والسكنين والسم القاتل ، في نظائر ذلك ، لأنّ هذه كلّها آلات القتل .

[١٠ - مفتوحة المدينة شربوا الخمر ولم يحدّهم أحدهما]

وبعد ، فأهل المدينة لم يخرجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كلّ ما يقولونه حقاً وصواباً جلدوا من كان في دار معبد ، والغريض ، وابن سرّيج ، وذخمان وابن محريز وعلويه وابن جامع ، ومخارق ، وشرابك ،

ووكيع ، وخماد ، وإبراهيم وجماعة التابعين ، والسلف والمتقدّمين ؛ لأنّ هؤلاء فيما زعموا كابنوا يشربون الأنسنة التي هي عندهم خمر ؛ وأولئك كانوا يعالجون الأغاني التي هي جل طلاق ، على نقر العيadan والطناير ، والنابات والصنج والرُّنْج ، والمعازف التي ليست محرومة ولا منها عن شيء منها .

ولو كان ما خالفونا فيه من تحليل الأنسنة وتحريمها ، كالاختلاف في الأغاني وصفاتها وأوزانها ، واختلاف مخارجها ، ووجوه مصارفها ومجاريها ، وما يدمج ويوصل منها ، ولما للحنجرة والحنك والتفس واللهوات وتحت اللسان من نعمتها . وأي الدساتين أطرب ، وأي أصوب ، وما يحفر بالفهم أو يحرك بالضم ؟ وكالقول بأن الهزج بالبتر أطيب ، أو بالوسطي ؟ والسرير على الزير اللد ، أو على المتنى ؟ والمتصعد في لين أطرب أم المخدّر في الشدة ؟ لسهيل ذلك ولسلمانا علمه لعن يدعنه ، ولم تجاذب من يدعني دوننا معرفته .

فصل منه : ولهج أصحاب الحديث بحكم لم اسمع بمثله في تزييف الرجال ، وتصحيح الأخبار . وإنما اكثروا في ذلك ، لتعلم خيدهم عن التفتيش ، ومباهتهم عن التنوير ، وانحرافهم عن الإنصاف .

[١١ - غرض الكتاب الأساسي]

فصل منه : والذي دعاني إلى وضع جميع هذه الأشربة والوقوف على أجناسها وبلدانها ، مخافة أن يقع هذا الكتاب عند بعض من عساه لا يعرف جميعها ، ولم يسمع بذكرها ، فبنوهم آتي في ذكر أجناسها المستثنية وأنواعها المبتَدعة ، كالهادي برقة الغرب ، وإن كان قصدي لذكرها في صدر الكتاب لأفف على خلالها وحرامها ، وكيف اختلفت الأمة فيها ، وما سبب اعتراض الشك واستكمان الشبهة ، ولأن أختنج للمباح وأعطيه حقة ، وأكثف أيضاً عن

المحظوظ فأقيمت له قسطه ، فـأكـون قد سـلكت بالحرام سـبيله ، وبالحلال منهـجه ، اقتداءً مني يقول الله عـز وجلـ : « يـأيـها الـذـين آمـنـوا لـا تـحـرـمـوا طـيـباتـ ما أـخـلـ اللـهـ لـكـمـ وـلـا تـغـدـلـوا إـنـ اللـهـ لـا يـبـعـدـ الـمـغـتـبـينـ » .

وقد كـتـبتـ لكـ أـكـرـمـكـ اللهـ - فـي هـذـا الـكـتـابـ مـا فـي الـجـزاـيـةـ وـالـكـفـاـيـةـ ، وـلـو بـسـطـتـ القـوـلـ لـوـجـدـتـهـ مـشـعاـ ، وـلـأـنـكـ مـنـهـ الـدـفـمـ . وـرـبـماـ [كانـ] الـإـقـلـالـ فـي إـيجـازـ أـجـدـىـ مـنـ إـكـثـارـ يـعـافـ عـلـيـهـ الـمـلـلـ . فـخـلـطـتـ لـكـ جـداـ بـهـزـلـ ، وـقـرـنـتـ لـكـ حـجـةـ بـمـلـحةـ ، لـتـجـفـ مـؤـنةـ الـكـتـابـ عـلـىـ الـقـارـيـهـ ، وـلـيـزـيدـ ذـلـكـ فـي نـشـاطـ الـمـسـتـبـعـ ، فـجـعـلـتـ الـهـزـلـ يـثـدـ الـجـدـ جـمـاماـ ، وـالـمـلـحةـ بـعـدـ الـحـجـةـ مـسـرـاحـاـ .



لهم إني أسألك سلامك

١٢ - هامش رسالة الشارب والمشروب

- (١) الجر والسلقاء والمزفت والختنم والذباء : انواع من الجرار والاواعية التي يوضع فيها النبيذ .
- الممثل والمكسوب : النبيذ المعالج بالرماد والحرارة .
 - الداذني : نبات عتقدى حبه يشبه الشعير ، له رائحة زكية .
 - الباذق : الخمر الاحمر .
 - الغربي : النبيذ المصنوع من عصير العنب وحده .
 - المرموق : المصفى .
 - الفصبع : نوع من النبيذ المصنوع من عصير العنب ، الغربي الفصبع .
 - التغبر : اصل النخلة ينفر ويتحذ وعاء للنبيذ .
 - المقبر : الزق المطلي بالقار .
 - الترش شيربين : الخامض والحلو .
- (٢) مساق النبيذ . ورد معظمها في رسالة مدح النبيذ وصفة اهله منها الشفاء من الامراض ، وشحذ الذهن ، وواحة البال ، والدف ، والبعث على السرور ، والوجود والظرف ، ونسيان الهموم .
- (٣) مساوى ، النبيذ : الجاخط يتغول الشيء ، وضده عدل بمنهجه الجدي : ان مساوى ، الخمر هي السكر والهذيلان . والكليل ، والاستراغ او التغبر ، وإنثاء الاسرار ، والمنع من اداء الصلاة .
- (٤) انواع النبيذ : شرحنا معانبها في الفقرة الاولى .

- (٥) الرد على استلة السائل : هذه هي طريقة الجاحظ : يتخيل شخصاً يطرح عليه المسائل في صدر الرسالة ، فيجيب عليها في مؤخرتها .
- (٦) ليس عنده من المعرفة أكثر من اتحال القول بالجماعة : براء بالجماعة أهل السنة والجماعة . ويدو انهم شددوا في شرب النبيذ واعتبروه حمراً مسكراً .
- (٧) اختلف المسلمون في مسألة تحريم المسكرات ، ورووا اخباراً متباينة بعضها يحل وبعضها يحرم .
- ورأى الجاحظ هو ان الاشربة ليست كلها حمراً والدليل على ذلك تمييز اهل اللغة بينها وبين اجناسها .
- (٨) الامثلة التي يسوقها الجاحظ على المحللات والمحرمات التي تنتهي الى اصل واحد تدل على مقدارته الجدلية : الدم المسفوح وغير المسفوح ، المينة والذكية ، مينة البحر وغير البحر . النكاح والسفاح ، الربا والبيع ، الخنزير والجدي .
- (٩) المرجع في التمييز بين الحلال والحرام هو القرآن والسنّة والعقل والقياس . وهي اصول الفقه الاربعة الى جانب الاجماع . والعقل يقابل الاجتهد .
- (١٠) اهل المدينة معروضون كسائر الناس للخطأ ، وقياسهم غير صحيح .
- معبد بن وهب عاش في مطلع دولةبني أمية وادرك دولةبني العباس . من كبار المغافن .
 - الغريض : مغن جميل الوجه يجيد ضرب العود والدف توفي عام ٩٥ هـ
 - ابن سريح : مغن مات في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان .
 - دحمان ، عبد الملك بن عمرو ، عاش في مطلع الدولة العباسية واعطاه المهدي خمسين الف دينار في ليلة واحدة .
 - محرز : مسلم بن محرز ، لقب بصناعة العرب ، وجاب بلاد العراق والفرس والشام .
 - علوية ، علي بن عبد الله بن يوسف ، تلمنذ على ابراهيم الموصلي وغنى للامين وعاش حتى ادرك المتوكل .
 - ابن جامع : مغن ورع وفقه ، غني للرشيد - مخارق الجزار : مغن ومولى للرشيد .
 - شريك النخعي توفي سنة ١٧٧ هـ - وكيع الرؤاسي الكوفي توفي سنة ١٩٦ هـ فقيه

- حماد بن سلمة بن دينار البصري توفي سنة ١٦٧ هـ فقيه . - ابراهيم التخمي (٨١٥) فقيه ورع .
- الدساتين : رباطات الأوتار - الزير ، المثنى ، المصعد : من اوتار العود .
- (١١) الدهم : الكثير ، الجزاية : الاجزاء .



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

- ١٣ -

البلاغة والإيجاز



لهم إني أسألك سلام

فصل منه : قال عمرو بن يحيى الجاحظ : درجت الأرض من العزب
والعجم على إيثار الإيجاز ، وحمد الاختصار ، وذم الإكثار والتطويل والتكرار ،
وكل ما فضل عن المقدار .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً الصمت ، دام السكت
يتكلّم بجواب مع الكلم ، لا فضل ولا تقصير ، وكان يبغض الفرثارين
المتشدّقين .

وكان يقال : أفعص الناس أسهلهم لفظاً ، وأحسنهم بدبيه .
والبلاغة إصابة المعنى والقصد إلى الحجة مع الإيجاز ، ومعرفة الفضل
من الوصل .

وفيل : العاقل من خزن لسانه ، وزن كلامه ، وخفت الدامة .
وحسن البيان محمود ، وحسن الصمت حُكْم .

وربما كان الإيجاز مموداً ، والإكثار منعوماً . وربما رأيت الإكثار أَحَمَّ
من الإيجاز . ولكل مذهب وجه عند العاقل . ولكل مكان مقال ، ولكل كلام

جواب . مع أن الإيجاز أسهل مِراما وأيسر مطلبًا من الاطناب ، ومن قدر على الكثير كان على القليل أقدر .

والتقليل للتخفيف ، والتطويل للتعریف ، والتكرار للتوکید ، والإکثار للتشدید .

فصل منه : وأما المذموم من المقال ، فما دعا إلى الملل ، وجمازو المقدار ، واشتمل على الإکثار ، وخرج من مُخبرى العادة .

وكُلُّ شيءٍ أفرط في طبعه ، وتجاوز مقدار وسِعِه ، عاد إلى ضُدَّ طباعه ، فتحول البارد حاراً ، وبصیر النافع ضاراً ، كالصندل البارد إن أفرط في حَكَّه عاد حاراً مؤذياً ، [و] كالثلج يُطفئ ، قليلاً الحرارة ، وكثيرةً يحرّكها .

وكذلك القرد لما فرط قبّحه ، وتناهت سماحته استُمْلخ واستُنْظر .

وإلى هذا ذهبَ من غَدِ الإکثار عيّاً ، والإيجاز بлага .

- ١٤ -

تفضيل النطق على الصمت



لهم إني أسألك سلام

[١ - مدخل : كتاب تلقاء بعد الصمت وبين الكلام]

فصل منه : أمني الله إيك وأبقى بعنه عندك ؛ وجعلك ممن إذا عرف الحق انقاد له ، وإذا رأى الباطل أنكره وتخرج عنه .

قد قرأت كتابك فيما وضفت من فضيلة الصمت ، وشرحت من مناقب السكوت ، ولخصت من وضوح اسبابهما ، وأحمدت من منفعة عاليتهما وخزنت في مجرى فنون الأقاويل فيها ، وذكرت إلك وجدت الصمت أفضل من الكلام في مواطن كثيرة وإن كان صوابا ، وأفيت السكوت أحمس من المنطق في مواضع جمئ ، وإن كان حقا .

وزعمت أن اللسان من مسالك الحنا ، الجالب على صاحبه البلاء .

وقلت : إن حفظ اللسان أمثل من التورط في الكلام .

وسميت الغبي عاقلا ، والصامت حليما ، والساكت لبيا ، والمُطرِق مفكرا . وسميت البلبل بمكارا والخطيب مهذارا والقصيغ مفترطا ، والمنطق مطينا .

وقلت : إنك لم تندم على الصمت قط وإن كان منك عيناً ، وإنك ندمت على الكلام مراراً وإن كان [منك] صواباً .

واحتجاجك في ذلك يقول كسرى أنو شروان ، واعتصامك فيها بما سار من أقاويل الشعراء والمُشَيَّق من كلام الأدباء ، وإفراطهم في مذنة الكلام ، وإطنانهم في محملة السُّكوت .

وأتيت - حفظك الله - على جميع ما ذكرت من ذلك ، ووصفت ولخصت ، وشرحت وأطببت فيها وفرطت بالفهم ، وتصفحتها بالعلم ، وبحثت بالحزم ، ووعيت بالعزم ، فوجدتها كلاماً امرئاً قد أعجب برؤيه وارتضى في هواه ، وظنَّ أنه قد نسج فيها كلاماً ، واللف ألفاظاً ونسق له معانٍ على نحو مأخذك .

ومقصده أن لا يلقي لها ناقضاً في دهره بعد أن أبزمهما ، ولا يجد فيها مناوياً في عصره بعد أن أحكمها . وأنْ حُجَّته قد لزمه جميع الأيام ، ودحضت حُجَّةَ فاطمةِ أهلِ الأديان ، لما شرح فيها من البرهان ، وأوضحت بالبيان . وحتى كان القولُ من القائل نقضاً ، ورفع الوصف من الواصف تغلباً ، وكان في موضع لا ينزعه فيه أحد ، وقلما يجد من يخالصه ، ولا يلقي أبداً من يناسبه ، وصار فليجاً [بحجه] أو حدياً في لهجته ، إذ كان محله محل الوحدة ، والأئس بالخلوة ، وكان مثله في ذلك [مثل] من تخلص إلى العايم وحده فليج بحجه .

وإني سأوضح ذلك ببرهان قاطع ، وبيان ساطع ، وأشرح فيه من المُحجج ما يظهر ، ومن الحق ما يُفهَر ، بقدر ما أنت عليه معرفتي ، وبلغته قُوّتي ، وملكته طاقتى ، بما لا يستطيع أحد رده ، ولا يمكنه إنكاره وجحده . ولا قوة إلا بالله ، وبه أستعين ، وعليه أتوكل وإليه أُنِيب .

[٢ - الكلام اداة التعبير عن الحاجات]

إني وجدتُ فضيلة الكلام باهرةً ، ومتقبة المنطبق ظاهرةً ، في خلال كثيرة ، وحصل معرفة .

منها : أَنَّكَ لَا تَزُدُّي شُكْرَ اللهِ وَلَا تَقْدِرُ عَلَى إِظْهَارِهِ إِلَّا بِالْكَلامِ .

ومنها : أَنَّكَ لَا تَسْتَطِعُ الْعَبَارَةَ عَنْ حَاجَاتِكَ وَالْإِبَانَةَ عَنْ مَأْرِبِكَ إِلَّا بِالْلُّسَانِ . وَهَذَا فِي الْعَاجِلِ وَالْأَجِلِ مَعَ أَشْيَاءَ كَثِيرَةَ لَوْيَنْحُورُهَا إِلَيْهَا لَوْجَدَهَا فِي الْمَعْقُولِ مَوْجُودَةً ، وَفِي الْمَحْصُولِ مَعْلُومَةً وَعِنْدِ الْحَقَائِقِ مَشْتَهَرَةً ، وَفِي التَّدْبِيرِ ظَاهِرَةً .

[٣ - الكلام يميز الإنسان عن الحيوانات والجمادات]

ولم أَجِدْ لِلصُّمَتِ فَضْلًا عَلَى الْكَلامِ مَمَّا يَحْتَمِلُهُ الْقِيَاسُ ، لَأَنَّكَ تُصْفِي الصُّمَتَ [بِالْكَلامِ] ، وَلَا تُصْفِي الْكَلامَ بِهِ . وَلَوْ كَانَ الصُّمَتُ [أَنْفَضَلُ وَالْمُكْتُوتُ أَمْثَلُ لِمَا عُرِفَ لِلْأَدْمِينِ فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِمْ] ، وَلَا فُرْقٌ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ شَيْءٍ مِّنْ أَنْوَاعِ الْحَيْوَانِ وَأَخْيَافِ الْخَلْقِ فِي أَصْنَافِ جَوَاهِيرِهَا وَالْخَلْلَافِ طَبَائِعُهَا ، وَافْتَرَاقُ حَالَاتِهَا وَأَجْنَاسِهَا فِي أَعْيَانِهَا وَأَلْوَانِهَا . بَلْ لَمْ يَمْكُنْ أَنْ يَمْيِيزَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْأَصْنَامِ الْمَنْصُوبَةِ وَالْأَوْنَانِ الْمَنْحُوتَةِ ، وَكَانَ كُلُّ قَائِمٍ وَقَاعِدٍ ، وَمَنْحُرُونَ بِوَسَاكِنٍ ، وَمَنْصُوبٍ وَثَابِتٍ ، فِي شَرْعٍ سَوَاءٍ وَمَنْزَلَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَقِسْمَةٍ مُّشَاكِلَةٍ ؛ إِذَا كَانُوا فِي مَعْنَى الصُّمَتِ بِالْجُنْحَةِ وَاحِدَةً ، وَفِي مَعْنَى الْكَلامِ بِالْمَنْطَقِ مُتَبَايِنًا . ولذلك صارت الأشياء مختلفة في المعاني ، موتلفة الأشكال ، إذ كانت في أشكال خلقتها متقدمة بتركيب جواهرها ، وتاليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفي معنى الكمال متباعدة عند مفهوم نعماتها ، ومنظوم الفاظها ، وبيان معاليها وعَدَلْ شواهدَها .

مع آنني لم أنكر فضيلة الصمت ، ولم أهجن ذكره إلا أن فضله خاصٌ دون عام ، وفضل الكلام خاصٌ وعام ، وأن الاثنين إذا اشتتم عليهمما فضل كان حظهما أكثر ، ونصيبيهما [أوفر من الواحد . ولعله أن يكون بكلمة واحدة نجاة [خلقي ، وخلاصٌ أمّة .

ومن أكثر ما يذكر للساكت من الفضل ، ويُوصف له من المُنيبة أن يقال يسكت ليتوفى به عن الإثم ، وذلك فضل خاصٌ دون عام .

ومن أقل ما يحتمكم عليه أن يقال غبيٌ أو جاهمل ، فبكون في ذلك لازم ثبٰ على التوهم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهمل عليه ما ورط فيه صاحبه من الوزر .

والذي ذُكر من تفضيل الكلام ما ينطبق به القرآن ، وجاءت فيه الروايات عن الثقات ، في الأحاديث المتفقون ، والأفاسيس المروريات ، والسمّر والحكايات ، وما تكلمت به الخطبة ونطقت في البلقة - أكثر من أن يُبلغ آخرها ، ويدرك أولها ، ولكن قد ذكرت من ذلك على قدر الكفاية ، ومن الله التوفيق والهداية .

ولم تَرِ الصمت - أسعذك الله - أَحَمَّ في موضع إلاإ وكان الكلام فيه أَحَمَّ ، لتسارع الناس إلى تفضيل الكلام ، لظهوره عليه ، ووضوح جليته ، ومغبّة نفعه .

[٤ - الكلام ينبعي صاحبه]

وقد ذكر الله جلٌ وعزٌ في قصّة إبراهيم عليه السلام حين تكثّر الأصنام وجعلها جدّاً ، فقال حكاية عنهم : « قاتلوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهِيَّاتِ بِإِبْرَاهِيمَ . قَالَ بَلْ فَعَلْتَ كَيْرُومَ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَقُونَ » . فكان كلام

سِيَّاً لنجاته ، وعلة لخلافه ، وكان كلامه عند ذلك أَحْمَدَ من صمت غيره في مثل ذلك الموضوع ، لأنَّه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إِيَّاه لم يكن سكوتُه إِلَّا على بَصَرٍ وعلم ، وإنما تكلَّم لأنَّه رأى الكلام أَفْضَلَ ، وأنَّ من تكلَّم فَأَحْسَنَ قَدْرَ أَن يسْكُتْ فَيُحِسِّنَ ، وليس من سكت فَأَحْسَنَ قَدْرَ أَن يتكلَّم فَيُحِسِّنَ .

واعلم - حفظك الله - أنَّ الكلام سبب لإيجاب الفضل ، وهداية إلى معرفة أهل الظلول .

[٥ - الكلام بين فضل صاحبه]

ولولا الكلام لم يكن يُعرَفُ الفاضلُ من المفضول ، في معانٍ كثيرة ، لقول الله عَزُّوجلُّ ، في بيان يوسف عليه السلام وكلامه عند عزيز مصر ، لما كُلِّمه فقال : « إِنَّكَ الْيَوْمَ لَذَّيْنَا مَكِينٌ أَبِينَ ». فلو لم يكن يوسف عليه السلام أَطْهَرَ فضله بالكلام ، والإفصاح بالبيان ، مع تحابيه المُورقة ، وأخلاقه الظاهرة ، وطبيعته الشريفة ، لما عَرَفَ العزيز فضله ، ولا بلغ تلك المنزلة لديه ، ولا حلَّ ذلك الم محلُّ منه ، ولا صار عنده بموضع الأمانة ، ولكنَّ في عدادِ غيره ومنزلة سواه عند العزيز . ولكنَّ الله جعل كلامه سِيَّاً لرفع منزلته ، وعُلُوًّاً مرتبته ، وعلة لمعرفة فضيلته ، ووسيلة لفضيل العزيز إِيَّاه .

[٦ - الكلام دليل على الإيمان والشريعة]

ولم أر للصمت فضيلة في معنى ولا للسكوت مُنْقَبة في شيء إِلَّا وفضيلة الكلام فيها أكثر ، ونصيب المنطق عندها أوفر ، واللُّفْظُ بهاأشهر . وكفى بالكلام فضلاً ، وبالمنطق مُنْقَبة ، أنَّ جعلَ الله الكلام سبيلاً تهليلاً وتحميلاً ، والذِّلْلُ على معالم دينه وشرائع إيمانه ، والذِّلْلُ إلى رضوانه . ولم يرضَ من

أحد من خلقه إيماناً **إلا** بالإقرار ، وجعل مسلكه اللسان ، ومحراه فيه البيان ، وصيغة المعبر عنا يُصره والمُبين عما يُخبره ، والمنفي عن مالا يستطبع بيانه **إلا** به . وهو ترجمان القلب . والقلب وعاء واع .

ولم يحمد الصمت من أحد **إلا** توقياً لعجزه عن إدراك الحق والصواب في إصابة المعنى . وإنما قاتل النبي صلى الله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إيه ، ليُقرُّوا به ، فإذا فَعَلُوه حِقْنَت دُماؤهم ، وحَرَّمْت أموالهم ، وزُبِّعْت ذُمَّتهم . ولو آتُهم سكتوا ضئلاً بذيهن لم يكن سبُّهم **إلا** العطاب .

فاعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر .

والكلام - أبلغك الله - سبِيل التمييز بين الناس والبهائم ، وسبِيل المعرفة . لنفضل الأدميين على سائر الحيوان ، قال الله عز وجل : « ولقد كرَّمنا بني آدم وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ » . كرَّمْهم باللسان وجعلْهم بالتدبر .

[٧ - الكلام آلة الشكر]

ولو لم يكن الكلام لما استوجب أحد النعم ، ولا أقام على أداء ما وجَبَ عليه من الشُّكْر سبِيل للزيادة ، وعلة لامتحان قلوب العباد . والشُّكْر بالإظهار في القول ، والإبانة باللسان . ولا يُعرف الشُّكْر **إلا** بهما .

والله تعالى يقول : « لَيْسَ شَكْرُكُمْ لَأَزِيدُنَّكُمْ » ، فجعل الشُّكْر علة لوجوب الزيادة ، عند إظهاره بالقول ، والحمد مقناحاً للنعم .

وقد جاء في بعض الآثار : لو أنَّ رجلاً ذَكَرَ الله تعالى وأخْرَى يُشَمَّعُ له كان المعدود للمستحب من الأجر ، والمذكور له من التواب واحداً وللمتكلِّم به عشرة أو أكثر .

فهل ترى - أباك الله - أنه يجب لصاحب العذر ذلك وفضل به على صاحبه إلا عند استعماله بالمنطق به لسانه . ولم يلزم الصمت أحد إلا على حسب وقوع الجهل عليه . فاما إذا كان الرجل نبيها مميزاً ، عالماً مفوهاً فالصمت مهمجٌ لعلمه وسائله لفضيله . كالقداحة لم يستثن تفعتها دون تزنيدها . ولذلك قيل : « من جهل علمًا عاده » .

[٨ - فضيلة الخطباء قائمة على بيانهم]

فضل منها : ولم أجده الصامت مستعاناً به في شيء من المعانى ، ولا مذكوراً في المحافل .

ولم يذكر الخطبة ولا قدمتهم الوفود عند الخلفاء إلا لما عرفوه من فضل لسانيهم وفضيلة بيانهم . وإن أصح ما يوجد في المعمول ، وأوضح ما يُعد في المحسوب للعرب من الفضل ، فصاحتها وحسن منطبقها ، بعده فضائلها المذكورة ، وأيامها المشهورة .

[٩ - انزل الله القرآن بلسان عربي مبين]

ولفضل الفصاحة وحسن البيان بعث الله تعالى أ أفضل الأنبياء وأكرم رسله من العرب ، وجعل لسانه عربياً ، وأنزل عليه قرآنـه عربيـاً ، كما قال الله تعالى : « بلسانـ عربـي مـبـين ». فلم يُخـص اللسانـ بالبيان ، ولم يـخـمد بالبرهـان إـلا عند وجودـ الفـضـلـ فـيـ الـكـلامـ ، وـحـسـنـ الـعـبـارـةـ عـنـدـ الـمـنـطـقـ ، وـحـلـاوـةـ الـلـفـظـ عـنـ السـمـعـ .

[١٠ - النبي أفسح العرب]

واعلم أن الله تعالى لم يرسل رسولاً ولا بعث نبياً إلا من كان فضله في

كلامه وبيانه كفضلة على المبعوث إليه ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم أفضح العرب لساناً ، وأحسنتهم بياناً ، وأسهلمهم مخارج الكلام وأكثرهم فوائد من المعانٰ ، لأنّه كان من جماهير العرب ، مولده في بني هاشم ، وأخوه من بنى زهرة ، ورضاشه في بنى سعد بن بكر ، ومتزوجه في قريش ، ومتزوجها في بنى أسد بن عبد العزّى ، ومهاجرها إلى بنى عمرو ، وهم الأوس والخرزج من الأنصار . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « أنا أفضح العرب بيدّي أنّي من قريش ، ونشأت في بنى سعد بن بكر » .

ولو لم يكن مما عذتنا من هؤلاء الأحياء إلا قريش وحدها لكان فيها مستغنى عن غيرها ، وكفاية عن من سواها ، لأنّ قريشاً أفضح العرب لساناً وأفضلها بياناً ، وأحضرها جواباً ، واسنثها بديبة ، وأجمعها عند الكلام قلباً .

ثم للعرب أيضاً خصال كثيرة ، ومشاهد كثيرة ، مما يشากل هذا الباب ، ويُصارع هذا المثال ، حذفت ذكرها خوف التطويل فيها .

فصل منه : فهله كلّها دلائل على تفضيل حجّتك ونقض قضيتك . وإنّما أرسل الله تعالى رسّله مبشرين ومنتذرين الأمم ، وأمرّهم بالإبلاغ ليلزمهم الحجّة بالكلام لا بالضمّت ، إذ لا يكرون للرسالة بلاغ ولا للحجّة لزوم ولا للعلة ظهور إلا بالنطق .

فصل منه : وليس يقوى على ذلك إلا اسرؤ في طبيعته فضل عن احتمال تحيزته وفي قريحته زيادة من القوّة على صناعته ، ويكون حظه من الاقتدار في المقطع فوق قبليه من التغلب في الكلام ، حتّى لا يضيق المفهوم العرّ النبيل إلا على مثله من المعنى ، ولا المفهوم الشريف الفخم إلا على مثله من المعنى . نعم ، وحتّى ينطلي المفهوم حقّه من البيان ، ويُوفّر على الحديث قسطه من الصواب ، ويُعزّز للكلام حظه من المعنى ، ويُضيق جميعها مساوياً معها ، ويصنّها بصفتها ، ويُوفّر عليها حقوقها من الإعراب والإفصاح .

[١١ - علم الكلام جليل لأنه يثبت وجود الله ويبين صفاته]

فصل منه : وبعد ، فتأي شيء ؟ أشهر منتبة وأرفع درجة وأكمل فضلاً ، وأظهر نفعاً ، وأعظم حرمة ، من شيء لو لا مكانه لم يثبت لله ربوبية ولا لنبي حجة ، ولم يفضل بين حججة وشبهة ، وبين الدليل وما يتجلّ في صورة الدليل .

ثم به يُعرف فضل الجماعة من الفرقة ، والشبهة من البدعة ، والشذوذ من الاستفاضة .

والكلام سبب لتعريف حقائق الأديان ، والقياس في تبيّن الربوبية وتصديق الرسالة ، والامتحان للتعميل والتجوير والاضطرار والاختيار .



الله يحيي العرش بفتحه

١٤ - هامش رسالة تفضيل النطق على الصمت

- (١) يستعمل الجاحظ الصمت مرادفاً للسكتوت . ولا يوافق صاحب الرسالة التي نلقاها في تفضيل الصمت وعلى نعت البيبغ بالمكان والخطيب بالمهذب والفصيح بالمفرط والمنطبق بالمحض . لأن معانى هذه الكلمات لا تعنى الاوصاف التي تعتها بها ، فالبلاغة لا تعنى كثرة الكلام ، والفصاحة لا تعنى الافراط (راجع معانى البلاغة والفصاحة عند الجاحظ في كتاب البيان والتبيين . وفي كتابنا المناخي الفلسفية عند الجاحظ)
- (٢) يستعمل ابو عثمان العماري بمعنى الابانة ، والحاجة بمعنى المأرب . ويستعمل المعنقول في مقابل المحصور ، ويعني بهما ما يتوصل اليه العقل المفكرة وما يحيى به التفل .
- (٣) يستعمل القياس هنا بمعنى التمثيل والتشبيه والمقارنة بين شيئين وهم الصمت والكلام وقد تحدث عن شروط التمثيل في اماكن اخرى من كتبه مثل رسالة التربيع والتدوير .
- ويستعمل كلمة جواهر بمعنى الطياع ، وبمعنى الاجسام .
- (٤) السبب معناه العلة ، والبصر معناه انعلم .
- (٥) عزيز مصر : الفرعون - الكلام : الانفصال بالبيان .
- (٦) المنطق معناه الكلام وليس علم المنطق .
- الایمان بساوي الاقرار باللسان او تلاوة الشهادة .
- (٧) العشر يعني عشرة اضعاف الاجر الذي للمتنع .
- لا يلزم الصمت الا من بجهل الجواب . اما العالم فيبنيي الاصحاح عن علمه .

- (٨) فضل العرب يرتكز على بيانهم وحسن منظتهم ومقدرتهم الخطابية . والجاحظ يعتقد ان العرب اخطب الامم (راجع كتاب البيان والتبيين) .
- (٩) النبي محمد افضل الانبياء ، واللغة العربية افضل اللغات ولهذا نزل القرآن بها .
- (١٠) النبي محمد افضل العرب ، وقریش افضل القبائل . لاحظ هذه الترجمة البليغة لحياة النبي محمد . راجع هذا الرأي في كتاب البيان والتبيين .
- (١١) الكلام يعني هنا علم الكلام الذي دافع عنه الجاحظ في رسالة فضل صناعة الكلام (راجحها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية التي نشرناها) .
- تصديق الرسالة اي رسالة النبي .
- امتحان التعديل والتجویر : اثبات عدل الله وعدم جبروره وهو احد مبادئ المعتزلة الخامسة .
- والاضطرار والاختيار : الاختيار الفول بحرية الانسان في افعاله . والاضطرار : القول بان الانسان ليس حرآ في افعاله ، وانما هي من خلق الله . المعتزلة قالوا بالإختيار والجبرية قالوا بالاضطرار .

- ١٥ -

صناعة القواد



لهم إني أسألك سلامك

[١ - حسنات اللسان]

أرشدك الله للصواب ، وعُرْفَكَ فضل أولى الالباب ، ووهب لك جميل الأدب ، وجعلك من يعرف عز الأدب كما تعرف زوائد الغنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق يُرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ، وواعظ يُعرف به القبيح ، ومحزن يُرد به الأحزان ، وخاصة يُزهى بالصلينة ، وملئ يوينق الأسماع .

وقال الحسن البصري : إن الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من الأعضاء شيء ينطق بذكرة غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شيء للرجل عقل يُولد معه ، فإن فاته ذلك فما يُعظم به ، فإن فاته ذلك فعلم يعيش به ، فإن فاته ذلك فموت يجتنب أصله .

وقال خالد بن صفوان : ما الإنسان لولا اللسان إلا ضالة . او بهيمة مرسلة ، او صورة ممثلة .

وذكر الصُّمَتُ والنُّطُقُ عند الأحنف فقال رجلٌ : الصُّمَتُ أفضَلُ وأحمدٌ .
قال : صاحب الصُّمَت لا يتعذَّه نفعه ، وصاحب النُّطُقِ يتفعَّبُ به غيره .
والنُّطُقُ الصُّوَابُ أفضَلُ .

وروى عن النبي صلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « رَحْمَةُ اللهِ امْرًا أَصْلَحَهُ مِنْ لَسَانِهِ » .

قال : وسمِعَ عُمرُ بْنُ عبدِ العزِيزَ رضيَ اللهُ عنهُ رجُلًا يتكلَّمُ فَأَبْلَغَ فِي حاجتهِ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَذَا وَاللهِ السُّبْحَانُ الْحَمْلَانُ .

وقال مَسْلِمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُكْرَمِ : إِنَّ الرَّجُلَ لِي سَائِنِي الْحَاجَةِ فَسْتَجِيبُ لَنِفْسِي لَهُ بِهَا ، فَإِذَا لَحِنَ انْصَرَفَتْ نِفْسِي عَنْهَا .

وتقدِّمُ رجُلٌ إِلَى زِيَادَ فَقَالَ : أَصْلَحْتَ اللهَ الْأَمْبَرَ ، إِنَّ أَبِينَا هَلْكَ ، وَإِنَّ أَخْوَنَا غَصِبَنَا مِيرَانَهُ . فَقَالَ زِيَادٌ : الَّذِي ضَيَّعْتُ مِنْ لَسَانِكَ أَكْثَرُ مَا ضَيَّعْتُ مِنْ مَالِكَ .

وقال بعضُ الْحُكَمَاءِ لِأَوْلَادِهِ : يَا بْنَيَ أَصْلَحُوا مِنْ الْسَّتْكِمْ ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لِتَنْوِيَةِ النَّاثِيَةِ فَيُسْتَعِيرُ الدَّاهِيَةَ وَالثَّيَابَ ، وَلَا يَقْدِرُ أَنْ يُسْتَعِيرَ اللُّسَانَ .

وقال شَبَّابُ بْنُ شَيْبَةَ وَرَأَى رجُلًا يتكلَّمُ فَأَسَاءَ الْفَوْلَ ، فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخْيَ ، الْأَدِبُ الصَّالِحُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ الْمُضَاعِفِ .

وقال الشاعر :

وكان ترى من صامت لك معجب زياده او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والثدي

فخذ ما أمير المؤمنين أولادك بان يتعلموا من كل الأدب ، فلذلك إن
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .

[٢ - قول القائد في الحرب والغزل]

وذلك أني لقيت جزاماً حين قيلَ أمير المؤمنين من بلاد الروم ، فسالته
عن الحرب كيف كانت هناك ؟ فقال :

لقيناهم في مقدار صحن الإصطبل ، فما كان يقدر ما يُحْسِنُ الرجل دابة
حتى تركناهم في أضيق من ممرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابير مرجين ،
فلو طرحت رؤحة ما سقطت إلا على ذئب دابة .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

فإن قلبي بقى السُّرُجَد معمور
لجام هجر على الأقسام معدور
خُسِنَ السُّرُقاد فإن التُّوم ماسور
وببعض الصد في كفيه مشهور
اصطبل وُد فرُوث الحب مشور
إن يهليم الصد من جسي معالله
أني امرؤ في وشاق الحب يكتبه
علل يُحلل نبيل من وصالك أو
أصاب حبل شيكال الوصول حين بدا
لبست برقع هجر بعد ذلك في

[٣ - قول الطبيب في الحرب والغزل]

قال : وسألت بخثيير [الطبيب] عن مثل ذلك فقال :

لقيناهم في مقدار صحن البيمارستان ، فما كان يقدر ما يختلف الرجل
مقددين حتى تركناهم في أضيق من مختفته ، فقتلناهم فلو طرحت ببعضها ما
سقط إلا على أكحل رجل .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

طُلَقَ بِعَنْ الرِّسَالِ بِالإِسْهَارِ
مُذْهَلٌ عَنْ مَلَامَةِ الْعَدْلِ
لُّوقْلِي مَعْذِلٌ بِالْمَلَلِ
بِأَيْنِ ، مَاسُورِي . ضَلُّ عَنِ الْحَيَاةِ
شُوَسْ بِاتَّا مِنْ بِا كَفِي بِالـ

شَرِبِ الْوَصْلِ دَشْجَنَ الْهَجْرِ فَانْتَ
وَرْمَانِي جِنْيِي بِقُرْلِنْجِ تَبِينِ
فَنَوَادِ الْحَبِيبِ يَنْخَلِهِ اللُّ
وَفَوَادِي مُبَرَّسِمِ ذُو سَقَامِ
لَوْبِقِرَاطِ كَانِ مَا بِي وَجَابِ

[٤ - قول الخياط في العرب والغزل]

قال : وسألت جعفرًا الخياطًا عن مثل ذلك فقال :

لَفِيتَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سُوقِ الْخُلَقَانِ ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ مَا يَخْبِطُ الرَّجُلُ ذَرَّاً
حَتَّى قَتَلَنَاهُمْ وَتَرَكَنَاهُمْ فِي أَضْيقِ مِنْ جَرْبَانِ ، فَلَوْ طَرَحْتَ إِبْرَةً مَا سَقَطَتْ إِلَّا
عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ .

وَعَمِلَ أَبِيَاتًا فِي الغَزْلِ فَكَانَتْ :

إِذْ وَخَزَنَنِي إِبْرَةُ الْمَسَدِ
يَعْثِرُ فِي بِا يَكَةِ الْجَهَدِ
مِنْكَ عَلَى شُوزِكَتِي وَجَدِي
بِعُرْوَةِ الدَّمْعِ عَلَى خَدِي
عَذَبِنِي التَّذَكَّارُ بِالْوَعْدِ
بِقَرَافِنِ بِيْنِ مُرَهَّفِ الْحَدِ
مَالِيَّ مِنْ وَصْلَكَ مِنْ بُدَّ
جَبِبَ حَيَاَتِي حُلْتَ عَنْ عَهْدِي

فَتَقَتَّ بِالْهَجْرِ فُرُوزُ الْهَوَى
فَالْقَلْبُ مِنْ ضِيقِ سَرَاوِيلِهِ
جَثَمَنِي بِا طِيلِسَانِ النَّوَى
أَزْدَارِ عَيْنِي فَبِكَ مُوَصَّلَة
بِا كِسْتَبَانِ الْقَلْبِ يَا زِيَّهِ
فَدَقَصُّ مَا يَعْهِدُ مِنْ وَصَلَهِ
بِا حُجَّزَةِ النَّفْسِ وَبِا ذِيلَهَا
وَبِا جَرْبَانَ سَرَوَري وَبِا

[٥ - قول الزارع في العرب والغزل]

قال : وسألت "إسحاق بن إبراهيم" عن مثل ذلك - وكان زراعاً - فقال :

لقيناهم في مقدار جَرَبِينِ من الأرض ، فما كان يقدر ما يُسْقى الرجل
مَشَارةً حتى قتلناهم ، فتركناهم في أضيق من بَابٍ ، وكانهم أنايير سُبْلٍ ، فلو
طَرَحَ فَدَانٌ ما سقط إلَّا على ظهر رجل .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

زرعْتُ هواه في كراب من الصُّفَا^١
واسقَيْتُه ماءً الدوام على العهد
ليحرزه السُّرْجِينَ من آفة الصَّدَأِ^٢
جري بِرْفَانَ الْبَيْنِ في سُبْلِ السُّودَ^٣
فلَمَّا تَعَالَى الْبَتْ وَاخْضَرَ يَانَعَا

[٦ - قول الخباز في العرب والغزل]

قال : وسألت فرجاً الرُّخْجِيَّ عن مثل ذلك - وكان خبازاً - فقال :

لقيناهم في مقدار بيت التُّثُور ، فما كان يقدر ما يخبِزُ الرجل خمسة
أرغفةٌ حتى تركناهم في أضيقٍ مِنْ حَجَرٍ تَسْوُرٍ ، فلو سقطت جمرة ما وقعت إلَّا
في جفنة خباز .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

قد عَجَنَ الْهَجْرُ دَقِيقَ الْهَوَى
في جفنةٍ مِنْ خَبَبِ الصَّدَأِ^٤
و اخْتَمَرَ الْبَيْنُ فَنَارُ الْهَوَى
يَفْحَصُ عنْ أرغفةِ الْوَجَدِ^٥
جَرَادَقُ الْمَوْعِدِ مَنْمُومَةٌ^٦
مشرودةٌ لِي قَصْمَعَةُ الْجَهَدِ

[٧ - قول المؤدب في العرب والغزل]

قال : وسألت عبد الله بن عبد الصمد بن أبي ذاود عن مثل ذلك - وكان
مؤدبًا - فقال :

لقياهم في مقدار صحن الكتاب ، فما كان يقدر ما يقرأ الصي إمامه
حتى الجناهم إلى أضيق من رقم فقتلناهم ، فلو سقطت دواة ما وقعت إلا في
حجر صبي .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

ففؤادي معذب في خبال
مع من هويته في وصال
لآن مولاي حبله من حبالي
بن فاغرى جوانعى بالسلاال
غين من هجر مالكى في انهال
لي فقلبي بالبين في إشعال

قد امات الهرأ صياد قلي
كسر البين لوح كبدي فما اط
رفع الرقم من حباتي وقد اط
مشق الحب في فؤادي لوحه
لاق قلبي بنائه فمداد الا
كرست البين سود السوجه من وص

[٨ - قول صاحب الحمام في الحرب والغزل]

قال : وسالت علي بن الجهم بن يزيد - وكان صاحب حمام - عن مثل ذلك فقال :

لقياهم في مثل بيت الأنبار ، فما كان إلا يقدر ما يغسل الرجل رأسه
حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت إلا على
رأس رجل .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

لما بدت لي ليفة المصدة
تنفع في حوض من الجهد
منك بزنبيل من الود
قد هاج قلبي مسلح السوجد
لخالة الناقض للعهد

بأنورة الهرج خلقت الصفا
با مشعر الأسمام حتى متى
أوقد آتون الوصل لي نرة
فالبيئ مذ أوقد حمامه
أفسد خطمي الصفا والهوى

[٩ - قول الكناس في العرب والغزل]

قال : وسألت الحسن بن أبي قمامة عن مثل ذلك - وكان كناساً - فقال :

لَيُبَاهِمُ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الإِبَوَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا يَقْدِرُ مَا يَكْنِسُ الرَّجُلُ
زَبِيلًا حَتَّى تُرْكَنَاهُمْ فِي أَضْيقِ مِنْ جُحْرِ الْمَخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلَنَاهُمْ بِقَدْرِ مَا يَشَارِطُ
الرَّجُلُ عَلَى كُنْسِ كَتِفِ ، فَلَوْ رَمِيتُ بِسَابِنَةٍ وَرَدَانَةٍ مَا سَقَطَتْ إِلَّا عَلَى فِمْ
بِالْوَعْدِ .

و عمل أبياتاً فكانت :

تَسْلُحُ فِي نَقْحَةِ الْهَجْرِ أَصْبَرُ مِنْ ذَا السُّوجَدِ فِي صَدْرِي يَوْمَ تَوْلِي مُعْرِضًا صَبْرِي إِذْ سَلَحَ الْبَيْنُ عَلَى مُهْجَتِي	أَصْبَحَ قَلْبِي بَرْبَخَاً لِلْهَوِي بِنَاتِ وَرَدَانِ الْهَوِي لِلْبَلْيِ خَنَافِسُ الْهِجْرَانِ أَنْكَلَنِي أَسْقَمَ دِيدَانِ الْهَوِي مُهْجَتِي
--	--

[١٠ - قول الشرابي في العرب والغزل]

قال : وسألت أحمد الشرابي عن مثل ذلك فقال :

لَيُبَاهِمُ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ مَا يَصْفِي الرَّجُلُ
دَنَّا حَتَّى تُرْكَنَاهُمْ فِي أَضْيقِ مِنْ رَطْلَيَةٍ قَتَلَنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمِيتُ نَقْحَةً مَا وَقَتَ إِلَّا
عَلَى أَنْفِ سَكْرَانِ .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

وَرَقْرَقَتْ خَمْرُ الْوَصْلِ فِي قَنْدَحِ الْهَجْرِ فَكَسَرْنَ قُرَبَاتٍ حُزْنِي عَلَى صَدْرِي وَدُورَقَ هِجْرَانِ وَقَنْيَنْتَنِي غَدِيرِ	شَرِبَتْ بِكَاسِ لِلْهَوِي نِسْنَةً مَعَا فَسَالَتْ دِنَانَ الْبَيْنِ يَسْدَقُهَا الصُّبَّا وَكَانَ بِزَاجِ الْكَاسِ غَلَّةً لِرَوْمَةِ
---	---

[١١ - قول الطباخ في العرب والغزل]

قال : وسألت عبد الله بن طاهر عن مثل ذلك - وكان طباخا - فقال :

لقيناهم في مقدار صحن المطبخ ، فما كان بقدر ما يشوي الرجل حملاً حتى تركتناهم في أضيق من موقد نار ، ففتناهم فلو سقطت معرفة ما وقعت إلا في قدر .

و عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

لَدُّ وَلْوِزِينِجُ الْنُّفُوسِ الظَّمَاءِ
سِنْ كَلِينِ الْعَبِيْصَةِ الْبَيْضَاءِ
بَعْدَ جُودَابَةِ بَجْنَبِ شَوَاءِ
وَشَبِيهَا بِشَهَدَةِ صَفَراءِ
لَدُّ مَعِ النُّرَسِيَانِ بَعْدَ الْغَدَاءِ
فِي قِصَاعِ الْأَحْزَانِ وَالْأَدْوَاءِ
غَلِيلَانِ الْقَدُورِ عَنْدَ الْمُصلَاءِ
تِ سَرُورِي مَغَارَفُ الشَّحْنَاءِ
جَدُّ بِوْسَلِ يُكَبِّثُ بِهِ أَعْدَانِي
وَرَدُّ وَصْلِ يَشْفِي مِنَ الْأَدْوَاءِ

يَا شَبَيْهَ الْفَالَوْذِ فِي حُمْرَةِ الْخَدِّ
أَنْتَ جَوْزِينِجُ الْقُلُوبِ وَفِي الْلَّبَدِ
عَذْتُ مُسْتَهْرَأْ بِيْكَبَاجُ وَدَّ
يَا نَسِيمَ الْقَدُورِ فِي يَوْمِ عَرَسِ
أَنْتَ اشْهَى إِلَى الْقُلُوبِ مِنَ الرَّبِّ
أَطْعَمَ الْحَاسِدُونَ الْوَانَ غَمَّ
قَدْ غَلَّ الْقَلْبُ مِنْ نَاثِ عنْكَ دَارِي
هَامَ قَلْبِي لِشَاكِرَنَ غَصَارَا
فَنَفَضُّلْ عَلَى الْعَمِيدِ بِيَوْمِ
وَتَفَضُّلْ عَلَى الْكَثِيبِ بِسَرْزِ مَا

[١٢ - قول الفراش في العرب والغزل]

قال : وسألت - أطال الله بقاءك - محمد بن داود الطوسي عن مثل ذلك - وكان فرائشا - فقال :

لقيناهم في مقدار صحن بساط ، فما كان إلا بقدر ما يغرس الرجل يتنا

حتى تركتهم في أضيق من منصة فقتلناهم ، ولو سقطت بخداً ما وقعت إلا
على رأس رجل .

ثم عمل آياتاً في الغزل فكانت :

غُبْر البَيْنُ فِي وِجُوهِ الْعُصَمَاءِ
هِيَ مَلْخُورَةٌ لِبَوْمِ السَّلْقَاءِ
تَحْتَ رَأْسِي وَسَلَدَةِ الْبُرْخَاءِ
لَرِ لَابْرَاهِيمِ سَتُورِ الْبَهَاءِ
مُتَكَاهِمَ طَارِحِ الْحَمْبَاءِ
تَعْنَرِي چَلَّهُ صَبَاعَ مَسَاءِ
قَالَ : فَضَحَكَ الْمَعْتَصَمَ حَتَّى اسْتَلَقَ ، ثُمَّ دَعَا مَؤْدِبَ وَلَدَهُ فَأَمْرَهُ أَنْ

كَسَحَ الْهَجَرَ سَاحَةَ السَّوْصِلَ لِمَا
وَجَرَى الْبَيْنُ فِي مَرَاقِقِ رِيشِ
فَرَشَ الْهَجَرَ فِي بَيْوَتِ هَمُومِ
حِينَ هَيَّاتٍ بَيْتٍ خَيْشٍ مِنَ السَّوْصِ
فَرَشَ الْبَحَرَ لِي بَيْوَتَ مُسَوِّجِ
رَقِّ الْلَّعْبِ مِنْ بَرَاغِبِيْتِ وَجَدِ
يَأْخُذُهُمْ بِتَعْلِيمِ جَمِيعِ الْعِلُومِ .

• • *

نَمْ كَتَابَ الْجَاحِظِ وَلَهُ الْمُنْتَهَى ، وَبِيَدِهِ الْحُولُ وَالْقُوَّةُ ، وَاللَّهُ سَبَّانُهُ الْمُوْفَقُ
لِلصَّوَابِ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوْلًا وَآخِرًا ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ نَبِيِّهِ وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ وَسَلَامُهُ . بَعْدَ زِيَادَاتٍ لَيْسَ لِلْجَاحِظِ .



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١٥ - هامش رسالة صناعة القواد

- (١) « قال ابو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ » جملة مقتضمة .
« دخلت على امير المؤمنين المعتصم » تشير الى تاريخ كتابة الرسالة .
البيتان الواردان في النص للشاعر الجاهلي الحكمي زهير بن ابي سلمى ، وردان
في المعلقة :
- وكائن ترى من صامت لك معجب زبادته او نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فزادة فلم يبق الا صورة اللحم والدم
- (٢) « حين قدم امير المؤمنين من بلاد الروم » إشارة الى غزو المعتصم بلاد الروم .
أنا يبر سرجون : اكدا س زبل .
يحسُّ دابته : ينفعن عنها التراب .
الشكال : حبل تشد به قائمة الدابة .
- (٣) بخثيشوع : طبيب وقد اتى بغداد من نيسابور في مطلع الدولة العباسية وجعله
الخلفاء طبيبه ومات في خلافة المنور سنة ٢٥٦ هـ .
- اختلف الرجل : ذهب الى المتنوضأ .
- الاكحل : عرق في اليد .
- الدستيج : آنية .
- (٤) الدرز : موضع الخياطة
- الجربان : جيب القميص .

- (٥) المثارة : مقبعة الأرض .
اليرقان : دود ينمو في الزرع ثم يصير فراشاً .
- (٦) الجرادق : جمع جردق ، الرغيف (الكلمة فارسية معربة) .
- (٧) المؤدب : المعلم .
الكتاب : المدرسة .
- الإمام : البرنامج .
- (٨) الآتون : الموقد .
الزنبيل : المقفة .
- (٩) الزبل : المقفة مثل الزنبيل .
- بنت وردان : الخنس .
- البرينج : مجرى آبرول .
- يسلح : ينجو .
- (١٠) الرطيلة وعاء يسع رطلاً من الشراب .
القرابات : ضرب من الاواني .
- ١١ - السكبياج نجم يعالج بالخل والتواابل .
الترسيان : نوع من التمر الجيد .
- (١٢) الغضارات : الصحاف المستخدمة من الغضاراي الطين .
البزماءورد : نوع من الخبز يحشى بالشواء .

- ١٦ -

رسالة الجد والهزل



لهم إني أسألك سلامك

[١ - أسباب معاقبة ابن الزيات للباحث و عدم عدالة العقوبة]

جُعلتْ فداك . ليس من أجل اختياري النُّخل على الزَّرع اقصيَّتي ، ولا على ميل إلى الصُّدقة دون إعطائي الخراج عاقبَتني ، ولا لبعضِي دفع الإشارة والرضا بالجزية خرمَتني .

ولستُ أدرِي لم كبرَتْ قُربَتي وهُوَيتْ بُعدي ، واستهَلتْ روحِي ونفسي واستهَلتْ عمري وأيامِي مقامي . ولم سرُّوكَ سَيِّتي ومصيَّتي وسامِنكَ حسْتي وسلامِتي ، حتى ساءَكَ تجْمُلِي بقدر ما سرُّوكَ جَزْعِي وتصْجُرِي ، وحتى تمْنتَ أنْ أخطُطَ عليك فتجعل خططيَّي حجَّةً لك في إيمادي ، وكبرَتْ صوابِي فيك خوفاً من أن تجعله ذريعةً لك إلى تقريري .

فإن كان ذلك هو الذي أغضبَك ، وكان هو السبب لسوِّجدتك (فلبس - جُعلتْ فداك) - هذا الحقدُ في طبقة هذا الذُّنب ، ولا هذه المطالبة من شكل هذه الجريمة .

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقُعْ قريراً ، وأذ لم يكن عدله وقع مشبهها كان أهون في موضع الضُّرر ، وأسهل في مخرج السُّماع .

فأي شيء بقيت للعدو المكابشف والمعانق الملاطف ، وللمعتمد المصري ولل قادر العدل .

ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير ، وعلى الهرة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المنشئ بعقوبة معصية المعلم ، ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأقاصي والأداني ، عاقب على الرزق بعقوبة السرقة ، وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب العقاب خرج إلى مثله في باب الشواب . ومن خرج من جميع الأوزان وخالف جميع التعديل ، كان بغاية العقاب أحق ، وبه أولى .

والدليل على شدة غيظك وغليلك صدرك قوة حركتك وابطاء فترتك ، وبعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات الغضب ، وعلى كظم الذنب تتمكن الحقد ورسوخ الغيظ ، وبعد الوثبة وشدة الضولة .

[٤ - ذم الغيظ]

وهذا البرهان صحيح ما صلح النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .

ولا أعلم ناراً أبلغ في إحراق أهلها من نار الغيظ ، ولا حرارة انقض لقوته الآبدان من طلب الطوائل مع قلة الهدوء والجهل بمنافع الجمام ، وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

ولا أعلم تجارة أكثر خسراً ولا أخف ميزاناً من غداة العاقل [العالم] ، وإطلاق لسان الجليس المداخل ، والشعار دون الدثار ، والخاص دون العام .

والطالب - جعلت فداك - بمعرض ظفر ما لم يخرج المطلوب ، وإليه الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن العزم ألا تخرج إلى العذر إلا ومعك من

القوى ما يغمر الفضلة التي يتوجهها له الإخراج . ولا بدً أيضًا من حزم بحدرك
نصارع البغي ، وبخوفك ناصر المطلوب .

وبعد - أبلاك الله - فأنت على يقين من موضوع ألم الغيط من نفسك ،
والغيط عذاب . ولربما زاد التشفي في الغيط ولم ينتص منه . ولست على
يقين من نفوذ سهمك في ضيتك [كما أبقيت بموضع الغيط من صدرك] .

والحازم لا يلتمس شفاعة غبيظه باحتساب ضعيفه ، ولا يطفئ نار غضبه
تأخر عقرية من أغضبه ، ولا يسد سهمه إلا والغرض ممكн ، والغاية قريبة ،
ولا يهرب إلا والمهرب معجزة .

إن سلطان الغيط غشوم ، وإن حكم الغضب جائز ، وأضعف ما يكون
العزم على التصرف أضعف ما يكون العزم . والغضب في طباع شيطان ،
والهوى يتصور في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب وموائع الشرف إلا كُلُّ
معتدل الطبع ، ومعتدل الأخلاق متوي الأسباب .

والله لقد كنت أكره تلك سرف الرضا مخافة جوازبه إلى سرف الهوى .
فما ظُنك بسرف الغضب ، وبغلبة الغيط ، ولا سيما مَنْ قد تعرَّد إهمال
النفس ونم يعودها الصبر ، ولم يعرِّفها موضع الحظ في تجُّرُّ مرارة العفو ،
وان المراد من الأمور عوائقها لا عواجلها .

ولقد كنت أشقيق عليك من إفراط السُّرور فما ظُنك بإفراط الغيط . وقد
قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا في
الكافية إذا كان يؤدي إلى المعجزة ، ولا في كثرة الغنى إذا كان يخرج إلى
البلدة .

جعلت فداك . إن داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داء مُماطل ، وسممه
سقم مُطاول ، ومعه من التمهل بقدر قسطه من أناة المرة السوداء . وداء الغيط

سفينة طيّاش ، وغجول فحاش ، يُعجل عن التوبة ، ويقطع دون الوصيّة ، ومعه من الخُرُق بقدر قسطه من التهاب المِرَأة الحمراء . [والعجول يخطيء وإن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . على أنّ إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أنّ ظفري لا ينقص من مقدار زله] . وأنت روح كما أنت وحشى من قرنك إلى قدمك . وعمل الأفة في الدُّعْقَاق والعتاق أسرع ، وحدّها عن الغلاظ الجُفَاهَا أكلٌ ؛ فلذلك اشتُدّ جزعي لك من سُلطان الغيط وغلبته .

والله لو كنتُ ابتلعت مزار بابك ، وأبليلت بعر الباطل ، ووردت الفظائع كلّها ، ونقضت الشُّروط بأسيرها ، وأفسدت تاجرك ، وقتلت كُلَّ شيطر نجيّ للك ، ورفعت من الدنيا فراهة الخيل ، وجعلت المروجَ كلّها حميّ ، وكنت صداق المرادين ، وبرسام الأولاد ، ومسخت جميع الجنواري في صورة أبي رملة وردت شيطاط خلقتك إلى جمودة أبي حنة وكانت أول من سنَ بيع الرجال في النُّخاسين ، وفتح باب الظلم لاصحاب المظالم ، وحوّلت إليك عقل أبي دينار ، وطبعت على بيان ما توبه ، وأعنت على موت المعتصم ، وغضبت لمصرع الأشرين ، واستجابت للديك الأبيض الأفارق وأحببت صالح بن حنين ، وأحوجتك إلى حاتم الرّيش ، وكان أبو الشّماخ صديقي ، والفارسي من شيعتي - لكان ما تركبُني به سرقا ، ولكنت في هذا العتاب متعدّياً .

[٣ - يجُب التمييز في المعاواة بين الأخيار والاشرار والمحبين والمبغضين]

جُعلت فداك ، لا تتعرض لمعاواة عُقلاء الرُّوّاة ، ولضفينة حفاظ المثالب ، وللسان من قد عُرف بالصدق والتوكّي ، وبقلة الخطط والتتّكب ، ما وجدت عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهب عنه واسعاً . ولا تعاقب واحداً وإن اضطرك الواد ، ولا تجعل طول الصُّحبة سبباً للتضجر ، واصبر على خلقه فإن

خلقه خيرٌ من جديد غيره . وصادفة المُتطرف غرور ، وملاحة الصديق أفن ، والعلم بأقدار الذنوب غامض ، وحدود الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يجهل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانتظر في علته وسيبه ، وإلى معده الذي منه نجع ، وعشّه الذي منه درج ، ومغرسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التتابع والتتابع ، وفي التزوع والثبات ، وإلى قيّته عند التقرير ، وإلى حياته عند التعريف ، وإلى فطنته عند الرشق والتوربة ؛ فإنَّ فضل الفطنة ربما دلَّ على فرط الافتراض ، وعلى قدر الافتراض يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدالة وضيق صدِّر وغلظ طباع وحدة مبرأ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في المقاييس ، أو من طريق [فرط] الأنفة وغلبة طباع العصبية من بعض الجفوة أو لبعض الانارة ، أو من جهة استحقاقه عند نفسه وفيما زين له من عمله ، وأنه مقصُّ به مؤخر عن مرتبته ، أو كان ميلناً عنه أو مكنوناً عليه ، وكان ذلك جائزًا عليه غير ممتنع فيه - فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجاري ، فليس يقف عليها كريم ، [ولا يلتفت لها حليم] .

ولست أسمُّيه بكثرة معروفة كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع للكظم ، والقدرة ، والفهم .

إذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلَّا البغضة فلو لم ترض لصاحب عقاب دون فقر جهنم لعذرك كثيراً من العقلاه ، ولصواب رأيك عالم من الأشراف .

ومتي كانت أعلته طبيعة البداء ، وخلقه الشراقة والترسُّع ، فاقتله قتل المقارب ، وادمغه دماغ رؤوس الحيات .

وإذا كان من لا يسيء فيك القول ، ولا يرضيك بالمكرره إلا لتعطيه على الخوف ، وتمتنع عرضك من جهة التقى فامتنع جميل رفك ، واحتفل في منه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة ، وأعظمته من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك ، واستدعيت الآلة البذلة إلى عرضك ، وكتبت علينا لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وانت فيه قبيح ، إلا أن عليك غرمه ولنك غنم .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن تحظى عن الحسد نصف عقابه ، وأن تقتصر على [بعض] مقداره ، لأن الم حبيبه لك قد كفاك مؤونة شطر غيظك عليه .

واما الواد فلا تعرّض له البتة ، [ولا تلقي بفتحه] ، ولو اتي على الحرج والسل ، وحتى على الروح والقلب . ولا تغير بقوله إني واد ، ولا تحكم له بدعواه بأنني جد وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى تصرفه وتصميمه وإلى توافقه وتهوره . وتأمل مقدار جزعه من قلة اكترانه ، وانظر إلى غضبه فيك وذلك ، وإلى انصرافه عن انصراف عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسليمه من الشر وتعرضه له ، وإلى مداعنته وكشف قناعه . بل لا تغضي له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالت الأيام وكثرت الشهور ، حتى تستنظم الحالات ، وتستوي فيه الأزمان .

نعم ، ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ، ومحنة على نصيحتك ، بالعلل التي توجب الانفعال . والأسباب التي تسخر القلوب للمسؤليات ، كالعلل الثابتة في الصناعة ، والأسباب الموجودة مع مولى الفتاق ، فإن عللهمما خلاف علل مولى الكلالة ، وخلاف علل الصديق الذي

لم يزل يرى أنه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيحاياك ، ولا سيما إذا كانت الصناعة أنت ابتدأتها ، وأنت أبو عذرها .

فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ، ومع توافرها إليه ، ولم تقتصر له بأنصاف الغاية مع تراويف هذه الأسباب وتكلف هذه الدلالات ، وتعاونت هذه البرهانات ، فكل خبر يئن زور ، وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : « دلالات الأمور أشد ثباتاً من شهادات الرجال ». إلا أن يكون في الخبر دليل ، ومع الشهادة برهان ، لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا ينكر ، وشهادة الإنسان لا تتمتع من ذلك ، وليس معها أمان من فساد ما كان الإمكان قائمًا .

[٤ - تفضيل النخل على الزرع سبب سخيف للعداوة]

وبعد متى صار اختيار النخل على الزرع يُحقد الإخوان ، ومني صار تفضيل الحب وتقريره يُورث الهرجان ، ومني تميزوا هذا التمييز ونهال الكروا هذا التهالك ؟ ومني صار تقديم النحلمة ملة ، وتفضيل السبلة نعلمة ؟ ومني صار الحكم للنعجة نسباً وللكرمة صهراً ، ومني تكون فيها ديانة وتستحكم فيها بصيرة ، ويحدث عنها حمية .

وقد كنا نعجب من حرب البوس في ضرع ناب ، ومن حرب بعاد في بحر نهر ، ومن حرب غطفان في سق دائمة . فجتنا أنت بنوع من العجب أبطل كل عجب ، وأنسنا بكل غريب ، وحسن عندنا كل قبيح ، وقرب عندنا كل بعيد .

فإذْ جهَلْتُ - أعزك الله - غضبك فمثلي جهل ما لا علة له ، وإن عجزت عن احتساب عقابك فمثلي ضجع مما لا يطيق حمله . ولا عاز على جازع إلا فيما يمكن في مثله الصبر ، ولا لوم على جاهل فيما لا ينفع في مثله الفكر .

وليس هذا أَوْلَ شَرِيكٍ نصيَّبُه ، ولا أَوْلَ كَبِدَ ارْغُفَه ، ولا هي بِأَوْلَ زَيْبَةٍ
غَطَّيَّتْهَا وَسَرَّتْهَا ، وَحِيلَةٌ أَكْمَنَتْهَا وَرَبَّصَتْهَا .

وقد كانت التَّقْيَةُ والاقتَصَادُ أَسْلَمُ ، بل كان الْعَقْوَارِحُ ، والتَّغَافُلُ أَكْرَمُ .

[٥ - فم العجلة]

وَلَا خَيْرٌ فِي عَقْوَبَةٍ تَشْتَمِ الدُّعُوُونَ الْمُتَقَادِمُونَ ، وَيَنْادِي بِهَا الدُّعُوُونَ الْحَادِثُونَ .
وَالآنَةُ أَبْلَغُ فِي الْحَزْمِ ، وَابْعَدُ مِنَ الذَّمِ ، وَاحْمَدَ مَغْبَةً وَابْعَدَ مِنْ خُرُقِ الْعَجَلَةِ .
وَقَدْ قَالَ الْأَوَّلُ : « عَلَيْكَ بِالآنَةِ ؛ فَإِنَّكَ عَلَى إِيقَاعِ مَا أَنْتَ مُوْقَعُهُ أَقْدَرُ مِنْكَ
عَلَى رَدِّ مَا قَدْ أَرْفَعْتَهُ » . فَقَدْ أَخْطَأَ مِنْ قَالَ :

فَدِيْدَرُكَ الْمَتَّأْنِيُّ بَعْضُ حَاجَتِهِ وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الْزَّلْلُ
بَلْ لَوْ قَالَ : وَالْمَتَّأْنِيُّ بِدِرْكِ حَاجَاتِهِ أَحْرَقَ ، وَالْمُسْتَعْجِلُ بِفَوْتِ حَاجَاتِهِ
خَلَقَ ، لَكَانَ قَدْ وَفَىَ الْمَعْنَى حَقَّهُ ، وَأَعْطَى الْلَّفْظَ حَظَّهُ ، وَ[إِنْ] كَانَ الْقَوْلُ
الْأَوْلُ مَوْزُونًا وَالثَّانِي مَتُورًا . وَلَوْلَا أَنْ اشْتَقَ الْمُسْتَعْجِلُ مِنَ الْعَجَلَةِ لِمَا قَرَرَهُ
مَالْمَتَّأْنِيُّ . وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ الَّذِي غَلَطَهُ قَوْلُهُمْ : « رَبُّ عَجَلَةٍ تَهَبُّ رِيشًا » .
لِمَجْعَلِ الْكَلَامِ الَّذِي خَرَجَ جَوَابًا عِنْدَمَا يُعَرَّضُ مِنَ السَّبِبِ ، كَالْكَلَامِ الَّذِي خَرَجَ
رِتْجَالًا ، وَجَمِلَهُ صَاحِبُهُ مُثْلًا عَامًا . فَهَذَا سُمِّيَّ الْعَمَلُ عَجَلَةً وَرِيشًا فَاقْضَى
بِهِ الرِّيشُ بِكَثْرَةِ الْفَوْتِ ، وَيَقْدِرُ ذَلِكُ مِنَ الْعَجَزِ ، وَعَلَى الْعَجَلَةِ بِقَلْةِ النُّجُحِ ،
يَقْدِرُ ذَلِكُ مِنَ الْخَرَقِ .

وَالرِّيشُ وَالآنَةُ فِي بَلُوغِ الْأَمْلِ وَإِدْراكِ النُّعْمَةِ كَانَهَازُ الْفَرَصَةِ وَاهْتَبَالُ
لِغَرَّةِ . وَالآنَةُ وَإِنْ طَالَتْ [فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ الرِّيشِ] ، وَانْهَازُ الْفَرَصَةِ وَإِنْ
كَانَ فِي غَایَةِ السُّرْعَةِ فَلَيْسَ مِنْ جِنْسِ الْعَجَلَةِ .

وَرِيشَتْ كَلْمَةٌ لَا تَوْضَعُ إِلَّا عَلَى مَعْنَاهَا الَّذِي جَعَلَتْ حَظَّهُ ، وَصَارَتْ هِي

حُفْهُ والدَّالَّةُ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ ، كَالْحَزْمِ وَالْعِلْمِ ، وَالْحَلْمِ وَالرُّفْقِ ، وَالْأَنَاسَةِ
وَالْمَدَارَةِ ، وَالْفَصْدِ وَالْعَدْلِ وَالْاَبْتِهَالِ ، وَكَالْيَأسِ وَالْأَمْلِ ، وَكَالْخُرْقِ وَالْمَجَلَّةِ ،
وَالْمَدَاهَنَةِ وَالْتَّرْسَعِ ، وَالْغَلْوِ وَالْتَّقْصِيرِ .

وربَّتْ كَلْمَةٌ تَدُورُ مَعَ خُلُّتِهَا ، وَتَتَقْلِبُ مَعَ جَارَاتِهَا ، وَإِذَا صَاحِبَهَا ،
وَعَلَى قَدْرِ مَا تُقَابِلُ مِنَ الْحَالَاتِ ، وَتُلَاقِي مِنَ الْأَسَابِبِ ، كَالْحُبُّ وَالْبُغْضِ ،
وَالْغَضْبِ وَالرُّضَا ، وَالْعَزْمِ وَالْإِرَادَةِ ، وَالْإِقْبَالِ وَالْإِدْبَارِ ، وَالْجَدْنِ وَالْفَتْوَرِ ؛ لَأَنَّ
هَذَا الْبَابُ الْآخِرُ يَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ ، وَيَكُونُ مُحَمَّداً وَيَكُونُ مَذْمُوماً .

وَصَاحِبُ الْمَجَلَّةِ - أَعْرَكَ اللَّهَ - صَاحِبُ تَفْرِيرِ وَمَخَاطِرِهِ ، إِنْ ظَفَرَ لِمَ
يَحْمِدُهُ عَالَمُ ، وَإِنْ لَمْ يَظْفَرْ قَطْعَتْهُ الْمَلَوْمُ . وَالرَّئِسُ أَخْرُو الْمَعْجَزَةِ ، وَمَقْرُونُ
بِالْحَسْرَةِ ، وَعَلَى مَدْرَجَةِ الْلَايَةِ . وَصَاحِبُ الْأَنَاءِ إِنْ ظَفَرَ نَفْعَ غَيْرِهِ بِالْفَتْنَمِ ،
وَنَفْعَ نَفْسِهِ بِشَرْمِ الْعِلْمِ ، وَأَطَابَ ذِكْرَهُ دَوَامُ شَكْرِهِ ، وَخُفْظَ فِيهِ وَلَدُهُ . وَإِنْ حَرِمَ
فَبِسُوتُ عَذْرَهُ ، وَمَصْوُبُ رَأْيِهِ مَعَ اِنْتِفَاعِهِ بِعِلْمِهِ وَمَا يَجِدُ مِنْ عَزْزَ حَزْمِهِ وَنَبْلِ
صَوَابِهِ ، وَمَعَ عِلْمِهِ بِالذِّي لَهُ عِنْدَ الْعَقْلَاءِ ، وَيَعْدِيهِ عِنْدَ الْأُولَاءِ وَالْأَعْدَاءِ .

وَمَا عَنِي لِكَ إِلَّا مَا قَالَ الدُّهْقَانُ لِأَسَدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ وَهُوَ عَلَى خَرَاسَانِ ،
حِينَ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يُدْهَقُ فِي خَبِيبِهِ :

إِنْ كُنْتَ تَعْطِي مِنْ تَرْحِمَمْ فَأَرْحِمْ مِنْ تَنْظِلَمْ . إِنْ السَّمَوَاتِ تَنْفِرُ لِدَعْوَةِ
الْمَظْلُومِ ، فَاحْذَرْ مِنْ لِيْسَ لَهُ نَاصِرٌ إِلَّا اللَّهُ ، وَلَا جَنَّةٌ إِلَّا ثَقْتُ بِنَزْولِ الْغَيْرِ ،
وَلَا سَلَاحٌ إِلَّا الْاَبْتِهَالُ إِلَى مَوْلَى لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ .

يَا أَسَدُ ، إِنَّ الْبَغْيَ يَصْرُعُ أَهْلَهُ ، وَإِنَّ الْظُّلْمَ مُرْتَعِهِ وَخَيْرِهِ ، فَلَا تَغْتَرِ
بِإِبْطَاءِ الْعِقَابِ مِنْ نَاصِرِ مَنِ شَاءَ أَنْ يَغْيِثَ أَغْاثَ . وَقَدْ أَمْلَى لِتَسْوِيمِ كَيْ بِزَدَادِوا
إِنَّمَا . وَجَمِيعُ أَهْلِ السَّعَادَةِ إِمَّا سَالَمُ مِنْ ذَنْبِهِ ، وَإِمَّا تَارَكَ لِإِصْرَارِهِ . وَمِنْ رَغْبَهِ
عَنِ التَّمَادِي فَقَدْ نَالَ أَحَدُ الْفَتْنَمِينِ ، وَمِنْ خَرْجِهِ مِنَ السَّعَادَةِ فَلَا غَائِيَةَ لَهُ إِلَّا دَارَ

الندوة . وسواء - جعلت فداك - ظلمت بالبطش والغشم ، أو ظلمت بالذحس والذنس . فشاور لُبُك ، وناظر حزموك ، وقف قبل الوثبة ، واحذر زلة العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار الملالة وقلد طبيعة الاستطراف ، وجعل الخطرة ذنبًا ، والذنب ذنبًا ، ومقدار الظرفة إصرارا ، والصغير كبيرا ، والقليل كثيرا ، عاقب على المتروك الذي لا يعبأ به ، وبلغ بالبطش إلى حيث لا يقىء معه ، ورأى أن القطعية التي لا صلة معها ، والتخلص الذي لا تجُمل معه ، الحزم المحمود ؛ وأن الاعتزام في كل موضع هو الرأي الأصيل .

وقال أيضًا : من كانت طبيعته مأمونة عليه عند نفسه ، وكان هوا رائده الذي لا يكتبه ، والتأثير عليه دون عقله ، ولم يتوكّل لما لا يهواه على ما يهواه ، ولم ينصر تاله الإخوان على الطارف ، ولم ينصف المغلول المبعد من المستطرف المقرب ، ولم يخفّ أن تجتذبه العادة ، وتحكم عليه الطبيعة ، فليس رسم حججهما ، ويصوّر صورهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يعرضهما على جهابذة المعانٍ وأطباء أدباء العقول ، على ألا يختار إلا من لا يدرى أي النوعين يبغى ، وعلى أيهما يحامي ، وأيهما دواه وأيهما داثة . فإن لم يستعمل ذلك بما فضل له من سكر سوء العادة ، لم ينزل متورطًا في الخطأ مغموراً بالذم .

[٦ - ابن الزيات يعرض بالجاحظ لآهماله تجليد كتبه ونظمها]

سمعتك وأنت تربيني وكأنك تريدي غيري ، وكأنك تشير علي من غير أن تنصني . وتقول : إنني لأعجب ممن ترك دفاتر علمه منفرقة مبعثة ، وكرايس دربته غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يعرضها للتجرم ، وكيف لا يمنعها من التفرق . وعلى أن الدفتر إذا انقطعت جزانته ، وانحل شداده ، ونخرمت ربطه ، ولم يكن دونه وقابة ولا جنة ، تفرق ورقه ؛ وإذا تفرق ورقه اشتدا

جُمِعَ ، وعُسْرُ نظمِه ، وامتنع تأليفه ، وربما فسّع أكثره . والدُّقَنَانِ أجمع ،
وَضَمَّ الجلود إلَيْها أصواتَنَ ، والحزن لها أصلح . وينبغي للاشكال أن تنظم
وللأشباء أن تؤلِّف ؛ فإنَّ التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسنا ، والاجتماع
يحدث للمتساوي في الضعف قوة ، فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بعضها
فقد وجدت كلَّها ، ومتي رأيت أدناها فقد رأيت أقصاها ؛ فإنَّ نشطت القراءة
جميعها مضيَّ فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومحروفة الم واضح معلومة ، لم تحتاج إلى تقليل
القماطير على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك
مزونتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادخرت
تلك القوَّة لنوابِ عذلك .

وعلى أن ذلك أدل على جبَّك للعلم ، واصطباعك للكتب ، وعلى حسن
السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمير ما جمعوا أسباع القرآن وسُورَة في مصحف ، ولم يدعوا ما
فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبتدأ في الدفاتر ، ومفرقا في القماطير . على ذلك
اجمع المسلمين ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة
المحمودة ، فتوارثه خلف عن سلف ، وتابع عن سباق ، وصفير عن كبير ،
وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نصيحة حازم ، ومشورة واقن ، أو رأيٌ حضر أو
حكمة نبغت ، أو صدر جاش فلم يملك ، أو علم فاض فلم يُرَد ، استعمله
من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذت بقولك ، وصرت إلى مشورتك وأكترت حمدَ الله على
إفادتك من العلم وحظَّ عنایتك من النَّقل ، وجمعت البعض إلى البعض ،

والشكل الى الشكل ، وتقليعٌ في استجادة الجلود ، وفي تمييز الصناع ، وفي تخير البيانات ، وغرت المال ، وشغلت البال ، وجعلتها مصحفاً مصحفاً ، وأجملتها صنفاً صنفاً ؛ ورأيت أنني قد أحكمت شانى ، وجمعت إلى أقطاري ، رأيت أن انظر فيها وأنا مستلقٍ ولا انظر فيها وأنا متصلب ، استظهاراً على تعب البدن ؛ إذ كانت الأسفل مُقللة بالأعلى ، وإذا كان الانتساب يُسرع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأن ذلك أبقى على نور البصر ، وأصلح لقوّة الناظر ؛ إذ كلُّ واحدٍ من هذه المصاحف قد اعجز يدي بثقل جرمها ، وضيق صدرها بجفاه حجمها . وإذا ثقل أنكَ الصدر ، وأرهن العزم .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالس سيرت عيني ، وتقوس ظهري ، واجتمع الدم في وجهي ، وأكرهت بضربي على غير جهنه ، وأجريت شعاع ناظري في غير مجرى .

وقد علمت - أباك الله - مع خبرتك بمقابع الأمور ، وموائع المنافع والمضار ، ثم بمصالح العباد والبلاد ، أنَّ من كان على مقطع جبل ، أو على شرفات قصر ، فرار د روحة السماء على بعدها ، وجند ذلك على العين سهلاً خفياً ، وإن أراد أن يرى الأرض على قربها ، وجند ذلك على العين يهساً ثقيلاً . فإن بدا لي أن يقابل عيني به العبد ، أو تواجهني به الأمة ، كلفت أخرين الناس كما ، واق لهم وفقاً ، وأكثرهم التنان ، وأحضرهم نعاساً ، وأقلهم على حال واحدة ثباتاً ، وأجهلهم بمقدار الموافقة ، ولمقادير المقابلة ، وبخطي اليد ورفعها ، وإمالتها ونبعها . ثم رأيت في تضليلهم وتكروهم وفرارهم منه ، ما صير تجسي لثقل وزنه ، ومقياساتي لجفاه حجمه ، أهون على يدي ، وأخف على قلبي . فإن تعاطيَه عند ذلك بدني فشقة حاضر ، وإن الزمرة غيري فغيط قاتل . وحتى صارت الحال فيها داعية إلى ترك درسها والمعاودة لقراءتها ، مع ما كان فيها من الفائدة الحسنة ، والمنافع الجامدة ،

ومن شُحذ الطبيعة ، وتمكين حُسن العادة .

ولو لم يكن في ذلك إلا الشُّغل عن خوض الخائضين ، والبعد عن لهو الألهين ، ومن الغيبة للناس والتميُّز لما في أيديهم ، لقد كان نفع ذلك كثيراً ، وموقعته من الدين والفرض عظيمـاً .

ومتى تُقلل الدرس تُشاقت النفس ، وتقاوِسُ الطبيعة . ومتى دام الاستقال احدث الهجران . وإذا طاول الكذ رسم الزهد . وفي ترك النظر عن البصر ، وفي اهـال الطبيعة كـلـالـحدـ(الطبيـعـةـ) . وعلى قدر الحاجات تكون الخواطر ، كما انه على قدر غريزة العقل تصبح الحاجـاجـ وـتـسـقـمـ ، وعلى قدر كـثـرـ الحاجـاجـ تـحرـرـ العـجـارـحةـ ويـتـصـرـفـ اللـسانـ ، وـمـعـ قـلـةـ الحـرـكـةـ وبعد العـهـدـ بـالـتـصـرـفـ يـحـدـثـ العـيـ وـيـظـهـرـ العـجـزـ وـيـبـعـطـيـ «ـخـاطـرـ» . ومع ذهاب البيان يفسد البرهان . وفي فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

فقد بلغت ما أردت ، ونلت مـاـ حـاـلـتـ ، فـحـسـبـكـ الآـنـ مـنـ شـجـ من مـأـسـوكـ ، وـمـنـ قـتـلـ مـنـ يـقـتـلـ فـيـكـ .

جعلت فـدـاكـ . إنـهـ لـيـسـ يـوـمـيـ مـنـكـ بـسـوـاجـدـ ، وـأـسـاـ عـقـابـكـ أـوـجـدـ . وـلـيـسـ يـنـجـيـ مـنـكـ مـقـلـ وـعـلـ ، وـلـامـفـازـةـ سـيـعـ ، وـلـاقـفـ بـعـرـ ، وـلـأـسـ طـوـدـ ، وـلـأـذـغـلـ وـلـادـحـلـ ، وـلـانـفـ وـلـامـغـارـةـ وـلـامـسـورـةـ . وـلـيـسـ يـنـجـيـنـيـ مـنـكـ إـلـاـ مـفـازـةـ(ـالـمـهـلـبـ) . فـانـ اـعـرـتـنـيـ قـلـبـهـ وـعـلـمـتـنـيـ حـيـلـتـهـ ، وـأـمـكـنـتـنـيـ مـنـ سـكـيـهـ . وـإـلـاـ فـانـ أـوـلـ مـنـ اـبـتـلـعـتـهـ تـلـكـ الـحـيـةـ . وـلـاـ وـالـلـهـ إـنـ بـيـ قـوـةـ عـلـىـ الشـعـيـانـ ، فـكـيفـ التـقـيـنـ . أـعـفـنـيـ مـنـ حـيـةـ المـهـلـبـ ثـمـ اـقـتـلـنـيـ أـيـ قـتـلـةـ شـتـتـ .

إنـ اـحـتـرـستـ مـنـكـ الـقـيـتـ لـنـفـيـ كـذـاـ شـدـيدـاـ ، وـغـمـاـ طـوـيـلـاـ ، وـطـالـ اـغـتـرـابـيـ وـافـتـرـاقـ الـأـفـيـ ، وـتـمـرـضـتـ لـلـعـدـوـ ، وـخـرـأـتـ بـالـسـبـاعـ . فـإـنـ استـرـسلـتـ إـلـيـكـ لـمـ تـرـ أـنـ تـقـتـلـنـيـ إـلـاـ شـرـ قـتـلـةـ وـآلـهـاـ ، وـلـمـ تـعـذـنـيـ إـلـاـ باـشـدـ النـقـمـ وـأـطـوـهـاـ . وـلـوـ أـرـدـتـ ذـبـحـيـ لـاـخـرـتـ الـكـلـبـلـ عـلـىـ الـمـرـهـفـ ، وـالـتـطـوـيلـ

عمل التذفيف ، حتى كثاني علمت عليك « شاه مات » ، أو أكلت سبعة
واطعمنتك واحدة .

[٧ - ابن الزيات يكيد للجاحظ]

ولقد تقدّمت في المكر واستظهرت على في الكيد ، حتى تولّت ذلك
في صغار كتبي وفيها لا تخفل به من دوام أمري ، وعلمت ان المرس للليل
وأن الإستراحة للنهار ، وأن الكتاب لا يقرأ إلّا ليلاً والنيران زاهراً ،
والمسابيع مقرّبة . وعلمت أن كلّ من ضعف بصره وكلّ نظره ، فإنه أبداً
أقرب مصباحاً وأعظم ناراً وأن المحرور المحترق ، والمرور الملتهب ،
والبائس المتهافت ، إذا كان صاحب كتب ودرس ، أنه لا يجد بدأً من
الصبر على ما يحرقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرّض لها . فخيّرني
بين العمى والجهل . وما فيها حظ لختار .

وقلت : إذا سخن بدنك سجن بوله ، وإذا سجن بوله جرّح مثانته وأحرق
كُلّيته ، وطبخ فضول غذائه ، وجفف ما فضل عن استمرائه فاحتاله حصى فاتلاً
وصخراً جاماً ، وهو دقيق القصيب ضيق الإحليل ، فإذا حصاه يورث الأشر ،
وفي ذلك الأسر تلف النفس أو غایة التعذيب .

وقلت : فإن ابتليت بطول عمره أقام فيما مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب عن
فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

جعلت فداك ، ما هذا الاستقصاء وما هذا البلاء ! وما هذا التبع
لغوامض المسالة ، والتعرّض لدقائق المكرره ؟ ! وما هذا التغلغل في كل شيء
يُحمل ذكري ؟ ! وما هذا الترقى إلى كلّ ما يحظى من قدرى ؟ !

وما عليك أن تكون كتبها من السوق الصيني ، ومن الكاغد
الخراساني ؟ !

قل لي : لم زينت النسخ في الجلود ، ولم حشّنت على الأدم ، وأنت
تعلم أن الجلود جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن
كان يوم لقي استرخت . ولو لم يكن فيها إلا أنها تبغض إلى أربابها نزول
الغبار ، وتكره إلى مالكيها الحياة ، لكان في ذلك ما كفى ومنع منها .

قد علمت أن الوراق . لا يخط في تلك الأيام سطرا ، ولا يقطع فيها
جلدا . وإن نديت - فضلا على أن تمطر ، وفضلا على أن تفرق - استرسلت
فامتدت . ومني جفت لم تهد إلى حالها إلا مع تقبص شديد ، وتشنج قبيح .
وهي اتنى ريحانًا وأكثر ثمناً ، واحمل للخش : يُقْشِنُ الكروفي بالواسطي ،
والواسطي بالبصري ، وتعتنق لكي يذهب ريحها وينجذب شعرها . وهي أكثر
عُقدًا وعَجْرًا ، وأكثر خباطاً وأسقاطاً ، والصفرة إليها أسرع ، وسرعة انسحاب
الخط فيها أعم . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر ما يكفيه في سفره
لما كفاه حمل بغير . ولو أراد مثل ذلك من القطني لكتاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فإنها أحمل للحك والتغیر ، وباقى على تعاور
العارية وعلى تقليب الأيدي ، ولرديدها ثمن ، ولظرسها مرجوع ، والمعاد منها
بنوب عن الجند . وليس لدفاتر القطني أثمان في السوق وإن كان فيها كل
حديث طريف ، ولطف ملبح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم عذلهما في
عدد الورق جلودا ثم كان فيها كل شعر بارد وكل حديث غث ، ل كانت أثمن ،
ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب الدواوين ، وفي الصكاك

واليهود ، وفي الشُّرُوط وصُور العقارات . وفيها تكون نموذجات النقوش ، ومنها تكون خرائط البرد . وعنْ أصلح للجُرْب ولعفاف الجَرْة وسِداد القارورة . وزعمت أنَّ الأَرْضَة إلى الكاغد أسرع ، وإنكرت أن تكون الفارة إلى الجلود أسرع ، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفسد ، فكانت سبب المضرة في اتّخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد ، وكانت سبب البلية في تحويل الدفاتر الخفاف في المحمل ، إلى المصاحف التي تُقلِّل الأيدي وتحطم الصدور ، وتقوس الظهور ، وتعمي الأبصار .

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد ، والأَيْرُوموا جمع شيء من أبواب التعلم بين الدُّفتين ، فُلِّحُوا بما جعله السُّلفُ للقرآن غير ذلك من العلوم .

[٩ - ابن الزبات يشمت بعدم انجاب المحافظ]

دغ عنك كُلُّ شيء . ما كان عليك أن يكون لي ولدٌ يجيء ذكري ويُحروي ميراني ، ولا أخرج من الدنيا بحسري ، ولا يأكله مُرَاءٌ يرْضُني ، وإن عمَّ يحسُّني ، ولا يربع فيه المعدلون في زمان السُّوء ، ولا تُصطنع فيه الرجال ، ويُفْضي به الذِّمام . فقد رأيت صنيعهم في مال المفقود والمناسخة والوارثِ الضعيف ، ومن مات بغير وصبة .

جعلت فداك ، إن النفوس لا تجود لمولى الكَلَالة بما تجود به لأولاد الأصلاب وما من تلك الأصلاب ، لأنَّ الرحم المأسنة والقرابة الملتصقة . واللُّحمة المتجمعة ، وإن أملت الترفة ونمازعت إلى المورث ، فمعها ما يأطُرُها ويشبهها ، ويُحزنها ويُشكِّها ، ويحرُّك دمها ويستفزُر دمعها . وقد يُشفع للولد إلى أبيه حال أبيه كانت من أبيه .

وابن العم الذي ليس بالبعيد فيُختَك من جسده ، وليس بالقريب المحزن

على رِحْمَه ، وسُبْهُ الْجَاذِبُ لَهُ إِلَى تَعْنِي مَصَاتِي أَمْتُنُ مِنْ سَبِّهِ إِلَى تَعْنِي بِقَاتِي ، وَهُوَ إِلَى الْحَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلْقُسْوَةِ وَالْغَلْظَةِ أَقْرَبُ مِنْهُ إِلَى الْحَالِ الْمَوْجِبَةِ لِلرُّقْةِ وَالْعَطْفِ . وَلَيْسَ يَنْصُرُكَ إِذَا نَصَرَكَ وَلَا يَحْامِي عَلَيْكَ لِفَرَابِتِهِ مِنْكَ ، وَلَكِنْ لَعْلَمَهُ بِأَنَّهُ مَتَّ خَذْلَكَ حَلْ بِهِ ضَعْفُكَ ، وَاجْتَرَأَ بَعْدَ ضَعْفِكَ عَلَيْهِ عَدُوُّهُ . فَهُوَ يَرِيدُ بِنَصْرِهِ مِنْ لَا يَجِدُ عَلَيْهِ شَكْرَهُ ، وَيَقْوِي ضَعْفَ غَيْرِهِ بَدْفَعِ الْضَّعْفِ عَنْ نَفْسِهِ .

جَعَلْتُ فَدَاكَ . مَا كَانَ عَلَيْكَ مِنْ بُنْيٍ صَغِيرٍ يَكُونُ لِي ، وَلَا سِيمَا وَلَسْتُ عَنْكَ مِنْ يُدْرِكُ كَسْبَهُ أَوْ تُبَلِّغُ نَصْرَتِهِ ، أَوْ يُعَاينُ بَرَهُ أَوْ يُؤْمِلُ إِمْتَاعَهُ .

وَمَا كَانَ عَلَيْكَ مَعَ كَبَرِ سَنِي وَضَعْفِ رَكْنِي ، أَنْ يَكُونَ لِي رِيحَانَةُ أَشْمَهَا وَتَمْرَةُ أَشْمَهَا ، وَأَنْ أَجِدَ إِلَى الْآمَانِي بِهِ سَبِّيَا ، وَإِلَى التَّلْهُي سَلَمَا ، وَأَنْ تَكُرَّ لِي مِنْ جَنْسِ سَرُورِ الْمَحَالِمِ ، وَيَقْدِرُ مَا يَمْتُعُ بِهِ رَاجِي السُّرَابِ الْلَّامِعِ ، حَتَّى حَبِيتُ قَصْرَ عُمْرِي إِلَى وَلَيْيِي ، وَشَوْقَتِهِ إِلَى ابْنِ عَمِّي ؛ وَحَتَّى زَدَتْ فِيمَا عَنْهُ مَعَ كَثْرَةِ مَا عَنْهُ ، وَحَتَّى صَبَرَنِي حُبُّهُ لِمَوْتِي إِلَى حُبُّ مَوْتِهِ ، وَتَامِيلُ مَالِي [إِلَى] تَامِيلِ فَقْرَهُ ؛ وَحَتَّى شَغَلَنِي عَمَّنْ كَانَ يَشْغُلُ عَلَوْيِي عَنِي .

وَسَوْاءَ أَبْيَتْ عَلَيَّ إِلَّا يَكُونَ لِي وَلَدٌ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ ، أَوْ بَعْتْ عَلَيَّ إِلَّا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ كَانَ . وَإِنَّمَا يَعْلَمُ اللَّهُ عَلَى النَّبَّةِ وَالْقَصْدِ ، وَعَلَى التَّوْخِي وَالْعَدْمِ .

وَكَمَا أَنَّهُ سَوَاءَ أَنْ تَحْتَالَ فِي إِلَّا يَكُونَ لِي مَالٌ قَبْلَ أَنْ أَمْلَكَهُ . أَوْ احْتَلَتْ فِي إِلَّا يَكُونَ بَعْدَ أَنْ مَلَكَهُ .

وَكُنْتُ لَا أَدْرِي مَا كَانَ وَجْهُ حُبُّكَ لِإِعْتَانِي ، وَالتَّشِيدُ بِذَكْرِ ثَرَائِي ، وَالتَّنْزِيهُ بِاسْمِي ، وَلَا لَمَ زَهَدْتُنِي فِي طَلْبِ الْوَلَدِ ، وَرَغَبْتُنِي فِي سِيرَةِ الرَّهَابِ .

فإذا أنت لم ترفع ذكري في الأغاني إلا لتعرض ذنبي للقراء ، ولم تكُنْ
مالِي إلَّا لتفوي العلة في قتلي ، فبِاللهِ مكيدة ما أبعدَ غُرُوزها ، وبِاللهِ حُفرة ما
أبعدَ قعرها . لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقّة المُسلك ، ويُعد
الغاية .

والله لو ذَبَرَها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها المُهَلَّبُ عَلَى
سُفيان بن الأبرد ، وفُتِحتَ عَلَى هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمة ، ولو ذَبَرَهَا قُيُونُ بن
لِقَمانَ عَلَى لِقَمانَ بْنَ عَادَ ، ولو أَرَاهَا قيسَ بْنَ زَهْيرَ عَلَى جَضْنَ بْنَ حَذِيفَةَ ،
ولو توجَّهَتْ لِكَهَانَ بْنِي أَسَدَ عَلَى دَهَةَ قَرِيشَ - لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ تَدْبِيرِهِمْ نَادِرًا
[بَدِيعًا] ، ولَكَانَ فِي مَكَايدِهِمْ شَادًّا غَرِيبًا . وَإِنَّهَا لَتَرْتَعِشُ عَنْ قَصْبَرِ فِي كَيدِ
الرَّبَّاءِ ، وَعَنْ جَذِيفَةَ فِي مَشَارِقَةَ قَصْبَرِ . وَمَا إِخَالُهَا إلَّا سَلَقَ عَلَى ابْنِ
العَاصِ ، وَتَغْيِضَ عَلَى ابْنِ هِنْدَ ، وَيَكُلُّ عَنْهَا أَخْوَنَقِيفَ ، وَيَسْتَلِمُ لَهَا ابْنِ
سُمَيَّةَ .

هذا والله التَّدْبِيرُ لَا مَخَارِيقَ لِلْمَرَافِ ، وَتَزاوِينَ الْكَاهِنِ ، وَتَهَاوِيلِ
الْحَاوِيِّ ، وَلَا مَا يَتَحَلَّهَا صَاحِبُ الرُّؤْنِيِّ ؛ بَلْ تَضَلُّ فِيهَا رُقُنُ الْهَنْدِ ، وَتَقْرُبُهَا
سَحْرَةُ بَابِلِ .

فَلَوْ كُنْتَ إِذْ أَرَدْتَ مَا أَرَدْتَ ، وَحاوَلْتَ مَا حَاوَلْتَ ، رَفَعْتَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ
الْمَوَانِسَةَ ، ثُمَّ أَبَيْتَ الْمَوَاكِلَةَ ، ثُمَّ قَطَعْتَ الْبَرَّ ، ثُمَّ أَذَنْتَ مَعَ الْعَائِمَةَ ، ثُمَّ
أَعْمَلْتَ الْحَرْمَانَ ، ثُمَّ صَرَحْتَ بِالْجَفْوَةَ ، ثُمَّ أَمْرَتَ بِالْحَجَابِ ، ثُمَّ صَرَمْتَ
الْحَبْلَ ، ثُمَّ عَادَيْتَ وَاقْتَصَدْتَ ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ كُلُّهُ أَسْرَفْتَ وَاعْتَدَتَ ، لَكَنْتُ
وَاحِدًا مِنْ يَصْبَرُ أَوْ يَجْزَعُ ، فَلَمَلَّيْ كُنْتَ أَعْيَشُ بِالرُّقْقَ ، وَأَبْلَغُ بِحُشَاشَةِ
النَّفْسِ ، وَأَعْلَلُ نَفْسِي بِالْطَّمْعِ الْكَاذِبِ . وَلَكِنْ فَجَاءَتِ الْحَوَادِثُ وَيَغْتَاثَاتِ الْبَلَاءِ

لا يُقْرَم لها العجر القاسي ، ولا العجل الراسي . فلم تدع غاية في صرف ما بين طبقات التعذيب إلا أتت عليها ، ولا فضول ما بين قواصم الظهر إلا بلغتها . فقدِّمتُ الآن فمع من تعيش ؟ [بل قد قتلتني فمن الآن تعاشر ؟] ، كما قال ديوسٌ المعني لكسري حين أمر بقتله ليقتله تلميذه بلهيد : قتلت أنا بلهيد ، وقتلني ، فمن بطريرك ؟ قال : خلوا سبيلاً ؛ فإنَّ الذي يعي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحجَّة .

ولكنني أقول : قد قتلتني فمع من تميش ؟ إنع الشطرينجين ؟ فقد قال جاليتوس : إياك والاستماع بشيء لا يعمُّ نفعه .

إنَّ الكلام إنما صار أفضَّل من الصُّمت ؛ لأنَّ فمع الصُّمت لا يكاد يعنِي الصُّمات ، وفمع الكلام يعمُّ القاتل والسامع ، والغائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : وما يدلُّ من فضل الكلام على الصُّمت ، أُنْك بالكلام تخبر عن الصُّمت وفضله ، ولا تخبر بالصُّمت عن فضل الكلام . ولو كان الصُّمت أفضَّل لكانَ الرسالة صمتاً ، ولكن عدم القرآن أفضَّل من القرآن .

وقد فرق بينهما رسول الله ، صلَّى الله عليه وسلم ، وفضل وميَّز وحصل ، حيث قال : « رَحْمَةُ اللهِ امْرَأٌ قَالَ خَيْرًا فَقُنِمَ ، أَوْ سُكِّتَ فَسَلِمَ ». فجعل حُظُّ السكوت السلامة وحدها ، وجعل حُظُّ القول الجمعَ بين الغيبة والسلامة . وقد يسلم من لا يغنم ، ولا يغنم إلا من سلم .

فأَنَا الدوابُ فمن يضع المركبَ الكريمَ إلى الصاحبِ الكريمِ ؟ ومن يعدل إمتناع بهيمة بامتناع أديب .

قالت ابنة التعمان : لم نر فيما جربنا من جميع الأصناف أبلغ في خير وشرٍّ من صاحب .

ولما عزم ابن زياد على الحفنة بعد أن كان تفحّثها قال له حارثة بن بدر : ما أجد أولي بتولي ذلك من الطبيب . قال عبيد الله : كلا ، فain الصاحب .

والله أن لو نجت في كل عام الفت شَبَدِيز ، وأحبلت في كل ليلة أربعة آلاف ربيب ، وصار لك كل نهر المبارك بدلاً من بعض بايتك وأكلت رأس الجَبَيد بن حاق الأئميم ، وأحبلت ابن الغَزَّ من إفراط الشُّبَق ، لما كان يبني لك أن تعاملنا بهذه المعاملة ، ولا كان ينبغي أن تقتلنا هذه القتلة ، ولو اقتصرت من العقوبة على شيء دون شيء لكان أعدل ، ولو عفوت البنة لكان أمثل .

[١١ - ذم الغضب]

إن الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره ، ومبتدئ العقاب بعرض لجاج . وليس عذاب إلا غضبان .

والغضب يغلب العزم على قدر ما مُكِن ، ويغيِّر اللُّبْ بقدر ما سُلِطْ .

والغضب يصوّر لصاحبه مثل ما يصوّر السُّكر لأهله .

والغضبان يُشعله الغضب ، وينغلي به الغيفظ ، وتستفرغه الحركة ، ويمتلئ بـ دُرْدَه رعدة ، ويتزايل أخلاطه ، وتنحل عُقده ، ولا يعتريه من الخواطر إلا ما يزيده في دائه ، ولا يسمع من جليسه إلا ما يكون مادة لفساده ، وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع ، واحترق حتى لا يفهم .

ولولا أن الشيطان يريد إلا يخلو من عمله ، ولا يقصُّ في عادته ، لما وسوس إلى الغضبان ولا زُيَّن له ، ولما أغراه ولا فتح عليه ؛ إذ كان قد كفاه ، وببلغ أقصى مُناه .

وليس يُصارع الغضب أيام شبابه وغريب ناهي شيء إلا صرّعه ، ولا يُنزعه قبل انتهائه وإدباره شيء إلا فَهُوَ . وإنما يُحتال له قبل هُيجه ، ويُشوق منه قبل حركته ، ويُقدم في حَسْم أسبابه وفي قطع عللها - فاما إذا تمكّن واستفحّل ، وأذكى ناره واشتعل ، ثم لاقى ذلك من صاحبه قدرة ، ومن أحواله سمعاً وطاعة ، فلو سعّطته بالتوراة ، ووجرّته بالإنجيل ، ولندّته بالزبور ، وأفرغت على رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيته بآدم عليه السلام شفيعاً لما فَصَر دون أقصى قوّته ، ولتمثّل أن يُعارِض أضعاف قدرته .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبد من غضب الله إذا غضب .

قال قتادة : ليس يُسكن الغضب إلا ذكر غضب الرحمن عز وجل .

وقال عمرو بن عبيد : ذكر غضب الرب يمنع من الغضب . إلا أن يزيد الذكر باللسان .

ويسمى المتوجّد غضبان ، والذكور حقوداً .

فلا تتفق - حفظك الله - بعد مضيّك في عقابي التماساً للعفو عنّي ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة لي ؛ ولكن قفت وقفـة من يُتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، وتعلم أن للعقل خصوماً ، وللكرم أعداء .

وإن من النصف أن تتصف لعقلك من خصمـه ، وتتصف لكريمـك من عدوـه ، وتُمسـك إمسـاك من لا يرىـه نفسه من الهوى ، ولا يرىـه الهوى من الخطأ .

[١٢ - علاقة الأسماء بالمعنى]

ولا تُنكر لنفسك أن تزـلـ ، ولعقلـك أن يهـرـ ، فقد زـلـ آدم عليه السلام وهـنـا ، وغضـيـ رـبـه وغـوـيـ ، وغـرـة عـدـوـه وخدـعـه خـصـمـه ، وعيـبـ باختـلال عـزـمه

وسكنون قلبه إلى خلاف ثقته . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه في دار أمنه ،
واسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع الأسماء بجميع
المعاني . ولا يجوز أن يعلم الاسم ويبدع المعنى ، ويعلم الدلالة ولا يضع
له المدلول عليه . الاسم بلا معنى لغُور ، كالظرف الحالي . والأسماء في
معنى الأبدان والمعاني في معنى الأرواح . اللفظ للمعنى بذاته ، والمعنى لللفظ
روح . ولو أعطاه الأسماء بلا معانٍ لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ،
وشيئاً لا حسْنٌ فيه ، وشيئاً لا متفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسمًا إلا وهو مضمون بمعنى ، وقد يكون المعنى ولا
اسم له ، ولا يكون اسم إلا له معنى .

في قوله جل ذكره : « وعلّم آدم الأسماء كلها » إخبار أنه قد علّم
المعنى كلها . ولسانعني معاني تراكيب الألوان والطعمون والأرياح ،
وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهي ولا تتساوى . وليس لما فضل عن مقدار
المصلحة ونهاية الرسم اسم إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شيء ،
ومعنى .

الأسماء التي تدور بين الناس إنما وضعت علامات لخصائص الحالات ،
لا لنتائج التركيبات . وكذلك خاصّ العاشر لا اسم له إلا أن يجعل الإشارة
المفرونة باللفظ اسمًا .

إنما نفع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها تحيط بها
وتشتمل . فاما العلوم المبوطة فإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنتهي .

فإذا زعمت أنَّ الله تبارك وتعالى علِّم آدم الأسماء كلها بمعانيها ، فإنما
تعني نهاية المصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت ثمرة ، وهو
ساواي وأنت أرضي ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوية والفرع

أولى بالضعف .

فلست أسائلك أن تمسك إلا ريثما تُسْكُنْ إِلَيْكَ نفسُكَ ، ويرتدي إليك ذهْنُكَ ، وحْتَيْ توازنَ بين ثيفاء الغيط والانفاس بثواب العفو ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطبيـب الأحداثـة ، وترى تصرـم الغضـب وما يفضـي لـأهلـه من فضلـ القـوة .

على أن العقل إذا تخلص من سكر الغضب أصابـه ما يصيب المخمورـ إذا خـرجـ من سـكرـ شـرابـه ، والـمـتهـزـمـ إذا عـادـ إـلـيـ اـهـلـهـ ، والـعـبرـسـمـ إذا أـفـاقـ من بـرـسـامـهـ .

وما أشـكـ أنـ العـقـلـ حـينـ يـطـلـقـ منـ إـسـارـهـ كـالـمـقـيـدـ حـينـ يـفـكـ منـ قـيـودـهـ ؛
يـمـبـيـيـ كالـتـرـيـفـ ، وـيـجـعـلـ كـالـغـرـابـ . فإذا وجـبـ عـلـيـكـ أنـ تـحـذـرـ عـلـىـ عـقـلـكـ
خـامـرـةـ دـاءـ الغـضـبـ بـعـدـ تـخـلـصـهـ ، وـانـ تـعـمـدـهـ بـالـعـلاـجـ بـعـدـ مـبـاـيـتـهـ لـهـ وـتـخـلـصـهـ
مـنـ يـدـهـ ، فـمـاـ ظـلـكـ بـهـ وـهـ أـسـيـرـ فـيـ مـلـكـهـ ، وـصـرـيـعـ تـحـتـ كـلـكـلـهـ ، وـقـدـ غـطـهـ
فـيـ بـحـرـهـ ، وـغـمـرـهـ بـفـضـلـ قـوـتهـ .

وقد زعمـواـ أـنـ الـحـسـنـ حـضـرـ اـمـرـأـ قـدـ أـفـرـطـ فـيـ عـقـوـةـ بـعـضـ الـمـذـنبـينـ ،
فـكـلـمـهـ فـلـمـ يـحـفـلـ بـكـلـامـهـ ، وـخـرـقـهـ فـلـمـ يـتـعـظـ بـزـجـرـهـ ، فـقـالـ : إـنـكـ إـنـماـ تـضـربـ
نـفـسـكـ ، فـإـنـ شـتـتـ الـآنـ فـأـقـلـ ، وـإـنـ شـتـتـ فـأـكـلـ .

ومعـاذـ اللهـ أـقـولـ لـكـ كـمـاـ قـالـ الـحـسـنـ لـذـلـكـ الـظـالـمـ الـمـعـنـديـ ،
وـالـمـصـمـمـ الـقـاسـيـ ، وـلـكـنـ أـقـولـ : أـعـلـمـ أـنـكـ تـضـربـ مـنـ قـدـ جـعـلـكـ مـنـ قـتـلهـ
فـيـ جـلـ . وـإـنـ كـانـ القـتـلـ يـحـلـ بـلـاحـلـ الـمـقـتـولـ ، وـيـسـقطـ عـنـهـ عـقـابـهـ بـهـةـ
الـمـظـلـومـ ؛ وـلـوـ أـمـكـنـ فـيـ الدـيـنـ تـوـاهـبـ قـصـاصـ الـآخـرـةـ فـيـ الدـنـيـاـ ؛ وـإـنـ كـانـ
ذـلـكـ مـاـ تـجـودـ بـهـ النـفـسـ يـوـمـ الـحـاجـةـ إـلـيـ الشـوـابـ وـإـلـيـ رـفـعـ الـعـقـابـ ، وـكـانـ
الـوـفـاءـ مـضـرـونـاـ . لـكـنـ أـوـلـ مـنـ أـسـمـحـ بـذـلـكـ نـفـسـهـ ، وـانـشـرـخـ بـهـ صـدـرـهـ .

[١٣] - اسباب التعادي غير متوافرة بين الجاحظ وابن الزيات

جعلت فداك ، إني قد أحصيت جميع أسباب التعادي ، وحصلت جميع علل التضاغن ، إلا علة عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإني لا أعرف إلا مجازها في الجملة ولا أحق خاصتها على التفصيل . وعلى حال فقد عرفتها من طريق الجملة وإن جهلتها من طريق التفصيل . فاما هذا التجني فلم أعرفه في خاص ولا عام .

فمن أسباب العادات تناقض الجيران والقريبات ، وتحاسد الأشكال في الصناعات . ومن أمن أسبابهم إلى الشر وأسرعها إلى المسوقة والعقل ، واقتدها في العرض وأخطبها على الدين ، التساح على المواريث ، والتنازع في تخوم الأرضين . فإن أتفق أن يكون بين المتشاكلين في القرابة كان السبب أقوى ، والدأء أقوى . وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الحظ في الصناعة . ولذلك كتب عمر رضي الله عنه إلى قضايه : أن ردوا القريبات عن خرا القضاء فإن ذلك يورث التضاغن .

ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغليظ قلبك ، ودورنا بالعسكر متظاهرة ، ومنازلنا بمدينة السلام مقابلة ، ونحن ننظر في علم واحد ، ونرجع في النحلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن أشد عجبي منك اليوم وأنا بفرغانة وأنت بالأندلس ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب بساج ، وصيانتك جودة الخط وصناعتي جودة المحرو ، وأنت كاتب وأنا أمي ، وأنت خراجي وأنا عشري ، وأنت ذرعني وأنا نخلقي . فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من تيم ، كان ذلك إلى العداوة سبيلاً ، وإلى المنافاة سلماً .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصلع وأنا أنزع ، وأنت صاحب برادين وأنا صاحب حمير ، وأنت ركيئ وأنا عجول ،

وأنت تدبر لنفسك وتُقْرِئ أودَّ غيرك ، وتشعّ لجميع الرعية ، ونبليه بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسي وعن تدبير أمري وعبني . وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سُوقَة ، وأنت مصطيف وأنا صنيعة ، وأنت تفعل وأنا أصف ، وأنت مقدُّم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت الرجال وناهضت الآباء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت قلتْ كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن ؛ وأمضيت الأمور على حقيقتها ، وسلمت إليها أقسامها على مقدار حقوتها ؛ فلم تندم بعد قول ، ولم تأسف بعد سكت . وأنا إن تكلمت ندمت ، [وإن جاريت أبَدَعْت] ورأيَي كُلُّ ذَبَرَي . وأنت تُعَذِّبُ في الشطرينج زير ، وأنا في الشطرينج لا أحد .

وما أعرف ها هنا اجتماعاً على مشاكلة إلا في الإيثار بخبز الخشكار على الحوازى ، والباقي على الحوزينج ، وأنا جميعاً ندعى الهندسة . فقد بلغ الأن من جرمي في مساواتك في خبز الخشكار ، وإيثاري الباقلى ، والمعرفة بتدبير المذن واجراء القوى ، أن أتفى من جميع الأرض ، وأن يجعل في دمي الجعالى ؛ فإيانى قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة التمر ، ونزلت الوبر بدلاً من المدر .

دُعْنَا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به عليماً ، وكفى به شهيداً ، وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بجرأة من يعلمه ما لا يعلم جرأة ونعرضاً ، وكفى بحاله عند الله بعدها ومقتاً . لقد أردت أن أفديك بنفسك في بعض كتبى ، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الظل ، فرأيت أن من الخيانة لك ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفسك مينة ، وأن أرىك أني قد جدت لك بآنفس علن والعيلق معدوم . ليس أنَّ من قد فداك فقد جعل فداك ، ولكنها نهاية من نهايات التعظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد . ومن أعلن الاجتهاد لك واستر خلاف ذلك فقد نافق وخان ، وغضَّ والأم . واحلقي بمن أخل بهذه الأ-

يرغى حقاً ، ولا يرجع إلى صحة ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا يشفيك مني السُّمُّ المجهز ، ولا السُّمُّ الساري ؛ فإنَّه أبعد
غاية في التسطير والبلغ في التعذيب . لا ولا لعاب الأفاغي وداهية الدواهي ،
فإنَّه يعجز الرُّقى ويقوس ذرع الاطباء . لا ولا نارُ الدُّنيا ، بل لا يشفيك من نارِ
الآخرة إلَّا الجحيم ، ولا يشفيك من الجحيم إلا أنْ أرى في نسواني وفي
أصطنة ناره ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الصُّميم من لهبيه . بل لا
تكتفي بذلك دون الذُّرك الأسفلي ، بل لا يرضيك شيء سوى الهاوية ، بل لا
ترضي إلَّا بعذاب آل فرعون ، أشد العذاب ، بل لا يرضيك إلَّا عذاب إيليس
الذِّي زَيَّنَ الخُرُّ للعباد ، وبئه في البلاد ، والذِّي خطأَ الربَّ وعانته ورُدَّ قوله ،
وغيره عليه تدبيرة ، ولم يزده إلَّا شَكَا ولجاجة ، وتمادي وإصراراً . ثم لم يرض
من الجدَّ في مخالفته أمره ، وخلع العذر في شدة الخلاف عليه إلَّا بأن يحلف
على شدة اجتهاده في ذلك بعزمته ، فجعل العزة المانعة من إسخاطه سبيلاً إلى
إسخاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلةٌ إلى إغضابه ، حيث قال :
« قَبْرُتُكَ لِأَغْوِيْنَهُمْ أَجْمَعِينَ » .

فعليك عافاك الله بإيليس إن كنتَ الله تنقض ، أو عليك بالأكتفاء إن كنتَ
لنفسك تنسفُ .

[١٤ - ابن زيارات استضعف الجاحظ فوصحه]

لا ولكلك استغمرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرُوخ الرفقاء ، وترسَّدَ أن
تتعلَّم في معاقبة الأعداء . فإنَّكَ إلى هذا تذهب فجعفر بن معروف أضعفُ
مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خبراً مني .

سبحان الله ، يَلْمُعُ عليك خبدر الأشبين ، وبهلك عليك عمرُو
الجاحظ ، ويسعد بك أبعد البعداء ويشقى بك أقرب القراء . وتتفاوض عن مثل

الجبال التumasأ للتسليم وجَّه للسلامة ، وتَعَلَّفَ إلى المحرّقات طلباً للتعرُّض
ووجَّهَ للشرَّ .

ومتى قدرت على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكرأ لقدرته عليه ، ومتى
لم تتفاوض عنه تكرُّما أو تدعه احتقاراً ، ومتى اكثريت لكبير وضائق صدرك عن
شيء عظيم فهأندا بين يديك ، فكُلني بخلٍ وخردل ؛ فوالله إِنَّك لتأكل غُصَاً غير
مروي ، وخبثاً غير شهي .

لا والله ، لكائنك وقتت على مطحورة ، وظفرت برأس خاقان . كنت
أظنَّ أنَّ الرشاقة والحلُّم لا يجتمعان ، وأنَّ ظرف الإنسان وأصالحة الرأي لا
يفزقان ، وأنَّ التُّرُق والخفة مفرونان بخفة البدن ، وأنَّ الرُّكَانة والأناة جموعتان
لصاحب السُّمْن ، حتى رأيتك فاعتقدت بك خلاف ذلك الرأي ، واستبدلتك
فيك خدُّ ذلك الطُّن . فتركتني حتى إذا نازعت الرجال ، وتعرَّضت للشُّجُن ،
وشغلت نفسي بثلبِ الخصام ، وانقطعت إلى أصحاب الْقُدُود ، وجعلت
عدُوائي في تقديم القصاص ، وطال لسانِي ، وأظهرت الاستبصار في فصلِك ،
وجعلت مزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتداشك هو النهاية ، وطبيعتك هي
المُسْكَنة ؛ وزعمت أنَّ منظرك يعني عن مخبرك ، وأنَّ أولك يجعلَ عن آخرك -
شددت على شدة المهر الأربن ، وتسرَّعت إلى تسريع الغُرُّ التُّرُق ، والتحت
[على] العجاج اللجوح الحق . كائنك لم تحفل بما يشيع لك من اسم
المتسَرِّع ، وبما تضاف إليه من سُخْف المتسَرِّع ، بعد أن تكذب قولي وتُفنَّد
خبرِي .

وقد تقدمت التجربة أنَّ الحديد لا يكون حقوداً ، وأنَّ المصطنع لا يكون
للصناعة حاسداً ، فقصدت على رأسِي إلى القياس الممتحن فأفسدته ، وإلى
الطبائع المعتمدة فنقضتها ، وإلى القضايا الصحيحة فردتها .

وقالوا بأجمعهم : حالان لا تقبلان الحسد ، ولا يخلوان من الرُّشد :

حال الصُّنْبِيَّةِ لِمُصْطَبِيَّهِ ، وحال المولى لِمُعْنَقِهِ . فكيف إذا كان الصُّنْبِيَّة صديقاً ، وكان للخاصة محتملاً .

[١٥ - ما يصيب الإنسان يصيب صديقه]

وإنما صارت - أبقاك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، وانخلاف أخلاقها ، وتباعد أماكنها ، نفساً واحدة وجسداً واحداً ، لامتسوء الخواطر ، ولا تتفاقها على الإرادة . فأنت وصديقك الموافق ، وخليلك ذو الشكل المطابق ، مستويان في المحاسب ، متفقان في الهوى ، مشاكلان في الشهوة ؛ وتعاونكم كتعاون جرارح أحدكم ، وتسالكم كما تسالم المتفق من طبائعكم . فإذا بآن منك صديقك فقد بآن منك شطرك ، وإذا اعتلَّ خليلك فقد اعتلَّ نصفك ، بل النفوس المضمنة كالمعانى المضمنة ، فذهاب بعضها هو ذهاب جميعها . فموتي هو موته صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي . فلا تبعده من قلبك بعد بدنك ؛ فقد يقرب البعض وبئس الحبيب . ولعل بعض طبائعك المخالط لروحك ، أن يكون أعدى من كلّ عدو ، وأقطع من كلّ سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضاري ، ومن السم الساري .

ثم أعلم أنَّ الموتى بموته قليل ، وقد صار اليوم المعتمد عليه في صحة العقدة ، وفي كرم الغيب والعشرة ، عنقاء مغريب . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلا أوخذَ منه . واني لأظنَّ القناعة أكثر منه . وما أكثرَ من جمل انقطاع سبيه وضعف طعمه لانقطاع سبيه قناعة :

وقيل ليعسى بن خالد : أي شيء أقل ؟ قال : قناعة ذي الهمة البعيدة بالعيش الذون ، وصديق قليل الآفات كثير الإماتع ، شكور النفس ، ويصيب مواضع المذبح .

لا والله إن تعرف على ظهرها موضعًا للسر ، ولا مجانًا للشكوى ، ولا
روحًا تأس بها ، ولا نفسًا تسكن إليها . ولو أردت أن تعرّفني من جميع
العالمين رجلاً لما قدرت على أحدٍ يحتمل الغنى . ومحتمل الفقر قليل ،
ومحتمل الغنى عديم .

إنَّ الخير - أبلاك الله - في أيام كثرته كان قليلاً فما ظُنِّك به في أيام
قلْتَه ، وإنَّ الشُّرُّ في أيام قلتَه كان كثيراً فما ظُنِّك به في أيام كثرته ، وأنت
غَرِيبٌ في المصطبةين ، وأنا غَرِيبٌ في الصنائع ، والغريب للغريب نسيب ،
ونسب المشاكلة وقربة الطبيعة الموافقة ، أقربُ من نسب الرجم ؛ لأنَّ الأرحام
مُولَعَةٌ بالتحاسد ، لهجة بالتقاطع ، وأن التحابٌ على طبع المشاكلة . والتلاقي
على وفاقٍ من الطبيعة ، أبعد من التفاصد ، وأبعد من التعادي . وسبُّ التعادي
عَرَضٌ في طبائع الغرباء ، وجواهرٌ في طبائع الأقرباء .

واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي
تنكُّر العيش وتسطُّخ الحال ، حتى تجد من تشكُّوك إلَيْه بُشُّك ، وتُقْصِي إلَيْه
بذاتِ نفسك . ومتي رأيت عجباً لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك
إخبارُك إيه . فمَنْ أغلَبَ عليك مُمْنَ كاتَ هذه حالَه منك ، وموقعه من
نفسك .

[١٦ - الجاحظ يستعطف ابن الزيات بشيخوخته وفضائله عليه ابان

شبابه]

ولو أن شيبتي التي بها استعطفتك ، وكبيرة سني التي بها اسْتَرْحَمْتَك ،
اللسان لم يهدئنا على إلَّا وأنا في ذراك ، ولم يحلاً بي إلَّا وأنا في ظلك ،
لكان في شفاعة الكبيرة ، واسترحا من الضعف والزهنة ، ما يردعك عنِّي أشدُّ
الردع ، ويؤثِّر في طباعك أبين الآثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن

تُهْبِتني خَلْفًا ، وَقُوَّتْ عَظِيمًا أَغْلَظَ مَا كَانَ ، ثُمَّ تُرِيدُ أَنْ تُوهَنَهُ أَرْقُ مَا كَانَ .
وَهُلْ هَرَمْتُ إِلَيْكَ طَاعْتُكَ ، وَهُلْ أَخْلَقْتُنِي إِلَيْكَ مَعْانَةً خَدْمَتُكَ ! .

قال علي بن أبي طالب : رأى الشَّيخُ الْمُسْعِفُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ جَلْدِ
الثَّابِ الْقَوِيِّ .

وَأَنَا أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخْوَنْ قَيْفُ : مَوْدَةُ الْأَخْ إِلَّا تَالِدٌ وَإِنْ أَخْلَقَ خَيْرًا مِنْ مَنْ
مَوْدَةُ الطَّارِفِ وَإِنْ ظَهَرَتْ بِشَاشَتِهِ ، وَزَاعَتْكَ جَدَّتِهِ .

وَقَالَ عَبْدُ الْمُلْكِ بْنُ مَرْوَانَ : رَأَى الشَّيخُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ مَشْهُدِ الْغَلامِ . . .

وَقَالَ بَعْضُهُمْ : لَيْسَ بِعَاقِبٍ مِنْ شَهَدَ رَأِيهِ ، وَلَيْسَ بِعَاقِبٍ مِنْ يَقِنَّ أَثْرِهِ .

وَمَا كَثُلَ الْعُقْلُ وَلَا وَفَرَّ النَّجْرِبَةُ شَيْءٌ كَنْفَصَانِ الْبَدْنِ ، وَكَأَخْذِ الْأَيَّامِ مِنْ
قُوَّى الْأَعْصَمَاءِ .

وَقَالَ أَخْرَى : مَا قَبَحَ الرِّجَالُ شَيْءٌ كَالْوَكَالِ ، وَلَا أَفْسَدَ الْكَرِيمَ شَيْءٌ كَحْبَ
الْإِسْتِطْرَافِ . وَخَيْرُ النَّاسِ مِنْ أَتَيَّعَ الْعِقَابَ مَوْاقِعَ الْغَضْبِ ، وَلَمْ يُتَّمِّعَ الغَضْبُ
مَوْاقِعَ الْهُوَى .

وَلَقَدْ مَنَحْتُكَ جَلْدَ شَبَابِيَّ كَسْلاً ، وَغَرَبَ نَشَاطِيَّ مُقْبَلاً ، وَكَانَ لَكَ
مَهْنَاهُ ، وَثَمَرَةُ قَوَاهُ ، وَاحْتَمَلْتَ دُونَكَ عَرَاماً وَغَرَبَاهُ ، وَكَانَ لَكَ غَنْمَهُ وَعَلَيُّ
غُرَمَهُ ، وَأَعْطَيْتُكَ عِنْدَ إِدْبَارِ بَدْنِي فَوْةً رَأِيَّهُ ، وَعِنْدَ تِكَامِلِ مَعْرِفَتِي نِتْيَةً
تِجْرِبَتِي ، وَاحْتَمَلْتَ دُونَكَ وَهُنْ الْكَبْرُ وَاسْقَامُ الْهَرَمِ .

وَخَيْرُ شَرِكَائِكَ مِنْ أَعْطَاكَ مَا صَفَا ، وَأَخْذَ لِنَفْسِهِ مَا كَثُرَ . وَأَفْسَلَ
خَلَطَائِكَ مِنْ كَفَلَكَ مَؤْوِتَهُ ، وَاحْضُرَكَ مَعْوِتَهُ ، وَكَانَ كَلَالَهُ عَلَيْهِ ، وَنَشَاطُهُ لَكَ .
وَأَكْرَمَ دَخَلَائِكَ وَأَشَكَ مَؤْمَلِيكَ مَنْ لَا يَطْنَأْ أَنَّكَ تَسْعَى جَزِيلَ مَا تَحْتَمِلُ فِي
بَدْلَكَ وَمَوَاسِيكَ مَوْنَةً ، وَلَا تَتَّبَعُ إِحْسَابِكَ إِلَيْهِ نِعْمَةً ، بَلْ يَرِى أَنَّ نِعْمَةَ الشَّاكِرِ
فَوْقَ نِعْمَةِ الْوَاهِبِ ، وَنِعْمَةَ الْوَادِ الْمُخْلِصِ فَوْقَ نِعْمَةِ الْجَوَادِ الْمُغْنِيِّ ؛ وَأَنَّهُ لَا

يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلع جميع ما له إلى مذمته والمحرومين
به ، حُسن نية الشاكر الواعق ، وحق تمني الواذ العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك عليَّ ، وإنكرت جميع حقوقي عليك ، أو
جعلت حقِّي عليك حَقًا لك ، ثم زعمت أنَّ حُقُّك لا يُؤثِّي إلى شكره ، وأنَّ
حقِّي لا يلزم حكمه ، وأنَّ إحساني إساءة ، وأنَّ الصغير من ذنبي كبير ، وأنَّ
اللَّهم بيِّن إصرار ، وأنَّ خطأي عمد ، وأنَّ عمدتي كُلُّ كفر ، وأنَّ كفري
يوجب القمع ويمنع من التزوع لِمَا كان عندك . وما أُسع قولي لأكثر من هذا
العقاب ، ولا أشدَّ من هذا الغضب . وما ينبغي أن يكون هذا المقدار من
النُّعُم إلَّا لباري النُّسُم في دار البقاء ، لا في دار الفناء . [و] الذي يجوز بين
العباد إنما هو تعزير أو حُدُّ ، أو قَوْد أو قصاص ، أو حبس أو تغريب ، أو
إغراق أو إسقاط عدالة ، أو إِرْزَامُ اسم العداوة ، أو عقاب يجمع الالم والتقويم
والتنكيل ، فيكون مَضْضُ الالم جزاء له ومعدلاً لأسراه .

وربما قصر الإيقاع على السُّخط وجاءه حَدُّ الغضب . وربما كان
مقصراً على مقدارهما ، ومحبوساً على نهاية حالهما .

وليس كُلُّ عقاب نتيجة سخط ، وقد لا يسمى ذلك المُرْقِع والمعاقب
واجداً كما يسمى ساخطاً ، ولا يسمى عاتباً كما يسمى غضبان ، فيخرج كما
ترى من أن يسمى سخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام
من هاتين الصفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار
الخلد والكرامة إلى دار الابلاء والمحنة ؛ ومع ما في ذلك من إعراض الجلد ،
والتسمية بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاغترار بيمين الخصم .

والعجب أنك تضجر من طول مسألتنا لغفك مع حاجتنا إلى عاجل
غفك ، ولا تضجر بطول تشاغلك بظلم صديقك مع استغنايتك عن ظلم
صديفك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلذُّ ضرب السياسِط ورضُّ العظام ،

فجُبْ « دندن » أحمل ، والسوط في ظهر قاسم أحسن ، وأبدانهما تحت السياط أثنت ، وإن أرواحهما أبقى ، وهي بأدوات الكلاب أثبَه ، والى طائع القباب أقرب ، وأرحامهم بالحمير أفسَر ، ومن يشير فيهم بذلك أكثر ، والأجر في ضربِهم أعظم . فاستدم اللذة بطريق اللذة ، وضع الأمور في مواضعها يطل سروك بها .

إن عنق الخيل وأحرار الطير أدق جَسْأاً ، وأشدُّ اكتئاناً . والكواكب الغلاظ والمحامر الثقال ، أكل جَسْأاً وأقل اكتئاناً . وليس الصبر بالصمت والسكوت ، ولا بقلة الصياغ والضمور . وقد يصبح تحت السوط من لا يقرُّ على صاحبه ، ولا يدلُّ على عورة نفسه . والكلب المضروب يجمع الصياغ والهرب ، والفرس العتيق يudo ولا يصبح ، والحافار كله كظوم ضامر ، والمخلب كله ضجورٌ صياغ ، والضجر في الحُفَّ عام ، والبخاتي أضجر . فيسمن الظلف عام ، وهو في الصنان أخفى ، وكل مضروب هارب صياغ ، ومنها ما يجمع الخصال كالكلب والبعير . والهرب من المكروه محمود ، والمقام عليه مذموم ؛ كذلك الذي يعتري العير السقيم وتجده في الفرس الكريم ، من قلة الاكتئاث وشدة .

وصبر البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح المنعقدة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلُّ على الكرم .

وفي المثل : « ما رُوح فلان إلا رُوح كلب ». وتقول العرب : « الضب أطول شيء ذمة ». والكلب لثيم ، والضبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصقر وأشدُّ واكثر ثمنا ، واجمل جمالاً ، واعنف صيداً ، وأنبل نبلاء ؛ إن قبض عليه قته ، وإن لم يُنْجِ كُنْدُرته عن قربه أو من نفسه . ثم بلغ من رقة طبع البازي وعنته أنه يتقطع برؤُس البازيار له إلى مسقطه من يده . والصقر يتعلّق ببساطيه من رجل حمل بدرع فتضطرّب متّسماً إلى

الصَّحِّ ، ثُمَّ تجده وَكَانَه لَم يَزُلْ عَلَى كُنْدُرَتِه وَعَلَى مَسْقَطِه الَّذِي يَوْتَى لَهُ .

فَلَيْسَ بِدُنْيَيْنِ مِنْ أَبْدَانِ الْاحْتِمَالِ فَأَمْتَعْك بِطُولِ ثَبَانَه لَكُ ، وَلَا أَثْبِتُ لَكُ ثَبَانَتَ الْغَيْرِ الْكَلِيلِ الْجَسْنَ ، وَلَا أَجْعَلُ الصَّيْحَاجَ دَلِيلًا عَلَى الإِتْرَارِ ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَحَدُ مَا تَنْتَمُ بِهِ ، وَتَدْرِكُ بِهِ حَاجَاتِ نَفْسِكَ .

[١٧ - عَلَيْكَ بِمَنْ احْتَجَنَ أَمْوَالَ الدُّولَةِ]

وَقَدْ دَلَّتِكَ عَلَى نَاسٍ يَجْمِعُونَ لَكَ الْخَصَالَ الَّتِي نِيَاهَا دَوَامُ لَذْتِكَ ، وَتَنَامُ شَهْوَتِكَ ؛ فَإِنْ زَرَعْتَ أَنَّ الَّذِي يَثْبِتُ رُوحَ دَنْدَنٍ فِي بَدْنِهِ ، وَرُوحَ الْقَاسِمِ فِي جَسْمِهِ ، سَرُورُهُمَا بِمَا قَدْ احْتَجَنَا مِنْ كَنْزَوْزِ الْخَلَافَةِ وَأَمْوَالِ الرَّعْبَةِ ، وَلِبِسِ ذَلِكَ مِنْ رَسْوَخِ أَرْوَاحِهِمَا فِي أَبْدَانِهِمَا ، وَمِنْ شَدَّةِ الْاحْتِجَانِ وَقُوَّةِ الْاِكْتِنَازِ ، فَفَرَقْ بَيْنَهُمَا وَبَيْنَ تَلْكَ الْأَمْوَالِ الَّتِي تَسْكُنُ أَرْوَاحَهُمَا بِالْجِيلِ الْلَّطِيفَةِ ، وَالْتَّدِبِيرِ النَّافِذِ ، وَبَيْانِ تَمْضِيَّ فِيهِمَا حُكْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنْنَةِ ؛ فَلِئَنَّهُ سِيَحْلُّ عُقْدَةً أَرْوَاحَهُمَا عَقْدًا عَقْدًا ، فَيَعْظُمُ أَجْرُكَ ، وَيُطَيِّبُ ذَكْرَكَ ، وَتَطْبِعُ الْخَلِيفَةَ ، وَتَتَحَبَّبُ بِهِ إِلَى الْأَمَّةِ ؛ فَتَكُونُ قَدْ أَحْسَنَتِ فِي صِرْفِ الْفُضُّلَةِ إِلَى أَهْلِهِ ، وَأَرْحَتْ مِنْهُ غَيْرِ أَهْلِهِ .

وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ .

* * *

تَمَتِ الرِّسَالَةُ بِعُونِ اللهِ وَمِنْهُ وَتَوْفِيقِهِ ، وَاللهُ الْمُوْقَنُ لِلصَّوَابِ بِرَحْمَتِهِ ، وَالْحَمْدُ لِللهِ أَوْلَا وَآخِرًا ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدِ نَبِيِّهِ ، وَآلِهِ الطَّيِّبِينَ الطَّاهِرِينَ وَسَلَامٌ .

١٦ - هامش رسالة الجد والهزل

- (١) لم يمهد للرسالة بالمقدمة التقليدية التي عودنا عليها الجاحظ .
- ومن خرج من جميع الأوزان وخالف جميع التعديل « يراد به ضرورة وجود نوازن بين الذنب والعقوبة .
- (٢) الطوائل : جمع طائلة ، الوتر .
- لاحظ الوصف النفسي الدقيق للغيط .
- (٣) التمييز بين الصديق والعدو ، والمحب والبغض ، والخير والشرير ، ضرورة في العقوبة . والجاحظ يريد ان يقول انه صديق ودود وصاحب خبر ، وبالتالي لا ينبغي عداوته وإنزال العقاب فيه .
- التتابع والتربع : التهافت والسرع .
- (٤) حرب البوسوس نشب في الجاهلية بين قبيلتي بكر ونغلب بسبب دمي كليب ضرع ناقة البوسوس ، خالة جناس ، مما حمل جناساً على قتل كليب . فاستمرت الحرب بين قبيلة (نغلب) وقبيلة جناس (بكر) .
- حرب داحس والغبراء نشب بين قبيلتي عبس وذبيان (من قحطان) بسبب نزاع على سبق الخيل بين الغبراء فرس سيد ذبيان وداحس حصان قيس بن زهير سيد عبس .
- (٥) لاحظ كيف يميز لغوياً بين الانسة والريث . ويستخرج ان للكلمات استعمالين : استعمال وضعي واستعمال قيمي ، يعني بالاول استعمال الكلمة بمعنىها الذي وضعت له اصلاً ، وبالثاني استعمال الكلمة بالمعنى الذي يتاسب مع اخواتها

في الجملة . وهذا ما انتهى اليه سويسير عندما تحدث عن قيمة الوحدات اللغوية
(راجع كتاب : محاضرات في الالسنية العامة) .

- الدھقان : زعيم الفلاحيين الفرس .

(٦) اسباب جمع القرآن في مصحف هي حفظه من الضياع .

- الجاحظ يجمع كتبه في اواخر أيامه وينظمها .

- الجاحظ يقرأ كتبه وهو مستلق بسبب عجزه عن الانتساب .

- لاحظ تأثره بالتابغة في تصوير فرعه من ابن الزيات كما فزع التابغة الشاعر
الجاهلي من النعمان ملك الحيرة :

وانك كالليل الذي هو مدركى وان خلت ان المتأى عنك واسع
وبت كاني ساورتني فثيلة من الشرش في انبابها السم ناقع

(٧) ابن الزيات يكيد للجاحظ صحيحاً وعقلياً : يبدو ان الوزير نصع الجاحظ بعدم
ادمان القراءة في الليل اشقاقاً من العمى . ونكن الجاحظ ظن أنه يريد ان يتربكه
枷هلاً .

(٨) لاحظ الاشارة الى انواع الورق المستعمل في الكتابة : الورق الصيني ، الكاغذ
الخراصاني ، الجلود .

(٩) ابن الزيات يشتمt لعدم انجذاب الجاحظ الاولاد : لاحظ المرأة التي تعتصر
قلب الجاحظ بسبب ذلك « ما كان عليك ان يكون لي ولد يعي ذكري ويحوري
ميراثي ، ولا اخرج من الدنيا بحسري » او يقول معبراً من حسرته تلك « وما كان
عليك مع كبير سني وضعف ركني ان يكون لي ريحانة ائتها وثمرة اضمها وان
اجد الى الامانى سبباً » .

(١٠) الجاحظ يتهم ابن الزيات بالكيد لقتلته .

- الزباء : ملكة تدمر - ابن العاص : عمرو بن العاص - ابن هند : عمرو بن هند
ملك الحيرة اخو ثقيف : الحجاج بن يوسف الثقفي - ابن سمية : زياد ابن ابيه .

(١١) ذم الغضب : استطراد ، لأنه تكلم عليه في صدر الرسالة .

(١٢) يطرق الجاحظ هنا موضوعاً لغرياً هاماً هو علاقة الاسماء بالمعنى . انظر تشبيه
المعنى بالروح ، والاسم بالجسد . وقد ورد هذا الشبه ايضاً في البيان والتين

(١٣) اسباب العداوات : تناقض الجيران والاقارب ، نحاسد اصحاب الصناعات ، تكلم
عليها في اماكن اخرى من كتبه - النحلة التي يجمعها الوزير والجاحظ هي
الاعتزاز .

- الزبر : العقل والرأي وقد وردت خطأ زبر في طبعة عبد السلام هارون .
- (١٤) « استغمرتني واستضعفني وجعلتني فروج الرفقاء » تعبير نجده عند المعري .
- (١٥) تعاون الاصدقاء كتعاون جوارح الجسم ؟
- (١٦) « اني استرحمك بكثرة سني » : لاحظ ضعف الشيরخة .
- (١٧) القاسم ودبدن : يبدو أنهما من احتجن مال الدونة ، وهما يستحقان العقاب بنظر الجاحظ وليس هو .

- ١٧ -

فصل ما بين العداوة والحسد



لهم إني أسألك سلامك

[١ - فضل هذا الكتاب]

أصحاب الله مدحوك السعادة والسلامة ، وقرئها بالعافية والسرور ، ووصلها بالنعمـة التي لا تزول ، والكرامة التي لا تنـول .

هذا كتاب - أطال الله بقائه - نبيل بارع ، فُصل فيه بين الحسد والعداوة ، ولم يسبقي إليه أحد ولا إلى كتاب فضل الوعـد الذي تقدمـ هذا الكتاب ، ولا إلى كتاب أخلاق الوزراء الذي تقدمـ كتاب فضل الوعـد .

وإنما نـبلـتـ هذه الكتب وخفـتـ وبرـعتـ ، وبـذـتـ غيرـها لـمشـاكـلـتها شـرفـ الأـشـرافـ ، بما فيـها من الأخـبارـ الـأـبـيـقـةـ الغـرـبـيـةـ ، والأـثـارـ الـحـسـنـةـ الـلـطـفـةـ ، والأـحـادـيـثـ الـبـاعـثـةـ عـلـىـ الـأـخـلـاقـ الـمـحـمـودـةـ ، والمـكـارـمـ الـبـافـيـةـ الـمـأـوـرـةـ ، معـ ما تـضـمـنـهـ من سـيـرـ الـمـلـوـكـ وـالـخـلـفـاءـ وـوزـرـائـهـ وـأـتـبـاعـهـ ، وما جـرـتـ عـلـيـهـ أحـوالـهـ .

فـإـنـاـ أـسـأـلـكـ بـسـاطـعـ كـرـمـكـ وـنـاصـعـ فـضـلـكـ ، لـمـاـ اـمـتـنـتـ عـلـيـ بـصـرـفـ عـنـايـتـكـ إـلـىـ قـرـاءـتـهاـ ، فـإـنـ لمـ يـمـكـنـكـ تـبـرـعـهاـ وـالتـقـصـيـ لـجـمـيعـهـاـ ، لـلـأـشـغالـ التـيـ تـعـرـوـكـ ، فـبـحـبـكـ أـنـ تـقـفـ عـلـىـ حـدـودـهـاـ ، وـتـعـرـفـ مـعـانـيـ أـبـواـبـهـاـ بـتـصـفـحـ

أوائلها ؛ فإنَّ مَعْكَ قلباً بِهِ مِنَ الْيَقْظَةِ وَالذِّكَاءِ ، وَالْتُّرْقُدِ وَالْحَفْظِ ، مَا يَكْفِي مَعَهُ
النُّظرُ الْخاطِفُ .

[٢ - حِسَادُ الْمُؤْلِفِينَ]

إِنَّهُ لَمْ يَخْلُ زَمْنٌ مِنَ الْأَزْمَانِ فِيمَا مَضَى مِنَ الْقَرْوَنَ النَّاهِيَةِ إِلَّا وَفِيهِ
عُلَمَاءٌ مُجْهُونٌ ، قَدْ قَرَأُوا كُتُبَ مَنْ تَقْدِيمُهُمْ ، وَدَارَسُوا أَهْلَهُمْ ، وَمَارَسُوا
[الْمُوَافِقِينَ] لَهُمْ ، وَعَانَوْا الْمُخَالَفِينَ عَلَيْهِمْ ، فَمَخَضُوا الْحُكْمَةَ وَعَجَمُوا
عِيَدَانَهَا ، وَوَقَفُوا عَلَى حَدُودِ الْعِلْمِ ، فَحَفَظُوا الْأَمْهَاتِ وَالْأَصْوَلِ ، وَعَرَفُوا
الشَّرَائِعَ وَالْفَرَوْعَ ، فَفَرَقُوا مَا بَيْنَ الْأَشْيَاءِ وَالنَّظَائِرِ ، وَصَاقُبُوا بَيْنَ الْأَشْكَالِ
وَالْأَجْنَاسِ ، وَوَصَلُوا بَيْنَ الْمُتَجَاوِرِ وَالْمُتَوَازِيِّ ، وَاسْتَبَطُوا الْفَاعِمُ الْبَاطِنُ
بِالظَّاهِرِ الْبَيْنِ ، وَاسْتَظْهَرُوا عَلَى الْخَفِيِّ الْمُشْكُلِ بِالْمُكْشُوفِ الْمُعْرُوفِ ، وَعُرِفُوا
بِالْفَهْمِ الْتَّابِقِ وَالْعِلْمِ النَّاصِعِ ، وَقَضَتْ لَهُمُ الْمِحْنَةُ بِالْذِكَاءِ وَالْفَطْنَةِ ، فَوَضَعُوا
الْكُتُبَ فِي ضُرُوبِ الْعِلْمِ وَفَنُونِ الْآدَابِ لِأَهْلِ زَمَانِهِمْ ، وَالْأَخْلَافِ مِنْ بَعْدِهِمْ .
يَزَدِلُفُونَ بِذَلِكَ إِلَى الْمُمْتَنَنِ عَلَيْهِمْ بِفَضْلِ الْمُعْرِفَةِ الَّتِي رَكِبُهَا اللَّهُ فِيهِمْ ، وَأَبَانُهُمْ
مِنْ غَيْرِهِمْ ، وَفَضَّلُهُمْ عَلَيْهِمْ ، وَبِسَاهُونَ بِهِ الْأَمْمُ الْمُخَالَفَةُ لَهُمْ ، وَيَتَبَارُونَ
بِذَلِكَ فِيمَا بَيْنَهُمْ ، وَلَهُمْ حُسَادٌ مُعَارِضُونَ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِمْ فِي تِلْكَ الْعِلْمِ
وَالْكُتُبِ ، مُتَحَلَّةٌ يَدْعُونَ مُثَلَّ دُعَائِهِمْ ، قَدْ وَسَوْا أَنفُسَهُمْ بِسَيِّماتِ الْبَاطِلِ ،
وَتَسْمَئُوا بِاسْمَاءِ الْعِلْمِ عَلَى الْمَجَازِ مِنْ غَيْرِ حَقِيقَةٍ ، وَلِبِسُوا بَالَّسِ الزُّورِ
مِنْ تَرْخِيفِيْنِ مُتَبَعِّيْنِ بِمَا لَا مَحْصُولُ لَهُ ، يَحْتَلُونَ أَمْثَالَ الْمُحَقِّقِينَ فِي زَيْمِ
وَهَدِيهِمْ ، وَيَتَنَعَّمُونَ آثَارَهُمْ فِي الْفَاظِهِمْ وَالْحَاظِمِهِمْ ، وَحَرَكَاتِهِمْ وَإِشَارَاتِهِمْ ،
لَيُنَسِّسُوا إِلَيْهِمْ وَيُحَلِّلُوا مَحْلُهُمْ ، فَاسْتَمَالُوا بِهَذِهِ الْحِيلَةِ قُلُوبَ ضَعَفَاءِ الْعَامَةِ ،
وَجَهَلَاءِ الْمُلُوكِ ، وَأَخْذَهُمُ الْمَعَادُونَ لِلْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ عُدَّةٌ يَسْتَظْهِرُونَ بِهِمْ عِنْدِ
الْعَامَةِ . وَحَمَلُ الْمَدْعَيَةَ لِلْعِلْمِ الْمَزُورِ الْحَسِدُ عَلَى بَهْتِ الْعُلَمَاءِ الْمُحَقِّقِينَ ،

وعضوهم والطعن عليهم ، وجرأهم على ذلك ما رأوا من ضعف ضعفة القلوب واذلة الناس إليهم ، وميل جهله الملوكي لهم عليهم ، وأملوا أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، وتستوي لهم الرئاسة على نظام الناس وزعامتهم ، ويستخلوا رغائبهم وقومهم ، فهمروا وهدروا وتوردوا على أهل العلم بغيرتهم ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا سترًا كان مسدلاً عليهم بالصمت . فقد قيل : « الصمت زين العالم ، وبستر الجاهل » ؛ طمعاً في الرئاسة وجباً لها . وقد قيل :

حبُّ الرئاسة دائِرٌ لا دواء له وقلما تجدُّ الراغبين بالقسم
ولم يخل زمانٌ من الأزمنة من هذه الطبقة ولا يخلو . وهلاك من هلك من الأمم فيما سلف بحبِّ الرئاسة . وكذلك من يهلك إلى انقضاء الدهر بحبِّ الرئاسة .

وقد قيل : هلاك الناس متى كانوا إلى أن تأتي الساعة بحبِّ الأمر والنهي ، وحبِّ السمع والطاعة .

فأشكل على العائمة أمرُ العالم الحقيقي والمدعى المخاري المتخل للزور والباطل ؛ ثم ترافق عليهم من هذه العلل التي يعمى لها السبيل الواضح والطريق المنشأ ، على الجاهل المستضعف ؛ وفي الغباء المسترهف .

[٢ - متحلو كتب الباحظ]

ولست آمناً - جعلني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أعني بتأليفها ، وأتأثر في ترقيتها ، يتولى عرضها عليك من قد ليس لباس الزور في انتقال وضع مثلها ، ونبس نفسه إلى القوة على نظائرها ، والمعرفة بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها فابن عمها ، وتشيّع بما لم يطعمه الله منها .

ولعل بعض من حوله ، أو بعض من يهزل به ، ويرتع في عقله ويلهم بلبه ، ويضنه على طبابة اللعب ، وفي أرجوحة العث ، يرهمه الحسد له على ما يدعى من ذلك ، ويتقدم إلى آخرين في إيهامهم إياه ذلك ، فيزيده فعلهم ضرورةً بأدّعاء ما ليس معه وهو منه عار . فإذا رجع إلى الحقائق علم أن مثله كما قد قبل :

ومن يسكن البحرين يعظم طحاؤه ويُغْبِطُ بما في البطن والبطن جائع

وقد قيل : « الذنب يُغْبِطُ وهو جائع ». فبلوي في قراءتها ، ويقبض لسانه عن بسط ما يحتاج أن ينشره منها ، وبقصّر في تفخيم حروفها ولا يملأ فمه منها .

[٤ - الطاعون على كتب الجاحظ]

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الطعن عليها بقوله أو إشارة ، فيوهم فساد معانيها ويؤمِي إلى سقوط الفاظها ، من غير أن يُظهر المعاداة لها ، والحسد لمُؤلفها ، والحمل عليها بقوله يكون دليلاً على ما يصبر ، وهو أبلغ ما يكون من قلب المستمع وأنجعه فيه ، فيقع ذلك بخلده . وقد قيل : « من يسمع بخل » .

وليس يقابله أحدٌ برد ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً عندما يرى من خلاء الأمر . وقد قيل : « كُلُّ مُنْجِرٍ في الخلاء يُسرٌ » وكل مناظر متفردة بالنظر مررور ، وإنما يُعرَفُ جرئيُّ الخيل عند المسابقة ، وببراعةُ النظر عند المخاصمة .

وقال لي بشر المرسي : عرض كتابي على المأمون في تحليل النبيذ ،

وبحضرته محمد بن أبي العباس الطوسي ، فانبرى للطعن عليه والمعارضة للحجج التي فيه ، وأسهب في ذلك وخطب ، وأكثر وأطنب ، فقلق المامون واحتمم ، وهاج واضطرب ؛ لاستحقار الطوسي وخلاه المجلس له ، وكان يبحث أن يزغه وازع يكُنْ بحجة تُكتَه ، فلما لم ير أحداً بحضرته يذَّ عن كتابي قال متمثلاً :

بِالْكَلْمَنْ فَيُبَرِّهُ بِسَعْمَرٍ خَلَا لَكَ الْجَوْفِيَّضِيُّ وَاصْفَرِي
وَنَقْرِي مَا شَتَّتَ أَنْ تَقْرَرِي

فما كان إلا ريث فراغه من التمثيل بهذه الآيات حتى استؤذن لي فدخلت عليه ، فقال : يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في النبي؟ فقلت : حَلْ طَلَقْ يا أمير المؤمنين . فقال : فما تقول فيما أسكر كثيرون؟ قلت : لعنة الله قليله إذا لم يسكر [إلا] كثيرون . ثم قال : إنَّ مُحَمَّداً يخالفك . فأقبلت على ابن أبي العباس فقلت له : ما تقول فيما قال أمير المؤمنين؟ قال : لا خلاف بيني وبينك [و] كلاماً يوهم به أهل المجلس ، حَبَّا للتلسم مِنِي والتخلص من مناظري ، لا على حقيقة التحليل له . فاستفنت ذلك منه وقلت له : فما لي لا أرى أثر فواه في عقلك؟ فضحك المامون ، فلما رأيت ضحكته أطنبت في معاني تحليل النبي ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المامون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه في ثلب كتابي وعيبه - كان - قبل دخولي ، قال متمثلاً :

مَا لَكَ لَا تَبْخُرُ بِاَكْلَبِ الدُّؤُمِ فَدَكَنْتَ تَبَاحِي فَمَا لَكَ الْيَوْمُ

[٥ - أبناء النعم محسودون]

ثم نظر إلىي فقال : إنَّ الكتب عقول قومٍ وراءها عندهم حججٌ لها ، فما

ينفي أن يُقضى على كتاب إلا إذا كان له دافع عنه ، وَخَصَّ بَيْنَ عِمَّا فِيهِ :
فَإِنَّ أَبْنَاءَ النَّعْمٍ وَأَرْلَادَ الْأَسْدِ مَحْسُودُونَ .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، يلزمه كل حاسد راهن .

وقد قبل في مثل من الأمثال : « الخنزير محسود ». وفي مثل آخر :
« لَمْ تَعْلَمْ الْحَسَنَةَ ذَاماً » . وقال الأخفف بن قيس :

وَنَزَ تصادف مُرْعِنْ مُمْرِعًا أَبْدًا إِلَّا وَجَدْتَ بِهِ آثَارَ مَا كُولَّ

يَقُولُ : يُعَاثُ فِي كُلِّ [مُرْعِنْ] خَسِنٍ وَيُؤْكَلُ مِنْهُ ، فَيَعْبِيَهُ ذَلِكَ .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « مَا أَحَدَتَ اللَّهُ بِعَدْ نِعْمَةٍ إِلَّا
وَجَدَتْ لَهُ عَلَيْهَا حَاسِدًا . وَلَوْ أَنَّ امْرًا كَانَ أَقْوَمُ مِنَ الْقَدْحِ لَوَجَدْتَ لَهُ غَامِرًا » .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنانَ
حَسَدِهِ ؛ لَأَنَّهُ مَغْلُوبٌ عَلَى نَفْسِهِ .

وقال الخطاب بن نمير السعدي : الحاسد مجنوون ؛ لأنَّه يَحْسُدُ الْحَسَنَ
وَالْفَبِيجَ .

[٦ - فصل ما بين العداوة والحسد]

وقال المهلب بن أبي صفرة : الحسد ثياب لا يالي من أصاب ، وعلى
من وقع .

والعداوة لها عقل توسس به نفسها فتُنجِمُ قرْنَها ، وتُبْدِي صفحتها في
أوقات البهْر . وإنَّها كامة تتهزَّ أزْمَنةَ الْفَرْصِ . والحسد مسلوب المعقول
يلزمه الضمير في كل حين وزمان ووقت .

ومن لوم الحسد أنه مؤكّل بالأدنى فالأدنى ، والأخصر فالأخضر . والعداوة وإن كانت تُقْبِح الحسن فهي دون الحسد ، لأنَّ العدُو المباين قد يُحوّل ولها ماتفاقاً ، كما يُحوّل المولى المنافق عدوًّا مبaitنا .

والحسد لا يزول عن طريقته إلَّا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدُث لعلة ، فإذا زالت العلة زالت معها . والحسد تركيب لعلة يحسد عليها فهو لا يزول إلَّا بزوالها . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أرضي الناس كُلُّهم إلَّا حاسد نعمة ، فإنه لا يرضيه منها إلَّا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترجزوا عن عداوتها ، وكانتوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عن حماها .

ومن هذا قال المغيرة بن شعبة : النعمة التي يعيش فيها نعمة محروسة ليس عليها ثاثر يغتالها ، ولا ذو حسد يحتال في غيرها .

وقال قتيبة بن مسلم : خير الخير وأحسنُه خيرٌ عيشَ فيه . وكلُّ خيرٍ كان يُرضخُ بدلاً كان من المتألف ممّنوعاً ، ومن الغير آمناً .

وحساد النعمة إنْ أُعطوا منها وتبجّحوا فيها ، ازدادوا عليها غبطة وبها إغراء .

والعداوة تُخلق وتُتمّل ، والحسد غضْ جديـد ، حُرِم أو أُعطي ، لا يـد . فكل حاسد عدو ، وليس كل عدو بحساد . وإنما حمل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم - وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءـهم أنه نبيٌّ صادق ورسولٌ مُحقٌّ ، يقرأون بعثـه في توراتـهم ، ويتدارسونـه في بيت مدرـسـهم - الحـسـد ، ومحـرـجـ بينـ علمـانـهمـ والإيمـانـ بهـ ، ثم تـنـجـ لهمـ الحـسـدـ عـداـوـتهـ .

ومن الدليل على أنَّ الحـسـدـ آلمـ وأذـىـ وأوجـعـ وأوضـعـ من العـداـوـةـ ، أـنـهـ مـغـرـىـ بـفـعـلـ اللهـ عـزـ وجـلـ ، وـالـعـداـوـةـ عـارـيـةـ منـ ذـلـكـ لـاـ تـنـصـلـ إـلـاـ

بأنفعال العباد . ولا يُعادي على فعل الله تباركت أسماؤه ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عادى لأئمَّة حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيبح اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاملاً هذه الطبيقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بانخبر والمشاهدة .

فهذا دليلاً على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واعوجاج التركيب ، واضطراب السوس .

والحسد أخو الكذب ، يجريان في مضمون واحد ؛ فهما أيفان لا يفترقان ، وضجيعان لا يتباينان . والعداوة قد تخلو من الكذب ؛ ألا ترى أن أولياء الله قد عادوا أعداء الله إذ لم يستحْلوا أن يكذبوا عليهم ؟! والحسد لا يبرأ من البهتان ، وكيف يبرأ منه وهو عموده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كضرائر الحُسْنَاء قُلْ لِوجهِهَا كذبًا ورورًا إِنَّه لذمِيمٌ
والحسد نارٌ وقوده الرُّوح ، لا تُبوح أبداً أو يُفني الوقود . والحسد لا يليل إلا على المحسود أو الحاسد . والعداوة جمر يُوقنه الغضب ، ويطفوته الرضا . ، فهو مؤمل الرُّجُوع مرجو الإنابة . والحسد جوهر العداوة اكتساب .
وقال بعضهم : الحسد أثني ، لأنَّه ذليل ؛ والعداوة ذكر فَحْل ، لأنَّها عزيزة .

والحسد وإنْ كان موكلًا بالأدنى فالآدنى فيه لم يغُرْ منه الأبعد فالبعد . فقد رأينا وشاهدنا من كان يسكن العراق ويتحل العلم والأدب ، انتهى إليه خبير مشارِك له في الصناعة من أهل خراسان وجنبه بلُغ من اتساق الرياسة في بلده ، وجميل حاله ونبيل محله عند أهل مصره ، وطاعية العامة له ، وترادف الناس عليه ، فطار قلبه فرقاً ، وأخذته الأزساء ، وتَشَّسَّصَ الصُّعْدَاء وانتقض

انتفاضَ المُقْلِسُ المُسْطُورُ ، فقالَ لِي رجُلٌ مِن إخْرَانِي كَانَ عَنْ يَمِينِي ، حينَ رأى مَا رأى مِنْهُ : بحْرٌ قالَ مِنْ قَالَ : « لَمْ يُرَ ظَالِمٌ أَشْبَهْ بِمُظْلُومٍ مِنْ حَاسِدٍ نَعْمَةٌ ؛ فَإِنَّ نَفْسَهُ مُنْصَلٌ ، وَكُرْبَهُ دَائِمٌ ، وَفَكْرَتِهِ لَا تَنَامٌ ». .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدّ لصوصاً منه بغيرهم من الملوك والسرقة . وكأنَّ من ناله التقصير في صناعة العلم عن غابتة القصوى قد استشعر حسدَ كُلَّ ما يُرَدُّ عليه من طريفِ أدِبٍ ، أو أنيقِ كلامٍ ، أو بديعٍ معنى . بل قد وقع بخلده لضعفه ، وقرَّ في رُوعه لخاسته ، أنه لا يبال أحداً منهم رِيَاسَةً في صناعة ، ولا يتهبَّ له سِيَاسَةً أهْلَها ، إِلَّا بالطعن على نواصيهِم ، والعيب لجلتهم ، والتحِيف لحقوقهم . .

قالَ لِي مُسْلِمُ بْنُ الْوَلِيدِ الْأَنْصَارِيُّ الشَّاعِرُ ، الَّذِي يُعْرَفُ بِصَرِيعِ الغوانِيِّ : خُلِّي إِلَى نَوْئِي الشُّعُراءِ أَنَّهُمْ لَا يُقْضَى لَهُمْ بِجُودَةِ الشِّعْرِ إِلَّا بِهِجَانِيِّ وَالطُّعْنِ فِي شِعْرِيِّ ، وَلَسْنِي يُهْجِنُ بِهِ عَرْضِيِّ ، لَا أَنْفَكُ مِنْهُمَا مِنْ غَيْرِ جُرمٍ ، إِلَّا مَا سَبَقَ إِلَى قُلُوبِهِمْ مِنْ وَسَارِسِ الظُّنُونِ وَالخَوَاطِرِ الَّتِي أَوْهَمْتُهُمْ أَنَّهُ لَا يُسَجِّلُ لَهُمْ بِجُودَةِ الشِّعْرِ إِلَّا إِذَا اسْتَعْمَلُوا فِي مَا خُلِّيَّ إِلَيْهِمْ . .

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أنَّ أبا الصَّلت الْهَرَوِيَّ كَانَ عَنْدَ الفضلِ بْنِ سهيلِ ذي الرباستينِ بِمَرْوَ ، فَقَرَأَ عَلَيْهِ كِتَابَ الْفَهْرُونِيِّ بْنِ شَمْيلٍ ، فَطَغَنَ أَبُو الصَّلتِ فِيهِ ، وَكَانَ الْفَضْلُ عَارِفًا بِالنَّصْرِ الشَّمْيلِيِّ ، وَاتَّقَأَ بِعِلْمِهِ ، مَائِلًا إِلَيْهِ ، فَاقْبَلَ عَلَى أَبِي الصَّلتِ وَقَالَ لَهُ : إِنَّ يَعْمَنِي بْنَ خَالِدٍ قَالَ يَوْمًا : إِنَّ كَتَبِي لِتُعَرَّضُ عَلَى مَنْ يَعْلَظُ فَهُمْ عَنْ مَعْرِفَتِهَا ، وَيَجْسُوْ ذَهْنَهُ عَنْهَا ، وَلَا يَلْعَنْ أَقْصَى عِلْمِهِ مَا فِيهَا - يُعَرَّضُ بِإِسْمَاعِيلَ بْنِ صَبَّاحٍ - فَيَطْعَنُ فِيهَا وَلَا يَدْرِي مَا يُقْرَأُ عَلَيْهِ مِنْهَا . إِلَّا أَنَّ نَارَ الْحَدْ تُلْهِهِ فِيهِذِي هَذِبَانَ الْمَرِيضِ ، وَيَهْمِزُ هَمَزَاتَ الْغَيْرِيِّ ، ثُمَّ لَا يَرْضَى أَنْ يَقْفَ أَنَّهُ أَوْلَى الطَّعْنِ وَيَبْيَلُ عَنْهُ حُشْ بِسْتَقْصِيَّ عَلَى نَفْسِهِ إِظْهَارُ جَهْلِهِ عَنْ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ ، بِاسْتِهْمَابِهِ الطَّعْنِ عَلَى مَا

إِنْ يَلْغِي دِرَايَتِهِ ، وَلَمْ يُحَطْ بِهِ عِلْمٌ ، ثُمَّ يُنْسِي جَهْلَهُ الْطَّعْنَ الَّذِي تَقْدُمُ مِنْهُ فِيهَا ، وَيَحْمِلُهُ نُوكُهُ عَلَى اسْتِعْمَالِ مَعَانِيهَا وَالْفَاظُهَا ، فِي كِتَبِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهَدُوا فِي أَوَانِ طَعْنِهِ عَلَيْهَا ، وَحِينَ ثَلَبَ لَهَا .

[٧ - بَعْضُ الْكِتَابِ يَسْرُقُونَ كِتَابَ الْجَاحِظَ أَوْ قَسْمًا مِنْهَا]

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةً مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالْجُنُوبَةِ وَالْأَبْلَاءِ . وَإِنِّي رَبِّا
الْفُتُوهُ الْمُحْكَمَ الْمُتَقْنَ فيَ الْذِينَ وَالْفَقِهِ ، وَالرَّسَائِلِ وَالسِّيرَةِ ، وَالْخُطُبِ
وَالْخُرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فَسَوْنِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبَهُ إِلَى نَفْسِي ، فَبِتَوَاطِعِهِ عَلَى
الْطَّعْنِ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسْنَ الْمُرْكَبِ فِيهِمْ ، وَهُمْ يَعْرِفُونَ بِرَاعِنَتِهِ
وَنَصَاعِنَتِهِ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ مُؤْلِفًا لِمُلِكٍ مَعَ الْمُقْدَرَةِ
عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّاخِيرِ ، وَالْحُطُّ وَالرَّفْعِ ، [وَالترَّغِيبِ] وَالترَّهِيبِ ، فَلِئَلَّهِمْ
يَهْنَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ الْمُغْلَمَةِ ، فَإِنْ أَمْكَنْتُهُمْ حِيلَةً فِي إِسْقاطِ ذَلِكَ
الْكِتَابِ عَنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أَلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي فَصَدَوْهُ وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ
الْمُؤْلِفُ فِي الْكِتَابِ يَحْرِيرًا يَقَابًا ، وَيَقْرِيرًا بَلِيفًا ، وَحَادِقًا فَطَنًا ، وَاعْجَزَنَهُمْ
الْحِيلَةُ ، سَرَقُوا مَعْانِي ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْقَوْا مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحِوَاشِيهِ كَتَابًا ، وَاهْنَوْهُ
إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتَوْا إِلَيْهِ بِهِ ، وَهُمْ قَدْ ذَمَوْهُ وَثَلَبُوهُ لِمَا رَأَوْهُ مَنْسُوْبًا إِلَيْهِ ،
وَمُوسُومًا بِهِ .

[٨ - الْجَاحِظُ يَنْحَلُّ كِتَبَهُ غَيْرَهُ لِتَرْوِيجِهِ]

وَرَبِّا الْفُتُوهُ الْمُحْكَمُ الْمُتَقْنَ الَّذِي هُوَ دُونُهُ فِي مَعَانِيهِ وَالْفَاظِهِ ، فَأَتَرْجَمَهُ بِاسْمِ
غَيْرِي ، وَأَجْبَلَهُ عَلَى مِنْ تَقْدِيمِي عَصْرَهُ مُثْلِ ابنِ الْمَقْبَسِ وَالْخَلِيلِ ، وَسَلَمَ
صَاحِبِ بَيْتِ الْحِكْمَةِ ، وَيَحْيَى بْنُ خَالِدٍ ، وَالْغَسَابِيِّ ، وَمِنْ أَشْبَهِ هُؤُلَاءِ مِنْ
مُؤْلِفِي الْكِتَابِ ، فَيَأْتِيَنِي أَوْلَكُ الْقَوْمِ بِأَعْيَانِهِمُ الطَّاعِنُونَ عَلَى الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ

احكم من هذا الكتاب ، لاستئناف هذا الكتاب وقراءاته على ، ويكتبوه
بخطوطهم ، ويصيرون إماماً يقتدون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأذبون به ،
ويستعملون الفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، ويروونه عني لغيرهم من
طلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رياسته ، [و] يأتُ بهم قومٌ فيه ؛ لأنَّه لم
يترجم بِاسْمِي ، ولم يُنْسَب إلى تأليفِي .

[٩ - العاجظ يترك بعض الكتب غفلاً اشفاقاً من الطعن عليها]

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحضفاً كأنَّه متَّ حجراً أملس ،
بعيانٌ لطيفةٌ محكمةٌ ، وألفاظ شريفةٌ فصيحةٌ ، فاختاف عليه طعن الحاسدين إنَّ
أنا نسبته إلى نفسي ، وأحسد عليه من أهُمُّ نسبته إلى لجوءه نظامه وحسن
كلامه ، فأفظعه مُتَّهماً غفلاً في أعراض أصول الكتاب التي لا يُعرفُ وضاعها ،
فيها دون عليه انهيال الرُّمل ، ويستيقون إلى قراءاته مسابق الخيل يوم الخلبة إلى
غابتها .

[١٠ - عودة إلى الحسد والعداوة]

وحسُدُ الجاهل أهونُ شوكه وأذلُّ محننا ، من حسد العارف الفطن ؛ لأنَّ
الحاسد الجاهل يتذر إلى الطعن على الكتاب في أول وهلة يُفراً عليه ، من
قبل استتمام قراءته ورقة واحدة ؛ ثم لا يرضى بأيسير الطعن واحفنه حتى يبلغ
منه إلى أشدَّه وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده . وليس ثلثة
مفَسِّراً مفصلاً ، ولكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوله إلى آخره ،
ويباطل من ابتدائه إلى انتهائي ، ويحسب أنه كلما ازداد إغرائًا وطعنًا وإطبابًا
في الحُمل على واضح الكتاب ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم
أنَّ المستمع إليه إذا ظهر منه على هذه المزلة استخفَّ به ، وبكته بالجهل ،

وعلم أنه قد حكم من غير استقراء ، وقضى بغير روية ، فسقط عنه وبطل .

والحادي العارف الذي فيه تقيّة ومعه مُسْكَة ، وبه طُعْمٌ أو حِيَاة ، إذا أراد أن يغتال الكتاب ويختال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردد فيه بصره وراجع فكره ، وأظهر عند السيد الذي هو بحضوره وجلساته ، من التثبُّت والتأني جيّالة يقتضي بها قلوبهم ، وسيباً يسترعى به الباباهم ، وسُلْطاناً يرتقي به إلى مراده منهم ، وبساطاً يُفرِّشُ عليه مصارعَ الخُدُع . ففيهم به القصد إلى الحق والاجتِيَاه له . فربما استرعى بهذه المخالن والخدع قلب السيد الخازم .

فمن أعظم البلايا وأكير المصائب على مؤلفي الكتب إذا كانعارض لها على السيد الذي منه ترجي أثمانها ، وعنه تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفها من الحسد والخذل بأساليبه ، والمعرفة بالوجوه التي تلزم المحسود وتهده ، وتضع منه ومن كتبه : لا سيما إنْ كان مع استبطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جليساً لازماً ، وتابعـاً لا يفارق ، ومحدثـاً لا يبريم ، ولست له بـعـة تحجـرـة عن الباطـلـ ، ولا معـه حـذـرـ يعيشـ على الفـكـرـ في العـواـقـبـ ؛ فإنـ هـذـا رـبـما وافقـ قـتـرةـ السـيـدـ بـطـولـ تـرـدـادـ الـكـلامـ ، وكـثـرـةـ تـكـرارـهـ عليهـ ، منـ تـأـيـيدـ خـطاـئـهـ ، وـتـصـرـتـهـ قـولـهـ ، وـذـيـادـهـ عـنـهـ ، وـاحـتـجاجـهـ فـيـهـ ، فـيـؤـثـرـ فيـ قـلـبـهـ ، وـيـضـجـعـ رـأـيـهـ . فـلـيـسـ لـلـسـيـدـ الـذـيـ يـحـبـ أنـ تـصـيرـ إـلـيـهـ الـأـمـورـ عـلـىـ حـقـائـقـهـ ، وـتـصـوـرـ لـهـ الـأـشـيـاءـ عـلـىـ هـيـاتـهـ ، حـيـلـةـ فـيـ ذـلـكـ إـلـاـ حـسـمـ مـاـدـهـ هـذـاـ منـ أـهـلـ الـحـسـدـ ، بـالـاعـرـاضـ عـنـهـ ، وـالـاحـتـجازـ دـوـنـهـ .

وربـما بلـغـ منـ الـحـاسـدـ جـهـدـ الـحـسـدـ إـذـا لمـ يـعـمـلـ بـشـهـوتـهـ ، وـلـمـ تـنـفـذـ سـهـامـ لـطـائـفـهـ ، اـنـ يـقـرـ عـلـىـ نـفـسـهـ بـالـخـطـأـ ، وـيـعـتـرـفـ أـنـ الطـعنـ الـذـيـ كـانـ مـنـهـ فـيـ الـكـتـابـ عـنـ سـهـيـ وـغـفـلـةـ ، وـأـنـهـ لـمـ يـكـنـ بـلـغـ مـنـهـ فـيـ الـاسـقـاصـاءـ مـاـ أـرـادـ ، وـكـانـ مـشـفـولـ الـفـكـرـ مـقـسـمـ الـذـهـنـ ؛ فـلـمـا فـرـغـ لـهـ ذـهـنـهـ وـانـفـرـدـ لـهـ هـمـهـ رـاجـعـ ما

كان بدر منه ، لُتَظْنُ بِالرُّعْءَةِ ، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وارع ، ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء قدّمه أمام ما ي يريد أن يوَكِّد لنفسه ويُوَطِّد لها ، من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب عن غير موافقة على موضع ، و يجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبَيَّن له خلاف ما قال ، أو ثنى أسباب عدالته ، وأحكم عَرَى نصفته .

وكان يقال : من لطيف ما يستدعي به الصدق إظهار الشك في الخبر الذي [لا] يُشَكُّ فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن تُرَى بائناً لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تزيد الطعن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تتمهل فترة ، ثم تعود لطعن هو أعظم منه وأظلم من الأول ؛ ليُوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حسْدٍ ما رجع عن الطعن الأول .

وقد قيل : ذو الغيبة المشهور بها المنسوب إليها يقل ضرره ، ويضعف كيده ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ، فكان عندهم ظنيناً متهماً ، ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذذ به ، من غير قبول ولا إصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حُذَاق المغتابين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلّمون . وأحذق منهم الذين يستمعون ويسكتون القاتل ويدعون الله بالصلاح للمقول فيه ، فهم قد أسكنوا القاتل المغتاب ودعوا للمقول فيه ، وأوكدوا قول القاتل ؛ لأنَّه لو حلّ عندهم محلُ البراءة مما قيل له لجُبه القاتل ورُدّع عن قوله .

وقد قال بعض العلماء : إنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَبْدِ اللهِ بْنَ عَتْبَةِ بْنِ مَسْعُودٍ كَانَ مِنْ نَبْلَاءِ الْمَغْتَابِينَ وَحُذَاقَهُمْ حَيْثُ يَقُولُ :

وَفِيهَا الْمَعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشْرِ
فَمَا حُبِّيَّنِي إِلَّا سُرَأَ مِنَ الْكَبْرِ
عَلَانِيَّةً أَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي سُرُّ
ضِيَّكُ لَهُ حَتَّى يَلْجُ فَيَسْتَشْرِي

مَشَّا تُرَابَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خَلْقُنَا
وَلَا تَعْجِبَا أَنْ تُؤْتَنَا وَتَعْظِمَا
فَلَوْ شَتَّ أَدْلِي فَكَمَا غَيْرُ وَاحِدٍ
فَإِنْ أَنْسَلْمَ أَمْرٌ وَلَمْ أَنْهُ عَنْكُمَا

وَمِنْ هَذَا سُرْفُ الْعَتَابِيُّ الْمَعْنَى حِيثُ يَقُولُ :

إِنْ كُنْتَ لَا تَحْذِرْ شَثْمِي لِمَا
تَعْرِفُ مِنْ صَفْحِي عَنِ الْجَامِلِ
فَلَا تَعْشَ سَكُونِي سَامِعًا ضَاحِكًا
مَقَالَةُ السُّوءِ إِلَى أَهْلِهَا
وَمِنْ دُعا النَّاسِ إِلَى ذَمِهِ

وَسَلَّلَ الْقَاسِمُ بْنُ مَعْنَ عنْ أَبِي لَيْلَى ، فَقَلْبُ كُفَيْهِ وَقَالَ :
مِنَ النَّاسِ مَنْ يَخْفَى أَبْوَهُ وَجْهُهُ وَجَدُّ أَبِي لَيْلَى كَالْبَدْرِ ظَاهِرٌ

فَلَمْ تَثْبِتْ عَلَيْهِ بِهِ حَجَّةٌ فِي ذَمِّهِ لَهُ وَلَا مَدْحٌ . وَقَدْ بَلَغَ مَا أَرَادَ .

وَسَلَّلَ يَوْمًا عَنْ عِلْمِهِ فَقَالَ : أَوْغُوهُ وَطْبًا ، فَإِنْ كَانَ مَحْضًا أَوْ مُشْوِرًا أَظْهَرَهُ
الْوَطْبُ وَمَا بَخْسُوهُ .

فَإِنْ قَدْحَ - جَعَلْنِي اللَّهُ فَدَاكَ - بِالْحَسْدِ قَادِحٌ فِيمَا أَوْلَفَهُ مِنْ كِتَابِي لَكَ ،
وَسَيَقَ إِلَى وَهْمِكَ شَكُّ فِيهِ ، أَعْلَمْتَنِي الْكُتْبَةُ الَّتِي فَدَحَ فِيهَا ، ثُمَّ قَابَلَهُ
بِحَوَامِي ، فَلَيْسَ أَرْجُو أَلَّا تَحْتَاجَ إِلَى حَاكِمٍ عَنْ تَجَائِي الْقَوْلَيْنِ بَيْنَ يَدِيكَ ،
لَعْلَوْ الْحَقَّ عَلَى الْبَاطِلِ ، وَدَمْوَغَهُ إِلَيْاهُ .

وَالْحَسْدُ أَذْلُّ نَفْسًا مِنْ أَنْ يُجَاهِنِي أَحَدًا ، وَالْمَعَاوِةُ إِنَّمَا قَدَّمَتْ عَلَيْهِ لَأَنَّهَا
عَزِيزَةٌ مُنْيَةٌ .

ويقال : الحسد لا يجد إلا في العين وعلى اللسان المقصور عند أهله المؤتليفين على . . . والمعداوة تبدو وتنجم فُرونها وينبسط لسانها عند الموافقين له والمخالفين عليه .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذاك أمرٌ بِيَطَ بالحسد وَجْلٌ عليه ، فليس له لَحْ في السرّ ولا عدوٌ في العلانية .

وسئل العثماي عن أهل بغداد فقال : حُسَادٌ ، إخوانُ العلانية ، وأعداءُ الرُّسْرِيَّة ، يعطونك الكلَّ ويمنعونك الفَلْ .

ومما يدلُّك على أنَّ الحسد أخْسُ وأغْبَنُ من العداوة ، أنَّ المثلَ كُلُّها دَمَثَهُ وعابته . ولا تعلم أنَّ شاذًا من الشَّوَاد ، وشارداً من الشُّرَاد ، فَضْلًا عن جَيلٍ من الأجيال ، أمر بالحسد ؟ كما قيل : « عاد من عاداك ، وقارع بالعداوة أهلهَا ». ثم عظَم شَائِن العداوة عندهم ، وجلَّ قدرُها لديهم ، حتَّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم مَنْ أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشاعي لِبشر بن مروان : لو وجَهْتَ إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الرَّبِير - وكان شَائِنَه - مَنْ يأتيك به سحبًا وجراً ! فقال بشر : أَنِّي مستعملٌ في عدوِي قول القائل :

وعاد إذا عادت بالحزم والنهي نَسْلٌ ظفرًا من تُربَد وتُغلَبْ
فكان بهذا ممن يرى المعاداة بالحزم ، ويغتالها بالعقل والثأري .

وكان عروة بن المغيرة يقول : شَرُّ العداوة ما سُرَّ بالمداراة ، وأشقاها للأنفس ما فرع بمثلها باديًا . وكان ينشد :

لا أتفى خنَك الصُّفَائِن بالرُّقِي فَعَلَ الذِّيل ولو بقيت وحيداً
لكن أَعْدَ لها ضفَائِنَ مثلَها حَسَنَ أَدَوَي بالحَقِير حَقِرُوداً
كالْخَمْر خَيْر دُوَانَهَا مِنْهَا بَهَا تَشَفَّى السُّقَبِيَّ وَتُبَرِّيَ الْمَنْجُودَا

فانتهى قوله إلى ابن شُبُرْمَة فقال : « الله در غرورة ، هذه نفس العرب ! » .

فهؤلاء رأوا كشف المعاداة ولم يروا الثاني .

ومنهم من رأى المعاداة بعد النصرار منها والإعذار فيها ، فإن هي أبت إلا المقارنة قارنوها بمثلها .

قال شبيب بن شيبة : إذا رأيت الشر قد أقبل إليك فتطامن له حتى يتخطّاك ، ولا تنهجه ولا تبحث عنه ؛ فإن أبى إلا أن يُرسُك عليك فكن من الأرض ناراً ساطعة تناطّي . وانشد :

فعاد النوم واحترب البيات
إذا عادك محظيتك لبيت
ولأن ثارت فكن شبهاً مواتا
ولا تثير الرُّبوس وخل عنها
فسخير الشر أسرعه فواتا
تجزك إلى سواك ونسج عنها
فراجئها مجاهرة ملاتا
وإن مالت عليك وخفت منها

ومنهم من أمر بقبول الإنصاف وترك المحاسبة . قال عبد الله بن عبد الله ابن [عتبة بن] مسعود : إن الملامات والمذممات كلها قبيحة ، واقبح الملامة والمذمة ما كانتا في ترك نصفة أو شدة منافية في تعداد الذنوب . وانشد :

منافسة العدو أو الصديق تجر إلى الملة والملائكة
إذا أعطاك نصفاً ذو ديد ويعض الصُّف فانهزم السلام
ومنهم من قال : لا ترض من عدوك إلا بالظلم ، ولا تقبل إنصافه ونافسه

في ذلك . قال العباس بن عبد المطلب :

ابطال لا تقبل النصف منهم ولو أنصفوا حتى تعم وتظلموا
ومنهم من أمر بمعونة الدهر على العدو إذا حمل عليه . قال : حدثني

ابراهيم بن شعبة المخزومي قال : سمعت من حكى لي عن مصعب بن الزبير قال : إذا رأيت يد الدهر قد لطمت عدوك فبادره ببرجلك ، فإن سلم من الدهر لم يسلم منك . وأنشد :

إذا برئ الزمان على عدوٍ بنكتبه اعتنث له الزمان

قال العتابي : قلت لطرق بن مالك : إنَّ من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السُّلْب ، فإذا حملت الأيام على عدوك بُقلًا وأمتك منه فزيده بُقلًا إلى نقله . قال : فقال لي طرق : من لم يتهزَّ من عدوه انتهَّ منه ، وحالت الأيام التي كانت بيضاء عليه سوداً . وأنشد :

خران ليس على التراب براقيد
له دُرك ما ظنت بشائرِ
اسفًا عليك وكيف نوم الحاقد
احقدته ثم اضطجعت ولم ينم
يوماً تُوقُّك بالصُّواع الزائد
إن تُمْكِن الأيام منك ، وغَلَّها ،
ولشن سلمت لاتركنك عارضاً
بعدى لكل مُسالمٍ ومعاند

ومنهم من كان يرى جبر كسر العدو وإقالة عثرته ، وبُصرته عند وُسوب
الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شُبُرمة : كانت الحرب يوم صفين
بين العرب مُحصنة لا شوب فيها ، فكانت محاربتهم بكمانًا واعتباً ، وكانوا إذا
مرروا ب الرجل جريحاً كانوا يقولون : خذله قومه فانصروه ، وأنقاذه دهره بمضيغة
فردوه إلى أهله .

وقال ابن شُبُرمة : ما زلنا نسمع أن المصيبات تنزع السُّجَّيات .

قال : وانشدني بعض أهل العلم في هذا المعنى :

فلو بي بـدأتم قبل من قد دعوْتُم لفرجتها وحدِي ولو بلغتْ جهدي

إذا المرء ذو القربي وذو العقد أجهضت به سنت ملئ مصيّبته حقددي

ومنهم من رأى الإفصال على عدوه وترك مجازاته . وهذا كثير لا يُحتاج
فيه إلى استقصاء شواهده .

قال غيلان بن خرشة الصبي - وقال بعضهم : بل الأحلف بن قيس - لا
نزال العرب بخبير ما ليست العمائم وتقلدت السيف وركبت الخيل ، ولم
تأخذها حمية الأوغاد . قيل : وما حمية الأوغاد ؟ قال : أن يَرُوا الجلم دللاً ،
والتواهب ضيما .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عادك ونصلب لك ؟
فقال :

ليست الأحلام في حال الرضا إنما الأحلام في حال الغضب
وانشدني بعض العلماء بينين وقال : إن الزبيري كان كثيراً ما يتمثل
بهما :

وإنني لأعدائي على المقت والقتل بني العمّ منهم كاشح وحسود
وابدا بالحسنى لهم وأعسدهم وآدب وأرمي بالعصى من ورائهم

وكان عبد الملك بن مروان إذا أشيد :

إنني وإن كان ابن عمّي كاشحاً لمراجِّم من دونه وورائه
ومُعيّرٌ نصري وإن كان امرأً
يالبيت أنْ عليَّ حسن ردائه متزحجاً في أرضه وسمائه
وإن اكتسي ثوباً نفياً لم أقل وإن اكتسي ثوباً نفياً لم أقل
وإذا تخرق في غناه وفربته وإذا تعلّك كنت من قرنائه

قال : هذا والله من شعر الأشراف . نفي عن نفسه الحسد واللؤم

والانتقام عند الإمكان ، والمسألة عند الحاجة .

ومنهم من أمر بالسوء في العداوة واستعمال الخرق فيها .

حدثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال : جاء النابغة الجعدي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشعر ما عفا الله عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه . فأنشده :

إِذَا مَا تَقْبَلَنَا إِذَا مَا نَعُودُ خَيْلَنَا
مِنَ الطُّعْنِ حَتَّى تَحْسَبَ الْجَنُونَ أَشْقَرَا
صَحَاحًا وَلَا مَسْتَكِرًا أَنْ تَعْفُرَا
بِلَغْنَا السُّمَاءَ مَجْدَنَا وَسَنَاؤُنَا

قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال :
إِلَى الْجَنَّةِ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إِلَى الْجَنَّةِ إِنْ شَاءَ
الله » .

ثم رجع في قصيده فقال :

وَلَا خَبْرٌ فِي جَهَلٍ إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ
حَلِيمٌ إِذَا مَا أَوْرَدَ الْأَمْرَ أَصْدَرَهُ
وَلَا خَبْرٌ فِي حَلْمٍ إِذَا لَمْ تَكُنْ لَهُ
بِوَادِرٍ تَحْمِي صَفَوَهُ أَنْ يَكُلُّهُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لَا فَضْلَ اللَّهُ فَلَكَ ! » . قال :
فَاتَّ عَلَيْهِ عَشْرُونَ وَمِائَةً سَنَةً ، كُلُّمَا سَقَطَتْ لَهُ سِنٌّ اتَّفَرَتْ أُخْرَى مَكَانَهَا :
لَدْعَوْهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما رُوِيَ في البادرة التي يُصان بها الحلم .

وقال الشاعر الجاهلي :

صَفَحْنَا عَنْ بَنِي ذَهْلٍ وَقَلْنَا : الْقَوْمُ إِخْرَانٌ

عسى الأيام أن تترجم
من حيَا كالذى كانوا
ولامسَى وهو غربان
بَدَا واللَّيْثُ غَصْبَان
وَتَضَجَّعَ وَإِذْعَان
وَطَعَنَ كَفَمِ الرَّزْقِ مَلَان
وَفِي الشَّرِّ نِجَاهَ جَيْهَ
نَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانٌ

حدثنا أبو سهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مع أبي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ فِي غَزَّةٍ ، فَكَانَ مِنَ الرَّجُلِ يَعْتَارُنَا الْمِبْرَةُ
وَيَقُولُ بِحَوْالِجَنَا ، فَإِذَا أَقْبَلَ قَلْنَا : جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَنَفِبَ لِدُعَائِنَا ، فَشَكَوْنَا
ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصْلِحْهُ
الشَّرَّ ، فَاقْلِبُوهُ لَهُ . فَكَانَ نَقُولُ لَهُ إِذَا أَتَانَا بِالْحَوَائِجِ : جَزَاكَ اللَّهُ شَرَّاً وَغَرَّاً ،
فَيُضْحِكُنَا ذَلِكَ .

وَأَنْهَدْنَاهُ رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

<p>وَفِي بَعْضِهَا عَزَّاً يُشَرِّفُ فَاعْلَمُ سَفِيهَا وَلَمْ تَقْرَنْ بِهِ مَنْ يُجَاهِهُ فَاصْبَحَ قَدْ أَوْدَى بِحَقْكَ باطِلَهُ فَابْتَقَ عَلَى جُهَادِ قَوْمِكَ إِنَّهُ وَرَوْيَ عنْ عَمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : « اسْتَوْصُوا بِالْغَوَاءِ خَيْرًا ، فَإِنَّهُمْ يَطْفَئُونَ الْحَرِيقَ ، وَيَسْدُدُونَ الْبَثُوقَ » .</p>	<p>أَرِيَ الْحَلَمَ فِي بَعْضِ الْمَوَاطِنِ ذَلَّةَ إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحَلْمِكَ جَاهِلَةَ لَبْسَتْ لَهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ صَاغِرَةَ فَابْتَقَ عَلَى جُهَادِ قَوْمِكَ إِنَّهُ</p>
---	--

وَقَالَ أَبُو سَلْمَى فِي الْجَاهِلِيَّةِ :

لَا بُدُّ لِلْسُّوْفَدِ مِنْ دِمَاجٍ وَمِنْ عَدِيدٍ يُشْفَى بِالرَّاجِ
• وَمِنْ كَلَابِ جَمَّةِ النَّبَاجِ •

وقال مسلم بن الوليد :

خُرَاعَةُ وَالْحَيْبَانُ عَوْفٌ وَأَسْلَمٌ
بِقَانِيَةٍ تَفْرِيَ الْعَرَوْقَ فَتَحِبِّسُ
لَهُنْ بِاَفْرَاوَهِ الرِّجَالَ ثَهْنَمُ
إِذَا الْحَلْمُ لَمْ يَمْنَعْ فَالْجَهَلُ أَحْزَمُ

حَلَقْتُ لَئِنْ لَمْ نَلْقَنِي سَهَاهُهَا
لَأَرْجِعَنِي الرُّؤْدُ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
مِنَ الْلَّاءِ لَا يَرْجِعُنِي إِلَى شَوَارِدًا
أَصَابُوا حَلِيمًا فَاسْتَعْدُوا بِجَاهِلٍ

وَلَمْ نَسْقُصِ الْأَبْوَابَ كُلُّهَا بِالْمَعَارِضَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَوْ أَسْتَقْصِنَا
لَطَالَتْ بَنَا الْأَيَّامُ وَتَرَاحَتْ الْلَّيَالِي إِلَى بَلُوغِ الْغَايَةِ فِي تَعْمَلِ الْكِتَابِ . وَإِنَّمَا ذَكَرْنَا
مِنْ كُلِّ بَابٍ غَرَضُهُ مَا دَلَّ عَلَى مَعْنَاهُ الَّذِي إِلَيْهِ قُصْدٌ .

وَلَمْ نَرِ الْحَسَدَ أَمْرَأَ بِأَحَدٍ مِنَ الْعَرَبِ وَالْعِجْمَ فِي حَالٍ مِنَ الْأَحْوَالِ ،
وَلَا نَدَبَ إِلَيْهِ وَنَبَّهَ عَلَيْهِ . وَقَدْ تَبَّهَ عَلَى الْعِدَادِ وَفَصَلَ بَيْنَ أَحْوَالِهَا بِمَا قَدْ بَيْنَاهُ ،
فَظَهَرَ فَضْلُهَا عَلَى الْحَدِيدِ بِذَلِكِ .

[١١ - الْكِتَابُ يَطْلَبُونَ مِنَ الْجَاحِظِ أَنْ يَشَاطِرُهُ فِي كِبَهِ]

وَكُنْتُ امْرًا قَلِيلَ الْحُسَادَ حَتَّى اعْتَصَمَ بِعُرُونِكَ ، وَاسْتَمْسَكَ بِجَبَلِكَ
وَاسْتَذْرِيَتِي فِي ظَلَّكَ ، فَتَرَاكُمْ عَلَيَّ الْحُسَادَ وَازْدَحِمُوا ، وَرَمَوْنِي بِسَهَامِهِمْ مِنْ
كُلِّ أَوْبِ وَاقِفٍ ، وَتَنَاهَيُوا عَلَيَّ تَنَاهِيَ الدُّنْيَا عَلَى مُشَتَّارِ الْعَسْلِ . وَلَئِنْ كَثَرُوا لَقَدْ
كَثُرَ بِهِمْ بَرِحْكَ إِخْوَانِي ، وَبِنَضْرَةِ أَيَّامِكَ وَزَهْرَةِ دُولَتِكَ خُلَانِي . وَإِنَّ كَمَا
قُلْتَ :

فَأَكْثَرْتُ حُسَادِي وَأَكْثَرْتُ خُلَانِي وَكُنْتُ وَحْسَادِي قَلِيلًا وَخَلَانِي

فَلَمَّا بَلَغْتَ هَذَا الْفَصْلَ مِنْ تَالِفَ هَذَا الْكِتَابَ دَخَلَ عَلَيَّ عَشَرُ مِنْ
الْكُتُبِ قَدْ شَمَلْتُمْ مَعْرُوفَكَ ، وَرَفَعْتُ مَرَاتِبَهُمْ جَمِيلًا نَظَرَكَ ، فَهُمْ مِنْ طَاعَتْكَ

والمحبة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائدك ، فأنماضوا في
حديث من أحاديث الحسد ، فشعب لهم ذلك الحديث شعوباً افتُنوا فيها
- والحديث ذو شجون - فما برحوا حتى أتني رقعةً أنايسيةً من العساد فيها سهامُ
الوعيد ، ومقدّمات التهديد والتحذير والتخييف ، للطعن على ما أُلْفَتَ من
الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجْرِي على ، فدفعتم رُقعتهم إلى من
قرب إليٌ منهم ، فقرأها ثم قال : « قاتلهم الله ! أبظلم برومون النيل ويلتمسون
الشركة في المعروف ! لنزغُ الرُّوح بالكلالib آهون من بذلك معروف
بترهيب » . وأنشا يقول :

أبقى الحوادث من خلي ملك مثل جندلة المزاجم
قد رامني الأعداء قب ملك فامتعمت من المظالم
ودفعها إلى من قرب منه فقرأها . وقال الثاني : « صَكَة جُلْمود ، لكل
مُرْعِد حُسُود ، يمْسِطُ الرُّعْف بالتهديد . خلُ الوعيد ، يذهب في البَدِ » .
وانشا يقول :

أبرق وأرعَد يا بزب دُفِّما وعيُنك لي بضائر
ودفعها إلى الثالث فقرأها وقال : « سألاً ظلماً ، وخوْفوا هضماً ، لقوا
حرباً ولقيت سلماً » . وأنشا يقول :
نعم الفرزدقُ أن سيفتل مربعًا ابنَ بطلون سلامة يا مربع
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذليل وبوله بيانه » . وأنشا
يقول :

ما ضرُّ تغلبَ وائلٍ أهجرتها أم بلت حيث تساطع البحران
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيك الحمار ، ودم الأعبار جبارٌ

جبار». وأشار يقول :

ما أبالي أنت بالحزن تبَسَّمْ
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : «إذا غلقتك الأمجاد ، فليهن عليك
الْحُسَاد» . وأشار يقول :

إذا أهل الْكِرَامَةِ أَكْرَمْتَنِي فَلَا أَخْشَى الْهُوَانَ مِنَ اللَّثَامِ
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : «كيف يخاف المُرْعَة ، من هو في ذي
النَّعْة» . وأشار يقول :

كُمْ تَبْحُونَ وَمَا يَغْنِي نِسَاحَمْ
ما يملِكُ الْكَلْبُ غَيْرُ النُّبُعِ مِنْ ضَرِّ
ودفعها إلى العاشر فقرأها وقال : «أَنْوَكِي هَلْكَي ، لَمْ يَعْرُفُوا خَبَرَكْ ، وَلَا
دَرَوْا أَمْرَكْ» . وأشار يقول :

فَلَوْ عَلِمَ الْكَلَابُ بَنُو الْكَلَابِ
بِحَالِكَعْنَدِ سَيِّدِنَا الْذُلُوا
وعندى صديق لي من السُّوقَةِ لِهِ أَدْبُ ، فَقَالَ لِي بِعَقْبِ فِرَاغِهِمْ مُبِراً :
إِنَّ هُؤُلَاءِ الْكِتَابِ قَدْ أَظَهَرُوا الْاسْتَخْفَافَ بِقِولِ الْحُسَادِ ، وَضَرَبُوا الْأَمْثَالَ فِي
هُوَانِهِمْ عَلَيْكَ ، وَعَرَفُوا أَنَّكَ فِي مِنْعَةٍ مِنْ عَزِّ أَبِي الْحَسِنِ أَطَالَ اللَّهُ بِقَاءُهُ ،
وَمَعْقُلٌ لَا يُسَامِي وَلَا يُنَالُ . وَأَنَا أَقُولُ بِالشُّفَعَةِ :

تَوْقُّعُ قَوْمًا مِنَ الْحُسَادِ قَدْ قَصَدُوا لَحْطَ قَدْرِكَ فِي سَرِّ دُفِي عَلَيْنِ
فَقَلَتْ لَهُ : إِنِّي أَقُولُ بِيَتِينَ هَمَا جِوابَكَ وَجِوابَ الْحُسَادِ :

إِنَّ ابْنَ يَحْيَى عَبْيَةَ اللَّهِ أَمْسَنَنِي مِنَ الْحَوَادِثِ بَعْدَ الْخَوْفِ مِنْ زَمْنِي
فَلَسْتُ أَحْذَرُ حُسَادِي وَإِنْ كَثُرُوا مَا دَمْتُ مُمْبِكَ خَبِيلٌ مِنْ أَبِي الْحَسِنِ

فلما رأى صديقي افتتاحي آثار الكتاب ، باستهانة للحساد عند اعتلاقي
حبايلك أعزك الله ، أنشأ متمثلاً يقول : نصر بن سيار :

أني نشأت وحشادي ذُوو عدٍ يا ذا المعارج لا تنقص لهم أحدا
إن بحسدوني على ما قد بنت لهم فمثل حُسن بلاني جُرْ لي الحسدا
وليس العجب أن يكثروا وأنا آنف بمحاسنك ، وأهتف بشكرك ، ولكن
العجب كيف لا تنفت أكبادهم كمدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثُرْ حَسَادَ ولدي ؛ فإنهم لا يكثرون إلَّا بكثرة
النسمة .

فإنْ كان والدي سبق منه هذا الدُّعَاءُ ، فإنَّ الإجابة كانت مخبوءة إلى
زمان عزك ؛ فقد رأينا تبشيرها ، وبدت لنا عند عنايتك غايتها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعلْ ولدي محسودين ، ولا
تعملهم مرحومين ؛ فإنَّ يوم المحسود يوم عزّة ، ويوم الحاسد يوم ذلة .

ويقال : إنه لمامات العجاج سمعوا جارية خلف جنازته وهي تقول :

اليوم برحمتنا من كان بحسدنا واليوم تتبع من كانوا لنا بما

ويقال : إنَّ زياداً بن أبيه قال بحرقة ابنة النعمان : أخبريني بحالكم .

قالت : إن شئت أجملت وإن شئت فسربت . فقال لها : أجملني ، فقالت : «
بنتاً حُسْنَدَ ، وأصبحنا نُرْخِمْ » . فخطبها زيادٌ وكانت في ذيirl لها فكشفت عن
رأسها ، فإذا رأس محلوق ، فقالت : أرأْسُ عروس كما ترى يا زياد ؟ وأعططاما
دنانير فأخذتها وقالت : جزئك يدَ افتقرت بعد غنى ، ولا جزئك يدَ استغنت
بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء ، أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله

عليه وسلم : « لا حسد إلا في الثنين : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه في وجوه البر آناء الليل وآناء النهار » .

فهذا الحسد إنما هو في طاعة الله عز وجل ، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقال بعض الأشراف :

احسُدْ عَلَى نِيلِ الْمَكَارِمِ وَالْعُلَى
إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي حَالَةِ الْمَحْسُودِ
حَسْدُ الْفَقِيرِ بِالْمَكَرَمَاتِ لِغَيْرِهِ
كَرْمٌ وَلَكِنْ لَيْسَ بِالْمَعْدُودِ
فهذا ما انتهى إلينا من أخبار الحسد ، وزادك الله شرفاً وفضلاً ، وعلماً
ومعرفة ، ولا زلت بالمكان الذي يهدى إليك [فيه] الكتب ، وتحتف بشواذر
العلوم وفراند الأداب ، إنه قريب مجيب .

* * *

تم الكتاب والله المنة ، وبهذه الحول والقوة
تتلوه رسالة من كلام أبي عثمان أيضاً في ذم القواد
والحمد لله أولاً وأخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وأله وسلامه .



لهم إني أسألك سلامك

١٧ - هامش فصل ما بين المعاودة والحسد .

- (١) كتاب فضل الوعد ربما كان كتاب استنجاز الوعيد الذي وصل اليانا قسم منه . ولم يصلنا شيء غيره حول موضوع الوعيد . كما لم يصلنا شيء من كتاب اخلاق الوزراء .
- (٢) الحكمة : الفلسفة . بعض افكار هذه الفقرة وبعض تعايرها يتحمل ان تكون مدسوسية على الجاحظ .
- (٣) « إن لم يكن أخاها فابن عمها » يراد به شبيهها .
- (٤) الطاعون على كتب الجاحظ من جهة اللفظ ومن جهة المعنى .
- (٥) بشر المرسي : احد شيوخ المعتزلة ، توفي سنة ٢١٨ هـ .
- لاحظ مناصرة المأمورون للمعتزلة ومكانة هؤلاء عنده امثال بشر المرسي والجاحظ .
- الرجل : « ياللّك من قبره بم عمر ... » للشاعر الجاهلي طرفة بن العبد نظمه وهو حديث يصطاد القبر .
- (٦) المدح : السهم .
- يعاث : يبعث .
- لاحظ كثرة الاستشهاد بالشعر والأمثال والأقوال المأثورة .
- (٧) قارن بين آراء الجاحظ في الحسد هنا وأرائه في كتاب الحاسد والمحسود : الحسد موكل بالأدنى فالآدنى والأخص فالأخضر . سبب الحسد النعمة لدى المحسود .
- مسلم بن الوليد الانصاري الشاعر عرف بصربيع العنوانى لأنه كان متياً بحبه

عاصر الماجھظ وتوفی عام ٢٠٨ هـ وتولی بريد جرجان حيث مات .
اسماعيل بن صبيح كاتب يحيى بن خالد البرمكي في عهد الرشيد وتولى ديوان
الشام .

(٨) التحرير : جمع نھاریر ، الحادق ، الفطن .

التقریس : الطیب الماهر المدقق .

(٩) ابن المفع وخلیل بن احمد الفراہیدی وسلم صاحب بیت الحکمة التي اسھما
المأمون سنة ٨٣٠ م ويحيى بن خالد والعتابی . عاشوا جیعاً في صدر الدولة
العباسیة .

(١٠) الكتاب الغفل : الذي لم یذكر اسم مؤلفه .

الكتاب المھصف : المحکم الخالي من الخلل .

(١١) الروعة : الورع .

* الخطاء = الخطأ .

- ابو بربة الاسلامي ، هو نضلة بن عبد الاسلامي ، نزل البصرة وشهد وقعة
النھروان ، وهو صحابي جليل ، مات بالبصرة سنة ٦٠ هـ .

- الشاعر الجاهلي الذي قال : « صفحنا عن بني ذهل ... » . هو الفند
الرماني ، شهل بن شيبان ، شهد حرب البوس .

(١٢) الماجھظ يشكو کثرة الحساد الذين لم یكتفوا بالاغارة على کتبه سرقة وطعنًا
ونشوبها ، بن طلروا ان يشارکهم فيما تدره عليه من مال .

- « تابعوا عنی تابع الدبر على مشارع العسل » : تهافتوا عليه مثل جماعة النحل
على العسل .

- أناسية : جمع انسی او انس .

يبدو لي ان قصّة الكتاب العشرة الذين دخلوا على الماجھظ مقصومة على كتاب
الماجھظ . كما ان كثيراً مما ورد في هذا الكتاب قد أضيف عليه .

- ١٨ -

رسالة الى ابي الفرج



لهم إني أسألك سلامك

[١ - المدخل التقليدي]

جُعلتْ فداك ، وأنطال الله بقاك ، وأعزك وأكرمك ، وأنتم نعمتكم عليك
وأيدك .

[٢ - أسماء من كفي يابي عثمان]

قد نسخت لك - أعز الله - في صدر هذا الكتاب قصيدة قبلت في أبي
الفرج أدام الله عزه ، ذكروا أن قاتلها رجل يكنى أبا عثمان ، ولا أدرى أهو أبو
عثمان هشام بن المغيرة ، أم أبو عثمان عفان بن أبي العاص .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عنبرة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد ابن
عثمان ، ولا أدرى أهو أبو عثمان التهدي عبد الرحمن بن مل ، أم أبو عثمان
ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد ، أم أبو عثمان إسحاق
بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان المنذر بن الزبير بن العوام ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أبي سعيد ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن] عبد دهمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن كثريز .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسماء بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب .

ولا أدرى أهو أبو عثمان فiroz حُسين العنيري ، أم أبو عثمان ابن عمر أبي عثمان الشمربي .

ولا أدرى أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهجبي ، أم أبو عثمان أبو العاص بن عبد الوهاب الثقفي .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن وهب الشاعر ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الخاركي .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي ، أم أبو عثمان عمرو ابن بكر المازني .

ولا أدرى أهو أبو عثمان الأعور التحوي ، أم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يفرضها أبو عثمان عمرو بن خزنة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد المتنطّب ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البزار .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا المجهول موضعه ، المقصور نبه ، أنه قال : ما رأيكُ الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، والمصبور على السيف الحسام ، بأحق بجهد أبناء وشماماتة الأعداء ، ممن تعرّض لمتصفحين ، وتحكّك بالعيابين ، وحُكم في عرض الحسدة المغتابين .

فإن سليم فبحسن النية ، ولأنه مدح كريماً ، ووصف حنيناً . وال الكريم صبور ، والحكيم متغافل . وإن ابْتَلَنِي فبذنب ، وما عفا الله عنه أكبر .

وقال : اللهم اجعل هذا القول حسناً في عينه ، خبيئاً على سمعه ، والهبة حُسن الظن به ، ويسط العذر له ، إنك سميع الدعاء ، رحيم بالضفاء .

[٣ - وصف حال الجاحظ]

والقصيدة هي قوله :

وذه الجرس بسري حين لا أحد يسرى
ودون الرضا كاسن أمر من الصبر
لقتنت نفسى بالقليل من السور
واجدل في حال النسارة والعسر
وتفرق أخرى بالخطوب وما يدرى
وآخر كاب لا يسرى ولا يسرى
طلوياً لغايات المكارم والفنر
وفد كنت لا اعطي الدنيا بالفتر
ويجعل حسن البشر واقفة التبر
فصررت حليفاً للدراسة والتفكير
عليك الفتى المُرئي ذا الخنق الغمر
وشاورت إخوانى فقال حكمهم

أقام بدار الخضر راضٍ بحظه
يظن الرضا بالقسم شيئاً مهوناً
جزعت فلم اعتب فلو كنت ذا جهاً
أظن غبى القوم ارגד عيشة
تمزّبـه الاحداث ترعد مرة
سواء على الأيام صاحب حنكة
فلوشاء ربى لم أكن ذا حفظة
حضرت بعض القوم أرجو نواله
فلما رأيت المرة يبذل بشرة
ربعت على ظلمي وراجعت منزلي

فَنَّى لِمْ يَقْفُتْ فِي الدَّهْرِ مُوقَتٌ ظَنَّةً فَيَحْتَاجُ فِيهِ لِلْتَّحْصِيلِ وَالْعُذْلِ

[٤ - الجاحظ يطلب إجزاء الرزق عليه]

أبو الفرج المأمول يزهد في عمره
كما كان دهرًا في الرُّخاء وفي النُّسُرِ
بتأخير أرزاقه وأنت تلي أمري

أعْيُنْكَ بِالرَّحْمَنِ مِنْ قَوْلِ شَامِتِ
وَلَوْ كَانَ فِيهِ رَاغِبًا لِرَأْيِتَهِ
أَنْرَضَتِي - فَدَتْكَ الْيَوْمَ نَفْسِي وَأَسْرَتِي -

[٥ - مدح أبي الفرج]

نَازَرَ بِالْحَسْنِي وَأَيَّدَ بِالْتَّصْرِ
وَذُو الْوَدْ مُنْخُوبُ الْفَوَادِ مِنَ الْذَّعْرِ
وَيَحْفَظُهُ فِي الْقَاطِنِينَ وَفِي السَّفَرِ
مُكَابِدُ مُحْتَالِ عَقَارِبِهِ نَسَرِي
وَأَوْضَحَ عِنْدَ الْخَصْمِ مِنْ وَضْحِ الْفَجْرِ
وَفَلِبِ رِيبَطِ الْجَائِشِ مِثْلُ الصَّدَرِ
وَأَيْدِكُمْ بِالْتَّصْرِ وَالْعَدَدُ الدَّئْرِ
خَلِيلًا يَوَاسِيْنِي وَيَرْغُبُ فِي شَكْرِي
فَقَدْ قَالَ رَأِيَ وَاسْتَنْمَتْ إِلَى شَعْرِي
فَلَلْفَقَرُ خَيْرٌ مِنْ شَمَائِيْنِ ذِي الْغَمْرِ
وَلَا يَعْرُفُ الْأَقْدَارَ غَيْرُ ذُو الْقَدْرِ
وَحْبَكَ بِي يَوْمُ الزَّاهِةِ وَالْبَصْرِ
وَشَكْرَ كِنْشِ الْحَمِيرَيْةِ فِي الصُّخْرِ

أَلَا يَا فَتَنَ الْكُتَابِ وَالْمَسْكِرِ الَّذِي
أَخَافُ عَلَيْكُ العَيْنَ أَوْ نَفْسَ وَامْتِ
وَعَهْدِي بِهِ وَاللهُ يُرْشِدُ أَمْرَهُ
مُبِطِلًا عَلَى التَّدَبِيرِ مَا يَسْتَفِرُهُ
بِرَأْيِي يُزِيلُ الْطُّودَ مِنْ مُسْتَقْرَهُ
وَعَزِيزُ كَفَرِ الْمُشْرِكِ فِي مَصْمَمِ
فِيَا إِنْ نَجَاحَ انجُحَ اللَّهُ سَعِيكُمْ
فَعُدْتُ فَلَمْ أَطْلُبْ وَجْلَتْ فَلَمْ أَصِبْ
وَإِنْ أَخْفَقْتُ كَفَيْ وَقَدْ عَلَقْتُكُمْ
أَعْيُنْكَ بِالرَّحْمَنِ أَنْ تُشَبِّهَ الْعَدِيْ
فَيَانَ تَرْعَ وَدُّي بِالْقَبْوِ فَاهْلُهُ
وَحَسِبَكَ بِي إِنْ شَتَّ وَدًا وَخُلَّهُ
الْأَرْبُ شَكْرَ دَائِرِ السَّرْسِمِ دَارِسِ

[٦ - الاعتذار عن التقصير في المديح]

قال أبو عثمان المعجهول : إذا كان المدح ظاهر المحسن كثير المناقب

فلم يجد الشاعر [إن] كان الورم .

ونعوذ بالله أن يكون فيكم ما يستدعي الألفاظ الشريفة والمعانى النفيضة ،
ويكون التقصير مني .

وكيفما تصرّفت بي الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فإن وقعت هذه القصيدة والتي قدمنا قبلها بالـ وافقة فالحمد لله .
 وإن خالفت فستغفر الله . وإن شئتم ضعفها بقوّة كرمكم ، وقوّتم أودها
بفضل حلمكم ، كان في ذلك بلاغٌ لما أملنا . والله الموفق .

* * *

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته والحمد لله
أولاً وأخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآلـ الطيبين الطاهرين وسلامه .



بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيْمِ

١٨ - هامش رسالة أبي الفرج

- (١) هذه قصيدة يمدح فيها الجاحظ أبي الفرج بن نجاح الكاتب . ولكنه قدم لها بمقيدة تقليدية « جعلت فداك ، واطال الله بقاك الخ . . . »
- (٢) لائحة بالذين يحملون كنية أبي عثمان تدل على ثقافة الجاحظ الواسعة المحيطة بالأدب والأنساب والأخبار والكلام . ولن نعرف باصحابها ونجيل القارئ إلى كتاب جمهوره أنساب العرب وغيره .
- (٣) مطلع القصيدة يذكرنا بقصيدة الحطبة : وطاوي ثلات عاصب البطن مرسل البيان السابع والثامن نجد معناهما تقريراً عند المتنبي في تعبيره عن طموحه وخياله في المددوحين .
- (٤) لم يفصح الجاحظ عن ارزاقه التي أخرت عنه من قبل ذوي الأمر . وربما كانت الدولة تدفع له راتباً أيام عز المعترزة وسيطرتهم على زمام السلطة . فلما دالت دولتهم منذ عهد المترکل قطعت عنه .
- (٥) مدح أبي الفرج : نجد المعاني ذاتها التي اضفها على المندوح في رسالته استنجاز الرعد ، والمرودة والخلطة .
- (٦) عودة إلى الشريدة على غلبة الأدب عنده على الشعر . ومن ثم ندر شعره وفهم بصلانمه سوى النثر القليل بينما غزر الشر فبلغ مثبات الكتب . وربما دلنا ذلك على خوف الجاحظ من الافصاح عن نسبة القصيدة إليه .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

- ١٩ -

المسودة والخلطة



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

[١ - المدح الخادع ليس من بضاعة الجاحظ]

فصل منه : أطال الله يقائك ، وأعزك وأكرمك ، وأتم نعمته عليك .

زعم - أباقك الله - كثيرٌ ممن يفرض الشعر ويروي معانيه ، وينكلف الأدب وينجتبيه ، أنه قد يُدَحِّل المرجو المأمول ، والمعنى المزور بأن يكون مخدوعاً ، وغبي الطُّرْفَ مُفْسلاً ، وسليم الصُّدُر للراغبين وحسن الظر بالطلابين ، قليل الفطنة لأبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلص إلى معانٍ الاعتلاء ، قليل العنق برد الشفاعة ، شديد الخوف من مياسم الشعراء ، حسيراً عند الاحتجاج للمنع ، سلس القياد إذا نبهته للبذل ، واحتُجوا بقول الشاعر :

إيت الخليفة فاخذنْه بمسالمة إن الخليفة للسؤال ينخدع

فانتحال المأمول للغفلة التي تعتري الكرام ، وانخداع الجواب لخداع الطالبين ومخاريق المستحبين ، باب من التكريم ، ومن استدعاء الراغب ، والتعرض للمجتدي ، والتلتف لاستخراج الأموال ، والاحتياط لحل عقد الأشخاص ، وتهسيج طبائع الكرام .

وأنا أزعم - أباقك الله - أن إقرار المسؤول بما يتحمّل من ذلك نوك ،

وإضماره لِئُم ، حَتَّى نصْحُ القسمة ، ويعتدل الْوَزْن .

وأنا أَعُوذُ بالله من تذكيرٍ يُناسبُ الاقتضاء ، ومن اقتضاءٍ يُصارعُ الإلْحاج .
ومن جُرْسِن يعود إلى الجُرمَان ، ومن رسالَة ظاهرها زُهْد ، وباطنُها رغبة . فإنَّ
أَسْقَطَ الْكَلَام وأَوْغَنَه ، وأَبْعَدَه من السُّعَادَة وأَنْكَدَه ، ما أَظْهَرَ التَّرَاهَة وأَضْمَرَ
الجُرْسِن ، ونَجَّلَ لِلْعَيْنَ بَعْنَ الْقَنَاعَة ، واستشَفَرَ ذَلَّةَ الْاِنْقَارَ .

وأشَنَعَ مِنْ ذَلِك ، وأَقْبَحَ مِنْهُ وأَفْحَشَ ، أَنْ يَطْعَنُ صَاحِبَه أَنْ مَعَاهُ خَفْيٌ
وهو ظَاهِرٌ ، وتأْوِيلُه بَعْدُ الْغُورِ وهو قَرِيبُ الْقُوْرِ .

فَسَأَلَ اللَّهُ تَعَالَى السَّلَامَةَ فَإِنَّهَا أَصْلُ النِّعَمَ عَلَيْكُم ، وَنَحْمَدُهُ عَلَى
أَنْصَالِ نِعَمَتِنَا بِنِعَمَتِكُم ، وَمَا أَلْهَمَنَا اللَّهُ مِنْ وَصْفِ مَحَاسِنِكُم .

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ الْحَمْدَ مُسْتَفْتَحَ كِتَابَه ، وَآخِرَ دُعَوَى أَهْلَ جَنَّتِه .

ولو أَنْ رَجُلًا اجْتَهَدَ فِي عِبَادَةِ رَبِّه ، وَاسْتَرْغَ مَجْهُودَه فِي طَاعَةِ سَيِّدِه ،
لَيَهْبَ لِلإخْلاصِ فِي الدُّعَاءِ لِمَنْ أَنْتَمْ عَلَيْهِ ، وَأَحْسَنَ إِلَيْهِ ، لَكَانَ حَرِيصًا بِذَلِك
أَنْ يُدِرِّكَ أَقْصَى غَايَةِ الْكَرَمِ فِي الْعَاجِلِ ، وَأَرْفَعَ درَجَاتِ الْكَرَامَةِ فِي الْأَجْلِ .

[٢ - واجبات المداع والممدوح]

وَعَلَى أَنِّي لَا أَعْرِفُ مَعْنَى أَجْمَعَ لِخَصَالِ الشُّكْرِ ، وَلَا أَذْلُّ عَلَى جَمَاعِ
الْفَضْلِ ، مِنْ سَخَاوَةِ النُّفُسِ بِأَدَاءِ الْوَاجِبِ .

وَنَحْنُ وَإِنْ لَمْ نَكُنْ أَعْطَيْنَا الإِخْلاصَ جَمِيعَ حَقِّهِ ، فَإِنَّ الْمَرْءَ مَعَ مَنْ
أَحْبَّ ، وَلَهُ مَا احْتَسَبَ .

وَلَا أَعْلَمُ شَيْئًا أَزِيدُ فِي السَّيِّئَةِ مِنْ اسْتِصْفَارِهَا ، وَلَا أَحْبَطُ لِلْحَسَنَةِ مِنْ
الْعُجْبِ بِهَا .

ومما يستدِيمُ الخطأُ لِبُثُّ التَّقْصِيرِ وإِهْمَالِ النَّفْسِ ، وَتَرْكُ التَّوْقُفِ ، وَقَلْةُ
المحاسبة ، وبُعْدُ العَهْدِ بِالتَّبْثِ . وَمَنْهَا رجَعْنَا إِلَيْهِ مِنْ ضَعْفٍ فِي عَزْمٍ ، وَهَانَ
عَلَيْنَا مَا تَقْيَدَ مِنْ مِنَاقِلِ الْجُلْمَ ، فَإِنَّا لَا نَجْمِعُ بَيْنَ التَّقْصِيرِ وَالْإِنْكَارِ .

ونَعُوذُ بِاللهِ أَنْ نَقْصُرَ فِي ثَنَاءِ عَلَى مُحْسِنٍ ، أَوْ دُعَاءِ لِمُنْعِنٍ . ولَئِنْ اعْتَذَرْنَا
لأنفسنا بصدق المودة - وبجميل الذكر ، فَلَمَّا يُغَدِّلُ لَكُمْ ، مِنْ تَحْقِيقِ الْأَمَالِ ،
وَالْأَهْوَاضِ بِالْأَنْقَالِ أَكْثَرَ .

عَلَى أَنْتُمْ لَمْ تَحْمِلُونَا، إِلَّا الْجُفْنَ ، وَقَدْ حَمَلْنَاكُمُ التَّقْلِ . وَلَمْ تَسْأَلُنَا
الْجَزَاءُ عَلَى إِحْسَانِكُمْ ، وَقَدْ سَأَلْنَاكُمُ الْجَزَاءُ عَلَى مَا سَأَلْنَاكُمْ . وَلَمْ تَكْلُفُونَا مَا
يَجُبُ لَكُمْ ، وَكَلْفَنَاكُمْ مَا لَا يَجُبُ .

وَمِنْ إِفْرَاطِ الْجَهْلِ أَنْ تَنْذَرُ حَقْنَا فِي حَسْنِ الظَّنِّ ، وَلَا تَنْذَرُ حَقَّكُمْ فِي
تَصْدِيقِ ذَلِكَ الظَّنِّ وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « مَا عَظَمْتُ نِعَمَةَ
اللهِ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا عَظَمْتُ عَلَيْهِ مَوْفِيَّةَ النَّاسِ » .

وَأَنَا أَسْأَلُ اللهِ الَّذِي أَلْزَمْكُمُ الْمُؤْنَ الْأَقْلَالَ ، وَوَصَلَ بِكُمْ أَمَالَ الرُّجَالِ ،
وَامْتَحِنُكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى تَجْرِيعِ الْمُرَارِ ، وَكَلْفُكُمْ مُفَارِقَةِ الْمُحِبُوبِ مِنَ الْأَمْوَالِ ،
أَنْ يَهْلِكَهَا عَلَيْكُمْ ، وَيُحْبِبَهَا إِلَيْكُمْ ، حَتَّى يَكُونَ شَفَعُكُمْ بِالْإِحْسَانِ الدَّاعِيِّ.
إِلَيْهِ ، وَصَبَابَتُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ الْحَامِلِ عَلَيْهِ ، وَحَتَّى يَكُونَ حُبُّ التَّفْضُلِ
وَالْمُحِبَّةُ لَا عَقْدَ الْمِنَنِ الْغَايَةُ الَّتِي تَسْتَدِعُ الْمَدْبِرَ ، وَالنَّهَايَةُ الَّتِي تَعْذِرُ
الْمَقْصُرَ ، وَحَتَّى تُكَرِّهُوا إِلَى الْخَيْرِ مِنْ أَخْطَا طَحْهَ ، وَتَفْتَحُوا بَابَ الْطَّلَبِ لِمَنْ
قَصْرَ بِهِ الْغَيْرُ .

ثُمَّ أَعْلَمُ - أَصْلَحَكَ اللهُ - أَنَّ الَّذِي وُجِدَ فِي الْعَبْرَةِ ، وَجَرَتْ عَلَيْهِ
الْتَّجْرِبةُ ، وَأَتَسْقَى بِهِ النَّظَمُ ، وَقَامَ عَلَيْهِ وَرَأَى الْحَكْمُ ، وَأَطْرَدَ مِنْهُ النَّسْقُ ، وَأَثْبَتَهُ
الْفَحْصُ ، وَشَهَدَتْ لَهُ الْعُقُولُ ، أَنَّ مِنْ أُولَئِكُمْ أَسْبَابُ الْخُلْطَةِ ، وَالْذُّوَاعِيَ إِلَى
الْمُحِبَّةِ ، مَا يُرَجِّدُ إِلَى بَعْضِ النَّاسِ مِنَ الْقَبُولِ عِنْدَ أُولَئِكُمْ وَهَلْهُ وَقَلْهُ انْقَاضُ

النُّفوس مع أول لحظة ، ثم اتفاق الأسباب التي تقع بالموافقة عند أول المجالسة ، وتلاقي النُّفوس بالمشاكلة عند أول الخلطة .

[٣ - أصول المدح والطلب]

والأدب أدبان : أدب خلقي ، وأدب رواية ولا تكمل أمرُ صاحب الأدب إلا بهما ، ولا يجتمع له أسباب التمام إلا من أجلهما ، ولا يُعدُّ في الرؤساء ، ولا يُشَنِّي به الخنجر في الأدباء ، حتى يكون عقلُه المتأمِّل عليهما ، والسائلان لهمَا .

فصل منه : فإنْ تَمَّتْ بعد ذلك أسباب الملاقة تمت المصادفة ، وخفَّ إلى سُكُنه . والشأنُ قبل ذلك لما يُسْبِّقُ إلى القلب ، ويُخَفَّ على القلب ، ولذلك احترس العازم المستعذى عليه من السَّابق إلى قلب الحاكم عليه .

وكذلك التمسُّوا الرُّفق والشُّوفيق ، والإيجاز وحسن الاختصار ، وانخفاض الصُّوت ، وأن يُخرج الظالم كلامه مُخرج لفظ المظلوم :

نعم ، وحتى يترك اللحن بحجه بعده ، ويخلُّ الذاهبة كثيراً من أدبه ، ويُغْضُّ من محسن منطقه ، التماساً لمواساة خصميه في ضعف الجبلة ، والتبثُّ به في قلة الفطنة .

نعم ، وحتى يكتب كتاباً بمعاية ومدخلٍ وإغرافي وتحداً ، فيلحن في إعرابه ، ويستخفُّ في ألفاظه ، ويتجنبُقصد ، ويهرُب من اللُّفظ المُتعجب ليخفي مكانِ جذبه ، ويُشتَّر موضعه رفقه ، حتى لا يحترس منه الخصم ، ولا يحفظُ منه صاحبُ الحكم ، بعد أن لا يُصْرُّ بعين معناه ، ولا يقصُّ في الإنصال عن تفسير هفزة ، وهذا هو الموضع الذي يكون الغي في آثين ، وهو

الغَيَاةُ أَفْطَرَ ، وَالرَّدِئُ أَجَوَّدَ ، وَالْأَنْوَكُ أَحْزَمَ ، وَالْمُضَيْعُ أَحْكَمَ . إِذَا كَانَ غَرْضُهُ
الذِّي إِيَاهُ يَرْمِي ، وَغَایَتُهُ التِّي إِلَيْهَا يَهْجُرِي ، الانتِفَاعُ بِالْمَعْنَى الْمُتَخَيَّرِ دُونَ
الْمَبَاهَةِ بِالْلَّفْظِ ، وَإِنَّمَا كَانَ غَایَتُهُ إِيَصَانُ الْمَعْنَى إِلَى الْقَلْبِ دُونَ نَصِيبِ السَّمْعِ.
مِنَ الْلَّفْظِ الْمُؤْتَقِ أوَ الْمَعْنَى الْمُتَخَيَّرِ ، بِلَ رِبَّا لَمْ يَرْضَ بِالْلَّفْظِ السَّلِيمِ
حَتَّى يُسْقِمَهُ لِيَقُعَ العَجَزُ مَوْقِعُ الْفَوْءَ ، وَيُعَرَّضَ الْعَيْنُ فِي مَحْلِ الْبَلَاغَةِ . إِذَا كَانَ
حَقُّ ذَلِكَ الْمَكَانُ الْلَّفْظُ الدُّونُ ، وَالْمَعْنَى الْغَفْلَ .

هَذَا إِذَا كَانَ صَاحِبُ الْقَصْبَةِ وَمَوْلَنُ لَفْظِ الْمَحْلِ وَالسَّعَايَةِ ، مَمْنُونٌ بِتَصْرِيفٍ
قَلْمَهُ ، وَيَعْلَلُ لِسَانَهُ ، وَيَلْتَرِقُ فِي مَذَاهِبِهِ ، وَيَكُونُ فِي سَعَةٍ وَرِجلٍ لَأَنَّ يَنْحُطُ
نَفْسَهُ إِلَى طَبَقَةِ الدُّلُّ وَهُوَ عَزِيزٌ ، وَمَحْلُ الْعَيْنِ هُوَ بَلِيعٌ ، وَيَنْحُولُ فِي هِيَةِ
الْمَظْلُومِ وَهُوَ ظَالِمٌ ، وَيُمْكِنُهُ تَصْوِيرُ الْبَاطِلِ فِي صُورَةِ الْحَقِّ ، وَسَرَّ الْعِيُوبِ
بِرْجُرْفُ الْقَوْلِ ، وَإِذَا شَاءَ طَفَا ، وَإِذَا شَاءَ رَسَبَ ، وَإِذَا شَاءَ أَخْرَجَهُ غَفَلًا
صَحِيحًا .

وَمَا أَكْثَرُ مِنْ لَا يُحِسِنُ إِلَّا الْجَيْدُ ، فَإِنَّ طَلَبَ الرَّدِئِ جَاوِرَهُ . كَمَا أَنَّهُ مَا
أَكْثَرُ مِنْ لَا يُسْتَطِعُ إِلَّا الرَّدِئُ ، فَإِنَّ طَلَبَ الْجَيْدِ قَصْرُهُ .

وَلَيْسَ كُلُّ بَلِيعٍ يَكُونُ بِذَلِكَ الطَّبَاعَ ، وَمُبِينُ الْأَدَاءِ ، وَمُرْسَعًا عَلَيْهِ فِي
تَصْرِيفِ الْلُّسَانِ ، وَمَمْنُونًا عَلَيْهِ فِي تَحْوِيلِ الْقَلْمَ .

وَمَا أَكْثَرُ مِنْ الْبَصَرَاءِ مَنْ يَحْكِي الْعُمَيَانِ ، وَيَنْحُولُ لِسَانَهُ إِلَى صُورَةِ لَفْظِ
الْفَأْفَاءِ بِمَا لَا يَلْعُغُ الْفَأْفَاءِ وَلَا يُحِسِنُهُ التَّتَمَامُ . وَقَدْ نَجَدْ مِنْ هُوَ أَبْسَطُ لِسَانًا
وَأَبْلَغُ قَلْمًا ، لَا يُسْتَطِعُ مُجاوِرَةً مَا يَشْرِكُهُ ، وَالْخَرْوَجُ مَا قَصْرُهُ .

فَصَلَّ مِنْهُ : وَلَوْلَا الْحَدُودُ الْمَحْصُلَةُ وَالْأَقْسَامُ الْمَعَدَّلَةُ ، لَكَانَتِ الْأَمْرَ
سُدَئِ ، وَالْتَّدَابِيرُ مُهَمَّلَةُ ، وَلَكَانَتِ غُورَةُ الْحَكِيمِ بَادِيَةُ ، وَلَا خَلَطَتِ السَّافَلَةُ
بِالْعَالِيَةِ .

[٤ - لا خير في صاحب لا يساعد صاحبه اذا خلصت المودة]

وأنا أقول بعد هذا كله : لو لم أضر لكم محبة قديمة ، ولم أضر بكم بشفيع من المشاكلة ، ولا سبب للأديب إلى الأديب ، ولم يكن عليَّ قبول ، ولا عليَّ حلاوة عند المحصول ، ولم أكن إلا رجلاً من عرض المعارف ، ومن جمهور الآباء - لكنَّ في إحسانكم إليَّنا ، وإنعامكم علينا ، دليلٌ على أنَّا قد أخلصنا المحبة ، وأصفينا لكم المودة .

وإذا عرفتم ذلك بالدليل التَّيُّر الذي أتُمُّ سبيلاً ، والبرهان الواضح الذي إليَّكم مرجعه ، لم يكن لنا عند الناس إلا توقيع ثمرة الحب ، ونتيجة جميل الرأي ، وانتظار ما عليه مجازاة القلوب .

وبقدر الإنعام تجود الفوسس بالمودة ، وبقدر المودة تنطلق الآلئن بالميذحة .

وهذه الوسيلة أكثر الوسائل وأقواها في نفسي : أني لم أصل بي بمُحرِّم عمر ولا بمُبْخِل غفل ، ولا بضيق العطن حديث الفنس ولا بزمر المروءة مُستبطِّث الشُّرى ، بل وصلته بحمله أثقال ومقارع ابطال ، وبين ولد في البُّر وربِّي فيه ، وجَرَى منه على عرق ونزع إليه .

فصل منه : ولا خير في سمين لا يحتمل هُرَاز أخيه ،
وصحيغ لا يجُبر كسر صاحبه .

فصل منه : وقد تقسم المودة إلى ثلاثة منازل :

منها : ما يكون على اهتزاز الأريحية وطبع الحرية .

ومنها : ما يكون على قدر فرط وسائل الفاقة .

ومنها : ما يحسن موقعه على قدر طباع الحرص وجشع النفس .

فأرفعها منازل حُبِّ المشفوف شكر النعمة . وهو الذي يدوم شكره ، ويبيقى على الأيام وُدُّه . والثاني هو الذي إنما أشتَدَ حُبُّه على قدر موضع المال من قلب الحريص الجشع ، واللذين الطَّمْعُ . فهذا الذي لا يشكر ، وإن شكر لم يشكُر إلَّا لبستربد ، ولم يمدح إلَّا لستمد . وعلى الله لا يأنى الحمد إلَّا رَحْفًا ، ولا يفعله إلَّا تكُلُّفًا .

وأنا أسأل الله الذي قسم له أفضَلَ الحظوظ في الإنعام ، أن يقسم لنا أفضَلَ الحظوظ في الشُّكر . وما غاية قولنا هذا ومدار أمرنا إلَّا على طاعة تُوجِبُ الدُّعَاء ، وحُرْيَةُ تُوجِبُ الثَّنَاء ، شاكرين كُنَّا أو مُنْبِئين ، وراجعين كُنَّا أو مرْجُونَ .

ومن صرف الله حاجته إلى الكرام ، وعَذَلَ به عن اللئام فلا يُعذَلُ نفسه في الراغبين ولا في الطالبين المؤمِلين ، لأنَّ من لم يجرِ مراة المبطال ، ولم يمْدُ للرُّحِيل التسويف ، ونقطَعَ عقْدَه بطول الانتظار ، ويختمل مكرورة ذُلَّ السؤال ، ويحمل على طمع يحْتَمِلُ ، كان خارجاً من حدود المؤمِلين .

ومن استولى على طمعه الثُّقةُ بالإنجاز ، وعلى طَبْلَتِه المقيَّنُ بُسرعة الظُّفر ، وعلى ظُفُرِه الجزيلُ من الإفضل ، وعلى إفضاله العلم بقلة التَّشريف ، وبالسلامة من التَّغْيِيرِ بالتماس الشُّكر ، وبالبُكُور وبالرُّواح وبالخضوع إذا دخل ، والاستكانة إذا جلس . ثم مع ذلك لم يكن ما أنيعَ به عليه ثواباً لسابق يد ، ولا تعويضاً من كُدُّ ، كانت النعمة محضةٌ خالصة ، ومهدبة صافية ، وهي نعمتكم التي ابتدأتمونا بها .

ولاتكون النعمة سابقةً ولا الأيدي شاملةً ولا السُّتر كثيفاً ذيلاً ، وكثير الغرض مُطْبِقاً ، ودون الفقر حاجزاً ، وعلى الفتن مُتَجَاهِفاً ، حتى يخرج من عندكم ، ثم يحتسب إلى شاكِرٍ حُزْرَ .

[٥ - مزايا أبي الفرج]

فصل منها : وأنتم قوم تقدّمتم بابتلاء المكارم في حال المهمة ، وأخذتم لأنفسكم فيها بالثقة على مقدار ما مكتتبتم الأواخي ، ومددتم الأطاب ، وثبتتم القواعد . ولذلك قال الأول :

غزّمت على إقامة ذي صباح لأمير ما يُسوء من يُسوء

وأبو الفرج - أعزه الله - فنى الفسّكرين . وأديب المصريين . جمع أريحيّة الشباب ، ونجابة الكهول ، ومحبة السادة ، وبهاء القادة وأخلاق الأدباء ، ورشاقة عقول الكتاب والتناغل إلى دقائق الصواب ، والحلاؤة في الصدور ، والمهابة في العيون ، والتقدّم في الصناعة ، والستّيق عند المحاورة ، شفيق أبيه وشقيق جده ، خلدو النعل بالتعل ، والقصيدة بالقصيدة لم يتأخر عنهما إلا فيما لا يحوز أن يقتدّم بها فيه ، ولم يقصر عن شأنهما إلا يقدّر ما قصرّا عن سنجّها وهم وإن قصرّوا عن مدى آبائهما ، وعن غيابات أوليائهم ، فلم يقصروا عن جنة الرؤساء ، وأهل الشوابق من الكبار ، ولست ترى تاليهم إلا سابقاً ، ومصلّهم إلا للغاية مجاوزاً . ليس فيهم سكينة ولا مهور ولا منقطع ، قد تفتحت آعرافهم من الإقرار والهجنة ، ومن الشوب ولزم العجمة .

ومتن عايّث أبا الفرج وكماله ، ورأيت دينجته وجماله ، علمت أنه لم يكن في ضرائبهم وقدير نجلهم ، خارجي التسب ، ولا مجهول المركب ، ولا بهيم مُضمن ، ولا كثير الأوضاع مغرب ، بل لا ترى إلا كل أغراً محجل ، وكل ضخم المعجزم هيكل .

إني لمستُ أحبر عن الموئي ولا استشهد الغيب ، ولا أستبدل بال مختلف فيه ولا الغامض الذي تعظم المؤونة في تعرّفه ، والشاهد لقولي يلوح في

وَجْهُوهُمْ ، وَالْبُرْهَانُ عَلَى دُعَوَائِي ظَاهِرٍ فِي شَمَائِلِهِمْ ، وَالْأَخْبَارُ مُسْتَفِضَّةُ ،
وَالشُّهُودُ مُتَعَاوِنَةٌ .

وَأَنْتَ حَيْنَ تَرَى بَعْنَقَ تِلْكَ الْذِيْبَاجَةَ ، وَرَوْنَقَ ذَلِكَ الْمَنْظَرَ ، عَلِمْتَ أَنَّ
الْتَّالِدُ هُوَ قَيَادُ هَذَا الْطَّارِفَ .

أَمَا أَنَا فَنَمْ أَرْلَأِيَ الْفَرْجَ - أَدَمَ اللَّهُ كَرَامَتَهُ - ذَائِعًا وَلَا شَانِئًا وَلَا عَابِيًّا وَلَا
هَاجِيًّا ، بَلْ لَمْ أَجِدْ مَادِحًا قَطُّ إِلَّا وَمَنْ سَمِعَ تَسَابِقَ إِلَى تِلْكَ الْمَعْانِي ، وَلَا
رَأَيْتُ وَاصِفًا لَهُ قَطُّ إِلَّا وَكُلُّ مَنْ حَضَرَ يَهْشُ لَهُ وَيَرْتَأِ لِقَوْلِهِ . قَالَ الْفَرَماَحُ :
هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا السُّوْدَدُ الْغَوْدُ وَالنَّدَى وَرَأْبُ الْأَيَّ وَالصَّبَرُ عَنْدَ الْمَوَاطِنِ

وَلَكِنْ هَلْ الْمَجْدُ إِلَّا كَرْمُ الْأَرْوَمَةِ وَالْحَسَبِ وَيُنْدِي الْهَمَّةَ ، وَكُثْرَةُ
الْأَدَبِ ، وَالْبَيْانُ عَلَى الْمَهْدِ إِذَا زَلَّتِ الْأَقْدَامُ ، وَتَوْكِيدُ الْعَقْدِ إِذَا انْجَلَتِ مَعَاقِدُ
الْكَرَامِ ، وَإِلَّا التَّوَاضُعُ عَنْدَ حَدُوثِ النِّعَمَةِ ، وَاحْتِمَالُ كُلِّ الْعَشَرَةِ ، وَالْمُنْفَادُ فِي
الْكِتَابَةِ ، وَالْإِشْرَافُ عَلَى الصَّنَاعَةِ .

وَالْكَتَابُ هُوَ الْقَطْبُ الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ عِلْمِ مَا فِي الْعَالَمِ وَآدَابِ الْمُلُوكِ ،
وَتَلْخِيقُ الْأَلَاظَاتِ ، وَالْغَوْصُ عَلَى الْمَعْانِي السُّدَادِ ، وَالتَّخَلُّصُ إِلَى إِظْهَارِ مَا
فِي الْفُصُولِ بِأَسْهَلِ الْقَوْنِ ، وَالتَّمْيِيزُ بَيْنَ الْحُجَّةِ وَالشَّهِيْهَةِ وَبَيْنَ الْمُفْرَدِ
وَالْمُشَتَّرِكِ ، وَبَيْنَ الْمَقْصُورِ وَالْمُبْسُوطِ ، وَبَيْنَ مَا يَحْتَمِلُ التَّأْوِيلُ مِمَّا لَا
يَحْتَمِلُهُ ، وَبَيْنَ السُّلِيمِ وَالْمَعْتَنِيِّ .

فَبَارَكَ اللَّهُ لَهُمْ فِيمَا أَعْطَاهُمْ وَرَزَقَهُمُ الشُّكْرُ عَلَى مَا خَوَلُوهُمْ ، وَجَعَلَ ذَلِكَ
مُوصِلًا بِالسَّلَامَةِ ، وَبِمَا خَطَّ لَهُمْ مِنَ السَّعَادَةِ ، إِنَّهُ سَمِعَ قَرِيبٍ ، فَقَالَ لَمَّا
بَرِيدَ .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

١٩ - هامش رسالة في المودة والخلطة .

- (١) يتكلف الأدب ويجتبيه : يتصنّع ويحصله .
- الاعتلال : بيان العلة او السبب .
- مياسم الشعراء : هجاءهم اللامع . والميسم هو المكونة في الأصل .
- التوك : الحمق .
- (٢) مناقل الحلم : مراحله .
- لاحظ جهره بالسؤال .
- (٣) الأدب أدبان : أدب خلق وآداب رواية . ورد هذا القول في رسالة المعلمين .
للأدب معينان : المعنى الخلقي والمعنى الفني .
- اللحن : الخطأ في حركات الألفاظ التحورية .
- القصة : الخبر والقصبة .
- الجاحظ يردد هنا مفهوم البلاغة الذي اعتمدته في أماكن عدّة من كتبه :
الحيوان ، البيان والتبيين ، رسالة المعلمين الخ .
- (٤) المحرم الغر : البدوي الذي لم يخالط الحضر .
- ثمرة الحب : هي العطاء .
- أنواعها او البواعث إليها وهي ثلاثة : الاريعية او الحرية ،
والنافقة ، الجشع . تقسيم يدل على قدرة الجاحظ على التحليل النفسي .
- (٥) الاوانيي جمع أخية : طنب البيت .
- الأول ، يرداد به الشاعر انس بن مدركة المخعمي ، انظر الحيوان ج ١ ، ص . ٨١

- العسكرين : يزيد بهما باب البصرة الذي بناه المنصور في بغداد ، والرصافة الواقعة في الجانب الشرقي منها .
- المصران : الكوفة والبصرة .
- الهجنة والعجمة : الهجين هو الذي يكون والده عربياً وامه اعجمية .
- والعجمة : الاصل الاعجمي .
- خارجي النسب : لا يعني نسبه الى الخوارج بل الاصل الاعجمي الغريب الخارج عنعروبة .
- اغر محجل : فيه يقع بيضاء على رأسه (اغر) وعلى قوانمه (محجل) .
- المخرم ، هيكل : الجوارد الضخم .
- الشانيء : المبغض .

- ٢٠ -

استنجاز الوعد



اللهم صل على سيدنا

[١ - الجاحظ يسأل رب مدح] :

فصل منه : قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم : « اطلبوا الحاجاتِ من جسانِ الوجوه ». .

فإنْ كان الوجه إنَّما وقع على الوجه الذي فيه الناظر والسامع ، والشأن والذائق ، إذا كان حسناً جميلاً ، وعنيقاً بهياً ، فوجهك الذي لا يُخيلُ على أحدٍ كماله ، لا يُخطلي جواؤه .

وإنْ كان ذكرُ الوجه : إنَّما يقع على حسن وجه المطلوب وجماله على جهة الرغبة ، وإنْ كان ذلك على طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتق من اللفظ ، والفرع المأخوذ من الأصل ، فوجه المطلوب إليك أفضل الوجوه وأسنانها ، وأصونها وأرضامها . وهو المنهج الفسيح والمتنفس الربيع ، وجماليه ظاهر ، ونفعه حاضر ، وخبيه غامر ، إلَّا أنَّ الله تعالى قرئه مع ذلك باليمن ، وسهله باليسير ، وحييئه بالبشر الحسن ، ودعا إليه بين الخطاب ، وأظهر في أسمائكم وأسماء آبائكم وفي كنائم وكنى إخوانكم ، من برهان الفأل الحسن ونفع الطيبة السائنة ما جمع لكم به صنوف الأمل ، وصرف إليكم وجراه

المطالب ، فاجتمع فيكم تمام القوام وبراعة الجمال ، والبشر عند اللقاء ، وبين الخطاب والكتاب للخلطاء ، وقلة البخل بالمرتبة الرفيعة ، والزيادة في الإنصاف عند النعمة الحادثة . فجعل الناس وعذكم من أكرم الوعد ، وعذكم من أوثق العقد ، وإطماعكم من أصح الإنجاز . وعلموا أنكم تؤيرون في مواضع اليساس ، وتُطبعون في مواضع الصمام ، وأن الأمور عندكم موزونة معدلة ، والأسباب مقدرة محصلة .

هذا مع الصولة والتصميم في موضع التصميم .

والتبعة أحزم ، والصفح إذا كان الصفعُ أكرم ، والرحمة لمن استرحم ، والعقابل لمن صمم .

ثم المعرفة بفرق ما بين اعتزام الغُفران واعتزام المستبصِر ، وفضل ما بين اعتزام الشجاع والبطل ، وبين إقدام الجاهل المتهور .

وقد علم الناس بما شاهدوه منكم ، وعاينوه من تدبير ، وعرفوه من تصرف حالاتكم ، لأنني لم أتزيد لكم ، ولم أتكلف فيكم ما ليس عندكم . وخير المديح ما وافق جمال المدحوم ، وأصلح الصفات ما شاكل مذهب الموصوف ، وشهد له أهل العيان الظاهر ، والخبر المتظاهر . ومن خالف هذه القضية وجنب الحقيقة ، ضار المادح ولم ينفع المدحوم .

هذا إلى الثبات على العهد ، وإحكام العقد ، مع الوفاء العجيب ، والرأي المصيب ، وتمام ذلك وكماله ، وسناه ذلك وبهاته ، وكثرة الشهود لكم ، وإجماع الناس على ذلك فيكم .

[٢ - ذم المديح الكاذب]

ومن قيل لنفسه مدحًا لا يُعرف [به] كان كمادح نفسه . ومن أثاب

الكذابين على كذبهم كان شريكتهم في إثتمهم ، وشقيقهم في سخفهم ، بل كان المحتقب لكبره ، المحتمل لوزره ، إذ كان المثبت عليه والداعي إليه .

معاذ الله أن نقول إلا معاروفاً غير عهول ، ونصف إلا صحيحاً غير مدخلون ، أو تكون من يتوعد بالملق ، ويتفحّم على أهل الأقدار شرماً إلى مال ، أو جرحاً على تقريب . وأبعد الله الجرمن وأخزى الشره والطعم !

فإن شئت شاكٌ أو توقيت مرتابٍ فليعرض العامة . ولتصفح ما عند الخاصة حتى يتبيّن الصُّبح .

[٣ - المدحوج يجمع الطارف والتلبد]

وقالوا في تأديب الولاة وتقديم تدبير الكفالة : « إذا أبردتم البريد فاجعلوه حسن الوجه ، حسن الاسم ». فكيف إذا قارن حسن الوجه وحسن الاسم . كرم الضريرية ، وشرف العرق .

وأعيان الأعراق الكريمة ، والأخلاق الشريفة ، إذا استجمعت هذا الاستجماع ، واقررت هذا الاقتران ، كان أتم للنعممة ، وأبرئ للفضيلة وكانت الوسيلة إليها أسهل ، والمأخذ نحوها أقرب ، والأسباب أمن .

فإذا انتظمت في هذا السُّلوك ، وجمعتها هذا النظم ، كان الذي يسرد البريد أولى بها من البريد ، وكان مقوم البلاد أحلى بها من حاشيته الكفالة ، إذ التأملي لا يجمع أوجه الصواب ، ولا يحصي مخارج الأسباب ، ولا يظهر برهانه ويقوى سلطانه ، حتى يصيّب المعدن . ولن يكون موضع الرغبة معدناً إلا بعد اشتغاله على تراصف خصال الشرف وبعد أن يتواتي إليه معاني الكرم بالأعراق الكريمة ، والعادات الحسنة ، على حدث يشهد لمتقادم ، وطارف بدُّ على ثالد .

فإذا كان الأمل يخبر بالحسب ثاقب ، والمجدد راسخ . وإن كان الشأن في صناعة الكلام وفي القدم والرّياضة ، وفي خلقه بأثره عن سلف ، وأخر يلقاه عن أول ، فلهم ما لا يذهب عنه جاحد ، ولا يستطيع جحده معاند .

فصل منه : وأسماؤكم وكنائكم بين فرج ونجاح ، وبين سلامه وفضل ، ووجوهكم وفق أسمابكم ، وأخلاقكم وفق أعرافكم ، لم يضر بتفاوت فيكم بنصب .

وبعد هذا فإني أستغفر الله من تصربي في حقوقكم ، وأستو به طول رقدي عما فرضته لكم .

ولا ضير إن كان هذا الذي قلنا على إخلاص وصحبة عهد ، وعلى صدق سيرة وثبات عقد . ينسى السيف وهو حسام ، ويكتبو الطرف وهو جناد ، وينسى الذكور ، ويغفل الفطن .

ونعمود بالله تعالى من العمى بعد البصيرة ، والحيرة بعد لزوم الجادة .

[٤ - والد المدح يشبهه]

كان أبو الفضل - أعزه الله - على ما قد بلغك من التبرع بالوعد وسرعة الإنجاز وتمام الضمان وعلى الله تمام النعمة والعافية .

وكان - أبيه الله - في حاجتي ، كما وصف زيد الخيل نفسه حين يقول :
وموعدي حق كأن قد فعلتها مني ما أعد شيئاً فإنني لغاري

وتقول العرب : « مَنْ أَشْبَهَ أَبَاهُ فَمَا ظَلَمَ » ، تقول : لم يضع الشبه إلا في موضعه ، لأنّه لا شاهد أصدق على غريب نسبه وخفى نجله من الشبه

القائم فيه ، الظاهر عليه .

وقد تفَلَّتْ - أبِيَّكَ الله - شِيخُكَ : خَلْقُهُ وَخَلْقُهُ ، وَفَعْلُهُ وَعَزْمُهُ ، وَعَزْ الشَّهَامَةُ ، وَالنَّفْسُ الثَّائِمَةُ .

ومرجع الأفعال إلى الطائع ، ومدار الطبائع على جودة اليقين وقوّة المُئَنَّة ، وبهما تُمَعَّن العريمة ، وتُنْفَدُ البصيرة .

هذا مع ما قَسَمَ الله لك من المحبة ومتى حلك من المبغة . وسلّمك عنه من المذمة .

والله لَوْلَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِنْ خَصَالٍ الْحُرْبَةِ وَجَلَالِ الْفُؤُسِ الْأَبِيَّةِ إِلَّا أَنْكُمْ لَا تَدِينُونَ بِالْفُسُاقِ ، وَلَا تَعْدُونَ الْكَذَبَ وَلَا تَسْتَعْمِلُونَ الْمُوَارِبَةَ فِي مَوْضِعِ الْإِسْتِقَامَةِ ، وَحِيثُ تَجُبُ الْنِّفَقةُ .

وَلَا يَكُونُ حُظُّ الْأَحْرَارِ بِالْمَوَاعِيدِ صَرْفًاَ وَلَا تُتَكَلَّوْنَ عَلَى مَلَلَةِ الطَّالِبِ ، وَلَا عَجْزُ الرَّاغِبِ ، إِذَا اسْتَبَدَّتِ أَيَّامُهُ ، وَعَجَزَتِ نَفَقَتُهُ ، وَمَاتَتِ أَسْبَابُهُ ، بَلْ تُعْجَلُونَ لَهُمُ الرَّاحَةَ عَنْدَ تَعْدُرُ الْأَمْرُورَ إِلَيْكُمْ بِالْإِيَاسِ ، وَتَحْقِقُونَ أَطْمَاعَهُمْ عَنْدَ إِمْكَانِ الْأَمْرُورِ لَكُمْ بِالْإِنْجَاحِ .

[٥ - الممدوح لا يستحق الشكر الا اذا انعم وانجز ما وعد]

فصل منه : وإنك والله - أيها الكرييم المأمول ، والمستعطِبُ المسؤول -
لا تزرع المحبة إلا وتحصدُ الشُّكر ، ولا تُكثِر المسوَدَاتِ إلا إذا أَكَرَ النَّاسُ
الأموال ، ولا يشبع لك طيبُ الْأَحْدَوَةِ وجمالُ العحال في العشيرة ، إلا لتجُرُّع
مُوارِدِ المُكْرَوَهِ . ولن تنهض بأعباءِ المكارم التي توجها النُّعْمَةُ وتقْرِضُها المرتبة
حتى تستشعر التفكير في التخلص إلى إغناائهم ، والقيام بحسن ظنِّهم ، وحتى
ترحّمهم من طول الانتظار ، وترقّ عليهم من موت الأمل وإحياءِ الفنوط ،

وحتى تتغلغل ذلك بالجَلْ النَّطِيفَةِ ، والعناء الشديدة الشريفة ، وحتى تتوخى
السَّاعَاتِ وتتهَرَّبُ الْفَرَصَ فِي الْحَالَاتِ ، وتحْيِرُ مِنَ الْأَفْعَاظِ أَرْقُهَا مَلَكًا
وأَحْسَنَهَا قَبُولًا ، وأَجْوَدَهَا قُوَّةً .

٢٠ - هامش استنجاز الوعد .

(١) حواله : طالبه .

- واظهر في اسمائكم واسماء آبائكم وفي كنائكم وكنى اسوانكم من برهان الفال
الحسن ونفي الطيرة المسية ما جمع لكم فيه صنوف الأمل ، يشير العاخط الى
اسماء عائلة الممدوح التي تدل على اليمن : نجاح ، سلمة ، ابو الفرج ، ابو
الفضل (لقب والده) الخ .. وهذا ما اوضحه بعد قليل بقوله : « واسماؤكم
وكنائكم بين فرج ونبع ، وبين سلامه وفضل .. الخ » .

(٢) المحنيب لكره : الجامع والحاصل ومنها الحقيقة .

(٣) الطارف والتليد : الحديث والقديم .

(٤) « من اشبه اباء فما ظلم ، مثل يضرب في شدة الشبه بين الأب والابن . راجع
مجمع الأمثال للميداني .

- الحرية : ضد العبودية - كرم الأصل .

- خلال : جمع خلة : الصفة .

(٥) الاحدونة : البيره .

- التخلص الى اغاثتهم : سد حاجتهم .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

- ٢١ -

كتاب التربع والتدوير



لهم إني أسألك سلامك

قال ابو عثمان :

[- التعريف باحمد بن عبد الوهاب وذكر موضوع الرسالة]

كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط التصر ويدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعاً وتحبه لسعة جُفريته واستفاضة خاصرته مدوراً . وكان جعد الأطراف قصیر الأصابع ، وهو في ذلك يدعى السبطة والرشاقة ، وأنه عنق الوجه أخمص البطن معتملاً القامة تام العظم . وكان طوبل الظهر قصیر عظم الفخذ ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعى أنه طوبل الباد رفيع العماد عادي القامة عظيم الهمامة ، قد أعطني البسطة في الجسم والسعنة في العلم . وكان كبير السن متقدماً في العيالاد ، وهو يدعى أنه معتملاً الشباب حديث البلاد . وكان أدعاوه لاصناف العلم على قدر جهله بها ، وتكلفه للإنابة عنها على قدر غبارته فيها . وكان كثير الاعتراض ، لهجاً بالمراء ، شديد الخلاف ، كلها بالمجاذبة ، متبايناً في العنود ، مؤثراً للمغایبة ، مع إخلاص الحجة والجهل بموضع الشبهة ، والخطرفة هند قصر الزاد ، والعجز عند التوقف ، والمحاكمة مع الجهل بشمرة المرأة [ومحة] فساد القلوب ونكد الخلاف ، وما في الخوف من

اللغو الداعي إلى السهو ، وما في المعاندة من الانم الداعي إلى النار ، وما في المجاذبة من النكدر ، وما في المغالبة من فقدان الصواب . وكان قليل السماع غمراً وضخيفاً عفلاً لا ينطون عن فكر ويشق بأول خاطر ولا يفصل بين اعتزام الغمر واستبصار الحق . يعد أسماء الكتب ولا يفهم معاناتها ، ويحدد العلماء من غير أن يتعلّق منهم بسبب ، وليس في يده من جميع الأداب إلا الإتحال لاسم الأدب .

فلما طال اصطبارنا حتى بلغ المجهد هنا ، وكدنا نعتاد مذهبه ونألف سبيله ، رأيت أن أكشف فناعه ، وأبدي صفحته للحاضر والبادي وسكان كل ثغر وكل مصر ، بأن أسأله عن مائة مسألة أهزا فيها وأعرف الناس مقدار جهله ، وليسأله عنها كل من كان في مكة ليكتفوا عنا من غربه ، وليردوه بذلك إلى ما هو أولى به . كأنه لم يسمع بقول النبي صلى الله عليه وسلم في السابـ بن صيفي : « هذا شريكـ الذي لا يشارـي ولا يمارـي ». ولا بقول عثمان : إذا كان لك صديق فلا تمارـه ولا تشارـه ، ولا يقول ابن أبي ليلـي : لا أمارـي أخي إما أن أكذـبه وإما أن أغضـبه . ولا يقول ابن عمر : لا يصـيب الرجل حقيقة اليمـان حتى يتركـ المرأة وهو محقـ . وكأنه لم يسمع بقول الشاعـ :

جـلـافـا عـلـيـنـا مـنـ فـيـائـةـ رـأـيـهـ كـمـاـ قـيـلـ قـبـلـ الـيـوـمـ خـالـفـ فـتـذـكـراـ

ولم يسمع بقول الأول : زـاهـ مـعـدـاـ لـلـخـلـافـ . الـبـيـتـ . ولا بقول الآخر :

لـنـاـ حـاجـبـ مـوـلـعـ بـالـخـلـافـ كـثـيرـ الـبـرـاءـ قـلـيلـ الـصـرـوـبـ
الـجـعـ لـجـاجـاـ مـنـ الـخـنـفـاءـ وـازـهـىـ إـذـاـ مـاـ مـشـىـ مـنـ غـرـابـ

وقالـواـ : فـلـانـ أـخـلـفـ مـنـ بـوـلـ الـجـمـلـ . ولـذـكـ قـالـ الشـاعـ :

وـأـخـلـفـ مـنـ نـسـوـلـ الـتـبـيـرـ فـيـانـهـ إـذـاـ قـبـلـ الـلـأـقـبـارـ أـقـبـلـ أـذـبـراـ

قال رجل لزهير الباهي : أين نبت المرأة ؟ قال : عند أصحاب الاهواء .
 وقال عمر بن عبد العزيز : من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التقليل . وكان
 عمر بن هبيرة يقول : اللهم إني أعوذ بك من المرأة وقلة خيرها ، ومن اللجاج
 وتندم أهلها . وقال بعض المذكورين : اللهم إنا نعوذ بك من المرأة وقلة خيرها
 وسوء أثره على أهلها ، فإنه يهلك المرأة ويدرك المحبة ويفسد الصداقة
 وب سورث القسوة ويُضرّى على القبح ، حتى يصير الموجز حطلاً والحليم نرقاً
 والدتوقي خبوطاً ، والصدقوق كذوباً . والمرأة من أسباب النصب ، وأقرب ما
 يكون الرجل من غضب الله إذا غضب كما أنه أقرب ما يكترب من رحمة الله إذا
 سجد . لقول الله عز وجل : « واسجده واقترب » .

وقال لقمان لابنه : إياك والمرأة فإنه لا تعقل حكمته ولا تؤمن لهجته .
 وقال آخر : المرأة غبطة والصمت حكمة ، ولو كان المرأة فحلاً والفخر أمّا ما
 ألقها إلا الشر . وقال الشعبي : إني لاستحيي من الحق أن أعرفه ثم لا أرجع
 إليه . وقال ابن عبيدة قال الحسن : ما رأيت ففيها قط يداري ولا يماري ، إنما
 ينشر حكمته فان قبلت حمد الله وإن ردت حمد الله . عن ابراهيم بن
 إسماعيل بن عائذ بن المبارك بن سعيد قال : قال مجاهد : صحبت رجلاً من
 فريش ونحن نريد الحج فقلت له يوماً : هلم نتفاقح الرأي ؟ فقال : دع الود
 كما هو . فعلمت والله أن القرشي قد غلبني . وقال إسحاق الموصلي : كثرة
 الخلاف حرب ، وكثرة المتابعة غش .

[٤ - وصف ساخر لجسم أحمد بن عبد الوهاب المربيع المدور]

بسم الله الرحمن الرحيم : أطبال الله ببقاءك وأتم نعمته عليك وكرامته
 لك . قد علمت حفظك الله أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن
 القامة ، وضخم الهمامة ، وعلى حمور العين ، وجودة القد ، وعلى طيب

الأحداثة ، والصناعة المشكورة ، وأن هذه الأمور هي خصائصك التي بها تختلف ، ومعانيك التي بها تلهج ، وإنما يحسد أباك الله المرء شقيقه في النب ، وشقيقه في الصناعة ، ونظيره في الجوار ، على طارف قدره أو بالد حظه ، أو على كرم في أصل تركيبه ومجاري أعراقه وأنت تزعم أن هذه المعاني خاصة لك مقصورة عليك ، وأنها لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، وأن لك الكل ولناس البعض ، وأن لك الصافي ولهم المشوب . هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا يبلغه . فما هذا الغيط الذي أضحك ، وما هذا الحسد الذي أكمدك ، وما هذا الإطراف الذي قد اعتراك ، وما هذا الهم الذي قد أخناك ؟ وهل رأيت أخسر صفة ولا أوهن قوة من يجري العناق مع الكواطن ، والروائع مع الحواسر ، ومن حاكم من يسالمه ، وجاذب من يقتله ؟ وهل رأيت مكيناً يقلق ومصنوعاً له يسخط ، وهل زدت على أن أطمعت في نفسك ومكنت للشبهة في أمرك ، وأنشأت للخامل ذكرأ وللوبيع قدرأ ؟ إنك لا تعرف الأمور ما لم تعرف أشباهها ، ولا عوائبها ما لم تعرف أقدارها ولن يعرف الحق من يجهل الباطل ، ولا يعرف الخطأ من يجهل الصواب ، ولا يعرف الموارد من يجهل المصادر ! فانظر لم تسالمت النفوس مع تقواط منازلها ، ولم تجذبت عند تقارب مراتبها ، ولم اختلف الكثير واتفق القليل ، ولم كانت الكثرة علة للتخاذل والقلة سبباً للتناصر . وما فرق ما بين العجارة والتحاسد وبين العنافة والتغالب ؟ فإنك متى عرفت ذلك استرحت هنا ورجونا أن نستريح منك ، وكيف يعرف المسبب من يجهل المسبب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول ، وكيف يعرف الحجة من الشبهة والعذر من الحيلة والواجب من الممکن والغفل من الموسوم والمعقول من الموهوم ، والمحال من الصحيح والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية ، وما يعلم ما لا يعلم وما يعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتقداً مما لا يعلم مكيناً وما

يعلم مكينا مما لا يعلم معتقداً ، وما المستغل الذي يجوز أن يفارقه استغلاقه والمستheim الذي لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائر مع العوام حيث طارت وساقط معها حيث سقطت مع الزراعة عليها والرغبة عنها ، قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه وجرى معها بقدر مناسبتها القدرة . فاعرف الجنس من الصنف والقسم من النصف ، وفرق ما بين الذم واللوم ، وفصل ما بين الحمد والشكر وحد الاختيار من الإمكاني والاضطرار من الإيجاب . وسنعرفك من جملة ما ذكرنا بباباً أنت إليه أحوج وهو علينا أرد .

إعلم أن الحسد اسم لما فضل عن المنافسة ، كما أن الجبن اسم لما فضل عن التوقي والبخل اسم لما قصر عن الاقتصاد ، والسرف ما جاور الجود . وأنت جعلت فداك لا تعرف هذا ولو أدخلتك الكبير ونفتحت عليك إلى يوم ينفع في الصور . وهل في الأرض إقرار أثبت أو دليل أوضح أو شاهد أصدق من شاهدي على ما ادعية نفسك من الرفعة مع ما ظهر من حسدك لأهل الضعفة ؟ وهل تكون بعد ذلك إلا فاسد الحس ظاهر العنود أو جاهلا بالمحال .. ٩١ .

وبعد فانت أبقاك الله في يدك قياس لا ينكسر ، وجواب لا ينقطع ، ولذلك حد لا يفل ، وغرب لا يشنى . وهو قياسك الذي إليه تتسبب ومذهبك الذي إليه تذهب ، أن تقول : وما علي أن يراني الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً وأنا عند الله طويل جميل وفي الحقيقة مقدود رشيق ! فقد علموا حفظك الله أن لك مع طول الباد راكباً طول الظهر جالساً ، ولكن بينهم فيك اذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل . ومن غريب ما أعطيت ويديع ما أتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجُفْرَةَ غيرك ، ولا رشيقاً مستفي الخاصرة سواك ! فانت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المقارب . فما شعرا جمع الأعراض وما شعرا جمع الاستدارة والطول ! بل ما يهمك

من أقوابهم ويتغافل عن اختلافهم والراسخون بالفهم
يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الفيم على ارتفاع سماك ، وأن ما
ذهب منك غرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً . ولكن اختلفوا في طولك لقد
اتفقا في عرضك . وإذا قد سلموا لك بالرغم شطراً ومنعوك بالظلم شطراً فقد
حصلت ما سلموا وأنت على دعواك فيما لم يسلموا . ولعمري إن العبرون
لتحظى ، وإن الحواس لتكتذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبابة
الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس . ومما
يُثبت أيضاً أن ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك قول أبي دواد الإيادي
في إيله :

سَمِّنْتُ وَاسْتَخْشَى أَكْرَعْهَا لَا النَّيْ بَنِي وَلَا السَّنَامُ سَنَامٌ

وقول رافع بن هريم :

أَدْقُ شَوَاهِمَا عِنْدَ بَهْرَةِ جَوْفِهَا سَنَامٌ كَفْضِرُ الْهَاجِرِيِّ مُقْرَنْمَدٌ

ولو لم يكن من العجب إلا أنك أول من تعبد الله تعالى بالصبر على
خطا الحسن وبالشكر على صواب الذهن ، لقد كنت في طولك آية للسابلين ،
وفي عرضك مثلا للضالين: وقد تظلم المربع مثل من الطويل مثل محمد ومن
القصير مثل أحد إذ زعم محمد أنه إنما أفرط في الرشاقة ونسب إلى القضاة
لأن إفراط طوله غير الاعتدال من عرضه . وزعم أحد أنه إنما أفرط في العرض
ونسب إلى البغلاظ لأن إفراط عرضه غير الاعتدال من طوله . وكلهما يحتاج
إلى الاعتذار ويفتر إلى الاعتدال . والمربع بحمد الله قد اعتدى أحرازه في
الحقيقة كما اعتدى في المنظر ! فقد استغنى بعزم الحقيقة عن الاعتذار
وبحكم الظاهر عن الاعتدال . وقد سمعنا من يلزم الطوال كما سمعنا من يزري

على القصار ، ولم نسمع أحداً ذم المرسوع ولا أزرى عليه ولا وقف عنده ولا شك فيه ، ومن يذمه إلا من ذم الاعتدال ، ومن يُزري عليه إلا من أزرى على الاقتصاد ، ومن يُنْصِب للصواب الظاهر إلا المعاند ، ومن يماري في العيان إلا الجاهل ! بل من يُزري على أحد بتفاقم التركيب وبسوء التضييد مع قول الله جل ثناؤه « مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَأْوِتٍ » .

وبعد ، فـأـيـ قـدـ أـرـدـيـ وـأـيـ نـظـامـ أـفـسـدـ مـنـ عـرـضـ مـجاـوزـ لـلـفـدـرـ وـطـولـ مـجاـوزـ لـلـقـصـدـ ؟ وـمـتـىـ لـمـ يـضـرـبـ العـرـضـ بـسـهـمـهـ عـلـىـ قـدـرـ حـقـهـ وـيـأـخـدـ الطـولـ مـنـ نـصـيـهـ عـلـىـ مـثـلـ وـزـنـهـ خـرـجـ الـجـسـدـ مـنـ التـقـدـيرـ وـجـاـزوـ التـعـدـيلـ . وـإـذـاـ خـرـجـ مـنـ التـقـدـيرـ تـفـاسـدـ ، وـإـذـاـ جـاـزوـ التـعـدـيلـ تـبـاـيـنـ ! وـلـشـ جـازـ هـذـاـ الـوـصـفـ وـحـسـنـ هـذـاـ النـعـتـ كـانـ لـقـاسـمـ التـعـمـارـ مـنـ الـفـضـيـلـةـ مـاـ لـيـسـ لـأـحـمـدـ بـنـ عـبـدـ الـوـهـابـ . وـهـذـاـ كـلـهـ بـعـدـ أـنـ يـصـدـقـوـكـ عـلـىـ مـاـ اـدـعـيـتـ لـطـولـكـ فـيـ الـحـقـيـقـةـ وـاحـجـجـتـ لـعـرـضـكـ فـيـ الـحـكـومـةـ . عـلـىـ أـنـكـ بـاعـتـلـالـكـ لـمـاـ يـنـفـيـ الـعـيـانـ وـاستـشـاهـدـكـ لـمـاـ تـنـكـرـهـ الـأـذـهـانـ مـتـعـرـضـ لـلـصـدـقـ مـنـ الـمـنـكـرـ وـمـتـحـكـمـ بـالـحـكـمـ مـنـ الـمـتـغـافـلـ ! وـأـيـ صـهـامـتـ لـاـ يـنـطقـ هـذـاـ الـمـذـهـبـ ، وـأـيـ نـاطـقـ لـاـ يـغـرـيـ هـذـاـ القـوـلـ ! وـإـذـاـ كـانـ هـذـاـ نـاقـصـاـ لـعـزـمـ الـمـتـسـلـمـ فـمـاـ ظـنـكـ بـعـادـةـ الـمـتـكـلـفـ ! فـأـنـشـدـكـ اللـهـ أـنـ تـغـرـيـ بـكـ السـفـهـاءـ أـوـ تـنـقـضـ عـزـائـمـ الـحـلـمـاءـ ! وـمـاـ أـدـرـيـ حـفـظـكـ اللـهـ فـيـ أـيـ الـأـمـرـيـنـ أـنـتـ أـعـظـمـ إـثـمـاـ ، وـفـيـ أـيـهـماـ أـنـتـ أـفـحـشـ ظـلـمـاـ ، وـأـبـعـرـضـكـ لـلـعـوـمـ ، وـأـمـ بـاـسـادـكـ حـكـمـ الـخـواـصـ .

وبعد ، فـمـاـ يـحـوـجـكـ إـلـىـ هـذـاـ وـمـاـ يـدـعـوكـ إـلـىـهـ ، وـأـشـبـاهـكـ مـنـ القـصارـ كـثـيرـ ، وـمـنـ يـنـصـرـكـ مـنـهـمـ غـيـرـ قـلـيلـ . وـقـدـ رـأـيـتـكـ زـمـانـاـ تـحـتـاجـ بـالـعـمـانـ بـنـ الـمـنـذـرـ ، وـبـصـمـرـةـ بـنـ ضـمـرـةـ ، وـبـمـجـمـعـةـ بـنـ مـرـادـةـ وـبـمـجـمـعـةـ بـنـ سـعـرـ ، وـبـأـوـفـيـ بـنـ زـرـارـةـ ، وـبـعـدـ اللـهـ بـنـ الـجـارـودـ ، وـبـعـلـبـاءـ بـنـ الـهـيـثـمـ ، وـبـسـعـيدـ بـنـ قـيسـ ، وـبـأـيـ الـبـيـسـ كـعـبـ بـنـ عـمـرـوـ ، وـبـحـسـكـةـ بـنـ عـتـابـ ، وـبـمـخـارـقـ بـنـ غـفارـ ، وـبـعـمـرـانـ بـنـ

جُطْان ، وَبِيُوسْفَ بْنِ عُمَرَ ، وَبِيَاهِىسَ بْنِ مَعَاوِيَةَ ، وَبِيمَنَ بْنِ زَائِدَةَ ، وَبِعَفْسَةَ بْنِ سَلَمَ ، وَبِرَجَالِ نَاهِيكَ بِهِمْ رِجَالًا وَبِأَعْلَامَ كَفَاكَ بِهِمْ أَعْلَامًا .

ورأيتك تقول : إن كان الفضل في النكبة وفي الشدة والصلابة فقصار كل شيء أشد ضرراً وأدق مدخلاً وأظهر قوة وجلاً ، كالهجارة أصلها الحصى ، وكالحيات أقتلها الأفعى ، وكالبعوض أضرها القرقش وكالمعقارب أقتلها الجرارات وكذلك أحرار الطير وبغاثها وصفار البراغيث وكبارها .

وقلت : إن كان الفضل في العدد فمتى يأجوج وماجرج ، ومنا النز والفراس ، ومنا الدعاميص والبعوض ، ومنا الرمل والتراب و قطر السحاب . واحتجت بأن الحسن والفضل لصفار ما في الإنسان كالناظرين والاثنين وحبة القلب وأتم الدماغ . وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه وامتد شخصه أسرع الإنهدام إلى بدنه والإلتحاء إلى ظهره ، وأن القصير لا يتقوس ظهره ولا يميل عنقه ولا يضطرب شخصه ولا تعرج عظامه ، ويسعه كل باب ويقطمه كل ثوب ولا تخرج رجلاته من النعش ولا تفضل عن القراس ، وهو بعد أخف على القلوب وأخلط بالغرس وأبعد من السماحة وأدخل في كل باب ملاحة .

وقلت : وتقول الناس : ما هو إلا فلفلة ، وما هو إلا زنبقة ، وما هو إلا شرارة ، وما لسانه إلا لسان ضبة . وام أزل أراك تقدم العرض على الطول وتزعم أن الأرض لم توصف بالعرض دون الطول إلا لفضيلة العرض على الطول . وذلك كقول الشعرا ووصف العلماء ، وقال الشاعر :

كَأَنْ بِلَادَ اللَّهِ وَهِيَ غَرِيبَةٌ عَلَى الْخَافِقِ الْمَطْلُوبِ كَفَةٌ خَابِلٌ

ولم يقل : كأن بلاد الله وهي طربلة . وقال آخر :

وَفِي الْأَرْضِ لِلنَّمَرِ الْغَرِيبَةُ مَذْهَبٌ

ولم يقل : الطوبية . وقال :

وَلَا تُخْدِنِي بَازَكَ اللَّهُ فِي كُمَا غَلَى الْأَرْضِ ذَاتُ الْعَرْضِ أَنْ تُوَسِّعَا

وقال الراجز :

نَفَطَعَ أَرْضًا وَتَلَاقَيْ أَرْضًا إِنَّ الْبِلَادَ غَلَبَتِي غَرَبَتِي

ولم يقل : طولا . وقلت : لو لا فضيلة العرض على الطول لما وصف الله الحنة بالعرض دون الطول حيث يقول جل ثناؤه : « وجنة عرضها السموات والأرض ». بهذه براهينك الواضحة ولدائلك الظاهرة ، ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم ومن القناعة والإخلاص إلا أنك ترى أن ما عند الله خير لك مما عند الناس ، وأن الطول الخفي أحب إليك من الطول الظاهر ، لكن في ذلك ما يقضي لك بالإنصاف ويحكم لك بالتفيق .

وأنا أباك الله أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسنة ، وأتعلم خصوعك للحق كما أتعلم التفقه في الدين ، ولربما ظنت أن جورك إنصاف قوم آخرين ، وأن تعقدك سماح رجال منصفين ، وما أظنك صرت إلى معارضة الحجة بالشبهة ومقابلة الإختيار بالاصطرار واليقين بالشك واليقنة بالعلم ، إلا الذي خصصت به من إشار الحق وأهمته من فضيلة الإنصاف ، حتى صرت أخرج ما تكون إلى الإنكار أذعن ما تكون بالإقرار ، وأشد ما تكون إلى المحيلة فقرأ أشد ما تكون للحججة طلبا ، إلا أن ذلك بطرف ساكن وصوت خافض وقلب جامع وجأش رابط وبنية حسنة وإرادة تامة مع غفلة كريم وفطنة عليم ! إن انقطع خصمك تفاقت ، وإن خرق ترفقت ، غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حسود ولا منافق ولا مغالب ولا معاقب ، تغل العز وتتصيب المفصل وتقرب البعيد وتظهر الخفي وتتميز الملتبس وتخلص المشكل ، وتعطي المعنى حقه من اللفظ كما تعطي

اللفظ حقه من المعنى ، وتحب المعنى إذا كان حيًّا يلوح وظاهرًا يصبح ، وتبغضه إذا كان مستهلكًا بالتعقيد ومستورًا بالتأريخ . وتزعم أن شر الألفاظ ما أغرق المعاني وأخفاها وأسرها وعُمِّها وإن راقت سمع الفُنُر واستمالت قلب الريض . واعجب الألفاظ عندك مارق وعدب وخف وسهل وكان موقوفاً على معناه ومقصورةً عليه دون ما سواه ، لا فاضل ولا مقصر ولا مشترك ولا مستغلق ، قد جمع خصال البلاغة واستوفى خلال المعرفة . فإذا كان الكلام على هذه الصفة والف على هذه الشريطة لم يكن اللفظ أسرع إلى السمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالسائل والمتعلم كالمعلم ، وخفت المؤنة واستغنى عن الفكرة وماتت الشبهة وظهرت الحجة ، واستبدلوا بالخلاف وفأنا وبالمجاذبة موادعة ، وتهنموا بالعلم وتشفوا ببرد اليقين واطمأنوا بثلج الصدور؛ وبأن المنصف من المعاند وتميز الناقص من الوافر وذل المخطلل وعز المحصل . وبدت عورة المبطل وظهرت براءة المحق .

وقلت : والناس وإن قالوا في الحسن : كأنه طاقة ريحان ، وكأنه خوط بان ، وكأنه قضيب خيزران ، وكأنه غصن بان ، وكأنه رمح رديني ، وكأنه صفيحة يمانية ، وكأنه سيف هندواني ، وكأنها جان ، وكأنها جدل عنان . فقد قالوا . وكأنه المشتري ، وكان وجهه دينار هرقلي ، وما هو إلا البحر ، وما هو إلا الغيث وكأنه الشمس ، وكأنها دارة قمر ، وكأنها الزهرة ، وكأنها درة ، وكأنها غمامه ، وكأنها مهأة . فقد تراهم وصفوا المستدير والمربيض بأكثر مما وصفوا به القضيب والطويل :

وقلت : وجدنا الأفلاك وما فيها والارض وما عليها على التدوير دون التطويل ، وكذلك الورق والتتر والحب والثمر والشجر .

وقلت : والرميغ وإن طال فإن التدوير عليه أغلب ، لأن التدوير قائم فيه موصولاً ومفصلاً ، والطول لا يوجد فيه إلا موصولاً . وكذلك الانسان وجميع

الحيوان .

وقلت : ولا يوجد التربيع إلا في المصنوع دون المخلوق ، وفيما أكره على تركيه دون مالاً خلي وسوم طبيعته ، وعلى أن كل مربع ففي جوفه مدور . فقد يان المدور بفضله وشارك المطرول في حصته . ومن العجب أنك تزعم إنك طويل في الحقيقة ثم تحتاج للإشارة والعرض ، فقد أضربت عما عند الله صفحأ ، ولهاجت بما عند الناس . فأما حور العين فقد انفرد بحسنه وذهب بيدهاته وملحه ، إلى ما أبانك الله به من الشكلة فانها لا تكون في اللثام ولا تفارق الكرام . وقال الشاعر :

وَلَا غَيْبٌ فِيهَا غَيْرَ شُكْلَةٍ عَيْنَهَا كَذَلِكَ عَيْنَاقُ الطَّيْبِ شُكْلَ عَيْنَهَا
وقال آخر :

وَشُكْلَةٌ سَيِّنٌ لَوْ حُبِيتَ بِيغْضِبَهَا لَكُنْتَ مَكَانَ النُّجُمِ مَرْأَى وَمَسْمِعًا
فَأَمَا سُوادَ الناظر وَحْسَنَ الْمَحَاجِرِ وَهَذِبَ الْأَشْفَارِ وَرَقَةَ حَوَاشِي الْأَجْفَانِ ،
فَعَلَى أَصْلِ عَنْصَرِكَ وَمَحَاجِرِي أَعْرَاقِكَ . وَأَمَا إِدْرَاكِكَ الشَّخْصِ الْبَعِيدِ وَقِرَاءَتِكَ
الْكِتَابِ الدَّقِيقِ وَنَقْشِ الْخَاتِمِ قَبْلِ الْطَّبِيعِ وَفَهْمِ الْمَشْكُلِ قَبْلِ التَّأْمِلِ ، مَعَ وَهْنِ
الْكَبِيرِ وَتَقادِمِ الْمِيَلَادِ ، وَمَعَ تَخْوُنِ الْأَيَّامِ وَتَنْقُصِ الْأَزْمَانِ ، فَمَنْ تَوْتِيَاهُ الْهَنْدِ
وَتَرْكُ الْجَمَاعِ ، وَمِنْ الْحَمْيَةِ الشَّدِيدَةِ وَطُولِ اسْتِقْبَالِ الْخَضْرَةِ . فَأَنْتَ يَا عَمْ
حِينَ تَصْلِحُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ وَتَسْتَرْجِعُ مَا أَخْذَتَ مِنْكَ الْأَيَّامِ ، لَكُمَا قال الشاعر :
عَجُوزٌ تُرْسِمُ أَنْ تَكُونَ فَتِيَّةً وَقَدْ لَحَبَ الْجَنْبَانَ وَأَخْدَوْذَبَ الظَّهَرَ
تَدْسُ إِلَى الْمَطَارِ مِنْرَأَةَ اغْلِيَّهَا وَهَلْ يُضْلِعُ الْفَطَارُ مَا أَفْسَدَ الدَّهْرُ

[٣ - مراء احمد بن عبد الوهاب]

وكيف أطمع في نُروِّعك عن اللجاج وقد سقيته قبل المحاج ، وكيف

أرجو إقرارك جهراً وقد أبىته سراً ، وكيف تجود به صحيحاً مطمعاً وقد بخلت به مريضاً مؤيضاً ، وكيف يرجو خيرك من يراك تطاول أبا جعفر وتخاشنه وتتافره وتراهنه ، ثم لا تفعل ذلك إلا في المحافل العظام وبحضرة كبار الحكماء ، ثم تستغرب ضحكتها من طمعه فيك وتعجب الناس من معجازاته لك ، وأشهد لك بعد هذا أنك ستخاشن عمرو بن بحر وتعاقله ثم تظارفه وتطاوله ، وتنفي مع مغارق وتنكر فضل رُزْرُور ، وتستجهل النظام و تستبرد الأصماع ، وتستغبني قيس بن زهير ، وتستخف الأخفاف ابن قيس ، وتبازز أبا الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه . ثم تخرج من حد الغلبة إلى حد المراء ، ومن حد الأحياء إلى حدود الموتى ! هذا وليس لك مساعد ولا معك شاهد واحد ولا رأيت أحداً يقف في الحكم عليك أو يتذكر تحقيق دعواك ، ولا رأيت مبصراً يخليك من التأنيب ، ولا مؤيناً يخليك من الرعيد ، ولا متوعداً يخليك من الإيقاع ، ولا موقعاً يرثي لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

[٤ - المزء من كبر من احمد بن عبد الوهاب]

يا عム لم تحملنا على الصدق ، ولم تجر عنا مرارة الحق ، ولم تعرضا لأداء الواجب ، ولم تستكثر من الشهود عليك ، ولم تحمل الأخوان على خلاف محبتهم لك ؟ إجعل بدل ما تجيئ على نفسك أن تجيئ على عدوك ، وبدل ما تضطر الناس إلى أن يصدقوا فيك أن تضطرهم إلى أن يمسكوا عنك . ولا بد يرحمك الله لمن فاته الطول من أن يلقي بيده أو من أن يقول بخلاف ما يجده في نفسه . فواش إنك لجيد الهمامة ، وفي ذلك خلف من حسن القامة ، وإنك لحسن الحظ ، وفي ذلك عوض من حسن اللفظ ، وإنك لقليل الشيب قليل البول ، وإنك لتجد مقالاً ، وإنك لتعذر خصالاً . فقل معرفنا فإننا من أعزوانك ، وأقصد فإننا من أنصارك ، وهات فانك لو أسررت لقلنا قد اقتصرت ، ولو جررت لقلنا قد اهتدت . ولكنك تجيء بشيء : ﴿ تَكَادُ

السموات ينقطرون منه وتنشق الأرض وتخرُّ الجبال هنَّا) ولو غششناك لساعدناك ، ولو نافتناك لأغريناك ، ولربما عذرتك ولاز جانبي لك فأقول : خرف الشيخ إذا كان جاداً ، وعبت إن كان هازلاً . وقد يجعل الخرف إلى أحدث منك سنًا وبطيء عن أطول منك عمرًا . بل من هذا الذي يعد من السنين ما تعد وبلغ من الكبر ما بلغت ؟ وعنده من يدرك هذا العلم إلا عند النجوم أو عند إيليس الرجيم ، بل من يعرف ذلك إلا فاطر السموات والأرض . لو عرفت عقاب خطفة ونسور السراة وأحتاش الرمل وغير العانة وورشان الغابة وشيخ اليمامة وهو مي فرغانة ، إنك لا تعد عمر نوح عمراً ولا النجوم يوماً ، وإنك قد فت التاريخات وجزت حساب الباورات واستقللت الأحباب وخرجت من خطوط الهند لما استطاعت بأعمالها ولا فرحت ببطول أيامها ! فيا قعيد الفلك كيف أمشيت ، ويا قوة الهيولى كيف أصبحت ، ويا نسر لقمان كيف ظهرت ، ويا أقدم من دوس ويا أسن من أبد ويا صفي المثفر ويا صاحب المستند .

[٥ - أسئلة على الطوفان]

حدثني كيف رأيت الطوفان ، ومنى كان سبل العرم ، ومذ كم مات عوج ، ومنى تبليت الألسن ، وما حبس غراب نوح ، وكم لبثم في السفينة ، ومذ كم كان زمان الخنان ويوم السلان ويوم خزار ووقعة البيداء . هيئات ! أين عاد وتمود ، وأين طشم وجديس ، وأين أميم ووبار ، وأين جرهم وجاسم ، أيام كانت الحجارة رطبة فإذا كل شيء ينطق ، ومذ كم ظهرت الجبال ونضب الماء عن اللحف ، وأي هذه الأودية أقدم ، أنهى بلخ أم النيل أم الفرات أم دجلة أم جيحان أم سيحان أم مكران ، وأين تراب هذه الأودية ، وأين طين ما بين سفوح الجبال إلى أعلىها ، في أي بحر كبست وفي أي هبطة شحت ، وكم نشأ لذلك من أرض وحدث من عين ؟

جعلت فدالك ، من أبو جرهم ، ومن رهط الدجال ، وهل تعرف له
شبيها ؟ أين طويس ، وما قصة ابن صائد ، ومن سوشى المنتظر . وخبرني
عن هرمون فهو إدريس ؟ وعن أرميا فهو الخضر ؟ وعن يحيى بن زكرياء فهو
إيليا ؟ وعن ذي القرنين فهو الإسكندر ؟ ومن أبوه ومن أمه ، ومن قبرى
وعيسى ، ومن جلندى ، ومن أولاد الناس من السعالى ، وما الحوش من
الابل ، وخبرني عن قحطان ، العابر هو أم لإسماعيل . وعن قضاعة ،
المقدى بن عدنان أم لمالك بن حمير . ومتى تخزعت خزانة ، ومتى طوت
المناهل طي ، ومن ابن بنصر ، وما تلك السبيل ، وما قصة الزهرة ، وما شأن
سهيل ، وما القول في هاروت وماروت ، وما شأن الإريانية ، وما قصة الفارة
وحرم الوزغة ، وما إحسان الحمام ، وما نفريط العظامية ، وما خصب
الضفادع ، وما تسبح الصرد ، وما عداوة ما بين الذيك والغراب ، وما صدقة
ما بين الجن والأروية ، ومن أين لها الماء ، وما بلغ من عقل الهدى ، وأين
قبر أمه ، ولم تنت ريحه .

وخبرني عن الأمة التي مسخت ثم فقدت ، من كانت وإلى أي شيء
صارت ! أخذت براً أم بحراً ؟ فإن كانت بحرية فهي الجريء ، وإن كانت
برية فهي القباب ؟ وما آوى ، وما حُبِّن ، وما عُرس ، وما اُوسر ، وما
وردان ، وما قصة الطرائث ، وما سبب كون السنافير ، وما عملة خلق الخنزير ،
وكيف اجتمع في الذبابة سم وشفاء ؟ وكيف لم يقتل الأفعى سهما ، وكيف لم
بحرق الشمس ما عند فرصلها .

وخبرني عن الأبدال ، أهم اليوم بالعرج أم ببيان أم كما كانوا متعرفين ،
وخبرني أكلهم موال أم كلهم عرب أم هم أخلاق ، وما فعل صاحب إنطاكية

ولم أقيم سليمان بعد بلال ، ومن جعل بعد سليمان ، ومن عثائرهم وأين دورهم وأين أهلهم ، وكيف لم يتقدموهم ويتقددوهم ، وكيف صارت بيسان لسان الأرض يوم القيمة ! وكيف صارت كبد الحوت أول طعام أهل الجنة ، ولم تسمى نونا ، وهل الرجفة من حركته ، وهل الزلزلة من تنقله ، وما الخسف ، وكيف شاهدت المسخ على طول الأيام ، انقلب خلقهم أم صار ذلك ضربة واحدة ، وهل عاشوا أم أبلسوا أم تركوا ثلاتا ثم أبظروا ، وهل كانوا يتعارفون بعد المسخ ويعرفون بعض ما قد نزل بهم بعد القلب .

وخبرني عن بحار بنطس ، وعن قبيس وعن الأصم وعن المظلم ، وعن جبل الماس ، وعن الباكى ، وعن قاف ، وأين كنت عام الجحاف ، ومذ كم كان زمن البطلُل ، وأين كان ملك الأزد ، وأين كان من ملك الإشكان ، وأين كان من ملك بني سasan ، وأين كان خره أردشير من استاشف ، وأين كان أبرويز من أتو شروان ، وأين جذيمة من تبع ، وأين الفتيجت من بلهره ، وأين بغيور من فيصر . وخبرني عن الفراعنة ، أهم من نسل العمالقة ؟ وعن العمالقة أهم من قوم عاد . وخبرني أهم من عاد الأولى أو من عاد الأخرى ؟ وخبرني عن عطارد الهندي وجوابه لعطارد السماوي حين هط إليه من فلكه ، وهل جرى بينهما إلا ما سمعنا ومذ كم كان ذلك .

وخبرني : كيف كان أصل الماء في ابتدائه في أول ما أفرغ في إنسانه ، أكان بحراً أجاجاً استحال عذباً زلالاً ، أم كان زلالاً عذباً استحال أجاجاً بحراً ؟

خبرني : كيف صار الماء أبعد من الفلك ولا يكون إلا في يطن الأرض ، وهو أشبه بالهواء كما أن الهواء أشبه بالنار ، وكيف يكون أحق بالوسط والأرض أبعد من سبة الفلك ، وكيف طمع جعلت فدالك الدهري في مسألة العلة والمطرقة وفي البيضة والدجاجة ، مع تقادم ميلادك ومرور الأشياء

على بدنك ، وكيف كان بده امر البد في الهند ، وعبادة الأصنام في الأمم ،
وقصة عمرو بن لحي في العرب .

وخبرني عن غنّاق بنت آدم ، وعن ميسرة ومسرة ، وعن مهنة ومهنية ،
وعن بهيا وطبيعا ، ومذ كم عمرت جزيرة العرب ، ومذ كم بادت يونان ، وعن
فصل ما بين السندي الهندي ، والهندي والميد ، وعن جميع من هلك بالرُّعاف ،
وعن من أفناهم النمل ، وعن من أجحف بهم السيل ، وعن أصحاب النعمان
كم صفهم ، وما تقول في الرجم السماوي أكان من عظام البرد أم كحجارة
الطير الأبابيل التي خلقت من سجيل ؟

[٧ - أسئلة طبيعية]

وخبرني : عن معنى الفرات على حقه وصدقه ، وعن نضوب البحر ،
وعن تنقص الأرض ، لم عمل الفلك في هذا العالم وليس بينهما شبه ا وهلا
عمل في بقدرة منه ، وهل يجوز أن يعمل شيء في شيء إلا والأخر يعمل
فيه . وخبرني : مذ كم كان الناس أمة واحدة ولغاتهم متساوية ، وبعد كم بطن
أسود الزنجي وايضاً الصقلي ، ولم صار اللون أسرع تنقصاً من الجمود ، ولم
كان الولد يجيء على شبه ما في أبيه من الأمور الحادثة في بدنها غير القديمة
في أصل تركيبه ، ومع ذلك لم يولد صبياً قط في العرب مجسداً ، وما هذه
الخاصة التي منعت من هذا المعنى ؟ . وفي كم نمت لكل فرقة بعد التبليل
لعنها واستفاضت لسانها .

[٨ - أسئلة على علم الحياة]

خبرني : جعلت فداك ، أيما أطول عمرًا : الناس أم غير العانة أم الحية

أم الضب ، ومتى تستغنى الحبة عن الغذاء ، ومتى ينتفع الضب بالثنين ، ومتى ينقطع السر عن المفad ، وكيف صار البغل لا ينسى وهو ولد الرملة من العبر ، وكذلك **السمُّ** لا ينسى وهو ولد الضبع من الذئب ، والرابع ينسى وهو ولد الحمام من الورشان ، والبُخْتَي ينسى وهو من ولد [الغراب] من الغوالج ، ولم يسمع في الظللف إذا اختلفت ولم يسمع في المحافر ولا في المخف إذا اختلف . وخبرني عن الزرافة أمن ولد الناقة أم من الضبع ، وعن الشبُوط أمن ولد **البُني** من الزجر . وخبرني : ما عنقاء مُغرب وما أبواها وما أنها ، وهل خلقت وحدها أم من ذكر وأنثى ، ولم جعلوها عقيماً وجعلوها أنثى ، ومتى تمهد لذلك الصبي ، ومتى نظر بجناحها شيعة الإمام ، ومتى يلقى في فيها اللجام ، ومتى يباع له الكبريت الأحمر ويساق إليه جبل الماس .

وخبرني عن بناء سور **الأبلة** وعن حير الحيرة ، ومن أنشأ بيان مصر ، ومن صاحب كربنداد ومدينة سمرقند . وخبرني : عن البناء الذي يضاف بالمدائن إلى سام ، أهوا لسام ؟ وعن تدمير أهوا لسليمان ! وأين ملك أخاذ بن عمري من ملك نمرود الخاطيء ، وأين وقع ملك ذي القرنين من ملك سليمان .

وقد كنت أطال الله بقائك في الطول زاهداً وعن القصر راغباً ، وكانت أمدح **المرربع وأحمد الاعتدال** ، ولا والله أن يقوم خير الاعتدال بشر قصر العمر ، ولا جمال المرربع بما يفوت من منفعة العلم ، فاما اليوم فيما ليبني كنت أقصر منك وأضورى ، وأقل منك وأقمعى ، وليس دعائى لك بطول البقاء طلباً للزيادة ، ولكن على جهة التبعد والاستكانة ، فإذا سمعتني أقول أطال الله بقائك ، فهو هذا المعنى أريد ، وإذا رأيتني أقول لا أخلى الله مكانك ، فإلى هذا المعنى أذهب . وقد زعموا جعلت فداك أن كل ما طال عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان وفي طول العمر وصحة الأبدان ، كالورشان ، والضباب ، وحمر

الوحش ، وكلحم النسر لمن أكله ، ولحم الجبة لمن استحله ، فإن كان هذا الأمر حقاً وكان هذا العلاج نافعاً و كنت له مستعملاً وفيه متقدماً وتراء رأياً وإن كنت عنه غنياً ، أحذنا منه بنصيب وتعلقنا منه بسبب . وكيف لي بذلك وأنا صغير الأذن وأذنك أذن أبي سهيل ، وأنا دقيق العنق وعنفك عن قاسم التمار ، وأنا صغير الرأس ورأيك رأس جالوت ، وفيك أمران غرييان وشاهدان بديغان : جواز الكون والفساد عليك ، وتعاون النقصان والزيادة إياك . جوهرك فلكي وتركيبك أرضي ، ففيك طول البقاء ومعك دليل الفناه . فأنت علة للمنتض . وسب للمنتافي . وما ظنك بخلق لا تضره الإحالة ولا يفسده التناقض .. !؟

جعلت فداك ما لفني منك الذهب ، وأي بلاء دخل بك على الخمر ،
كانا يتيهان بطول العمر وبيهجان بقاء الحسن وبأن الدهر يحدث لهما الجدة
إذا أحدث لجميع الأشياء الخلقة ، فلما أربى حستك على حسنهما و عمر طول
عمرك أعمارهما ذلا بعد العز وهاتا بعد الكرامة ، ومالـي فيك قول إلا قول
الاعرابي حين ضل الطريق في الظلمة فلما عرف قصده عند طلوع القمر رفع
رأسه شاكراً وهو يقول : ما أقول ! أقول رفعك الله وقد رفعك ، أم أقول
جملك الله وقد جملك ، أم أقول عمرك الله وقد عمرك ؟ .. ولكن أقول :
وهل أنطق إن نطقت إلا رجيناً ، وأقول ما قلت إلا لنفوا . وقد زعم ناس من
يتحل الاعتبار ويتغطى الحكمة ويطلب أسرار الأمور أنه ليس شيء مما يسكن
الإنسان في منزله وربعه وفي داره وموضع مقلبه إلا والإنسان يفضله في طول
العمر وفي البقاء على وجه الدهر ، كالحمام والدجاج والستانير والكلاب والبقر
والغنم والحمير والخيول والجواميس والابل . وزعموا أن أقصرها أعماراً
العصافير ، وأن أطوالها أعماراً بالغال ، وأن العلة في طول بقاء البفل قلة
السفاد ، وفي قصر عمر العصافير كثرة السفاد . وأن مما يقضي بهذه العلة
ويثبت هذه القضية ما يعم الخصيان من طول العمر ، ويعم الفحولة من قصر

العمر . وما أرى حفظك الله بهذه القياس بأساً في ظاهر الرأي وما أجده بعيداً في أغلبظن ، ولو كنت أقل ذلك علمـا وأعلمـه يقيناً لكان أحـب الأمور إلى أن يكون لي فيه سـلف صـدق وإمام لا يغـلط ، وأن أحـكيـه عن مـعـدل وأـسـنـدـه إلى مـقـنـع ! فـقل نـسـمـع وأـشـرـتـبع !

يعجـبني - جـعلـتـ فـدـاكـ . منـكـ بـغـضـ الشـهـرـةـ وـدـبـيـكـ فيـ غـمـارـ الحـشـرـيـةـ استـغـنـاءـ بـنـفـسـكـ ، وـصـوـنـاـ لـقـدـرـكـ ، وـعـرـفـةـ بـمـاـ أـعـطـيـتـ ، وـثـقـةـ بـالـذـيـ أـوتـيـتـ . وـمـاـ أـقـلـ بـحـمـدـ اللهـ ماـ سـبـقـكـ بـهـ إـبـلـيـسـ ، وـمـاـ أـيـسـرـ ماـ فـاتـكـ بـهـ آـدـمـ . فـزـادـ اللهـ شـاـكـرـكـ نـعـمـةـ وـنـاصـرـكـ عـزـةـ . وـقـدـ ذـكـرـتـ السـرـوـةـ فيـ المـعـمـرـيـنـ وـصـنـعـتـ فيـ ذـلـكـ أـخـيـارـاـ ، وـلـمـ نـجـدـ عـلـىـ ذـلـكـ شـهـادـةـ قـاطـعـةـ وـلـاـ دـلـالـةـ قـائـمـةـ ، وـلـاـ نـقـدـ عـلـىـ رـدـهـاـ بـجـواـزـ مـعـنـاهـاـ ، وـلـاـ عـلـىـ تـبـيـتهاـ إـذـ لـمـ يـكـنـ مـعـهـاـ دـلـيلـ يـثـبـتهاـ ، وـقـدـ تـعـرـفـ مـاـ فـيـ الشـكـ مـنـ الـحـيـرـةـ ، وـمـاـ فـيـ الـحـيـرـةـ مـنـ القـلـقـ ، وـمـاـ فـيـ القـلـقـ مـنـ النـصـبـ ، وـمـاـ فـيـ النـصـبـ مـنـ طـولـ الـفـكـرـةـ وـمـاـ فـيـ طـولـ الـفـكـرـةـ مـنـ الـوـحـشـةـ ، وـمـاـ فـيـ طـولـ الـوـحـشـةـ مـنـ التـعـرـضـ لـلـوـسـاوـسـ وـالـخـفـقـةـ وـمـاـ فـيـ إـتـعـابـ الـقـلـبـ وـإـنـضـاءـ الـنـفـسـ مـنـ كـلـالـ الـحـدـ ، وـمـاـ فـيـ إـلـلـاحـ مـنـ دـوـاعـيـ الصـسـجـرـ ، وـمـاـ فـيـ الجـهـلـ مـنـ النـصـ ، وـمـاـ فـيـ نـزـاعـ الـنـفـسـ مـنـ الـكـدـ . فـاقـنـعـ لـبـيـنـكـ بـاـبـاـ نـفـتـرـحـ إـلـيـهـ ، وـأـقـمـ لـهـ عـلـمـاـ نـقـفـ عـنـهـ . فـقـدـ عـلـمـتـ مـاـ ذـكـرـواـ مـنـ عـمـرـ نـابـغـةـ بـنـيـ جـعـلـةـ ، وـمـالـكـ ذـيـ الرـقـيـةـ ، وـنـصـرـ بـنـ دـهـمـانـ ، وـابـنـ بـقـيـةـ الـفـسـانـيـ ، وـالـرـبـيـعـ بـنـ ضـبـيعـ ، وـدـوـيـدـ بـنـ نـهـدـ . وـأـنـتـ أـبـقـاـكـ اللهـ تـعـرـفـ مـيـلـادـ آـبـانـهـ وـاجـدادـهـ وـقـبـائـلـهـ وـعـمـائـلـهـ وـأـصـوـلـهـ وـأـجـدـامـهـ ، فـخـبـرـنـيـ أـكـذـبـواـ أـمـ صـدـقـواـ ، أـمـ اـقـتصـدـواـ أـمـ أـسـرـفـواـ .

فـأـمـاـ مـاـ روـواـ لـأـجـسـامـ النـاسـ مـنـ الطـولـ وـالـعـرـضـ ، وـثـبـتوـاـ لـهـمـ مـنـ السـمـنـ وـالـعـظـمـ وـالـضـخـمـ سـوـىـ مـاـ نـطـقـ بـهـ الـكـتـابـ عـنـ أـجـسـامـ عـادـ ، فـالـشـاهـدـ عـلـىـ كـذـبـهـ حـاضـرـ ، وـالـدـلـيلـ عـلـىـ فـسـادـ عـقـولـهـ ظـاهـرـ ، كـالـذـيـ رـأـيـناـ مـنـ أـقـدارـ سـبـوـفـ الـأـشـرـافـ وـأـزـجـةـ رـمـاحـ الـفـرـسـانـ ، وـكـتـيجـانـ الـمـلـوـكـ الـتـيـ فـيـ الـكـعـبـةـ ، وـكـضـيقـ أـوـبـهـ وـقـصـرـ سـمـكـ عـتـبـ درـجـهـمـ فـيـ قـصـورـهـمـ الـعـادـيـةـ وـمـدـنـهـمـ

الْمُنْتَهِيَّةِ ، ويدل على ذلك الجُرُون التي كانت مقابرهم وأبواب مدافنهم في بطون أرضيهم وشقق جبالهم ومطاميرهم ومواضع قناديل كنائسهم ومجالسهم وبيوت عبادتهم ولغاياتهم من قمم رؤوسهم . ولو حضرنا من الشواهد على ما ادعوا من اعمارهم مثل الذي حضرنا من الشواهد على نكذيبهم في طول قاماتهم إذاً لما عينناك ولا ابتدئناك ، وعلى أنه لو كان السبب في طول قاماتهم وضخم أبدانهم تقادم ميلادهم وحدة قوة الأرض قبل أن تخلق وشياها قبل أن تهرم ، لكان ينبغي لمن كان قبلهم أن يكون أعظم منهم ، ولكن نقصان من بعدهم من يلي عصرهم ومن يلي أولئك على حساب ذلك .

[٩ - استلة على الآثار القديمة]

وخبرني أباك الله من كان باني ريم ، ومن أنشأ كعبية نجران ، ومن صاحب غُمدان ، ومن باني تدمر ، ومن صاحب الهبرمين ، ومن ذكركم بنيت مأرب ، وأين كان الأبلق الفرد من المشقر ، وأين قصر النوبهار من قصر سداد ، ومن صاحب عرقوق ولم قضيت جعلت فذاك لخَمْة الإيادية على بنت العُس ولابن شريعة على شَيْءٍ وللنخار على ابن النطاح ، ولابن الكيس على ابن لسان المُحْمَرَة ؛ وأين كانت الزباء من ملكة سبا ، وأين خاتون من سوران ، وأين جُندى من أسياد ، وأين حذيم من أفعى ، وأين كان لقيم من لقمان ، وأين كان كُوز بن علقمة من مُجَزِّز المدلجي . وأين كان رافع المخش من دعيبيص الرمل ؟ .

[١٠ - استلة على الأقاليم والسكان]

وخبرني عن عظامة أقاليم الغراب وعن خلاء شق الجنوب ، لذلك قائم مذ دار الفلك وكان النمو ، أو الدول بينهما مقسمة والأيام عليهما موقوفة ا ولم

قدمت إقليم دوس على إقليم بابل . وخبرني عن الشهـب أن تكون نهاراً أم تكون
ليلـا ، ولم قدمت الروم في الصنعة على أهل الصين ، ولم قدمت تـبتـ على
الزابـج ، ولم فضلت السـكون على الحـرـكة ، ولم جعلـت السـكـون فـسـادـا
والافتراق اجـتمـاعـاً ؟ قد وجـدتـكـ جـعـلـتـ فـدـاكـ خـفـتـ أنـ تكونـ ابنـ صـائـدـ ،
ورجـوتـ أنـ تكونـ الدـجـالـ ، ولـعـلـكـ دـابـةـ الـأـرـضـ ، وماـ أـدـريـ لـعـلـكـ سـوـشـيـ !
ولـستـ بـحـمـدـ اللهـ الخـضرـ . والـذـيـ لـاـ أـشـكـ فـيـ أـنـكـ غـيرـ المـسـيـحـ ، وأـظـنـ
روـحـكـ رـوـحـ شـيـقرـةـ بـلـ رـوـحـ بـلـعـذـبـونـ ، بـلـ رـوـحـ دـلـلاـ ، وـأـنـكـ الـأـرـكـونـ
المـتـنـظرـ .

[١١ - اسئلة على الاوثان]

واـحـتـمـلـ لـيـ مـسـأـلـةـ وـاحـدـةـ وـلـاـ أـعـودـ وـسـاجـعـلـهاـ طـوـيـلـةـ وـلـاـ لـزـيدـ . : كـمـ بـينـ
وـدـ وـسـوـعـ وـيـغـوـثـ وـيـعـوـقـ ، وـبـيـنـ هـنـاءـ وـالـعـزـىـ وـالـغـبـرـ وـعـائـمـ ، وـبـيـنـ مـنـافـ وـنـهـمـ
وـسـعـدـ وـمـنـهـ ، وـمـذـ كـمـ تـكـحـ أـسـافـ نـائـلـةـ ، وـمـذـ كـمـ مـسـخـاـ فـيـ الـكـعـبةـ ؟ وـخـبـرـنيـ
عـنـ بـرـهـوتـ وـبـلـهـوتـ ، وـعـنـ الجـابـيـةـ وـمـوـضـعـ الطـاغـيـةـ ، وـعـنـ سـيفـ الصـاعـقةـ ،
وـمـنـ أـلـقـيـ ذـلـكـ إـلـىـ الرـافـضـةـ ، وـمـاـ كـانـ مـاـلـ قـارـوـنـ ، وـمـاـ كـانـ كـتـزـ النـطـفـ ، وـلـنـ
كـانـ الـبـلـيـهـ ، وـمـاـ قـرـطـ مـارـيـهـ ، وـمـاـ أـصـلـ مـالـ اـبـنـ جـدـعـانـ وـكـيـفـ كـانـ مـشـورـةـ
أـمـهـ . وـخـبـرـنيـ عـنـ ذـلـكـ الـمـالـ الـذـيـ مـنـ أـخـذـ مـنـهـ نـدـ وـمـنـ تـرـكـهـ نـدـ .

[١٢ - اسئلة على الفراسة ومعرفة الغيب والرئيـ]

جـعـلـتـ فـدـاكـ قـدـ شـاهـدـتـ إـلـيـسـ مـذـ خـلـقـواـ ، وـرـأـيـتـ الجنـ قـبـلـ أـنـ
يـحـجـبـواـ ، وـوـجـدـتـ الـأـشـيـاءـ بـنـفـسـكـ خـالـصـةـ وـمـزـوـجـةـ وـأـغـفـالـاـ وـمـوـسـومـةـ وـسـالـمـةـ
وـمـدـخـولـةـ ، فـمـاـ تـخـفـيـ عـلـيـكـ العـجـةـ مـنـ الشـبـهـ ، وـلـاـ السـقـمـ مـنـ الصـحـةـ ، وـلـاـ
الـمـمـكـنـ مـنـ الـمـمـتـعـ ، وـلـاـ الـمـسـتـفـلـقـ مـنـ الـمـسـتـبـمـ ، وـلـاـ النـادـرـ مـنـ الـبـدـيـعـ ، وـلـاـ

شبه الدليل من الدليل . وعرفت علامة الثقة من علامة الريبة ، حتى صارت الأقسام عندك محصورة ، والحدود محفوظة ، والطبقات معلومة ، والدنيا بحذافيرها مصورة ، ووجدت السبب كما وجدت المسبب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الإحتجاج ، وشاهدت العلل وهي تولد والأسباب وهي تصنع ، فعرفت المصنوع من المخلوق ، والحقيقة من التمويه . فما تقول في الرثي وما تقول في الرؤيا ، وما تقول في أكسير الكيمياء ، وما تقول في كيموس الصنعة وما تقول في الزجر ، وما تقول في الغرامة ، وما تقول في الفساد ، وما تقول في الطيرة وما تقول في نمت الطلم ؟ وما تقول في معنى البركة ، وما تقول في النجوم ، وما تقول في الخيلان ، وما تقول في أسرار الكف ، وما تقول في النظر في الأكتاف ، وما تقول في قرض الفأرة ، وما تقول في إلحاچ الخففاء ، وما تقول في دواائر الرأس ، وفي اوضاح الخيل ، وفي النمس والسنور ، وفي الدبik الأفارق والسنور الأسود ، وفي البول في التفق ، وفي الإطلاع في عادي الابار ، وفي النوم بين البابين ، وما تقول في التميمة وفي الرتيمة وفي تعلق كعب الأربب ، وفي حلى السليم ، وفي البلايا والولايا ، وما تقول في الهم والاستمطار بالسلع والعشر ، وما تقول في شق البرقع ، وفي بدر الرداء ، وفي كي الصحيح عن ذي الغر ، وفي فن العين للسوف وفي نزع المسر للعارة ، وما تقول في الأمر والناهي والمتربيص ، وفي الطبع والقعيد والسانح والبارح ، وما تقول في وطء المقلات للقتلن ، وفي دماء الملوك للكلبي ، وما تقول في صرع الشيطان ، وفي تلون الغيلان ، وفي عزيف الجنان ، وفي ظهر العمار ، وفي طاعتهم للعزائم ، وفي رئي المأمور الحازني وعنيبة بن العمارت البربوسي وما فصل ما بين العراف والكافر والحازي والمتبع ، وما تقول في تحول إبليس في صورة سراقة المدلنجي وفي صورة الشيخ التجدي ؟ وخبرني عن شنقاف وشيبان . وعن سملقة وزوبعة ، وعن المذهب والصلة وعن برکوپر ودرکاذاب ، وأين كان مسلح شيطان الأعشى من عمرو شيطان المنخل ؟!

قد والله عافانا الله بك وابتلى ، وأنعم بك وانتقم ، فدحًا لمن زهد فيك
وسقياً لمن رغب إليك وويل لمن جهل فضلك ، بل الويل لمن انكر فضلك .
إنك جعلت فداك كما لم تكن فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت
في الدهر الطويل فكذا تنقص في الدهر الطويل ، إذ كل طوويل فهو قصير ،
وكل متناه فهو قليل ، فليايك أن تظن أنك قد يم فنكر ، وإنك أن تذكر أنك
محدث فتشرك ، فإن للشيطان في مثلك أطماماً لا يصيها في سواك ، ويجد
فيك علاً لا يجدها في غيرك .

ولست جعلت فداك كابليس وقد تقدم الخبر في بقائه إلى انقضاء أمر
العالم وفاته ، ولو لا الخبر لما قدمته عليك ولا ساويته بك ، وأنت أحقر من
عذر وأولي من ستر ، ولر ظهر لي لما سأله كسؤال إياك ، ولما ناقلته الكلام
كمناقلتي ذلك ، وإن كان في التجاذب مثلث فهو في النصيحة على خلافك ،
ولأنك إن منعت شيئاً فمن طريق التأديب أو التقويم ، وهو إن منع منع بالغش
والإرصاد ، وأنت على حان أشكال ، ونحن نرجع إلى أصل ونلتقي إلى أب
وبجمع بيننا دين .

[١٣ - اسئلة على معتقدات الشيعة]

ونخبرني عن الشق ، وعن واقف ، وعن النسائم ، وعن دوابي ، وعن
الكريكن ، وعن عنقاء مغرب ، وعن الكبريت الأحمر ، وعن ثور الله في
الأرض؟ وحدثني عن شعب رضوى ، وعن جبار حمى ومتى ترى الماء
الأسود والجو الأكلف والطين الأزرق ، وكيف ذلك النمر ، وهل يظمأ ذلك
الأسد ، وهل باضم الخفافش ، وهل أمنت الحباري ، ومتى تتعلم ما في الجفر
وتحكم ما في الزبر ، وما فعل فحل وبار ، ونماجي أبي المرقال ، وما الحجة
في البرجعة ، والقول في المنسخة ، ومن أين قلتم بالبداء ، ومن أين جعلتم

العلا فعلا والزيادة فلتا ، وما القول في النفس ؟

وخبرني ما السحر وما الطلسم ، وما الدنهش وما الخلقطير ، وما
الهيكيل ، وما الطوالق ، وما قولهم في المبان الذكر ، وفي مراعاة المشتري ،
ولم توحشوا من الناس ولم ياتوا بالبراح وأقاموا بالخراب واغسلوا بالماء
القراب ، ولم قدموا التصديق وأخرجوا الصرة ، ولم أجابوا وأكروا ، ولم منعوا
وقتلوا . !

[١٤ - أسلة على الجن]

وخبرني من خانق الغريب وقاتل سعد يوم النفق ، ومن الذي استهوى
عمرو بن عدي ، ومن صاحب عمارة بن الوليد ، ومن يصرع منهم الأصحاب ،
ومن يربى المرضى ويستوهي العقلا ، وعن فصل ما بين الشيطان والجني وما
بين الجن والجن ومن طعامه الجذف . وخبرني عن أشعار الهاتف وما يسمع
بالليل من جواب الأخبار . وخبرني عن النميري صاحب الورقة ، وعن تميم
الذاري صاحب الردم . وخبرني عن شقلون ، وعن أهرمن ، وعن كان وكان ،
ومره ، وايدش ، وافرداش ، وابرشارش ، وخونرت بام ، وكيف
صارت خونرث هذه اعم爾 العالم ، وايما أكثر ياجرج أم ماجرج ، وأيما اصر
وأيما أطول عمارة ، وايما أفضل منكر أم نكير ، وايما أخت هاروت أم
ماروت ، وأي حوت ابتلع يonus ، وأي حبة ابتلعت المهلب ، ومن أي حبة
كانت سفينة نوح ، ولم ملح الحمض ، ولم طوقت الحمامه !

[١٥ - أسلة على الكيماء]

وما فرق بين الطاس والكاس ، وما كان سبب اتخاذ الأقبية ، وما سبب
صنعة الزجاج ، وما قصة الرخام أكمياء أم مخلوق ، ولم امتنع عمل الذهب
والزجاج أعجب منه ، ومن صاحب العينا وتودين العجارة ، ومن صاحب
التلطف ، ومن صاحب النوشادر ، وما تقول في التنين وما فرانت الأسد ، وما

صدقة ما بين الخمساء والمغرب ، وما بال السواد يصبح ولا ينبع وما بال
البياض ينبع ولا يصبح ، ومن صاحب الاصطراط ، ومن صاحب القرسطون .
ولم أملك عن الحداد وإنما سألك عن الفيلسوف وعن علته في المد والجزر .

وخبرني عن جوهر الأرض وعن جميع الفلز أشيء مفروغ من خلقه أم
أرض يستحيل إليه ، ولم عمل بعض السم في العصب وبعده في الدم وبعده
فيهما جميما ، ولم كان بعضه سم نجاز وبعده سم جهاز ، ولم صار لا يقتل
مع العادة وقتل قبل العادة ، لأن الطائع تذكر الشيء الغريب لم لأنه ضد في
نفسه ، وكيف صار مع ريق الأفعى ريق بعض الناس في القتل وفي أيهما
سم ، ولم خالف البيش في العصب والدم ، ولم يقتل المقرب إنساناً ويقتله
آخر ، ولم صارت الأفعى قاتلة وتأكلها القنافذ ولا تضرها وتأكلها الأروى فلا
تتأذى بها ، ولم صارت الهندية تقتل كل شيء ولا يقتله شيئاً ولا يستمرنها
شيء ، ولم خالف النيل جميع الأودية في التقصان والزيادة ، ولم بلغت جريمة
الشمال ، ولم صار أقصاه كأدناه ، ومني يدار منه ومتى يحوله الإمام . . !؟

وقد علمت جعلت فداك أن الخبر إذا صحي أصله وكان للناس علة في
نشره وكان في الدلالة على الحق كالعيان وفي الشفاه كالسمع ، على أن الخبر
لا يعرف به تكيف الأمور لكن يعرف به جمل الآشيا إلا حبرك فإنك لا تحتاج
إلى إشارة ولا إلى إعادة ولا إلى [علة ولا إلى] تفسير حتى يقوم حبرك في
الشفاه وفي كيفية الشيء مقام العيان . وقد كنت أتعجب من محمد بن عبد
الملك وأقول : ما تقولون في رجل لم يقل فقط بعد انتقامه خصوصاته وذهب
خصوصه : لو كنت قلت كذا كان أفضل ، أو كنت لم أقل كذا كان أمثل ، فما
بال عفوه أكثر من جهودكم وبديهته أبعد من أقصى فكرتكم ؟ فلما رأيتك علمت
أنك عذاب صبه الله على كل رفيع ، ورحمة أنشأها لكل وضع .

[١٦ - امثلة على الفلسفة]

فخبرني ما كان بينك وبين هرمس في طبيعة الفلك ، وعن سماحك من أفالاطون وما دار في ذلك بينك وبين أرسطاطاليس ، وأي نوع اعتقلا ، وأي شيء اخترت فقد أبىت نفسك غيرك وأبىت أن تستخف إلا بخبرك ، ولولا أني كاف برواية الأقاويل ومفرم بمعرفة الاختلاف ، وأنني استجير مسألك عن كل شيء ، وابنذاك في كل أمر ، لما سمعت من أحد سواك ، ولما انقطعت إلى أحد غيرك .

[١٧ - مساوىء المزاح]

واعلم جعلت فدالك أني لم أرد بمزاحك إلا ضحك منك ، ولا كانت غاياتي فيك إلا لأنفق عندك ، وقد كنت خفت إلا أكون وقفت على حده وأشفقت من المجاوزة لقدره . والمُزاح باب ليس المحرف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح وطرق له مطريق لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه ، ولا يخرج منه بقدر ما كان ثدي من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سخف ، ومن شأنه التزييد وأن يكون صاحبه قبل التحفظ ، ولم نر شيئاً أبعد من شر ولا أطول له صحة ولا أشد خلافاً ولا أكثر خلطًا من الجد والمزاح والمناظرة والمراء . قال الفقيع بن شور : ليس لمزاح مروءة ولا لممار حلة . وقال معاوية : المزاح هو الشناير الأصغر . وقال الحسن بن حي : المزاح استدراج من الشيطان واحتدع من الهوى . وعاب عمر بعض العظاماء فقال : ذلك رجل فيه دعابة . وقال الشاعر : « وجد القول يقدمه المزاح » . وقال الآخر « رب كبير ساقه صغير » . وقال الآخر « رب جد ساقه اللعب » .

فإن كنت لم أقصر عن الغاية ، ولم أتجاوز حد النهاية ، فبما أعرف من
يمن مكالمتك وبركة مكتابتك ، ومن حسن تقويمك وجودة تنفيذك . وإن كنت
قد أخطأت الطريق ، وجاوزت حد المقدار ، فما كان ذلك عن جهل بفضلك
ولا إنكار لحقك ، ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقدارها إذا أشكلت ، ولم
يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ، ولا مع المتلطف لها مثل كمالك ، دخل
عليه من الخلل بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر تقديره ، نعم ولو كان من العلماء
الموصوفين والأدباء المذكورين .

ومن المزاح جعلت فداك بباب مكر وجنس خدع يتكل المرء في إساءته
إلى جليسه وإسماعه لصديقه على أن يقول : مزحت ، وعلى أن يقول عند
المحاكمة : عبشت ، وعلى أن يقول : من يغضب من المزاح إلا كفر الخلق ،
ومن يرغب عن المفاكهه إلا ضيق العطن . وبعد فمتي أعدت النفس عذراً كانت
إلى القبيح أسرع ومتى لم تجده كانت عنه أبطأ . ومن أسباب الغلط فيه ومن
دواعي الخطأ إليه أن كثيراً من تمازحه يضحك وإن كنت قد أغضبه ،
ولايقطع مزاحك وإن كنت قد أوجعته ، فإن حقد قفي الحقد الداء ، وإن عجل
فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أدخلتك في شيء هذا سبile وهكذا جوهره وطريقه ؟
قلت : لأنني حين أمنت عقاب الإساءة وونت بشواب الإحسان وعلمت أنك لا
تفصل إلا على العمد ، ولا تعذب إلا على القصد ، صار الأمان سائقاً والأمل
قائداً . وأي عمل أرد وأي متجر أربح مما جمع السلامة والغنية والأمن
والثبوة . ولو كان هذا ذنباً لكنت شريكي فيه ، ولو كان تقصيراً لكنت سببي
إليه ، لأن دوام التغافل شبيه بالإهمال ، وترك التعريف يورث الإغفال ، والعفو
المتابيع والبشير الدائم يؤمنان من المكافأة ويدهيان بالتحفظ . ولذلك قال
عبيدة بن حصن لعثمان بن عفان رضي الله عنه : عمر كان خيراً لي منك ،

رهبني فاتفاقني وأعطياني فأغتناني . فإن كنت اجترأت عليك فلم أجربي ، عليك إلا بك ، وإن كنت أخطأت فلم أخطيء ، عليك إلا لك ، لأن حسن الظن بك والثقة بعفوك سبب في قلة التحفظ وداعية إلى ترك التحرز .

[١٨ - طلب العفو من احمد بن عبد الوهاب على مزاج العاخط]

وبعد ، فمن وهب الكبير فكيف يقف عند الصغير ، ومن لم يزل يعنو عن العمد كيف يعاقب على السهو ؟ ولو كان عظم قدرى هو الذي عظم ذنبي لكان عظم قدرك هو الذي شفع لي ، ولو استحققت عقابك باقادامي عليك مع خوفى لك لاستوجبت عفوك عن إقادامي عليك بحسن ظني بك . على أنى منى أوجبت لك العفو فقد أوجبت لك الفضل ، ومتى أضفت إليك العقاب فقد وصفت بالانصاف ، ولا أعلم حال الفضل إلا أشرف من حال العدل ، ولا الحال التي ترجب لك الشكر إلا أرفع من الحال التي توجب لك الصبر . وإن كنت لا تهرب عقابي لحرمي فيه لأياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النعمة ، فإن لم تفعل ذلك للحرمة فاعمله لحسن الأحداثة ، وإن لم تفعل ذلك لحسن الأحداثة فعد إلى حسن العادة وإن لم تفعله لحسن العادة فات ما أنت أهله . واعلم أنى وإياك متى تحاكمنا إلى كرمك قضى لي عليك ومتى ارتفعنا إلى عقلتك حسن العفو عنى عندك . وفصل ما بيننا وبينك وفرق ما بين أقدارنا وقدرك أنا نسي ، وتغفر ، وندنب وتستر ، وننوح ونُقْرُم ، ونجهل ونتحلم ، وإن عليك الانعام وعليها الشكر ، ومن صفاتك أن تفعل ومن صفاتنا أن نصف ، فإذا فعلت ما تقدر عليه من العقاب كنت كمن فعل ما يقدر عليه من التعرض ، وصرت ترغب عن الشكر كما رغبنا عن السلم ، وصار التعرض لعفوك بالأمن باطلا ، والتعرض لعقابك بالخوف حقا ، ورغبت عن النيل والبهاء وعن الرؤدد

والسناء ، وصرت كمن يشفي غيظاً أو يداوي حقداً أو يظهر القدرة أو يحب أن يذكر بالصولة . ولم نجدهم أبقاك الله يحمدون القدرة إلا عند استعمالها في الخير ، ولا يذمون العجز إلا لما يقوتوه به من إثبات الجميل . وأنى لك بالعقاب وأنت خير كلك ، ومن ابن اعتراف المنع وأنت أنهجت الجود لأهله ، وهل عندك إلا ما في طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ، ولم تستكره نفسك على المكافأة وطبعها الصفع ، ولم تكذبها بالمنافسة ومذهبها المساحة ؟! فسبحان من جعل أخلاقك وفق أعرافك وقولك وفق عملك ، ومن جعل ظنك أكثر من يقيننا ، وفراستك أثبتت من عيانتنا ، وعفوك أرجح من جهتنا ، وبداهنك أجود من تفكernا ، وفعلك أرفع من وصفنا ، وغيتك أهيب من حضور السادة ، وعتبك أشد من عقاب الظلمة . وسبحان من جعلك تعفو عن المعتمد ، وتتجاهلي عن عقاب المصر ، وتغافل عن المبادي ، وتصفع عن المتهاون ، حتى إذا صرت إلى من ذنبه نسيان وتوبيته إخلاص ومهنته بكر وشفيقه الحرمة ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، ولا الانعام إلا منك ، ولا العلم إلا من تأديبك ، ولا الأخلاق إلا من تقويمك ، لم يسقرك في بعض طاعتك إلا لما رأى من احتمالك ، ولا نسي بعض ما يجب لك إلا لما داخلك من تعظيمك ، صرت تتوعد بالصرم وهو دليل كل بلية ، وتستعمل الإعراض وهو قائد كل هلة . وقد علمت أن عتابك أشد من الصريمة ، وأن تأنيتك أغاظل من العقوبة ، وأن منعك إذا منعت في وزن إعطائك إذا أعطيت ، وأن عقابك على حسب ثوابك ، وأن جزعي من حرمانك في وزن سروري بقوانينك ، وأن شين غضبك كزبن رضاك ، وأن موت ذكري بانقطاع سبي منك كحياة ذكري مع اتصال سبي بك ، وما ليالي اليوم عمل أنا إليه أسكن ولا شفيع أنا به أوئن من شدة جزعي من عتابك وإفراط هلمي من خوفك ، ولست من إذا جاد بالصفح ومن بالعفو لم يكن لصاحبه منه إلا السلامة وإلا النجاة من الهلة ، بل تُشفع ذلك بالمراتب الرفيعة والمعطيات الجزيلة والعز في العثرة

والهيبة في الخاصة وال العامة ، مع طيب الذكر وشرف العقب ومحبة الناس .

[١٩ - محاسن المزاج]

وأما ذكري فقد والخرط والمطلول والعرض وما بيننا وبينك في ذلك من التنازع والشاجر والتحاكم والتنافر ، فإن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهرزل ، كما يكون في لفظ الهرزل ومعناه معنى الجد . ولو استعمل الناس الدعاية في كل حاز والجد في كل مقال وتركوا التسخع والتسهيل وعقدوا في كل دقيق وجليل لكن السفة صراحًا خيرا لهم ، والباطل محضًا أردا عليهم . ولكن لكل شيء قدر ولكل حال شكل . فالضحك في موضعه كالبكاء في موضعه . والتبسم في موضعه كالقطrop في موضعه ، وكذلك المنع والبذل والعقاب والغفران جميع القبض والبسط . فإن ذمننا المزاج فيه لعمري ما يذم ، وإن حمدناه فيه ما يحمد . وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاج أسرع وحاله بحال السخف أشبه ، فاما أن يذم حتى يكون كالظلم وينهى حتى يصير كالغدر ، فلا لأن المزاج مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً .

[٢٠ - مدحع احمد بن عبد الوهاب الساخر]

فإذا ملنا إلى الجد ورغبنا عن الهرزل وتركت المزاج وجلسنا للحكم فنقد أغناك الله عن الحجة كما سلمك من الشبهة ، ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الإعتلال ، فنا أصبحت لا محتاجاً ولا محجوجاً ، ولا غُللاً ولا موسوماً ولا ملوماً ولا معذوراً ، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجة إلى إثلاف ، وليس مع العيان وحشة ولا مع الضرورة وجمة ولا دون اليقين وقفنة . وهل في تسامك

ريب حتى تعالج بالحججة ؟ وهل رد فضلك جاحد حتى يثبت بالبينة ، وهل لك خصم في العلم أو ند في الفهم أو مجار في الحكم أو ضد في العزم ؟ وهل يبلغك الحسد ، أو تضرك العين ، أو تسمو إليك المنى ، أو يطمع فيك ظامع ، أو يتعاطى شاؤك باغ ؟ وهل يطمع فاضل أن يفوقك ، أو يأنف شريف أن يقصر دونك ، أو يخشع عالم أن يأخذ عنك ؟ وهل غاية الجميل إلا وصفك ؟ وهل زين البلبغ إلا مدحك ، وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك ؟ وهل يقدر الملهوف إلا غياثك ؟ وهل نطلب غرض سواك ؟ وهل للغوانى مثل غيرك ؟ وهل للمادح رجز إلا فيك وهل يحدو العادي إلا بذكرك ؟ فلولا أن يأخذ الواصف بنصيبه منك وبمحضه من الصدق فيك ، وبسمه من الشكر لك ، لكان الإطناب عندهم في وصفك لنعوا ، وكان تشقيق الكلام عجزاً ، ولكن تكلفه فضلا ، ومن هذا الذي يضعه أن يكون دونك ، أو يمتحن بالتسليم لك ، أو يعد إقراره إحساناً وخصوصه إنصافاً ؟ وهل تقع الأبصار إلا عليك ؟ وهل تصرف الإشارة إلا إليك ؟ أم من الشيء لك في متراكك ؟ أنت خلف الأخبار وبقية الأبرار ؟ وأي أمرك ليس بغایة ، وأي شيء منك ليس في النهاية ؟ وهل فيك شيء يفوق شيئاً أو يفوقه شيء أو يقال لو لم يكن كذا لكان أحسن أو لو كان كذا لكان أتم ؟ وأين الحسن الخالص والجمال الفائق والمطلع المensus والحلوة التي لا تستحيل والتمام الذي لا يحيط إلا فيك أو عندك أو لك أو معك ، خالصة لك ومقصورة عليك ، لا تليق إلا بك ولا تحسن إلا فيك ، فلك منه الكل وللناس البعض ، وللك الصافي وللناس المشوب ؟! هذا سوى الغريب الذي لا نعرفه ، والبديع الذي لا يبلغه ، لا بل أين الحسن المتصمت ، والجمال المفرد ، والقدس العجيب ، والكمان الغريب ، والمطلع المنشور ، والفضل المشهور إلا لك وفيك ؟ وهل على ظهرها جميل حبيب أو عالم أريب إلا وظلك أكبر من شخصه ، وظنك أكثر من علمه ، وإسمك أفضل من معناه ، وحكمك أثبت من نجواه ، وصمتك أفضل من فحواه ؟ وهل

في الأرض حليم سواك ، وهل أظلمت الخضراء ذا لهجة أصلق منك ، وهل حملت النساء أجل منك !

[٢١ - جمال احمد بن عبد الوهاب المعكوس]

ولربما رأيت الرجل حسناً جميلاً وحلوا مليحاً وعيقاً رشيقاً وفخماً نيلاً ثم لا يكون موزون الأعضاء ولا مقدور الأجزاء ، وقد تكون أيضاً الأقدار متساوية غير متقاربة ولا متفاوتة ، ويكون قصداً ومقداراً عدلاً ، وإن كانت هناك دقائق خفية لا يراها إلا الأليمي ، ولطائف غامضة لا يعرفها إلا الذكي . فاما الوزن المتحقق والتعديل المصحح والتركيب الذي لا يفضحه التفرس ولا يحصره التعتن ولا يتخلل جاذبه ولا يطمع في التمويه ناعته ، فهو الذي خصصت به دون الآنام ودام لك على الأيام . وكذا الحسن إذا كان حراً مرسلأً وعيقاً مطبقاً لا يتحكم عليه الدهر ولا يذيله الزمان ولا يحتاج إلى تعليق التمام ولا إلى الصون والسكن ولا إلى المناوش والكحل ، ولو لم يكن لحسن وجهك إلا أنه قد سهل في العيون تسهيله وجُبِّ إلى القلوب تحبيباً وقرب إلى النفوس تقريراً ، حتى امترج بالآرواح وختال الدماء وجرى في العروق وتمشي في العظام بحيث لا يلغه السم ولا السوهم ولا السرور الشديد ولا الشراب الرقيق ، لكن في ذلك المزية الظاهرة والفصيلة البينة . ولو لم يكن لك إلا أنا لا نستطيع أن نقول في الجملة عند الوصف والمدح : هو أحسن من التمر وأضوا من الشمس وأبهى من الغيث ، وهو أحسن من يوم الخلبة ، وأنا لا نستطيع أن نقول في التفاريق ؛ كان عنقه إبريق فضة ، وكان قدمه لسان حية ، وكان وجهه ماوية ، وكان بطنه قبطية ، وكان ساقه بردية ، وكان لسانه ورقه ، وكان أنفه حد سيف ، وكان حاجبه خط بقلم ، وكان لونه الذهب ، وكان عوارضه البرد وكان فاه خاتم ، وكان جبينه هلال ، ولو هو أظهر من الماء

وارق طباعا من الماء ، ولهم أمضى من السبل وأهدى من النجم ، لكن في ذلك البرهان النير والدليل البين . وكيف لا تكون كذلك وأنت الغاية في كل فضل ، والنهاية في كل شكل . وأما قول الشاعر :

بِزِيْدُكَ وَجْهُهُ حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتُهُ نَظَرًا

وقول الدمشقيين : ما تأملنا قط تأليف مسجدنا وتركيب محرابنا وقبة مصلانا إلا أثار لنا التأمل واستخرج لنا التفاس غرائب حسن لم نعرفها وعجائب صنعة لم نقف عليها ، وما ندرى أجواهر مقطوعاته أكرم في الجواهر أم تنضيد أجزاءه في تنضيد الأجزاء . فان ذلك معنى مسروق مني في وصفك وما خود من كثبي في مدحك . والجملة التي تبني الجدال وتقطع القبل والقال أني لم أرك قط إلا ذكرت الجنة ، ولا رأيت أجمل الناس في عقب رؤيتك إلا ذكرت النار . والعجب أيها السامع أني ^٤ مقصرا ، وإذا رأيته علمت أني فيما يحب له مفرط ، وهو رجل طبته حرفة وعرقه كريم ومغرسه طيب ومشهور محمود ، غنى بالنعمه وعاش في النبوة وأرمهه التأديب ولطفه طبول التفكير وخامره الأدب وجرى فيه ماء الحياة وأحكنته التجارب وعرف العواقب ، فأفعاله كأخلاقه ، وأخلاقه كأعراضه ، وعادته كطبيعته وأخره كأوله . تحكي اختياراته التوفيق ومذاهبه السديد . لا يعرف التكلف ويرغب عن التجوز وينبل عن ترك الإنصاف ، ولا يمتنع عليه معرفة العبئم ولا يلتحج باشباه المشكك ، يتخير من الالفاظ أرقها محرجا ومن المعانى أدقها مسلكا ، وأحسنها قبولا ، واجهودها وقوعا وأتمها إطماءا ، بأقوى الكلام وأوجزه وأعذبه وأحسنه ، يقلل عدد حروفه ويكثر عدد معانيه . ومن الفعل بعد ذلك أكمله تحقيقا إذا أقبل هباء ، وإذا أدبر أغبناه ، مع تمكنه وعقله وسعة صدره . وبعد [نظرة] ولا يعرف الشك إلا في غيره ولا العي إلا سمعا . فمن يطبع في عييك بل من يطبع في قدرك ؟ وكيف وقد أصبحت وما على ظهرها خوذ إلا وهي تعثر باسمك ، ولا قينة إلا وهي تغبني

بمدحك ، ولا فتاة إلا وتشكو نباريغ حبك ، ولا محجوبة إلا وهي تُثقب
الخروق لممرك ، ولا عجوز إلا وهي تدعوك ، ولا غيور إلا وقد شفي بك ،
فكم من كبد حُرّى منضجة ، ومصدوعة مفرثة ، وكم من حشا خافق ، وقلب
هائم ، وكم عين ساهرة وأخرى جامدة وأخرى باكية ، وكم غَيْرِي مولاهة ، وفتاة
معدبة ، قد أفرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد ، قد استبدلت بالخلبي
المُطلة ، وبالأنس الوحشة ، وبالتكحيل المرة ، فأصبحت والله مبهوتة ،
وهائمة مجھودة ، بعد طرف ناصع ، وسن ضاحك ، وغُنْج ساحر ، وبعد أن
كانت ناراً توفداً ، وشعلة تتوهج ؟

وليس حستك أبقاك الله الحسن الذي يبقى معه توبة ، او تصح معه
عقيدة ، او يدوم معه عهد ، او يثبت معه عزم ، او يمهل صاحبه للشتت ، او
يتسع للتخيير ، او ينهنه زجر ، او يهدئه خوف . هو أعزك الله شيء ينقض
العادة ، ويفسخ المُنْتَهَى ، ويعجل عن الروبة ، ويطرح بال العرا ، وتنسى معه
العواقب ، ولو أدركك عمر بن الخطاب لصنع بك أعظم مما صنع بنصر بن
الشعاج ، ولركبك بأعظم مما ركب به جعدة السلمي ، بل لدعاه الشغل بك
إلى ترك التشغل بهما ، والغليظ عليك إلى السرحمة لهما . فمن كان عيب
حسه الإفراط عليه من جهة الزيادة ، كيف يرميه عاقل أو ينتقصه عالم . فلا
تعجب إن كنت نهاية الهمة وغاية الأمانة ، فإن حسن الوجه إذا وافق حسن
القوام ، وجودة الرأي ، وكثرة العلم ، وسعة الخلق ، والمغرس الطيب ،
والنصاب الكريم ، والطرف الناصع ، واللسان البين ، والنعمة البهجة والمخرج
السهل ، والحديث الموثق ، مع الإشارة الحسنة ، والنيل في الجلة ،
والحركة الرشيقه ، واللهجة الفصيحة ، والتمهل في المحاورة ، والهدى عند
المناقلة والبديه البديع ، والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظ
المحتذف ، والإيجاز يوم الإيجاز ، والإطناب يوم الاطناب ، يقبل الحز ،
ويصيّب المفصل ، ويبلغ بالعفو ما يقتصر عنه الجهد ، كان أكثر لتضاعف

الحسن ، وأحق بالكمال والحمد . والنتائج بهي ، وهو على رأس الملك أبهي ،
والياقوت كريم حسن ، وهو على جيد المرأة الحسنة أحسن ، والشعر الفاخر
حسن ، وهو من فم المنشد أحسن ، وإن كان قول المنشد فريضة من نجبيه
ومختبره فقد بلغ الغاية وقام على النهاية .

وما ندرني في أي الحالين أنت أجمل ، وفي أي المترلتين أنت أكمل ،
إذا فرقناك ألم إذا جمعناك ، وإذا ذكرنا كلك ألم إذا تأملنا بعمرك ؟ فاما كفك
 فهي التي لم تخلق إلا للتقبيل والتتوقيع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما
اتصل بها ، وبختال بها كل ما صار فيها ، كميا أصبحنا وما ندرني : الكأس في
ييدك أحسن ام القلم ام الرمح الذي تحمله ، ام المخرسة ام العنان الذي
تمسكت به ، ام السوط الذي تعلقه ، وكما أصبحنا وما ندرني أي الأمور المتصلة برأيك
أحسن وايهما اجمل وأشكّل اللمة ام يخطّ اللحمة ، ام الإكليل ام العصابة ام
النجاج ، ام العمامة ، ام القناع ، ام القلنوسة ! فاما قدمك فهي التي يعلم
الباهل كميا يعلم العالم ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدن ، انها لم
تخلق إلا لتنير ثغر عظيم ، أو ركاب طرفة كريم . أما فوك فهو الذي لا ندرني
أي الذي تتفوه به أحسن ، وأي الذي يبدأ به أجمل : الحديث ، ام الشعر ، ام
الاحتجاج ، ام الأمر والنبي ، ام التعليم والوصف . وعل أنتا ما ندرني أي
الستك أبلغ ، وأي يسانك أشغلي ، أقلمك ألم خطلك ، ام لفظك ، ام
إشارتك ، ام عقدك . وهل البيان إلا لفظ أو خط أو إشارة أو عقد ؟ وأنت في
ذلك فوقهم والحمد لله ، وواحدهم وأعيذك بالله ، وانت تحيوز الغاية ، وتتفوق
النهاية .

وقد علمنا أن القمر هو الذي تضرب به الأمثال ، ويشبه به أهل الجمال
وهو مع ذلك يبدو ضئيلاً نضواً ، ويظهر معوجاً شخناً وانت ابداً قمر بدر وفخم
غمراً . ثم مع ذلك يُحرق في السرار ويتشاءم به في المحقق ، ويكون نحساً

كما يكون سعداً ، ويكون نفعاً كما يكون ضراً ، ويقرض الكتان ، ويشحب الألوان ، وينجم في اللحم . وأنت دائم اليمن ، ظاهر السعادة ، ثابت الكمال ، شائع النفع ، تكسو من أعراء ، وتكن من أشجعه ، وعلى أنه قد محق حسنه المحاق وشانه الكلف ، وليس بذى توقد واثعمال ولا خالص البياض ولا متلالي ، وبعلوه برد ويكسوه ظلل الأرض . ثم لا يعتريه ذلك إلا عند كماله وليلة فخره واحتفاله ، وكثيراً ما يعتريه الصفار من بخار البحر . وأنت ظاهر التمام ، دائم الكمال ، سليم الجوهر ، كريم العنصر ، ناري التوقد ، هوائي الذهن ، دري اللون ، روحاني البدن . وإن احتجوا عليك بالجزر والمد ، احتججت عليهم بالعلم والعلم ، وبأن طاعتكم اختيار واعتبار ، وطاعتكم طباع واخضطرار ، وبيان لهم سيرة قد قصر عليها ، ومنازل لا يجاوزها ، ولا تمكنه البدوات ، وليس في قواه فضل للتصرف ، وعلى أن ضياءه مستعار من الشمس ، وضياؤكم عارية عند جميع الخلق . فكم بين المعبر والمستغير ، والمتباين والمتغير ، وبين العالم وما لا حس فيه . ولا زالت الأرض بذلك مشرقة ، والدنيا معمرة ، ومجالس الخير مأهولة ، ونسائم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً . إن نقفيت فالرشاقة والملح ، وإن تمكنت فالرهبة والأخلاق ، وإن ترزنـت فنهلان ذروة الهضبات ما يتحلـل .

وطباعك جعلـت فداك طباع الخمر إلا أنك حلال كذلك ، وجوهرك جوهر الذهب إلا أنك روح كما أنت . وقد حربت خصال الياقوت إلا ما زادك الله عليه ، وأخذـت خصال المشتري إلا ما فضلك الله به ، وجمعتـ خلال الدر إلا ما خصصـت به دونـه . فذلكـ من كلـ شيءـ صفوته ولباسـه وشرفـه وبهـاـزـه . وهـل يضرـ القـمرـ نـيـاحـ الكلـبـ ، وهـلـ يـزعـزـعـ النـخلـةـ سـقوـطـ الـبـعـوضـةـ عـلـيـهاـ ؟

[٤٤ - عودة إلى قيمة المزاج والجد]

فاما القـولـ في المـزاجـ فقدـ بـقـيـ أـكـثـرـهـ وـمـضـىـ أـقـلـهـ . وقدـ ذـهـبـ النـاسـ فيـ

المزاح إلى مذاهب متضادة . وسلكوا منه في طرق مختلفة . فرغم بعضهم أن جميع المزاح خبر من جميع الجد . وزعم آخرون أن الخبر والشر عليهما مقوسون ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان .

وستأتي على هذه الأقاويل ثم تذكر ما نقول إن شاء الله .

فأما المحامي على الهزل والمفضل للمزاح فإنه قال : أول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزاح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل الحاجة ، والمزاح لا يكون إلا من فضل الغنى . وأن الجد غضب والمزاح جام . والجد مبغضة والمزاح معبة . وصاحب الجد في بلاء ما كان فيه وصاحب المزاح في رخاء إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم وربما عرضتك لأشد منه ، والمزاح ملذ وربما عرضتك لأذد منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وبابته بتعجيل الخير دون الشر . وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجدوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعززوا وكدوا ليشريحاوا . وإن كان العزاج إنما صار معينا ، والهزل إنما صار مذموما لأن صاحبه لا يكون معرضاً لمجاوزة القدر ومخاطرأ بمودة الصديق . فالجد داعية إلى الإفراط كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر . والتتجاوز للحد قاطع بين القريبين في جميع التوعين . فقد ساوه المزاح فيما هو له وبابته فيما ليس له . وإن كان المزاح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزاح ما صير المزاح قبيحاً ، لأن الذي يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً لأن الذي بعده المزاح ، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزاح ، وكان المزاح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشيء قبيحاً أقبح من الشيء ، كما أن ما جعل الشيء حسناً أحسن من الشيء .

وأما الذي عدل بينهما فإنه زعم أن المزاح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه . قال : ولكل شيء موضع

وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخير على المعدلة ، وأجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقطع أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة وعلى الإعلان والتقبية . فامر بالمبادرة كما أمر بالمبادرة ، وجوز المعارض كما امر بالإفصاح ، وسough في المباح كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جماما لقلوب راحة للأبدان وعومنا على معاودة الأعمال . فصار الإطلاق كالحظر والصبر كالشكر . وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان منه ، ولا في النطنة شيء إلا وله في القفلة مثله ، ولا في السراء شيء إلا وله في الضراء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضا وبالصدق صرفا وبمر الحق صفحها ، لهنك العوام وانتقض أمر الخواص . ولو ذكر الإنسان كل ما أنتهى لشقى ، ولوجد في كل شيء لانتكث . وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلما كما يكون النسيان للسلامة سبا . وسيل المزاج والجد كسيل المنع والبذل . وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أقاويل القوم .

ونحن نعود بهاته أن نجعل المزاج في الجملة كالجد في الجملة ، بل نزعم أن بعض المزاج خير من بعض الجد ، وعامة الجد خير من عامة المزاج ، والحق أن يتضح عن بعض المزاج ويحتاج لجمهور الجد ، وكيف لنا بذم جميع المزاج مع ما نحن ذاكرون قال الشاعر :

« وَذُو بَاطِلٍ إِنْ شَتَّ أَهْلَكَ بَاطِلًا »

وقال آخر :

أَخْوَ الْجَدِّ إِنْ يَجْدِدُ فَمَا مِنْ وَبِرَةٍ لَذِيْهِ إِنْ يَهْزِلْ يُغْلِكَ بَاطِلَهُ
وإن كانوا قد تسموا بعباس وعباس وشتم وكالع وقاطب وحرب ومرة
وصخر وحنظلة وحزن وحجر وقد وخزير ، فقد تسموا بالضحاك والبطال وبسام

وهزاز ونشيط . وقد مزح رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولا يقال كان فيه مُزاج ، وكذلك لا يقال مُرّاح . وكذلك الأئمة ومن هزل في بعض الحالات من أهل التعلم والموقار . فما روي عنه صلى الله عليه وسلم قوله : « يا أبا عمير ما فعل النَّفِير » قوله : « لا تدخل الحجَّة عجوز » قوله : « زوجك الذي في عينيه بياض » وقد كان على رضي الله عنه يمزح . وقال عمر : إنا إذا خلونا كنا كأخذكم . وقد كان عمر عبوبا قطريا . وقد كان زياد مع كلوجه وقطبه يمازح أهله في الخلا كما يجد في الملا . وكان العجاج مع عنوه وطفيانه وتمرد وشدة سلطانه يمازح أزواجه ويرقص صبيانه . وقال له قائل : أيمازح الأمير أهله ؟ فقال : والله إن تروني إلا شيطانا ، والله لربما رأيتني وإن أقبل رجال إحداهن ! فقد ذكرنا خير العالمين وجلة من خيار المسلمين وجباراً عنيداً وكفراً لعيتا .

وبعد ، فمن حرم المُرّاح وهو شعبة من شعب السهولة وفرع من ضروع الطلاقة ! وقد أثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفية السمححة ولم يأتنا بالانقباض والقصوة وقد أمرنا بافشاء السلام وبالبشر عند التلاقي وأمرنا بالترداد والتصافح والتهادي . قالوا : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضحك تبسمًا . وقالوا : كان لا يستفرق ضحكا . وقال : « دفعوا على صاحبكم » . وقال : « هذه أيام أكل وشرب وتعلل » وسمع جواري نضرب الكبار عند عائشة فلم ينكِه وضحكت في قيافة مجز المدحبي ومن الاعرابي صاحب الدجال .

قد اعتذرنا من معصيتك والخلاف على محبتك مرة بالمرح ومرة بالسباب دمرة بالإنكار على عفوك وعلى ما هو أولى بك . على اني لم ارد بـ مـ رـاحـكـ الاـ ضـحـكـ سنـكـ ، انـظـرـ هـلـ هـرـمـتـ إـلـاـ فـيـ طـاعـتـكـ . وهـلـ أـخـلـقـنـيـ إـلـاـ معـانـاةـ خـدـمـتـكـ ؟ وفيـ الحـمـلـةـ إـنـاـ لـوـ تـعـمـدـنـاـ ثـمـ أـصـرـرـنـاـ ثـمـ أـنـكـرـنـاـ لـكـانـ فيـ فـصـلـكـ ماـ يـتـغـمـدـنـاـ ، وـفـيـ كـرـمـكـ ماـ يـوـجـبـ التـغـافـلـ عـنـاـ . فـكـيفـ إـنـاـ سـهـوـنـاـ ثـمـ تـذـكـرـنـاـ ثـمـ اـعـتـذـرـنـاـ ثـمـ أـطـبـنـاـ ، فـيـانـ تـقـبـلـ فـحـظـكـ أـصـبـتـ وـلـنـفـسـكـ نـظـرـتـ ، وـإـنـ لـمـ تـقـبـلـ

فاجهل جهلك ثم أجهد جهلك ، ولا تبقى الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك
إن عقوبت ، وأقول كما قال أخويني منفر :

فَمَا يَقْبِلُ عَلَيْنِ تَرْكُشُمَانِي وَلَكُنْ جَفْنُشِمَا صَرَّةَ النَّبَالِ

والله لشن رميتي بحيلة لأرميك بكتابة ، ولشن نهضت بصالح بن علي
لانهضن بأحمد بن خلف وباسماعيل بن علي ، ولشن صلت علي سليمان بن
وهب لأدمتك بالحسن بن وهب ، ولشن تهت علي بمنادمة جعفر الغياط لأنبيه
عليك بحنة وهب الدلال ! وأنا أرى لك أن تقبل العافية وترغب الى الله تعالى
في طول السلامة ، واحذر البغي فان مصرعه وخيم ، واتق الظلم فان مرعاه
وبيل ، وإياك أن تتعرض لنجريز إذا هجا ، وللفرزدق إذا فخر ، ولهرثمة إذا
دبر ولقيس بن زهير إذا مكر ، وللأغلب إذا كر . ولطاهر إذا صالح ، ومن عرف
قدره عرف قدر خصمه ، ومن جهل قدر نفسه لم يعرف قدر غيره .

وقد رعيت لك حق نبيذك وحسن شرابك وإن كان فوق العيوق دونه
بيض الأنوف ، وحق توبائك وإن بعثت به ممزوجا فكيف لو بعشت به حالها .
وعليك بالجدر فإنه خير لك ، ودع البيات فإنه أمثل بك ، فأت والله يا أخي
تعلم علم الاضطرار وعلم الاختيار وعلم الاخبار أني أشد منك عقلا ، وأظهر
منك حزما وألطف كيدا ، وأكثر علما ، وأوزن حلما وأخف روحنا ، وأكرم
عينا ، وأقل غشا ، وأجل قدا وأبعد غورا ، وأجمل وجهها ، وأنصع ظرفا ،
وأكثر ملحا ، وأنطئ لسانا ، وأحسن بيانا وأجهز جهارة ، وأحسن إشارة . وأنت
رجل تشدوا من العلم وتتفنف من الأخبار ، وتمهو نفسك ، وتغير من قدرك ،
وتنهيأ بالثياب ، وتتبيل بالمراكب ، وتحجب بحسن اللقاء . ليس عندك إلا
ذلك . فلم تتأحم البحار بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، وما لا يتناهى
بالجزء الذي لا يتجزأ ..؟!

[٤٣ - شروط التمثيل وأنواع الخطأ]

فاما الباد والقامة فمن يعدل بين الفناة والكرة ، ومن يمثل بين النخلة والدكان وبين رحي الطحان وسيف يمان ! وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين وأنقص الشررين ، وبين المتقاربين دون المتفاوتين ، فاما الخل والعسل ، والحسنة والجل ، والسم والغذاء ، والفقر والغني ، فهذا ما لا يخطيء فيه الذهن ولا يكذب فيه الحس ، والخطأ ثلات : خطأ الحس ، وخطأ الوهم ، وخطأ الرأي ، كل ذلك سبله التبيه والتذكير والتقويم والتأنيب ، والحمد نوع واحد وسيله القمع والمحظر والضرب والقتل ، وأول ذلك أن يهجره صاحب الحكمة ولا يطمعه في وعظ ولا مجالسة . وقد رأيت من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به استبطاطاً ، ولم أر من يعاند الحق إذا كانت المعرفة به عياناً . وأنت لا ترضى بجحود العيان حتى تدعوه إليه ، ولا ترضى بالدعاء إليه حتى تعادي فيه ، ولا ترضى بالعداوة فيه حتى تكون لك فيه الرئاسة ، ولا ترضى بالرئاسة دون السابقة ، ولا بالطارف دون التالد ، ولا بالتالد دون الأعراف التي تسري والمواليد التي تسمى ، ولا ترضى أن تكون أولاً حتى تكون آخرًا ، ولا بالمداراة دون المباداة ، ولا بالجدال دون القتال . وحتى ترى أن التقبية حرام ، وأن التفسير كفر .

[٤٤ - الامام عند الشيعة]

وحتى لو كنت إمام الرافضة لقتلت في طرفة ، ولو قُتلت في طرفة لهلكت الأمة . لأنك رجل لا عقب لك ، والإمامية اليوم لا تصلح في الآخرة ولو صلحت في الآخرة كانت تصلح في ابن العم ، ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا في الولد ، وفي هذا القيام إنها بعد أعوام لا

نصلح إلا ببقاء الإمام نفسه آخر الأبد . وهذا هو علة أصحاب التناصح وأنت رافضي ، ولم يكن هذا عندك . فاهمد إلى الآن من خالص التوبياء كما أهديت إليك باب التناصح . وأنت ترى القتل في حق المعاندة شهادة ، وترى أن مبادئة المنصفين في تعظيم العنود سعادة ، وأن الرئاسة في دفع العقائق مرتبة ، وأن الإقرار بما يظهر للعيون ضعة ، وأن الشهرة بالمبالغة رفعة . أظهر القوم عندك حجة أرفعهم صوتاً ، وأخلقهم للمثبتة أصلهم وجهاً ، وأحسنهم تقية أقلهم حرجاً ، وأكثرهم عندك إنصافاً أشدتهم شغباً . تعيش المتهور وتتكلف بالجموح وتصافي الواقع . والأديب عندك من عاب أحاديث الجلساء ، واعتراض على نوادر الإخوان ، وغمز في فقا التدييم ، ونصب للعالم ، وأبغض العاقل ، واستغل الطريف ، وحسد على كل نعمة ، وأنكر كل حقيقة .

[٢٥ - علة الاستطراد]

جعلت فداك ، إنما أخرجتك من شيء إلى شيء ، وأورد عليك الباب بعد الباب ، لأن من شأن الناس ملاحة الكثير واستغفال الطويل وإن كثرت محاسنه وجمت فوائده ، وإنما أردت أن يكون استطرافك للامرأة قبل أن ينقضى استطرافك للماضي ، لأنك متى كنت للشيء متظراً ولو متوقعاً كان أحظى لما يرد عليك وانشهى لما يهدى إليك ، وكل متضرر معظم ، وكل مأمول مكرم . كل ذلك رغبة في الفائدة ، وصيابة بالعلم ، وكلها بالاقتباس ، وشحاع على نصيبي منك ، وضنا بما أوسله عندك ، ومداراة لطباشك ، واسترزادة من نشاطك . ولأنك على كل حال بشر ، ولأنك متناهي القوة مدبر .

[٢٦ - استلة على الأنبياء والمتبنين]

خبرني : كيف كانت خدائع المتبنين ، ومخاريق الكذابين ممن قد كان

ترشح للتبوء ، ومن لم يظهر دعوته ، ومن دعا واجتهد ، ومن أحبب ، ومن لم يحب . وصف لي أبواب مصايدهم وأجناس كيدهم وحيلهم ، وعن اعتمادهم على المواتأة ، وعن تقدمهم في الحجة ، وعن ذهب في طريق التفهم ، وعن أصحاب الرُّجْر والتجيم ، وعن أصحاب الاسترحام ، وعن إظهار الرَّهْد وتحريم الاستئناف ، ومن وافق صورته وحاله بعض ما في البشارات المتقدمة وما في الكتب الصحيحة ، ومن اتفق له غير ذلك من الشبهة . فقل في شبيث بن أدم ، وقل في زرادشت ، وفي ماني ، وفي فولس ، وفيما أدعني لمرقس ومتن لوقا ويوحنا . وخبرني عن الأسود الغنفي ، ومسلمة الحنفي ، وطلحة الأسدي ، وبنت عففان ، وربعي ، وأبيه بن أبي الصلت ، وما قصه الطائرين الأخضرین ، وما كان شأن الرماح . وخبرني عن سليمي بن جندل ، وما قال الهند في نزوء البد ، وقصة ابن ديسان ، وما قول عبد الكيان وعبد قرة الهيولي وأصحاب البيضة ، ومن عبد النجوم وثبت لها الحس والعلم والنفع والضر ، ومن جعل كل داع إلى الله بالصواب والعدل وصلة الرحم ونفي الجهل نيا ، ومن أنكر أصل البوة البوة ، وما تقول في حنظلة بن صفوان ، وخالد بن سنان ؟ وقل في الذي أتاه الله آياته فانسلخ منها ، وهل يجوز أن يكفر النبي أو يشرك أو يضل بعد هذه آياته ، ويصير عدواً بعد ولائه ، ويدلل الله على كذبه كما دل على صدقه ؟ وكيف صار النبي عندكم يعصي وينحي ، والإمام لا يعصي ولا ينحي ؟ وكيف ساع ذلك في جميع البيبين وأمكن في جميع المرسلين ، على كثرة عدد النبيين والمرسلين ، ولم يجز ذلك في إمام واحد مع قلة عدد الأنئمة مذ كانوا ؟

[٢٧ - أسلنة على الأديان]

وخبرني لم تنصر النعمان ويزيد بن الحارث ، وتهود ذو نواس ،

وتمجست ملوك سباً ؟ وكيف صارت العرب فرقاً بين مجلٍّ ومُحرِّم وأحمسى ،
سوى تعرقهم في الملل ، وكيف لم تر أمّة نفع دهرية وقد علمنا أنه لا يجوز أن
يتتبأ دهري ؟ وكيف لم يتدهر ملك ، وكيف لم نجد قول الدهرية إلا في
الخاص والشاذ والرجل النادر ؟ ولم كان لجميع أهل الأديان مملكة وملوك إلا
الزنادقة ولم قتلهم جميع الأمم السالفة ؟ ولم قضيت بهذا وقد رأينا المصدقة
والديناؤدية والتغزيرية ! فإن قلت : لأن من لم يكن من دينه القتال ولا من
غريزته البأس فهو مسلوب أو مُشرق ، فما بال الروم تمنع أن تسترق وأن
تسلب وليس في دينهم قتال ولا جدال ولا مكافأة ولا دفع .

[٤٨ - أسللة على العرافة والسحر]

جعلت فداك ، وأين كان عبد الله بن هلال الحميري صديق إيليس من
كردباش الهندي ، وأين كان يقع منها صالح المديري ، وأين عبيد مج من
البطحي ، وأين عبد السوارث من الهجيمي ، وأين كان أبو منصور
المخاريقى من جرمي ، وأين بامونة من خشنة ، وأين قشة اليهودي من كشة ،
وما فصل ما بين الكهانة والشعبنة ، وما فصل ما بين الحازى والعراف ، وأين
كان عزي سلمة من سطيع الدئبي ، وأين كان الأبلق الأسدى من رياح بن
كميلا ، وأين كاهن سعد هذيم من حليس الخطاط . وحدثني عن ساحرة
حفلة وساحرة عائشة [أفتلا] باقرار منها بكيفية السحر ؟ . وحدثني عن
صاحب جندب بن زهير باقرار قتله أم عن معرفة منه بمعنى السحر ؟ . وهل
ثبت جعلت فداك أن النبي صلى الله عليه وسلم سحر في جف طلعة ووضع
تحت راعوفة البتر أم لا ؟

وخبرني : ما البحر بـاي ، وما الـبارـبـاي ، وما الـكـرـورـيات ، وما
الـخـروـاتـيم ، وما الـمـنـادـيلـ والـسـعـيـ والأـمـرـ الذـيـ كانـ فيـ خـاتـمـ سـليمـانـ ، وما

السکینة التي كانت في التابوت ، فقد اختلف المفسرون فيها وزعموا أنها كانت رأس هر . وما سعف ياسينية ، وما الفتل ، وما الترجي؟ وخبرني : ما تأوليل الزمزمة ، وما فعل المال الذي من أخذ منه ندم ومن لم يأخذ منه ندم . وخبرني عن قول الخليل في الوهم القديم ؟

[٢٩ - استلة على التذكرة والبيان]

وخبرني جعلت فداك عن قوله في الشعر الذي نشده في المنام مما لم نسمع بأحد منه في اليقظة ، وعن الشعر الذي تخترعه عن منافلة الكلام وموازنته الأمور وحال النوم ، وحال الأفة والنقص وصاحب مغمور أم شبيه بالغمور ولا يجري عليه قلم ولا يلام ولا يشكرا ، ولم صرنا تذكر الشيء المهم فلا تقدر عليه حتى ندعه فإذاينا منه أجمع ما تكون أنساً وأحسن ما تكون تذكراً ، ثم يعارضنا ويختظر على باتنا في حال سهر أو في حال نوم وأغنى ما تكون عنه وأقل ما تكون احتفالاً به ، ولم صرنا ننسى من القصيدة بيها أو آية من جميع السورة أو كلمة من جميع كلام الخطبة ، ولم صار البلغم بالياء أولى منه بالياء ، ولم كانت البرءة السوداء بالجيم أولى منها بالحاء ، وكذلك القلب المانع من الحفظ . وهل بد للحقيقة من خصائص أسباب وأعيان علل؟ ولا فقد يجوز أن ننسى هذه القصيدة ببدل تلك ، ولم صار بعض الناس أحافظ للنسب وبعضهم أحافظ للاسناد ، وبعضهم أحافظ للمعاني ، وبعضهم أحافظ للالفاظ . ولم صرنا لا ننسى الساحة وبالاكتساب عرفناها والعادة أن المكتسب قد ينسى ويجهل ، وأن الضروريات لا تجهل . وقل لي لم لم تضرب السامری . ولم لم تعض ماني وتمضه ، ولم لم تبزق في وجه فرعون . أم إن الطبيعة التي هيتك من هشام بن خلف بن قوله الكثاني حين قتل على رأس النعمان وأست رجل يمان هي التي منعتك من أن تبزق في وجه

فرعون وأنت سمعته يقول : « وما رب العالمين » ؟ ولم أزعم أنك رجل يمان لولادة لك في قحطان ، كيف وأنت أقدم من قحطان ومعد بن عدنان ، ومن الفرون التي خبر الله عن كثرتها وعن آياتها وأجددادها ! ولكنك منهم بالهوى والنصرة ، ولائهم كانوا لك أحشاماً وصنيمة .

وقل لم صار جميع الحيوان يسبح إلا الإنسان والقرد والعقرب والفرس الأعسر ؟ وأي شيء عندك في أصف ، وفي سفر آدم ، وفي جراب موسى ، وفي درسب ، وفي شنلة ، وفي كتاب الأسماء ، وفي قولهم دعا فلان باسم الله الأعظم ، وما تقول في ابن عقib ، وفي أشج بن عمرو ، وفي شعيب وصالح ، وفي السفاني ، وفي الأصفر القحطاني .

[٤٠ - استلة على الرياضيات]

وخبرني جعلت فداك مذ كم صنعت حساب الهندس ، ومن صاحب خطوط الهند ، وأين كتب قوم صنعة السنديون والأركند وحساب كلا سفر ؟ ومذ كم عمل الباب الجامع ، ومذ كم عمل الارتماطيفي ، ومن سمي الجبر بالجبر ، والجذر بالجذر ، والنشادر بالبارود ، والأكدرية من أي شيء اشتقت ، وما تأويل الدحال ، وما تأويل الجمل ، ومن أول من عد إلى عشرة وجعل العشرة متنهى وغاية ، ثم ضاعفها وجعل غایات الأعداد عشر العشرات وعشرات عشرات العشرات أبداً ، ثم كسر على العشرة مما دون أعدادها ، لأن الأصابع عشرة ، وكيف لم يجعل الغاية ماله نصف وثلث وربع وسدس وثمن ، أم راي أن التضييف أبداً لا يكون إلا للعشرات ، فقد تجده في عشر العشرات ، أم القوى الأولى الأشياء كلها عشرات ، ولست أعرف جعلت فداك قوله إن الإنسان عشرة أشياء ، كما لم أعرف قول الفزاربي أن العقل ثيري ، وقد علمت أن القلب كري ، وأن الرأس الذي جمع الحواس كري . فاما

العلم والقول وما أشبههما فإنما لا نعرف هذه الأمور إلا على خلاف الأجرام
الموصولة والمقطوعة ، وقد شدلت من الموسقي ولم أبلغ منه شهرتي .

[٤١ - استلة على الموسقي وبعض الكتب المعرية]

فأخبرني أين كان أقليدس وميرسطوس من فيثاغورس ، وأين تلامذتهما من
تلامذته ، وهلا قدمتم أقليدس مع صنعة البرابط والمعاوز ؟ وأين أرشخانس
من مورسطوس ، وأين ريوشت من فلهود ، ولم قتله وهو فوقه في الإطراب
والصنعة وفي الرواية والرئاسة ، ولم عفا سابور عن قتله بعد إقراره بقتله وبعد
أن سحب إلى الفيلة وعزم على إمضاء الحكم . وأين كانت هر وفرتنا من
الجرادتين ، وأبو طيبة والرباب من السردان والمهراس ، وأين حبابة من سلامة
صاحبتي يزيد ، وأين عزة الميلا من جميلة العدباء ، وأين حبية من الميلا .
وأخبرني عن غنا الركبانية للمصطلق أخذته منه الركبان أم للركبان وهل رجمه
بخر المصطلق ، وزعمت أن الهراب لليم ، وأن النصب للقيبات ، فلم
الستاد ؟ فأخبرني أين كان ضبيس بن حرام من المصطلق بن سعيدة ، ولم جعل
المعلم النغم يهد للبيهاني ست عشرة نغمة ؟ لأنه لم يدرك أكثر منها أم لأنه
ليس في الحلقة إلا ما أدرك ، ولم جعل الرعب للسوداء ، والحزن للبلغم ،
والجرأة للصفراء ، والسرور للدم . ولم فسر الأوتار على ذلك فجعل التزير
للصفراء ، والمثنى للدم ، والمثلث للبلغم ، والبيم للسوداء ! وقال : أليزير
لطيف ناري خفيف ، والمثنى هوائي بين طبيعة النار وهو دون النار في الخفة
وبين طبيعة الماء وهو فوق الماء في الخفة ، والمثلث كالماء ، والبيم
كالارض ، وفي المثنى ضعف وزن التزير ، وفي المثلث ضعفا وزن التزير ،
وفي البيم ثلاثة أضعاف . ولم زعم أن من اللحون ما يقلق ويفرق فإن زيد فيه
نقض وإن فوي قتل . وأن فيها ما يغير فان زيد فيه غشى وإن قوي أجمد فإن

قوى قتل . فجعل لحناً مطلقاً يقتل بالإذابة ، وجعل لحناً يقتل بالإجحاد . ولم يوصف المحرن بالإجحاد والأصاغة كما توصف السموم القاتلة ؟ . خبرني عن صنعة البريط ، للملك أم لرفائيل أم لاقليدس ؟ وما تقول في قولهم إن لمكا عمل العود على صورة فخذ ابنه ساقها وقدمها وأصابعها وأنه جعل الصدر الفخذ ، والساقي الإبريق ، والقدم المشط ، والأصابع الملاوي ، والأوتار العصب والمعروق .

جعلت فداك كيف حفظك لكتاب كاوريد ، وقد خبرني بعض المتكلمين أنه رأى بسيراف مجوسيا يحفظه وهو في ألف جلد بخط مقارب . وكيف حفظك لكتاب الطرف وهل ثقيت واضعه أيام ادخلتك بلاد الروم نزول عطارد ؟ وخبرني عن أسرار الهند الرجل بعينه أم لشوري ؟ ولم زعموا أن العقوق يورث البعض ، وهذا مما لا يعرف في الطب . ومن صاحب الشطرنج ، ومن صاحب كليلة ودمنة ، ومن واضح الكوكلة ، ومن طبع الكلمة ، ولم صار الهندي والروماني لا يختلفان بالستدي في حال الأسر ويرغبان عنه في حال القتال . وقد اختلفوا علينا في النعال الستدية فزعم قوم أن صاحب كتاب الباه كان قصيراً منكراً وكان بالنساء مستهتراً وأنه احتال بها لجسمه حتى وصلها برجله ليكون تخها زائداً في طوله فلما طالت الأيام ومضت الدهور ظن من لا علم له أنها اتخذت للزينة أو لضرب من المعرفة . وقال آخرون : بل اتخذت للعقارب ليلاً وللطين نهاراً ، فلما طال عليها نسي السبب ، وذلك أن أكثر الرداع لا تستفرق تخها وابرة العقرب لا تقاد تجاوزها وقال آخرون : بل إنما اتخذتها ملوكها لمكان أصواتها وصريher استنداناً على أزواجها وأمهات أولادها وعلى جميع محارمها لحالات تكون عليها وأمور تكن فيها ، فصار صريher تدناً واستنداناً . وزعم إسماعيل بن علي أنك أنت الذي كنت أمرت باتخاذها وأشارت بصنعها ، وأنك تكتم السر الذي فيه ، وأنك الذي علمتهم موضع التائبول ودبغ تحمير الأسنان ، وتطيب النكهة ، وأكل السعيد لما ألم به ، والتصندل لما لا

يجوز المكاتبية فيه ، وأنك أول من احتى هناك واستاك وفرق شعره وعلم
الخضاب أهله . وكيف وقد زعمت أن الاحتباء إنما صار فيهم وفي العرب لأن
نازلة العمد والصحاري وسكان الفيافي والبراري وكل من ليس لشماله مرفة ولا
لظهوره مسندة ولا لفخذه جنة لا بد أن يشتكي ظهره إذا طال انتصابه وكثرة
جلوسه ، ومن احتاج احتفال ، ومن استغنى بذلك . فأخرجت لهم الحبكة للجبوة
حتى قامت لهم مكان المتكأ والمسند . فقد قال لك كسرى : فما بال الترك
والخزر وجميع أهل الصحاري والعمد لا يعرفون الاحتباء ، وال الحاجة واحدة
والعقول سليمة ، فلم أمسكت يومئذ عن الجواب ؟ لأنه استفهم استفهام الراد
أو نفست به على من شهد ذلك المشهد ؟

[٣٢ - امثلة على المعرفة وطرقها]

وأنا جعلت فداك أعلم إني أسمع ولا أعقل كيفية السمع ، وأعلم إني
أبصر ولا أعقل كيفية البصر ، ولا أدرى أمعدن العقل الدماغ والقلب بابه
وطريقه ، كما أن معدن اللون جميع النفس والعين بابه وطريقه ، أم معدن
العقل القلب دون الدماغ أو لعلهما موصولان غير مقطوعين . وقد اعتل قوم
للدماغ بأن جميع العواص في الرأس . واعتلت قوم بالحس وبما يجدون في
قلوبهم من الرعب والإضطراب وغير ذلك . فكيف القول فيه وعلام عزمت
منه . وكيف صار الناظر يبتدي من جهة وإن كان يعرف الله فكيف عرفه ،
أبا ضطرار أم باكتساب . وكيف جهل سليمان موضع ملكة سبا ، وهو ملك
وشأنه عظيم والجن له مسخرة والطير له برد والريح له أداة ، وكيف جهل
يوسف مكان أبيه وحاله في الحزن عليه حاله وهو ملك نبي ، وكيف جهل أبوه
مكانه وهو نبي ، وليس أبه من نبي ، وملك هذا بالشام والأخر بمصر . وما
تفول في أهل التيه وعن ترددتهم أربعين عاما في مكان واحد وعقولهم معهم ،

وإنما يجولون ليقفوا على الطريق ، فكيف أصل الجميع الطريق مع ارتفاع الذكر وشدة الطلب . وخبرني عن كلام عيسى في بطن أمه ثم في المهد ، وعن عقل يحيى في حال الصبا ، أكانا في حالهما يتعلمان ما لا يعلمان أم ينطقان بما يعلمان ؟ وكيف علما ، أبتجربة واستبطاط وعن تمام أداة وكمال آلة ، أم من طريق الإلهام والإخراج من العادة .

وقد تعجب ناس من إطالي ومن كثرة مسألي ، وتعجب من تعجبهم أشد والذي كان من إنكارهم أعظم ولو رغبوا في العلم رغبتي ورأوا فيه مثل رأيي وكانت قراؤا كتابي إليك في شبابي وأيام شباب رغبتي لاستقلوا من ذلك ما استكثروا ولاستقصروا منه ما استطالوا . فإن أذنت لي أظهرته ، وإن تجد علي أعلمه .

وسنقول : ما دعاك إلى التنبية بذلك وتعريف الناس مكاني ، وقد نعرف حشمتى وانقباضي وتفورى واستيحاشى ! ولولا أنك جعلت فداك مسؤوال في كل زمان والغاية في كل دهر لما تفردىك بهذا الكتاب ، ولما ألمعت نفسي في الجواب . ولكنك قد كنت أذنت في مثلها لهرمس ، ثم لافتاطون ، ثم لأرسطاطاليس ، ثم أحبيت معبد الجنين ، وغبلان الدمشقي ، وعمرو بن عبيد ، وواصل بن عطاء ، وإبراهيم بن سيار ، وعلي بن خالد الاسواري ، فتربيه كفك والناثي تحت جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص وبه أعنى .

[٣٣ - أسئلة على المرائي والابصار]

وخبرني عن المرائي كيف صارت ترى الوجوه ويبصر فيها الخلق وكذلك كل أملس صقيل وصادف ساكن ، كالسيف ، والسوذبة ، والقوارير ، والماء الراكد ، حتى العبر البراق ، والحدقة السوداء إذا كان الناظر في الحدقة أبيض

والحدقة المغربية إذا كان الناظر فيها أسود . وكيف صار الماء الجاري والسار
 الملتهبة والشمس ذات الشعاع لا تقبل الصورة ولا يثبت فيها المخلق . وعن
 قول من زعم أنه ليس في القمر محق ثابت ، ولا كمد جامد ، ولا سواد
 وآكد ، وإنما ذلك شيء رأه الناس فيه إذ كان أملس صقيلاً بمقابلة الأرض وما
 فيها كما يرى من قابل الحدقة صورة إنسان ، وليس هناك صورة ، وإنما هو
 شيء يوجد عند المقابلة . ولم يصر بعض المرائي يرى الوجه والقفا ويرى
 الرأس منكساً ، ولم كنت لا تجد كتاب الستور والمطارح فيها أبداً إلا مقلوباً ،
 وما تلك الصورة الثابتة في المرأة أعرض أم جوهر أم أي شيء ، وحقيقة أم
 تخيل ، والذي نرى فهو وجهك أو غير وجهك فان كان عرضاً فما الذي ولده
 وما الذي أوجبه والوجه لم يعاشه ولم يعمل فيه . وهل أبطلت تلك الصورة
 المرئية صورة مكانها في المرأة ، ولم وأنت لست تراها في نفس صفيحة
 المرأة ، ولم وكانت تراها في هواء خلف جوفها ، وهل أبطل ذلك اللون الذي
 هو في مثال لونك لون المرأة ؟ فإن لم يكن أبطله فهو هناك إذا صورتان في جسم
 في حال واحد ، أو لونان في جوهر واحد . وإن كان قد أبطل لون الحديد
 فكيف أبطله من غير أن يكون عمل فيه ، وكيف يعمل فيه وحيزه غير حيزه وهو
 لا معاشر ولا متصل ولا مصادم . وسواء ذكرنا صفيحة الحديد أم ما خلفها من
 الهواء وما قداماها من الفرجة ، كل ذلك جسم ذو لون . فان اعتلت بالشعاع
 الفاصل والشعاع يخالف في الحس ، كذلك الحساس وكذلك المحسوس ،
 وكيف نرى المخالف وكيف والشعاع لون وبياض والنفس الحساسة لا تدرك
 شيء من الحواس وما الفرق بين الأنفعان والاحللان وعن قول ما بين السمعون
 والحفرة .

وخبرني عن الفرسطون كيف أخرج أحد راسيه ثلثمائة رطل زاد ذلك أم
 نقص ووزن جميعه ثلاثون رطلاً زاد ذلك أم نقص . وما تقول في السراب ،
 وما تقول في الصدى ، وما تقول في القوس ، وما تقول في طريقة الحمرة ،

وفي طريقة الخضراء ، وكيف اختلفتا والهوا واحد وما يقابلها واحد ، وهل ذلك اللون حقيقة أم تخيل .

[٣٤ - استلة على الالوان]

وخبرني عن لون ذنب الطاووس ما هو ، أتفعل بأنه لا حقيقة له وإنما يتلون بقدر المقابلة أم تقول إن هناك لوناً بعينه والباقي تخيل ! وما تقول في عس الماء كيف اشتد صوته بلا باب والصوت لا بد له من هواء ، وإذا اشتد فلا بد له من باب ، وما تقول في خضر السماء ، أو هو خضر جلدها كما تقول ، أم ذلك لحر الهواء كما يقول خصمك ؟ وهل تزعم أن الأفلاك ذات لون ؟ فان كان لها لون فقد احتملت جميع الاشكال ، وهذا خلاف ما يقولون . وإن لم تكن ذات لون فالسماء إذا غير الفلك فهذا هذا . ونقول أيضاً إن كنا لا نرى القمر المستطيلة البينيان المختلفة من البعد إلا مستديرة فلعل الشمس مصلبة والكواكب مربعة . وما تقول في المد والجزر ، أمن ملك يضع رجلاً ويرفعه رجلاً ، فان كان كذلك فلعل مدير الفلك ملك ولعل صوت الرعد صوت زجر ملك ، فندع الفلسفة ونأخذ بقول الجماعة ، أم تزعم أن المد والجزر من نفس الجواذب إذا جذب وإذا رفع ! وما تقول في قول من زعم أن القمر مائي وأشبه الكواكب بطبيعة الأرض ، فانما يكون الجزر والمد على مقادير جذبه للماء وإرساله له ، ذلك معروف في منازله ومجاريه يعرف بذلك أهل الجزر والمد .

[٣٥ - استلة على القيافة والظلام]

وخبرني كيف صارت القيافة في النسبة وفي الماء والجو والتربة ، وليس القيافة تكلفاً وصنعة ، ولا عرفت بالاستنباط والتفكير ، فتكون لمن تعلم دون

من يتعلم ، نجدها في بني مدلع ، ثم في خاص من خثعم ، وكذلك خزاعة ، وهي في قريش أقل . وهي في بني أسد أقل ، وليس هؤلاء لاب ولا يجمعهم بلد ، وليس فيما بين البلدين قافة وهي فيهم على هذه الصفة . وكيف لم يختلفوا في لغتهم فينطق بعضهم بالزنجية وبعضهم بالتبطية وبعضهم بالفارسية . فإن قلت فارقهم المعجم والشاعر والبكى والغرير ، فإن الشاعر وإن كان القريض عليه أسهل وهو على القوافي أقدر فإنه يتربوي الشعر ويصنعه ويفرد له ويفكر فيه ، وكيف صار الإنسان يعيش حيث تعيش النار ويموت حيث تموت النار ، يصاب علم ذلك في الحجاب وفي الغرمان ، ولم صار يصر النجوم من قعر البشر العميق ولا يتصدرها أبداً إلا وهو خالص الظلمة . وخبرني عن الظلام أجسم موجود عند زوال الضوء ، أم تأويل قولنا ظلام إنما نزيد به دفع الضوء ! فإن كان الظلام معنى افتراه انقمع في الأرض وكمن عند انبساط الضوء وردد الشعاع ، أم الأرض قرص للضلال كما أن عين الشمس قرص للضباء ، وإن كان قائماً فكيف لم يتلافيا . وإن كانوا قد تداخلاً فكيف لم نجدهما على منظر الأعين ، ولو كان الأمر كذلك فتحن إذاً لم نر ضباء فقط ولا ظلاماً .

[٣٦ - أسللة على نقص الأعضاء الداخلية]

وخبرني جعلت فدائلك لم زعمت أن الحسن للعصب ، وأن التر عصب جامد وأن الرنة لا حسن لها ، وأن من أدام سف اللبان لم يؤلمه المؤلم وأنذه الملد ، وكيف يلذ من لا يتألم ، ولو جاز ذلك لعرف الصواب من يجهل الخطأ ، ولعرف الصدق من يجهل الكذب . هذا ما عندي من العلم البراني وأنت أبصر بالعلم الجوانبي .

وزعم بعض تلاميذك أنك تعلم لم كان الفرس لا طحال له ، ولم صار

البعير لا مرارة له ، ولم كانت السمسكة لا رنة لها ، ولم كانت حيتان البحر لا
السنّة لها ، ولم حاصلت الأرنب ولم اجتررت ، ولم كان قضيبه من عظام ولم
كانت علاقته أجوف السبع أفراداً إلا الكلية . وزعمت أنك تعرف في الخفافيش
سبعين أفعوجية ، ونحن لا نعرف إلا سبعاً ، وأنك تعرف في الذهب مائة
خصلة كريمة ، والناس لا يعرفون إلا عشرة ، وأنك تعرف في البعير ألف داء
ودواء والأعراب لا تدعى إلا مائة داء غير دواء .

[٣٧ - أسلحة على السحر والشيطان]

جعلت فدالك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كاد البيان أن يكون
سحراً » وقال : « إن من البيان لسحراً » وقال عمر بن عبد العزيز وسمع رجلاً
يتكلم بكلام بليغ عجيب لطيف رقيق : هذا والله السحر الحال . وقال الناس
لذى المكر والخلابة ولذى الرفق والتائى : ما هو إلا ساحر ، وقد سحر
بكلامه . وقالوا للمرأة : ساحرة العبيين . وقد ذكر الله السحرة في القرآن وأخبر
عن هاروت وماروت وخبر عن التفاصيل في العقد . وقال الناس : لهم أبقيع من
السحر . إذا أرادوا نفس المعنى المشبه به والمعنى المعهوم عليه والسحر
نفسه . وما الذي اشتقت منه هذه الأمثال ؟ ولم تجدهم أبقاك الله سموا كهان
العرب سحرة ، ولا العراف ساحراً ، ولا العازى ، ولا صاحب الطُّرق ، ولا
من كان معه رئي ، ولا من ادعى تابعة من لدن عمرو بن لحي إلى يومنا هذا .
وما قاله [الساحر] إذا عقد عقداً أو دفن صورة بالأندلس لرجل بغرغانة وإذا
صور شمعتين وخرطهما على مثال إنسانين ودفعهما وخباً مكانهما وقابل بين
وجوههما تقابلًا بالمودة ، وإن دابر بينهما تدابرًا بالعداوة . وقل لي من يتولى
هذا له ومن يقوم له به ومن يتطلع به عليه ، فإن قلت الشيطان ، فلم فعل
هذا له وأول شيطنته أن لا يطيع من هو فرقه ، فإن قلت : بالعزيزات التي لا ترد

والإيمان التي لا تدفع ، فقد عزم الله عليه بالقرآن والتوراة والإنجيل فلم يجده بحفل بذلك ولا يرى له قدرًا ولا يكترث له ولا يراه نبياً . وأخبرني ما هذه العزيمة التي إذا سمع بها أجاب ، وإذا ظهرت له أجاب ، ومن أين عرف الإنسان هذه العزيمة ، ومن أين وقع عليها ، ومن له بها ، فهو صنعتها أم صنعت له فإن يكن الشيطان هو الذي ابتدأ بها فقد ابتدأه إذا بتعریف العزيمة قبل أن يعزم عليه ، وقد تطوع بأعظم الأمور ، فما الذي يحوجه إلى العزيمة في أصغرها ، فقل في هذا . وإن زعمت أن العازم صاحبه دون الشيطان ، والعازم مسلم وإن كان مسلماً ولذلك أجاب العزيمة وعظم الإخلاف ، فلم يخبل له الأصحاب ويقتل المرضى ولم يحبب وبغض ، ولم يفرق بين المرء وأهله ، وبين الرولد البار وأمه ، ولم يجتلب العفاف إلى الزناة ، ولم يعذب ويقتل ؟ وهذا متناقض .

[٣٨ - أمثلة على بعض عجائب الحيوانات]

ولم قيل أعق من ضب وأبر من هرة ، وهما جمعهما يأكلان أولادهما ، ولم عال الذئب أولاد الضبع إذا قتلت أو ماتت حتى قال الشاعر : « حتى عال أوس عيالها » وهل يفهم الضبع قولهم : خامر أم عامر ؟ وما بال الظبي لا يدخل كناس إلا مستدراً وهل يجوز قولهم في نوم الذئب قال الشاعر :
يَسَّامُ بِإِخْذِي مُقْلَثِي وَيَسْقِي الْمَنَابِي بِأَخْرَى فَهُوَ يَقْطَنُ هَاجِع

ولم نامت الأرنب مفتوحة العينين ، ولم أكل الذئب صاحبه إذا رأى به دمًا ، وما بال الجن والثيران ، وما بال الشياطين والورشان ، وهل في العجائب جنان . وما معنى قولهم : كأنما كسر فجر . وما تأويل الحديث : يؤخذ للجماء من القراءة . ويكلف أن يعقد بين شعيرتين .

[٣٩ - الجواب على هذه الأسئلة موجود في كتب الجاحظ]

ولم زعمت أن عمر نوح أطول الأعمراء مع قوله أن جميع الأنبياء قد حذرت من الدجال ، وأن الدجال إنسان . وقد سألك وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلا ولا كثيرا ، فإن أردت أن تعرف حق هذه المسائل وباطلها وما فيها خرافات وما فيها محال وما فيها صحيح وما فيها فاسد ، فالزم نفسك قراءة كتابي ولزوم بابي وابتدىء بنفي التشبيه والقول بالبداء واستبدل بالرفض الأعتزال ، وأن أنتكر منعك بعد التمكين والبذل وبعد التقرير والشحذ فلا يبعد الله إلا من ظلم .

[٤٠ - مجموعة من حكم الفلاسفة]

وقد بقيت لي عليك مسائل وهي خاتمة الكتاب ومتنه المسائل : أيهما أحسن قول بقراط مفسرا : العمر قصير والصناعة طويلة والزمان جديد والتجربة خطأ والقضاء عسر ، أم قول أفلاطون مجملأ : لو لا أن في قولي أنني لا أعلم ثبتيأ لأنني أعلم لقلت إني لا أعلم ، أم تواضع أرشخانس حيث يقول : ليس معي من فضيلة العلوم إلا علمي بأنني لست بعالما . فانتظر في آخر هؤلاء ثم انظر في قول ديمقراط : عالم معاند خير من عالم منصف جاهل ، وفي قول تلميذه الأول : الجاهل لا يكون منصفاً والعالم لا يكون معانداً وقد يكون العالم معانداً . ثم انظر في قول ريسموس : لو لا العمل لم يطلب علم ، ولو لا العلم لم يطلب عمل ، ولأن أدع الحق جهلا به أحب إلى من أن أدعه زهداً فيه ، وإن كان الجهل لا يكون إلا من نقصان في آلة الحسن فإن المعاندة [هي] زيادة في آلة الشر ، ولأن أترك جميع الخير أحب إلى من أن أفعل بعض الشر ، ثم انظر في قول تومقراط : العلم روح والعمل بدء ، والعلم أصل

والعمل فرع ، والعلم والد العمل مولود ، وكان العمل لمكان العلم ولم يكن العلم لمكان العمل . فالسبب الحالب خير من السبب المجلوب ، والغالب خير من المغلوب . وانتظر في قول اقليمون : العلم كان من العمل والعمل غاية ، والعلم رائد والعمل مرشد . ثم انظر في قول ارسطاطاليس : ليس طلبي العلم طمعا في بلوغ قاصيته ولا سبيلا إلى غايته ولكن التنس ما لا يسع جهله ولا يحسن بالعقل خلافه . ثم انظر في قوله : قد عرفت الارتماطيقى ، وأيقتنت معرفة الموسيقى ، وعرفت المساحة ، فلم يبق إلا علم الألهي ومعرفة الاصلاح . ثم انظر في قول مورسطوس : عرفت أكثر المقصود وأقل ما يوقف عليه من المبسوط ، وقليل الكثير كثير ، وكثير القليل كثير .

ثم انظر في قول اقليمون : ما أقل منفعة كثير المعرفة مع شرف الطبيعة واقتضاد الشهوة . ثم انظر في قول تلميذه الأول : غلبة الطبيعة تبطل المعرفة وتensi العاقبة ولو كانت المعرفة ثابتة ل كانت هي الغالية . ثم انظر في قول تلميذه الثاني : ليس بعلم ما كان مغلوباً وليس بهم ما كان مغموراً بل لا يكون مغلوباً إلا بالتفص والخيال ولا مغموراً إلا بالغلبة والانتقام . ثم انظر في قول ما سرجس : من قصر عن طلب العلم لرغبة أو رهبة أو منافسة أو شهرة . كان حظه من الرغبة وحظه من الرهبة على مقدار حق الرهبة . ومن طلب العلم نكرم العلم والتمسه لفضل الإستبانة كان حظه منه يقدر كرمه وقدره ، وانتفاعه به على حسب استحقاقه في نفسه .

وقد اختلفوا في العقل بأكثر من اختلافهم في العلم ، فمعنى من ذكره لك عمومه عليك واستداره عنك ، وعلمت أني لا أقدر أن أصوّر لك دون دهر طويل ، ولا أضمنك معناه دون ترتيب كثير .

[٤١ - فوائد هذا الكتاب]

هذا الكتاب مُرْضى مع ما فيه من الالخلات من أشکال وأضداد ، ومن

الجد والهزل ، ومن الحظر والإطلاق ، ومن الاستئاف والقطع ، ومن التحفظ والتضييع ، ومن التثبيت والتهاون ، إذا أريد به تقرير معجب أو نكشيف مموه ، أو امتحان مشكل ، أو تخجيل وقاح ، أو قمع ممار ، أو مجازحة ظريف ، أو مساءلة عالم ، أو مدارسة حافظ ، أو تنبئها على الطريق ، أو تجديداً للذهن .

[٤٢ - حاجة العقل الى الشحد]

والعقل حفظك الله أطول رقدة من العين ، وأخرج الى الشحد من السيف ، وأفقر الى التعهد ، وأسرع الى التغير ، وأدواه أقتل ، وأطباوه أقل ، وعلاجه أعضل . فعن تداركه قبل التفاقم أدرك أكثر حاجته ، ومن رامه بعد التفاقم لم يدرك شيئاً من حاجته . ومن أكبر أسباب العلم كثرة الخواطر ثم معرفة وجوه المطالب ، ثم في الخواطر الغث والسمين ، والفاسد والصحيح والمسرع اليك والبطيء عنك ، والدقائق الذي لا يكاد يفهم ، والجليل الذي لا يلقى الفهم . ثم هي على طبقاتها في التقديم والتأخير ، وعلى مآذلها في التباهي والتمييز . والمطالب طرق ، ولدرك الحقائق أبواب ، فمن أخطئها وانتظر كان أسوأ حالاً من لم يخطئها ولم يتضرر . وعلى قدر صحة العقل يصح الخاطر ، وعلى قدر التفرغ يكون التبه . هذا جماع هذا الباب وجمهوره وأقسامه وجملته . ثم من أفعى أسبابه الحفظ لما قد حصل والتقييد لما ورد والانتظار لما يرد أن لا تخلي نفسك من الفكرة إلا بقدر جام الطبيعة ، وأن تعلم أن مكان الدرس من الحفظ كمكان الحفظ من العلم ، وأن تعرف فضل ما بين طلب العلم للمنافسة والشهرة وبين طلبه للرغبة والرهبة ، وأن تعلم أن العلم لا يوجد بمكتوبه ولا يسمح بسره ومخزونه إلا لمن رغب فيه لكرم عنصره ، وفضل لهحقيقة جوهره ، ورفعه عن التكسب وصانه عن التبذل ، وأنه لا يعطيك خالص الحكم حتى تمعطيه خالص الحبة . وكان يقال: من شاب

شيب له وخصلته ينبعي ان تعرفها وتصطعنها وتذكراها وتقف عندها وهي ان تبدأ من العلوم بالمهم ، وان تخثار من صنوفه ما انت له انشط والطبيعة به اعن ، فإن القبول على قدر النشاط ، والبلوغ فيه على قدر العناية . ثم من افضل أسبابه تخليص أخلاطه وتمييز اجنبه والمعرفة باقداره حتى تعطي كل معنى حقه من التقرير والرقة ، وقسطه من الإبعاد والضمة وحتى لا تشاغل إلا بالسمين الثمين وبالخطير النفيس ، ولا تلفي إلا الغث الخبيث والحقير السخيف ، فانك متى كنت كذلك لم تميز فضل ما بين النظرين ولا فرق ما بين التعنتين . والكيس كل الكيس والحنق كل الحدق أن لا تعجل ولا تبطيء وأن تعلم أن السرعة غير العجلة ، وأن تعلم أن الآلة خلاف الإبطاء ، وأن تكون على يقين من درك الحق إذا وفته شرطه ، وعلى ثقة من ثواب النظر إذا أعطيته حقه .

[٤٣ - الخاتمة]

هذا جملة العذر في هذه الرسالة ، وجملة الحجة فيما قدمنا من الأقتنان والإطالة . فان كانا أصبينا فالصواب أردننا وإلى غايتها أجرينا ، وإن كانوا قد أخطأنا بما ذلك عن فساد من الضمير ولا عن قلة احتفال بالتفصير . ولعل طبيعة خانت ، أو لعل علة حدثت ، أو لعل سهواً اعترض ، أو لعل شغلاً منع .

خفض عليك أيها السامع فان الخطأ كثير غامر ومستول غالب ، والصواب قليل خاص ومجموع مستخف . فوجه اللائمة الى أهلها والزمرة من هو أحقر بها ، فلنهم كثير ومكаниهم مشهور . كنت أتعجب من كل فعل خرج من العادة فلما خرجت الأفعال باسرها من العادة صارت بأسرها عجباً ، فيدخلون كلها في باب التعجب خرجت بأجمعها من باب العجب . وقد ذكر الله تعالى التعجب في كتابه ، وقد تعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم في زمانه ، وفي الناس يومئذ

الناقص والواقر والمشوب والخالص المستقيم والمخرج . قال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ وإنْ تَعْجَبْ فَعَجِّبْ قَوْمٌ 》 وقال 《 بَلْ عَجِّبْتْ وَيَسْخَرُونَ 》 واعلم أنه لم يرق من التعجب القائل إلا نصيب اللسان ، ولا من المستمع القائل إلا حصة السمع . وأما القلوب فخاوية قاسية وراكرة جامدة ، لا تسمع داعيًّا ولا تحيب سائلاً قد أغفلها سوء العادة واستولى عليها سلطان السكرة . فدع عنك ما لست منه فان فيها أورده عليك شغلاً وها داخلاً .

إعلم أن الله تعالى قد مسخ الدنيا بحذافيرها ، وسلخها من جميع معاناتها ، ولو سخنها كما مسخ بعض المشركين قردة ، أو كما مسخ بعض الأمم خنازير ، لكن قد بقي بعض أمورها وجنس عليها بعض أغراضها ، كبقية ما مع القرد في ظاهره من شبه الأدمي ، وبقية ما مع الخنزير في باطنها من شبه البشري ، لكنه جل ذكره مسخ الدنيا مسخاً متبعاً ومست遁اً مستغرقاً ، فيين حاليهما جميع التضليل ، وبين معنويهما غاية الخلاف . فالصواب اليوم غريب وصاحب مجھول . فالعجب من يصبب وهو مغمور ، ويقول وهو منزع ، فإن صرت علينا عليه مع الزمان قتلته ، وإن أمسكت عنه فقد رفدتة ، ولسنا نريد منك النصرة ولا المعونة ولا التأنيس ولا التعزية ، وكيف أطلب منك ما قد انقطع سبيه وأجئت أصله . وقد كان يقال : من طلب عيًّا وجده . هذا في الدهر الصالح دون الفاسد . فان أنصفت فقد أغربت ، وإن جرت فلم تعد ما عليه الزمان . وهب الله لنا ولنك الإنصاف وأعادنا وليك من الظلم .

والحمد لله كما هو أهلـه ، ولا حول ولا قوـة إلاـه ، وهو حـسبـنا ونعمـ

الـوكـيلـ .

٢١ - هامش كتاب التربيع والتدوير

- (١) لم يبدأ الكتاب بالمقدمة التقليدية التي عهدها في كتب الجاحظ . هذا يدل على أنها حذفت ، وان قسماً من الكتاب بتر . ومطلع الكتاب المتعلق بالتعريف باحمد بن عبد الوهاب المثبت هنا (حوالي اربع صفحات ساقط من طبعة عبد السلام هارون موجود في طبعة المستدوري) .
- (٢) نجد مقدمة مبشرة هنا : « بسم الله الرحمن الرحيم : اطال الله برقامك واتم نعمته عليك وكرامته لك » . هذه المقدمة ارجح أنها مقحمة من قبل الناسخ وليس للجاحظ .
- (٣) قوله ان احمد بن عبد الوهاب لا يتورع عن مطاولة أبي جعفر اي محمد بن عبد الملك الزريات ومخاشهته ومنافرته في المجالس العائلة بكبار الحكماء ، ولا تحدى الجاحظ والتطاول عليه ، بين لنا الدافع الذي حفظه على كتابة هذه الرسالة . لقد ضاق ذرعاً من تطاول هذا الكاتب المعندي بنفسه فشن عليه هذه الحملة من السخرية والاستهزاء والتبيح والتشريع .
- (٤) لاحظ كيف يهزاً من كبرسن احمد بن عبد الوهاب فيتهم بالخرف ويقارن عمره المديد باعمار الهيكل (المادة الأولى للعامل عند ارسطور والمثاثين وهي قديمة وليس حادثة) وضر لقمان .
- (٥) الطوفان كما جاء في الكتاب المقدس والقرآن . وسبيل العرم الذي نجح عن انهيار سد مأرب في اليمن . وقد الفي الجاحظ اضواء على ما يتعلق بالطوفان مثل سفينة نوح وغرابه ، والقبائل التي بادت بسببه .
- (٦) معلومات تاريخية قديمة تتعلق بجرهم وطروس وهرمس وارميا او الخضر وبمحى

٦٣٧ بين زكريا وسوس المنتظر ، وفيه وعيّر ، وأولاد السعالى ، وقططان وعدنان
وقصاعة وحمير وطي ، وهاروت وماروت .

(٧) في الطبيعة يطرح أسئلة محبحة مثل الماء ، وتكونه ونضويه ، وعمل الفلك في عالم
الارض ، وكيف تفرق الناس إلى اعراق مختلفة الالوان ، وسر الوراثة والتشبه بين
الاب والابن .

(٨) علم الحياة بطرقه بباب الجاحظ فيسائل عن أطون المخلوقات عمرًا : الانسان ام
الحيّة ام القشب . ومتي يتوقف النسر عن السفاد والتناسل ، وتم لا يصل البغل .

(٩) وعلم الآثار يحتل مركزه من اهتمام الجاحظ . فيسأل عن ساقى كعبة نجران ،
وغمدان ، وتدمير ، والهرمن ، ومارب ، والابلق الفرد في الحيرة . . .

(١٠) اثر الأقليم في البشر ، وعلى اي اساس قسمت الارض الى اقاليم ، وما هو
السبب في اختصاص سكان اقليم بميئنة دون أخرى .

(١١) الاوئن ومكانها وزمانها مثل ود وسراع وغوث ويعوق ومناة والعزى والغائب
وعائم واساف وثالثة الخ . . .

(١٢) القراءة والفال والشجوم او معرفة الغيب تشغل باب الجاحظ ايضاً . فيسأل عن
أسرار الكيمياء ، والزجر ، واسرار الكف ، والنظر في الاكتاف ، وفرض الفارة ،
ودوائر الرأس ، والتجيم ، وانبانج والبارج ، ودماء الملوك للكلبي ، وصرع
سيطان ، وتلوث الغيلان الخ .

(١٣) الاسئلة حول معتقدات الشيعة تدل على شاك الجاحظ فيها مثل عنقاء ، مغرب
والشق الاحمر وثور الله في الارض وشعب رضوى وبضم الخفافش والجفر
والرجعة والمناسحة والبداء .

(١٤) الجن وطبيعتهم وعملهم بالناس او علاقتهم بهم وبعض اسمائهم مثل شقلون
واهرمن وفردش واير شارش الخ . . .

(١٥) الكيمياء وسائلها وادوتها وعاصيرها يتم بها الجاحظ امثال الفرق بين الطاس
والكأس ، والاقبة ، وصنعة الزجاج ، والرخام ، وصنع الذهب ، والتوضاد ،
والاصباغ الخ .

(١٦) هرمون الحكم واهتمامه بالفلك ، والفلاطون وخالفته ارسطو اسئلة تدل على اطلاق
الجاحظ عليهم .

(١٧) مساوية المزاج كثيرة : السخف ، التزبد ، المكر ، الخداع الخ .

(١٨) الجاحظ يطلب العفو من احمد بن عبد الوهاب لأنه مزح معه او سخر منه .
(١٩) للمزاج محسن الى جانب المساوية . لاحظ جدل الجاحظ .

(٢٠) الجاحظ يعمد الى مدح احمد بن عبد الوهاب لبکفر عن اسأاته الـ
بسخریته ، ولكن مدحه جاء ساخراً او مقلوباً مثل مدح المتنبي لکافور
الاخشیدي .

(٢١) لاحظ جمال احمد بن عبد الوهاب وتطبیق مفهوم الجاحظ الجمالي علیه
ـ الاعضاء الموزونة والاجزاء المقدوّدة مع عدم التفاوت في الاحجام . (راجع
نظريّة الجاحظ الجمالية في كتابنا « نحو رؤية جديدة لفلسفة الفن » ولكن
السخريّة تبدو واضحة في قوله مثلاً « وما ندرى في اي الحالين انت أجمل ،
وفي اي المنزلين انت اکمل ، اذا فرقناك ام اذا جمعناك ، اذا ذكرنا كذلك ام اذا
تأملنا بعضك ؟ فاما كفك فهي التي لم تخلق الا للتقبيل والترويج ، وهي التي
محسن بحسنها كل ما اتصل بها ويختال بها كل ما صار فيها . . . » .

(٢٢) العودة الى حديث المزاج والجد برهان على خاصية الجاحظ الاستطرادية التي
انسنت بها آثاره الأدبية خاصة .

(٢٣) من شروط التمثيل ان يكون الشيئان متقاربين .
وانواع الخطأ ثلاثة : خطأ الحس وخطأ الوهم وخطأ الرأي . والمعروفة نوعان :
استبطاطية وعيانية . (راجع نظریته في المعرفة وشروطها في كتابنا (المناخي
الفلسفية عند الجاحظ ، نظرية المعرفة) .

(٢٤) الامامة عند الشيعة : يعود الجاحظ الى هذا الموضوع مرة ثانية لأن احمد بن
عبد الوهاب كان شيئاً . وتتجدر الاشارة هنا الى نبوءة الجاحظ بما انتبه
الامامة عندهم وهي غيبة الامام الثاني عشر وهو المهدي المنتظر .

(٢٥) يبحث الجاحظ لخاصية الاستطراد في أدبه بقوله ان الناس يملون الشيء الكثیر
ويستقللون الطويل وان كثرة محاسنه وفوائده .

(٢٦) الاسئلة حول المتنبي والنبي ودلائل النبوة بحثها الجاحظ واجاب عليها في كتاب
حجج النبوة . فليراجع في كتاب رسائل الجاحظ الكلامية .

(٢٧) انتشار الاديان بين الشعوب والقبائل مثل تنصر التعمان ملك الحيرة ، وتهود ذي
نواس ملك اليمن ، وتمجس ملوك سبا في اليمن .

(٢٨) عودة الى الحديث عن العرافة وال술حر عملاً بالاستطراد الجاحظي .

(٢٩) الاسئلة حول الذاكرة وعوامل النسيان تدل على اهتمام أبي عثمان بعلم النفس
وقصایاه . وينبغي ان يكون قد بحث هذا الموضوع في بعض كتبه الضائعة .

(٣٠) علم الرياضة لم يهمله الجاحظ وينبغي ان يكون قد الف فيه كما نستشف من

اسماء كتبه الضائعة . وفي كلامه اشارة الى مصادر هذا العلم : الحساب اخذ عن

الهند ، والجر ساهم به العرب لأن اسمه عربي .

(٣١) فن الموسيقى احبه الجاحظ ولكن لم يبلغ شهرته منه لماذا ؟ ومن اعلامه فينا غورس واقليدس وغيرهم . ومن اشتهر في الظرف والموسيقى الجنادنان وابو طيبة والسراب وحياته وسلامة وعزة الميلاد وجملة الحديباء انخ ..

يذكر الجاحظ اسماء عدد من الكتب المعرفية التي لم يعرف اصحابها امثال كتاب كلوريست الضخم (الف مجلد) المجموعي الاصل ، وكتاب السطرق السرومي الاصل . وكتاب اسرار الهند ، ولعبة الشطرنج ، وكتاب كلية ودمة .

(٣٢) موضع المعرفة حظي باهتمام الجاحظ كموضوع مستقل . ويدو الجاحظ حائراً في تحديد مركز العقل هل هو الدماغ او القلب . ودور الحواس في المعرفة .
(راجع رسالة الجنوبيات في المعرفة ، ضمن رسائل الجاحظ الكلامية) .

(٣٣) علم النبات والمرانى (جمع مرأة) لم ينسه الجاحظ . وهو يسأل عن طبيعة الصورة الثابتة في المرأة ، هل هي عرض او جوهر وحقيقة او تخيل .

(٣٤) الالوان وحقائقها بحثها الجاحظ في كتاب الحيوان . وهو يسأل عن السوان الكواكب ، وعلاقة الاشكال بالالوان . والوان القمر وشبهه بالأرض .

(٣٥) القيافة او علم تبع الأثر ، في التراب والجو والماء ، ومن اشتهر بها منبني مدح وخشم وخزاعة وقريش .
ويطرح اسئلة على طبيعة الظلام .

(٣٦) أسئلة فزيولوجية حول وجود وعدم وجود بعض الاعضاء الداخلية في اجسام حيوانات معينة كالغرس الذي لا طحال له ، والعيور بلا مراة ، والسمكة بلا رئة الخ . وقد وردت هذه المسائل في كتاب الحيوان للجاحظ .

(٣٧) عودة الى الشيطان والشحرة مرة ثالثة دليل على شك الجاحظ في الموضوع ، وعلى نهجه الاستطرادي .

(٣٨) الاسئلة التي يطرحها هنا على عجائب الحيوانات شكلت الغرض الاساسي في كتابه الحيوان . وقد كان كلما استقصاء تلك العجائب لاظهار حكمة الله في خلقه .

(٣٩) يخبرنا الجاحظ ان جميع هذه المسائل قد بحثها في كتبه المختلفة ومن يقرأها يعثر على الاجوبة المطلوبة . ويبحث على قراءتها .

(٤٠) هذه المجموعة من حكم الفلاسفة تبرهن على اهتمام الجاحظ بالفلسفة اليونانية وموضوعاتها .

(٤١) لا ينسى الجاحظ ان يمتدح كتابه وبين فوائده بایجاز . فهو على الرغم مما فيه

من اخلاقه واصدقاء وسخرية واستطراد ينبع في مسألة العالم وممازحة الظريف
ومدارسة المتعلم ، ثم هو يشحذ المذهب .

(٤٢) ان العقل بحاجة الى شحد اكثر من السيف . هذا الرأي ابداه الجاحظ اكثر من
مرة في كتابه ، راجع حجج النبيوة ، والمعرفة المغ ..
(٤٣) في الخاتمة يعتذر الجاحظ من الاطالة والافتنان والجدل والخطأ بسبب علة
حدث او سهو اعترض او شغل منع .



لَهُمْ يَوْمًا مُّبِينًا

فهرس الاعلام

- ١-
- آدم : ٤٣٧ ، ٣١٧ .
 - آدم ، عناق بنت : ٤٠٤ .
 - آل ساسان : ١٣٦ .
 - الأيدال : ٤٠٢ .
 - ابراهيم (المغنى) : ٢٦٣ .
 - ابراهيم (الموصلي) : ٢٠٦ .
 - ابراهيم (النبي) : ٢٧٦ .
 - ابربارش : ٤١٢ .
 - ابربارش : ٤١٢ .
 - الأبلة : ٤٠٥ ، ٢٠٠ .
 - الأبلق الأسدى : ٤٣٢ .
 - الأبلق الفرد : ٤٠٨ .
 - إيسليس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ٣٢٢ .
 - الأبرد : سفيان بن : ٣١٤ .
 - ابي صالح ، ابن : ٢٠٩ .
 - ابي صفرة ، ابن : ٣٣٨ .
 - ابي الصلت : ابن : ٤٣١ .
 - ابي طالب : علي ابن ١٥٥ ، ١٥٦ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، ٣٢٦ ، ٤٠٠ ، ٤٢٧ .
 - ابي ليل ، ابن : ٣٩٠ .
 - ابي ، ابن : ١١٦ .
 - أبيه ، زياد ابن : ٣٥٦ .
 - الأحـلـف : ١٣٠ ، ١٣٦ ، ٢٨٦ ، ٤١٠ .
 - أدريس : ٤٠٢ .
 - الأردوان : ٢١٨ .
 - ارسططاليس : ٤٤٥ .
 - ارشخانس : ٤٣٥ ، ٤٤٤ .
 - الأرکون : ٤٠٩ .
 - أرميا : ٤٠٢ .
 - الأزد : ١٣٧ ، ١٧٣ .
 - أساف : ٤٠٩ .
 - اسباد : ٤٠٨ .

اسعد ، بنو : ٤٤١ .

الاسكندر : ٤٠٢ .

اسماعيل : ٤٠٢ .

الاسود الغنفي : ٤٣١ .

اسيد ، خالد بن : ٣٦١ .

الأشكاك : ٢١٨ .

اشيم ، صلة بن : ١٧٣ .

الاصمعي : ٤٠٠ .

الاصل : ٤٠٣ .

الاعزال : ٤٤٤ .

الاعشى : ٤١٠ ، ١٧٠ .

الاعمش : ٩٢ ، ١١٨ .

الاعور ، ابو عثمان : ٣٦٢ .

افعى : ٤٠٨ .

افلاطون : ٤٤٤ .

اقليدس : ٤٣٥ .

اقليمون : ٤٤٥ .

الله : ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،

، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١١٤ ، ١٠٨ .

ابامونة : ٤٣٢ .

بعجالة : ٤٢٨ .

بخيشع : ٢٨٧ .

بلدر ، حارثة بن : ٣١٦ .

بلدر ، حلبيقة بن : ١٣٧ .

بنديل ، ورقاء بن : ١٥٦ .

برزه ، ابو : ٣٥٢ .

بركوير : ٤١٠ .

برهوت : ٤٠٩ .

البسوس : ٣٠٣ .

الأندلس : ٤٤٢ .

انس : ١٦٢ .

انطاكيه : ٤٠٢ .

انوشروان^٩ : ١٣٦ .

اهرمن : ٤١٢ .

أوس : ١٠٩ .

أوسن القرني : ١٧٣ .

الإياتي : ٣٩٤ .

إيدرشن : ٤١٢ .

إيليا : ٤٠٢ .

- ب -

باب ، عمرو بن عبيدة بن : ٣٦٢ .

بابل : ٣١٤ ، ٤٠٨ .

بابك ، ازدي Shirin : ١٣٦ ، ٢١٨ .

البلي : زهير : ٣٩١ .

باقل : ١٢١ .

بام : ٤١٢ .

ابامونة : ٤٣٢ .

بعجالة : ٤٢٨ .

بخيشع : ٢٨٧ .

بلدر ، حارثة بن : ٣١٦ .

بلدر ، حلبيقة بن : ١٣٧ .

بنديل ، ورقاء بن : ١٥٦ .

برزه ، ابو : ٣٥٢ .

بركوير : ٤١٠ .

برهوت : ٤٠٩ .

البسوس : ٣٠٣ .

بشر المرسي : ٢٣٦ .
البطحي : ٤٣٢ .
بعاث : ٣٠٣ .
بغداد : ٢٧٩ ، ٢١٨ .
بقراط : ٤٤٤ .

بكر ، قبيلة : ١٢٩ ، ١٣٧ ، ٣٢٠ .
بكر ، أبو : ١٥٦ ، ١٦١ .
بلال : ٤٠٣ .
بلغ : ٤٠١ ، ٣٤١ .
بلقيدون : ٤٠٩ .
نصر ، ابن : ٤٠٢ .
بنطس : ٤٠٣ .
شهرام : ١٠٧ .
نبهيا : ٤١٤ .
بوران : ٤٠٨ .

- ت -

تبت : ٤٠٩ .
تلعر : ٤٠٨ ، ٤٠٥ .
جبلة : ٤٣٥ .
الجنة : ١٢١ .
جندل ، ابن : ٤٣ .
تغلب ، قبيلة : ١٠٩ .
التملر ، قاسم : ٣٩٥ .
غميم ، قبيلة : ٣٢٠ .
توقراط : ٤٤٤ .

- ث -

الشفني ، أبو العاص : ٣٦٢ .
الشفني ، الحكم بن صخر : ٣٦ .

- ج -

الباحثظ : ٣٦٢ ، ٣٢٢ ، ٢٨٥ .
جاسم : ٤٠١ .
جالينوس : ٢٨٨ .
جامع : بن : ٢٦٣ .
جبل ، معاذ بن : ١١٨ .
جبل الماس : ٤٠٣ .
جيبر ، سعيد بن : ١١٨ .
جدعان ، بن : ٤٠٩ .
جريس : ٤٠١ .
الجرادتان : ٤٣٥ .
جوري : ٤٣٢ .
جرهم : ٤٠١ .
جريز : ١٧٠ ، ٤٢٨ .
جعفر ، أبو : ٤٠٠ .
جبلة : ٤٣٥ .
الجنة : ١٢١ .
جندل ، ابن : ٤٣ .

- ح -

حاتم الريش : ٣٠٠ .
الحارث ، النعمان بن : ٤٣١ .
الحارثي : ٤١٠ .
حازم ، ابن : ١٥٧ .
حباب ، صالح بن : ١١٨ .
الحباب ، واية بن : ١٥٨ ، ١٥٩ .

- الحضر : ٤٠٢ ، ٤٠٩ . . حبابة : ٤٣٥ .
- الخطاب ، عمر بن : ١١٨ ، ٩٧ . . حثة ، أبو : ٣٠٠ .
- ١٥٠ ، ١٦٣ ، ٩٩ ، ٤٢٢ ، ٤٢٨ . . الحجاج : ٩٥ ، ١٩٥ ، ٤٢٧ .
- الخليل البصري : ٢٠٦ ، ٣٤٢ . . احزام ، قيس بن : ٤٣٥ .
- خلف ، احمد بن : ٤٢٨ . . الحراة : ٢٠١ .
- خمعة : ٤٠٨ . . حذيفة ، حصن ابن : ٣١٤ .
- خيثم ، الربع بن : ١٧٣ . . حلبيم : ٤٠٨ .
- - - حزام القائد : ٢٨٧ .
- حسنه : ٤٣٢ . . الحسن : ١١٤ ، ٢٨٥ ، ٣١٩ ، ٣٩١ .
- دارا : ٣١٤ . . حطان ، عمران بن : ٣٩٥ .
- الدارمي ، مسکین : ٩٦ . . حفصة : ٤٣٢ .
- داود ، سليمان بن : ٩٥ . . حنيفة ، أبو : ٩٩ .
- داود : ١٦٠ . . حنين ، صالح ابن : ٣٠٠ .
- الدجال : ٤٠٢ ، ٤٠٩ . . حيبة : ٤٣٥ .
- دجلة : ٢١٨ ، ٤٠١ . .
- دحان : ٢٦٣ . .
- الدرداء ، أبو : ١٥٥ . .
- دركاذب : ٤١٠ . . خاتون : ٤٠٨ .
- دعيمض الرمل : ٤٠٨ . . ابن خاقان ، الاشيم : ٣١٦ .
- دللا : ٤٠٩ . . ابن خاقان ، يحيى : ٣٢٤ .
- ديمقراط : ٤٤٤ . . خثعم : ٤٤١ .
- الدنياوية : ٤٣٢ . . خراسان : ١٣٧ ، ٣٤٠ .
- الذهبية : ٤٣٢ . . المخاز : ١٦٧ .
- دواليبي : ٤١١ . . الخرمي : ١٩٤ .
- دوس : ٤٠٩ ، ٤٠١ . . خزانة : ٤٠٢ ، ٤٤١ .
- ديسان ، ابن : ٤٣١ ، ٣٩٦ . . خزرج ، قبيلة : ١٠٩ ، ٢٨٠ .
- ديك : ١٨٥ . .
- دينار ، أبو : ٣٠٠ . . الحسن : ٤٠٨ .

-غ-

- الخلكي ، عمرو الأعور : ٣٦٢ .
- خاتون : ٤٠٨ .
- ابن خاقان ، الاشيم : ٣١٦ .
- ابن خاقان ، يحيى : ٣٢٤ .
- خثعم : ٤٤١ .
- خراسان : ١٣٧ ، ٣٤٠ .
- المخاز : ١٦٧ .
- الخرمي : ١٩٤ .
- خزانة : ٤٠٢ ، ٤٤١ .
- خزرج ، قبيلة : ١٠٩ ، ٢٨٠ .
- الحسن : ٤٠٨ .

ديبورست المغني : ٣١٥ .

- ذ -

ذؤيب : أبو : ٢٢٥ .

ذبيان : ١٠٩ .

ذونواس : ٤٣١ .

- ر -

الرافضة : ٤٠٩ ، ٤٢٩ .

الرباب : ٤٣٥ .

رمي : ٤٣١ .

ربيعة الرأي : ٣٦١ .

رسول الله : ٩٦ ، ٩٩ ، ١٠٣ .

، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٨ ، ١٦٠ .

، ٤٢٧ ، ٣١٥ ، ٢٣٠ .

رضوي : ٤١١ .

الرفض : ٤٤٤ .

الرقاش : ١٦٩ .

الرقاع : ٤٣١ .

رملة ، أبو : ٣٠٠ .

روم : ١٣٦ ، ٤٠٩ ، ٤٣٢ .

إيلام : ٤٠٨ .

ركوس : ٤٤ .

- ز -

زائدة ، عمر بن : ١١٧ ، ١١٨ ،

، ١٠٧ .

الزاج : ٤٠٩ .

الزياء : ٤٠٨ .

الزبير ، ابن : ١١٧ ، ١١٨ .

زرادشت : ٤٣١ .

زيارة ، أوفى بن : ٣٩٥ .

زرزور : ٤٠٠ .

ذكريا ، يحيى بن : ٤٠٢ .

زكزل : ٢٤٥ .

زهرة ، بنو : ٢٨٠ .

الزهرة : ٤٠٢ .

الزهري : ١٥٧ ، ١٦١ .

زهير ، جنلوب بن : ٤٣٢ .

زهير ، قيس بن : ٣١٤ ، ٤٢٨ .

زياد : ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٢٨٦ ، ٤٢٧ .

- ص -

سام : ٤٠٥ .

السامري : ٤٣٠ .

ساموره : ٤٣٥ .

سبيا : ٤٠٨ ، ٤٣٢ .

السختياني ، أبو : ٢٢٦ ، ٣٩١ .

السروان : ٤٣٥ .

سعد ، بنو : ٢٨٠ .

سعد : ٤٠٩ ، ٤١٢ .

السعدي : ٣٣٨ .

سمر ، مجاعة بن : ٣٩٥ .

السلعنة : ٤١٠ .

سفيان ، أبو ، ١٣٧ .

سفيان ، عنترة بن أبي : ٣٦١ .

سطيع : ٤٣٢ .

شيبة ، ابن : ٢٨٦ ، ٣٤٧ ، ٣٤٨ .
شور ، ابن : ٤١٤ .
شি�صبان : ٤١٠ .
شيفرة : ٤٠٩ .

- ص -

صائد ، ابن : ٤٣١ .
صالح : ٢٠٩ .
صبيح ، ابن : ٣٤١ .
صفوان ، خالد بن : ٢٨٦ ، ٣٤٧ .
صفوان : حنظلة بن : ٤٣١ .
صيفي ، السائب بن : ٣٩٠ .
الصين ، ابن : ٤٠٩ .

- ض -

ضمرة ، ضمرة بن : ٣٩٥ .

- ط -

الطائف : ١٦٢ .
طاهر : ٤٢٨ .
طبيحا : ٤٠٤ .
الطرماح : ٣٧٧ .
طسم : ٤٠١ .
الطفيل ، عامر بن : ١٣٧ .
طلحة : ٤٣١ .
الطروسي : ٣٧٧ .
طروس : ٤٠٢ .
طفيه : ٤٠٢ .
طيبة ، ابن : ٤٣٥ .

سلام ، أجد بن : ٤٠٩ .
سلامة : ٤٣٥ .
سلم ، عقبة بن : ٣٩٦ .
سلم : ٣٤٢ .
سلمان : ٤٠٢ .
سمرقند : ٤٠٥ .
ستان ، خالد بن : ٤٣٠ .
ستداد : ٤٠٨ .
سهل ، الفضل بن : ٤٣١ .
سواع : ٤٠٩ .
سوشي : ٤٠٢ ، ٤٠٩ .
سياه : ١٨٥ .
سيمان : ٤٠١ .
سيرين ، محمد بن : ٤٣٠ .
سيل العرم : ٤٠١ .

- ش -

شبرمة ، بن : ٣٤٨ .
شريه ، بن : ٤٠٨ .
شريك : ٢٦٣ .
شعبة ، بن : ٣٣٩ .
الشعبي : ١٥٦ ، ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٩١ .
شق : ٤٠٨ .
شقرون : ٤١٢ .
الشمام ، أبو : ٣٠٠ .
الشمري ، عمر بن أبي عثمان : ٣٦٢ .
شقائق : ٤١٠ .

- ع -
- العتابي : ٣٤٢ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧ .
 . ٣٤٩ .
- عثمان ، سعيد بن : ٢٦١ .
- العجم : ١٠٩ ، ١٤٠ ، ٣٥٣ .
 . ٢٦٩ .
- علي ، عمروين : ٤١٢ .
- العرق : ١٨١ ، ٣٤٠ .
- العرب : ١٩ ، ١٤٠ ، ٢٠٠ ، ٢٠٦ ، ٢٣٢ ، ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، ٣٥٣ .
 . ٤٤٢ ، ٤٣٢ ، ٤٠٤ ، ٣٨٤ .
- عرج : ٤٠٢ .
- عروة : ١٦٤ .
- عزبة الملاء : ٤٣٥ .
- عربي سلمة : ٤٣٢ .
- العربي : ٤٠٩ .
- عفرونون : ٤٠٨ .
- عقفان : ٤٣٢ .
- العلاة ، أبو عمروين : ١٣٧ .
- علقمة ، كرز بن : ٤٠٨ .
- علي ، اسماعيل بن : ٤٢٨ .
- علي ، صالح بن : ٤٢٨ .
- عمر : ٤١٤ ، ٤٢٧ .
- عمر ، كعب بن : ٣٢٩٥ .
- عمر ، يوسف بن : ١٣٦ ، ١٥٠ ، ٣٩٦ ، ٣٩٠ .
- عمران ، موسى بن : ٢١٧ .
- عمرو : ٤١٠ .
- عربي : احاد بن : ٤٠٥ .
- عاشرة : ١٥٧ ، ٤٣٢ .
- عائم : ٤٠٩ .
- عاد : ٤٠١ .
- ال العاص ، عمروين : ٩٢ .
- ال العاص ، عفان بن أبي : ٣٦١ .
- عاiper : ٤٠٢ .
- عباس ، ابن : ١١٨ ، ١٥٦ .
- عبد الله اسد بن : ٣٠٥ .
- عبد دهمان ، بشير بن : ٣٦٢ .
- عبد شمس : ٨٨ .
- عبد شمس ، عبد الله بن : ٣٦٢ .
- عبد العزيز ، عمر بن : ٢٨٦ ، ٣٣٨ ، ٣٩١ .
- عبد القيس ، ابن : ١٧٣ .
- عبد المطلب ، حزة بن : ١٥٦ .
- عبد الملك ، سلمة بن : ٢٨٦ .
- عبد الملك ، هشام بن : ١٠٥ ، ١٦١ .
- عبد الملك ، عبد الواحد بن سليمان بن : ٣٦٢ .
- عبدة ، علقة بن : ١٦٠ .
- عبد الوارث : ٤٣٢ .
- عبد الوهاب ، أحد : ٣٩٥ .
- عبس : ١٠٩ .
- عيبد ، عمروين : ١٠٤ ، ٣١٧ .
- عيبد ، يوش بن : ٢٢٦ .
- عتاب ، حسكة بن : ٣٩٥ .

- فاف : ٤٠٣ .
 قيس : ٤٠٣ .
 قادة : ٣١٧ .
 فحطان : ٤٠٢ ، ٤٣٤ .
 فرسطون : ٤٣ .
 قريش : ٢٠٠ ، ١٩٩ ، ١٧٣ .
 قشة : ٤٣٢ .
 قضاعة : ٤٠٢ .
 القعامي : ١٧٠ .
 قيس ، سعيد بن : ٣٩٥ .
 قيس : ١٦٤ .
 قيس ، اسحق بن الاشعث بن :
 . ٣٦١
 . ٤٠٢ .
 قيري : ٤٠٢ .

- ك -

- كثير : ١٦٤ .
 كريز ، عبد الله بن عاصم بن : ٣٦٢ .
 الكعبة : ٢٠٠ .
 كهيلة ، رياح بن : ٤٣٢ .
 الكيس ، ابن : ٤٠٨ .

- ل -

- لبد : ٤٠١ .
 لحي ، عمرو بن : ٤٤٢ ، ٤٠٢ .
 لسان الحمرة ، ابن : ٤٠٨ .
 لقمان : ٣١٤ ، ٣٩١ ، ٤٠٨ .

- العوام ، المنذر بن الزبير بن : ٣٦٢ .
 عوج : ٤٠١ .
 عبري : ٤٠٢ .
 العنبري ، غيروز حصين : ٣٦٢ .
 - غ -
 غبقة : ٤٠٩ .
 غراب نوح : ٤٠١ .
 الغريض : ٤١٢ ، ٢٦٣ .
 الغز ، ابن : ٣١٦ .
 غطفان : ٣٠٣ .
 غفار ، نمارق بن : ٣٩٥ .
 غمدان : ٤٠٨ .

- ف -

- فارس : ٢١٨ .
 الفجار ، حرب : ١٠٩ .
 فرتنا : ٤٣٥ .
 الفرات : ٤٠١ ، ٤٠٤ .
 الفرزدق : ٤٢٨ .
 الفرس : ١٣٦ .
 فرعون : ٢١٦ ، ٤٤٢ ، ٤٢٢ ، ٤٤٢ .
 فرغالة : ٤٤٢ ، ٤٠١ .
 الفواري : ٤٣٤ .
 الفطحل : ٤٠٣ .
 فيثاغورس : ٤٣٥ .

- ق -

- قارون : ٤٠٩ .

- لوقا : ٤٣١ .
 ماروت : ٤٠٢ ، ٤١٢ .
 مارية : ٤٠٩ .
 المازني ، عمرو بن بكر : ٣٦٢ .
 ماسرجس : ٤٤٥ .
 مانوية : ٣٠٠ .
 ماني : ٤٣١ ، ٤٣٣ .
 ماجوج : ٤١٢ .
 مارب : ٤٠٨ .
 المأمون : ٣٣٧ .
 متى : ٤٣١ .
 مج ، عبيد : ٤٣٢ .
 مجاهد : ٣٩١ ، ١٦٤ .
 مجذز المذجبي : ٤٠٨ .
 مجعون بن غافر : ١٦٤ .
 محزز ، ابن : ٢٦٣ .
 مخارق : ٢٤٥ ، ٢٦٣ ، ٤٠٠ .
 المخاريقى : ٤٣٢ .
 المخش ، رافع : ٤٠٨ .
 غنف : ١٧٢ .
 المدائى : ٤٠٥ .
 مدلنج : ٤٤١ .
 المذجبي ، سراقة : ٤٠٩ .
 المديري : ٤٣٢ .
 المدنية : ٢٦٢ .
 مرارة ، مجاعة : ٣٩٥ .
 مرقس : ٤٣١ .
- م -
- مروان ، عبد الملك بن : ٣٥٠ .
 مريم ، عيسى بن : ١٠٣ ، ١٠٤ .
 المزنى ، يكربل الله : ٢٤١ .
 مسلح : ٤١٠ .
 مسعود ، ابن : ٦٣ .
 مسلم ، قتيبة بن : ١٣٧ ، ٣٣٩ .
 مسهر : ١١٨ .
 المسib ، سعيد بن : ٢٢٦ .
 المسيح : ٤٩ .
 المشترى : ٤٠٨ .
 مصر : ٢٧٧ .
 المصدقية : ٤٣٢ .
 المصطلق : ٤٣٥ .
 معاذ : ١٦٣ .
 معاوية ، ابراس بن : ٣٩٦ .
 معاوية : ٩٢ ، ١٠٥ ، ١٧٣ ، ٤١٤ .
 نـ
- نائلة : ٤٠٩ .
 النابغة الجعدي : ٣٥١ .
 النبي : ١١٣ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٧ ، ١٣١ ، ١٤٩ ، ٢١٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٤٣٢ .
 نجاح ، ابو الفرج بن : ٣٧٦ .
 نجاح : ٣٧٧ .
 نجاح : ابو الفضل بن : ٣٨٤ .
 نجران : ٤٠٨ .

الستاس : ٤١١ .

النظم : ٤٦٦ ، ٤٠٠ .

النعمان : ٤٣١ ، ٤٣٣ .

غرود : ٤٠٥ .

نهر بابل : ٣١٦ .

نهر المبارك : ٣١٦ .

نواس ، أبو : ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ .

نوح : ١٧٠ ، ١٧٩ .

نوح : ٤٠١ .

الليل : ٤٠١ .

- هـ -

- يـ -

هاروت : ٤١٢ ، ٤٠٢ .

هاشم ، بنو : ١١٨ ، ١٣٧ .

هيبة ، عمر بن : ٣٩١ .

المجمي ، خالد بن الحارث : ٣٦٢ .

هذيم ، سعد : ٤٣٢ .

هر : ٤٣٥ .

هرثمة : ٤٢٨ ، ٣١٤ .

هرم : ١٢١ .

هرمة ، ابن : ٢١٥ .

هرمس : ٤٠٢ .

هريم ، رافع بن : ٣٩٤ .

هلال ، عبد الله بن : ٤٣٢ .

هيسن : ١٦٢ .

الميثم ، عليا بن : ٣٩٥ .

يوسف لفوة : ١٦٨ .

.. ٢٧٧

يوسف : ١١٨ ، ١١٩ ، ١١٦ ، ٢١٦ ،

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمات عامة
١١	مقدمة كتمان السر وحفظ السان
١٥	مقدمة الحاسد والمحسود
١٧	مقدمة النبل والتبل وذم الكبر
٢١	مقدمة مفاخرة الجواري والغلمان
٢٥	مقدمة تفضيل البطن على الظهر
٢٧	مقدمة كتاب العلمين
٣١	مقدمة طبقات المعنين
٣٥	مقدمة الركاء
٣٩	مقدمة مدح التجار وذم السلطان
٤١	مقدمة رسالة الفتيا
٤٥	مقدمة مدح النبيذ وصفة اصحابه
٤٧	مقدمة الشارب والمشروب
٥٣	مقدمة البلاغة والايجاز
٥٥	مقدمة تفضيل النطق على الصمت
٥٩	مقدمة رسالة في صناعة القواد
٦٣	مقدمة رسالة الجد والهزل
٦٧	مقدمة فصل ما بين العداوة والحسد
٧١	مقدمة رسالة في استنجاز الوعد

الموضوع	الصفحة
مقدمة رسالة الى ابي الفرج بن نجاح الكاتب	٧٣
مقدمة رسالة في المودة والخليفة	٧٧
مقدمة التربيع والتلبير	٧٩
 رسالة كتمان السر وحفظ اللسان [١١٠-٨٧]	 [١١٠-٨٧]
١ - موضع الكتاب	٨٧
٢ - العقل واللسان	٨٨
٣ - حب الاخبار	٩٠
٤ - مساوئ افشاء السر	٩٢
٥ - من يذيع الاخبار	٩٥
٦ - كل منزع مرغوب	٩٧
٧ - اكثـر الأمور عرضة لافشاء السر	١٠٠
٨ - الغيبة	١٠١
٩ - العدل	١٠٢
١٠ - الفضول	١٠٤
١١ - عودة الى الغيبة	١٠٥
١٢ - حفظ اللسان	١٠٧
 رسالة الحاسد والمحسود [١٢٣-١١١]	 [١٢٣-١١١]
١ - موضع الكتاب	١١٣
٢ - تعريف الحسد	١١٣
٣ - اسباب الحسد	١١٤
٤ - عواقب الحسد	١١٤
٥ - رأي الحاسد في المحسود	١١٥
٦ - حسد الجيران	١١٧
٧ - الحسود لا يستطيع كتمان سره	١١٧

الموضوع	الصفحة
٨ - معاملة الصديق الحسود	١١٩
٩ - لا خير يرتجى من الحسود	١٢٠
١٠ - الجنة حيث لا حسد	١٢١
١١ - السلامة في الابتعاد عن الحسود	١١٢
 رسالة النبل والتobil وفم الكبر [١٤٠ - ١٢٥]	
١ - مقدمة يعرض فيها على مخاطبة اناس نكروا عليه	١٢٧
٢ - شروط النبل	١٢٨
٣ - نبل السيد	١٢٩
٤ - صفات النبل	١٣٠
٥ - التكبر قبيح في الانسان	١٣٠
٦ - مواضع استحسان الكبير	١٣٢
٧ - صفات اللثيم	١٣٢
٨ - عواقب الكبر	١٣٣
٩ - الكبر رذيلة تعتري مختلف طبقات الناس	١٣٥
١٠ - الكبير ليس من سياسة الملوك	١٣٦
 ٣ - رسالة تفضيل البطن على الظهر	[١٤١ - ١٥٢]
١ - مناسبة الرسالة	١٤٣
٢ - الجاحظ يرجو الهدایة لصاحب الكتاب	١٤٤
٣ - الشريعة تنهى عن الظهور	١٤٥
٤ - فضائل الطعون في القرآن والسنّة والحكم	١٤٦
٥ - حرم الله ابيان النساء من دبرهن	١٤٨
٦ - محاسن المرأة من جهة البطن لا الظهر	١٤٩
٧ - حد الرأني واللوطي	١٤٩
٨ - تفضيل الظهر على البطن يشير الشك	١٥٠
٩ - فضل في ذم اللواط	١٥٢

الموضوع	الصفحة
رسالة مفاخرة الجواري والغلمان [١٥٣ - ١٨٧]	١
١ - موضع الكتاب ومبررات مزج الجد بالهزل ١٥٥	٢
٢ - ذكر الولدان والجواري في القرآن ١٥٨	٣
٣ - ذكر الغلمان والجواري في الحديث النبوى ١٦٠	٤
٤ - حد الزنى واللواط ١٦٠	٥
٥ - النبي يبحث على الزواج والانجاب ١٦٢	٦
٦ - عيوب الزنا ١٦٣	٧
٧ - حب النساء يتيم صاحبه بعكس حب الغلمان ١٦٤	٨
٨ - اشعار في الغلمان والجواري ١٦٥	٩
٩ - صفات المرأة الجميلة ١٧١	١٠
١٠ - مفاخرة اهل البصرة والكوفة ١٧٢	١١
١١ - فضل الجارية على الغلام ١٧٤	١٢
١٢ - الخصيان ١٧٥	١٣
١٣ - مقطوعات في احاديث البطالين ١٧٧	
 رسالة المعلمين [١٨٧ - ٢٠٨]	
١ - مدخل ١٨٩	
٢ - فضل المعلم ١٨٩	
٣ - الحفظ والاستبطاط ١٩٠	
٤ - اكثر العظماء كانوا معلمين ١٩١	
٥ - لجميع اصناف العلوم معلمون ١٩٢	
٦ - الانسان عالم صغير ١٩٣	
٧ - معنى المعلم والمؤدب ١٩٤	
٨ - فقر الأدباء ١٩٤	
٩ - المعلم يراغي مستوى الصبي العقلي ١٩٤	
١٠ - تعلم النحو والرياضية ١٩٥	
١١ - تعلم صناعة الكتابة ١٩٧	

الموضوع	الصفحة
١٢ - عبد الله بن المقفع المعلم	١٩٨
١٣ - تعليم التجارة والصيرة افضل من عمل السلطان	١٩٩
 رسالة طبقات المغنى [٢٠٨ - ٢٠٣]	 [٢٠٨ - ٢٠٣]
١ - تصنيف العلوم	٢٠٥
٢ - الخليل يضع علمي الفناء والعرض	٢٠٦
٣ - ابراهيم الموصلى يتم علم الفناء	٢٠٦
٤ - طبقات المغنين في عصر الجاحظ	٢٠٧
٥ - طريقة تأليف الكتاب	٢٠٨
٦ - الاحتياط من العيب	٢٠٨
 رسالة الوكلاه [٢١٩ - ٢١١]	 [٢١٩ - ٢١١]
١ - مقدمة	٢١٣
٢ - يجب الثبت في الأمور	٢١٣
٣ - ينبغي عدم الانقاد مع الهوى	٢١٣
٤ - ينبغي الاحتراز من اصدار الآراء الفطيرية	٢١٤
٥ - لا ينبغي تعميم الحكم على جميع الوكلاه	٢١٦
٦ - لا بد من صحة الفراسة في معرفة الرجال	٢١٨
٧ - خطر قول : « ما ترك الاول للآخر شيئاً »	٢١٨
 رسالة مدح التجار وذم عمل السلطان [٢٢٧ - ٢٢١]	 [٢٢٧ - ٢٢١]
١ - مقدمة	٢٢٣
٢ - فضيلة التجار	٢٢٤
٣ - ذل رجال السلطان	٢٢٤
٤ - شهرة تجار قريش	٢٢٥
٥ - التجار لا تعلوهم العلوم	٢٢٦

الموضوع

الصفحة

رسالة الفتيا	[٢٣٤ - ٢٢٧]
١ - مدح في مدح أحمد بن أبي دواه	٢٢٩
٢ - صناعة الجاحظ	٢٣٠
٣ - التعريف بكتاب اصول الفتيا	٢٣٠
٤ - الكتاب أفضل من صاحبه	٢٣١
٥ - يجب على العالم اظهار ما عنده	٢٣٢
٦ - غرض الجاحظ في هذه الرسالة مساعدة القاضي وثوابه	٢٣٢
٧ - لدى الجاحظ كتب أخرى	٢٣٤

رسالة مدح النبيذ وصفة أصحابه	[٢٤٩ - ٢٣٧]
١ - وصف النبيذ لا ي فيه حقه	٢٣٩
٢ - النبيذ دواء يشفى من الامراض	٢٤٠
٣ - النبيذ شقيقك الذي شغلت عنه	٢٤٠
٤ - الجاحظ يطلب النبيذ ويخشى ان يرد طلبه	٢٤٢
٥ - النبيذ غنى لمالكه وفقر لفاقده	٢٤٣
٦ - النبيذ يطرد الهم ويعيد الشباب	ذنب
٧ - النبيذ يبعث على الظرف والضحك في كل وقت	٢٤٤
٨ - النبيذ يسبب السرور ويبحث على الجود	٢٤٥
٩ - النبيذ يجمع الندماه ويرفق بالسكارى	٢٤٦
١٠ - مدح الحسن بن وهب	٢٤٧
١١ - اهداء النبيذ دليل على المودة والتقدير	٢٤٨

رسالة الشارب والمشروب	[٢٦٥ - ٢٥١]
-----------------------------	---------------

الموضوع	الصفحة
١ - موضع الكتاب	٢٥٣
٢ - مناقع النبيذ	٢٥٤
٣ - مساوىء النبيذ	٢٥٦
٤ - انواع النبيذ	٢٥٧
٥ - الرد على اسئلة السائل	٢٦٠
٦ - هناك فرق بين الخمر والنبيذ	٢٦٠
٧ - الصحابة ميزوا بين الفرائض والمسكرات	٢٦١
٨ - حرم الله اشياء وحلل سائر اجناسها	٢٦٢
٩ - اهل المدينة حرموا النبيذ ولكنهم ليسوا حججا	٢٦٢
١٠ - مغنو المدينة شربوا الخمر ولم يحدهم اهلها	٢٦٣
١١ - غرض الكتاب الاسامي	٢٦٤
رسالة البلاغة والابجاز	[٢٦٧ - ٢٧٠]
رسالة تفضيل النطق على الصمت	[٢٧١ - ٢٨١]
١ - مدخل : كتاب ثلقاء يمدح الصمت وينبذ الكلام	٢٧٣
٢ - الكلام اداة التعبير عن الحاجات	٢٧٥
٣ - الكلام يميز الانسان عن الحيوانات والجمادات	٢٧٥
٤ - الكلام ينجي صاحبه	٢٧٦
٥ - الكلام يبين فضل صاحبه	٢٧٧
٦ - الكلام دليل على الایمان والشريعة	٢٧٧
٧ - الكلام آلة الشكر	٢٧٨
٨ - فضيلة الخطباء قائمة على بيانهم	٢٧٩

الموضوع

الصفحة

٩ - انزال القرآن بلسان عربي مبين	٢٧٩
١٠ - النبي أفعى العرب	٢٧٩
١١ - علم الكلام جليل لأنه يثبت وجود الله ويبين صفاتاته	٢٨١

رسالة صناعة القواد	[٢٤٩٣ - ٢٨٣]
١ - حسناً للمسان	٢٨٥
٢ - قول القائد في الحرب والغزل	٢٨٧
٣ - قول الطبيب في الحرب والغزل	٢٨٧
٤ - قول الخياط في الحرب والغزل	٢٨٨
٥ - قول الزارع في الحرب والغزل	٢٨٨
٦ - قول الخباز في الحرب والغزل	٢٨٩
٧ - قول المزدبر في الحرب والغزل	٢٨٩
٨ - قول صاحب الحمام في الحرب والغزل	٢٩٠
٩ - قول الكناس في الحرب والغزل	٢٩١
١٠ - قول الشرابي في الحرب والغزل	٢٩١
١١ - قول الطباخ في الحرب والغزل	٢٩٢
١٢ - قول الفراش في الحرب والغزل	٢٩٢

رسالة العيد والهزل	[٣٢٩ - ٣٥٥]
١ - اسباب معاقبة ابن زيارات للجاحظ وعدم المغوبية	٢٩٧
٢ - فم الغيط والاشرار	٢٩٨
٣ - يجب التمييز بين الاخيار والاشرار والمحبين والمبغضين	٣٠٠
٤ - تفضيل النخل على الزرع سبب سخيف للعداوة	٣٠٣

الموضوع	الصفحة
٥ - ذم العجلة	٣٠٤
٦ - ابن الزيات يعرض بالجاحظ لأعماله تجليد كتبه ونظمها	٣٠٦
٧ - ابن الزيات يكيد للجاحظ	٣١٠
٨ - ابن الزيات يعيّب ورق كتب الجاحظ	٣١١
٩ - ابن الزيات يشتم بعدم انجاب الجاحظ	٣١٢
١٠ - ابن الزيات يتمنى موت الجاحظ	٣١٤
١١ - ذم الغضب	٣١٦
١٢ - علاقة الأسماء بالمعاني	٣١٧
١٣ - أسباب التعادي غير متوافرة بين الجاحظ وابن الزيات	٣٢٠
١٤ - ابن الزيات استضعف الجاحظ فوصفه	٣٢٢
١٥ - ما يصيب الإنسان يصيب صديقه	٣٢٤
١٦ - الجاحظ يستعطف ابن الزيات بشيخوخته وأفضاله	٣٢٥
١٧ - عليك بمن احتاجن اموال الدولة	٣٢٩
 رسالة فصل ما بين العداوة والحسد [٣٥٧ - ٣٣١]	 [٣٥٧ - ٣٣١]
١ - فضل هذا الكتاب	٢٣٣
٢ - حصاد المؤلفين	٢٣٤
٣ - متخلو كتب الجاحظ	٢٣٥
٤ - الطاعون على كتب الجاحظ	٢٣٦
٥ - إبناء النعم محسودون	٢٣٧
٦ - فضل ما بين العداوة والحسد	٢٣٨
٧ - بعض الكتاب يسرقون كتب الجاحظ أو قسماً منها	٢٤٢
٨ - الجاحظ ينحُل كتبه غيره لترويج	٢٤٢

الموضوع

الصفحة

- ٩ - الجاحظ يترك بعض الكتب غفلاً اشقاً من الطعن عليها ٣٤٣
١٠ - عودة الى الحسد والعداوة ٣٤٣
١١ - الكتاب يطلبون من الجاحظ ان يشارطوه في كتبه ٣٥٣

رسالة الى ابي الفرج [٣٦٥ - ٣٥٩]	٣٥٩
١ - المدخل التقليدي ٣٦١	٣٦١
٢ - اسماء من كني يابي عثمان ٣٦١	٣٦١
٣ - وصف حال الجاحظ ٣٦٣	٣٦٣
٤ - الجاحظ يطلب اجراء الرزق عليه ٣٦٤	٣٦٤
٥ - مدح ابي الفرج ٣٦٤	٣٦٤
٦ - الاعتذار عن التقصير في المدح ٣٦٤	٣٦٤

رسالة المودة والخلطة [٣٧٧ - ٣٦٧]	٣٦٧
١ - المدح الخادع ليس من بضاعة الجاحظ ٣٦٩	٣٦٩
٢ - واجبات المداح والممدوح ٣٧٠	٣٧٠
٣ - اصول المدح والطلب ٣٧٢	٣٧٢
٤ - لا خير في صاحب لا يساعد صاحبه ٣٧٤	٣٧٤
٥ - مزايا ابي الفرج ٣٧٦	٣٧٦

رسالة استنجاز الوعد [٣٧٦ - ٣٧٩]	٣٧٦
١ - الجاحظ يسأل ويدفع ٣٨١	٣٨١
٢ - ذم المدح الكاذب ٣٨٢	٣٨٢
٣ - الممدوح يجمع الطرف والتلذيد ٣٨٣	٣٨٣

الموضوع	الصفحة
---------	--------

٤ - والد الممدوح يشبهه	٣٨٤
٥ - الممدوح لا يستحق الشكر الا اذا نعم وانجز ما وعد	٣٨٥
رسالة التربيع والتذوير [٤٤٨-٣٨٧]
١ - التعريف باحمد بن عبد الوهاب وذكر موضوع الرسالة	٣٨٩
٢ - وصف ساحر لجسم احمد بن عبد الوهاب المربع المدور	٣٩١
٣ - مراء احمد بن عبد الوهاب	٣٩٩
٤ - الهزء من كبر سن احمد بن عبد الوهاب	٤٠٠
٥ - استلة على الطوفان	٤٠١
٦ - استلة تاريخية	٤٠٢
٧ - استلة طبيعية	٤٠٤
٨ - استلة على علم الحياة	٤٠٤
٩ - استلة على الآثار القديمة	٤٠٨
١٠ - استلة على الاقاليم والسكان	٤٠٨
١١ - استلة على الاوثان	٤٠٩
١٢ - استلة على الفراسة ومعرفة الغيب والرثى	٤٠٩
١٣ - استلة على معتقدات الشيعة	٤١١
١٤ - استلة على الجن	٤١٢
١٥ - استلة على الكيمياء	٤١٢
١٦ - استلة على الفلسفة	٤١٤
١٧ - مساوىء المزاج	٤١٤
١٨ - طلب العفو على مزاج الجاحظ وسخريته	٣١٦
١٩ - محاسن المزاج	٣١٨

الموضوع

الصفحة

٢٠ - مدح احمد بن عبد الوهاب المعمكوس	٣٢٠
٢٢ - عودة الى قيمة المزاح والجد	٤٢٤
٢٣ - شروط التمثيل وانواع الخطأ	٤٢٩
٢٤ - الامام عند الشيعة	٤٢٩
٢٥ - علة الاستطراد	٤٣٠
٢٦ - استلة على الانبياء والمتبنين	٤٣٠
٢٧ - استلة على الاديان	٤٣١
٢٨ - استلة على العراقة والسحر	٤٣٢
٢٩ - استلة على التذكرة والنسيان	٤٣٣
٣٠ - استلة على الرياضيات	٤٣٤
٣١ - استلة على الموسيقى وبعض الكتب المغربية	٤٣٥
٣٢ - استلة على المعرفة وطرقها	٤٣٧
٣٣ - استلة على المرائي والأبصار	٤٣٨
٣٤ - استلة على الالوان	٤٤٠
٣٥ - استلة على القيافة والظلام	٤٤٠
٣٦ - استلة على نقص الاعضاء الداخلية	٤٤١
٣٧ - استلة على السحر والشيطان	٤٤٢
٣٨ - استلة على بعض عجائب الحيوانات	٤٤٣
٣٩ - الجواب على هذه الاستلة موجود في كتاب الجاحظ	٤٤٤
٤٠ - مجموعة من حكم الفلسفة	٤٤٤
٤١ - فوائد هذا الكتاب	٤٤٥
٤٢ - حاجة العقل الى الشعوذ	٤٤٦

الموضوع

الصفحة

٤٤٧	٤٣ - الخاتمة
[٥٠٧ - ٤٩٨]	فهرس الاعلام
[٥٢٠ - ٥٠٨]	فهرس المحتويات



www.lisanarb.com